جامعة الجزائر
معهد التاريخ



الحزب الدستوري التونسي
(1919 - 1934)

رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر

إعداد الطالب: يوسف مناصرية

إشراف الأستاذ الدكتور: أبو القاسم سعد الله

السنة الجامعية 85 1986



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ان (الحزب الحر الدستوري التونسي 1919–1934) هو الموضوع الذى وقع عليه اختيارنا منذ 3 جانفي 1983 من بين سبعة تصورات لموضوعات مختلفة، لاعداد رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر. وكان انشغالنا قبل ذلك مرتكزا على تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر ايضا . واول موضوع ظهر فيه اهتمامنا هو (الجوسسة الفرنسية والمقاومة الجزائرية في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر.) (1) ولكننا عدلنا عنه واتجهنا الى دراسة تطور الحياة التونسية من خلال نشاط الحزب المذكور .

وعلى الرغم من ان الفكرة الوحدوية المغربية العربية الاسلامية كانت تثير شعورنا ،فان الاهتمام بتاريخ تونس الحديث والمعاصر لم يبدأ الا في نهاية سنة 1982 حين نوقشت رسالة بكلية الآداب جامعة الجزائر موضوعها نشاط الجزائريين في الحركة الوطنية التونسية (2) فكانت حافزا لنا على الاهتمام بهذه الحركة، وقد وقع اختيارنا بالذات على (الحزب الحر الدستوري التونسي) نظرا لفكرته الوحدوية الواضحة . وقدمنا تصورا بذلك الى الاستاذ المشرف، فبارك الموضوع لعدة اسباب اهمها :

1 – احياء تراث امتنا العربية الاسلامية وايقاظ الشعور الوحدوى الذى عمل على بنائه المسلمون الجزائريون والتونسيون معا خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

---

(1) نشرنا بعض فصول هذا العمل في مجلة التاريخ ، عدد 13، (1982) والعدد الخاص بذكرى وفاة الامير عبد القادر، (1983) ، ومجلة سيرتا ، عدد 8–9 (1983) ، ومجلة آمال ، عدد 60 (خاص)، (1984) . ثم جمعنا هذا العمل كله في قسمين تحت عنوان (مهمة ليون روش في المغرب العربي – الجزائر والمغرب الاقصى – تونس وليبيا) وقدمنا القسم الاول الى النشر للمؤسسة الوطنية للكتاب .

(2) اعتقد انها رسالة الاستاذ محمد صالح الجابرى ، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900–1962 ، (الجزائر–ليبيا ،تونس، د ع ك 1983)

2 — جدة الموضوع

3 — تكوين متخصص في تاريخ تونس لفائدة البحث العلمي بجامعة الجزائر

4 — سد حاجة معهد التاريخ بجامعة الجزائر في اختصاص تاريخ المغرب العربي والعالم الاسلامي الحديث والمعاصر •

وقد ازددنا شغفا بالموضوع خاصة لما وجدنا فيه ما يلبي اهتماماتنا بكل ما يتعلق بالدراسات الوحدوية ، وتعلقنا به اكثر لما علمنا بعد القراءة له ، انه لم ينل حظه من الاهتمام مثلما ناله الحزب الدستوري الجديد المنشق عنه سنة 1934 • وعلى الرغم من انه ليس هناك دراسة جادة حول الموضوع فاننا ارتبطنا به اكثر نظرا لتعمد الباحثين الفرنسيين والتونسيين على السواء طمس ايجابيات الحزب الدستوري في الفترة التي تناولناها ، اما تزلفا للبورقيبية او تخوفا منها ، واما بحكم التبعية الثقافية لآراء المؤرخين الفرنسيين الاستعماريين الذين يصفون اعمال الحزب الدستوري بالعقم ورجاله بالبرجوازية التقليدية • والحقيقة ان هذا الحزب كان منذ تأسيسه حزبا وطنيا اعتمد الاصلاح والسلفية خاصة في جهود الثعالبي والقليبي • بالاضافة الى انه صار بعد سنة 1934 ، حزبا مناديا بالاستقلال مع التطرف في مواقفه • وهذا هو سر اختلافه الايديولوجي مع الحزب الدستوري الجديد الذي اصبح في نظر المؤرخين الفرنسيين والتونسيين هو الحزب الوطني الوحيد الممثل لطموحات الشعب التونسي •

ونلاحظ ان كل من ارخ للحزب الدستوري في الفترة التي تناولناها قد اعتمد اعتمادا كليا على المصادر والوثائق الفرنسية ، ولذلك يمتاز عملنا هذا بالاعتماد على الوثائق والمصادر التونسية والاسلامية من جهة والفرنسية (المدنية والعسكرية) من جهة اخرى سواء منها المساندة او المعارضة •

وانطلاقا من هذه الفكرة وضعنا تقديما تحليليا لاهم وثائق البحث وهو الامر الذى سيلاحظه القارئ في آخر هذا العمل في باب المصادر.

ولم تكن معالجة هذا الموضوع بالامر السهل ،فقد واجهته صعوبـات كثيرة يرجع بعضها الى ظروف العمل الذى كنا نمارسه ومهمة التدريس التي نقوم بها . ويعود البعض الاخر الى صعوبة البحث والحصول على مصادره ممـا اورثنا اليأس احيانا حتى كدنا نتوقف في منتصف الطريق . ولسنا نبالغ الـى اذا قلنا اننا لم نكن نطمح الى بلوغ هذه الدرجة لولا تشجيع الاستاذ المشرف واخذه بيد نـا .

وتتمثل الصعوبات ايضا في ضرورة السفر الى دور المحفوظات بفرنسـا وتونس، خاصة ان الوثائق تشكل العمود الفقرى لمادة الموضوع ،كما سيلاحظ ذلك القارئ . فرغم الامكانيات المادية المحدودة ،فقد سافرنا في صيـف 1983 لزيارة ارشيف ما وراء البحار بآكس آن بروفانس، والارشيف الدبلوماسي بوزارة الخارجية الفرنسية والمكتبة الوطنية بباريس. وقد تفاوتت درجة الاستفادة من دور الارشيف نظرا للصعوبة الكبيرة التي واجهتنا في الحصول على الوثائـق من وزارة الخارجية الفرنسية ،ذلك ان مكتبتها كانت تعمل نصف نهار فقـط، ويجرى طلب الوثائق بها اربعة وعشرين ساعة مسبقا بالاضافة الى عدم امتلاكها آلة تصـويـر.

وكان علينا انتظار العطلة الصيفية للسفر الى تونس مرتين الاولى فـي صيف 1984 والثانية في صيف 1985، وقد استفدنا خلالهما كثيرا مـن محفوظات المركز القومي للتوثيق التابع لوزارة الاعلام التونسية . ولم نستفد بنفس الدرجة من محفوظات الوزارة الاولى التونسية التي لم يكن قسم الحركة الوطنيـة التونسية بها مرتبا ولا مبوبـا وليس لمكتبتها آلـة تصـوير.

وتعتبر هذه الوثائق جميعا عماد البحث ، واكثرها لم يسبق الاعتماد عليه من قبل . وقد قمنا بترجمة بعضها من الفرنسية الى العربية ووضعناها في شكل ملاحق ، كما وضعنا ايضا قائمة باسماء المختصرات الواردة في هوامش البحث .

وعلى اية حال فان هذا العمل لا يدعي الكمال ، وانما يتطلب الاستزادة ، وصاحبه مقتنع باستمرارية البحث لاكتشاف وثائق اخرى توضح الجوانب الغامضة وتستكمل الناقصة وتصحح المعلومات الخاطئة وتؤكد الصحيحة . واذا كان له هدف اسمى فهو القاء الضوء على جوانب عديدة من نشاطات الحزب الدستوري في الفترة التي تناولناها ظلت الى ايامنا هذه غير معلومة .

وقد قسمنا هذا العمل الى مدخل وستة فصول . وسيجد القارئ في المدخل (حالة تونس 1881-1918) حديثا عن النشاط السياسي والثقافي الذي قام به التونسيون في هذه الفترة . وهي معلومات ضرورية تناولنا فيها الاصلاحات الثقافية والسياسية التي تزعمها خريجو المعاهد الاوروبية وجامع الزيتونة ، واحتجاجهم على السياسة الاستعمارية وتأسيسهم لحركة الشباب التونسي . وابرزنا جذور الحزب الدستوري وارتباطه بفكرة الجامعة الاسلامية وتفاعله مع الثقافة المعاصرة ، وذلك عكس ما ذهب اليه بعض المؤرخين الفرنسيين خاصة عندما ادعوا بان باعث الحركة الوطنية التونسية هو النهضة الاوروبية والثقافة الفرنسية . وختمنا هذا المدخل بالتعرض الى الحالة الاجتماعية والاقتصادية التي كان عليها الشعب التونسي .

اما الفصل الاول المتعلق ب (تأسيس الحزب في 14 مارس 1920) فقد قسمناه قسمين درسنا في الاول التيارات الديمقراطية والشيوعية والاسلامية التي اثرت على النخبة التونسية المثقفة ودفعتها الى ارسال وفد الى مؤتمر الصلح سنة 1919 للمطالبة بحق تقرير المصير اعتمادا على تصريحات الفرنسيين انفسهم خلال الحرب الاولى ، وعلى مبادئ الرئيس ويلسون ، والمبادئ الشيوعية العامة ، وشرحنا مطالبه البعيدة والقريبة .

ويتعلق القسم الثاني بدراسة نظام الحزب الاداري والمالي والدعائي وانتشاره في الاوساط الجماهيرية وتأسيس الشعب الدستورية وجمع الاموال من الجزائر وتونس. وقد اعتمدنا بالنسبة للنظام الاداري على قانون الحزب الاساسي الذي لم يسبق الاعتماد عليه من قبل .

وكان عنوان الفصل الثاني (قيادة الثعالبي للحزب من خلال مواقفه ومؤلفاته) . وقد تضمن هذا الفصل حياة الثعالبي العلمية والفكرية وآراءه الاصلاحية والسياسية ورحلاته الى بلدان اوربا والعالم العربي والاسلامي من المغرب الاقصى الى اقصى بلاد الهند . وتأثره بفكرة الجامعة الاسلامية وبآراء المصلحين المسلمين الذين عاصروه ومشاركته في تأسيس حركة (الشباب التونسي) ومساهمته في احداث الزلاج سنة 1911 . وتظهر قيادته للحزب بارزة في مؤلفاته ومواقفه وسياسته الوطنية والاسلامية التي اتضحت خاصة في كتابه (تونس الشهيدة) ومقالاته التي كان ينشرها في الصحافة المشرقية والتونسية ، وفي خطبه التي كان يلقيها في نوادي الشام ومصر والحجاز ، وفي دروسه بجامعة آل البيت ببغداد .

وجاء الفصل الثالث تحت عنوان (سياسة الحزب الداخلية /حكومة الباي وسلطة الحماية) وتناولنا فيه موقف الحزب الدستوري من حكومة الباي في عهد محمد الناصر ، ومساندة الحزب له في محنته سنة 1922 حين تنازل عن العرش ، وتشبث الحزب بحكومة الباي لكونها تونسية تتمركز حولها وحدة الشعب ، حتى لما ناصبه الباي محمد الحبيب والباي احمد العداء واظهرا تزلفهما لسلطة الحماية اذ امضى الاول الاصلاحات الفرنسية سنة 1922 ضد الحزب وبارك الثاني انعقاد المؤتمر الافخارستي بتونس سنة 1930 ضده ايضا. وقد بينا الصراع الذي قاده الحزب ضد سلطة الحماية وموقفها هي منه وكيف كان يفرق بينها وبين الحكومة الفرنسية بباريس ويلح على هذه في تغيير نظام الحماية الجائر وتلبية مطالبه الاصلاحية .

وفي الفصل الرابع (سياسة الحزب الداخلية / الاحزاب والجمعيات) جاء تفصيل علاقة الحزب بجمعية عموم العملة التونسيين التي اسسها محمد علي الحامي سنة 1924 ، والجمعيات التي حاول الحزب تكوينها كجمعية الطلبة التونسيين ، وجمعية الشبان التونسيين وجمعية الشبان المسلمين . وفصلنا القول ايضا في علاقة الحزب بالطائفة اليهودية والاستراتيجية التي استعملها معها ، وعلاقته بالاتحاد (الاسلامي-اليهودي) . والى جانب ذلك تناولنا علاقة الحزب بالاحزاب التونسية التي انشقت عنه كالحزب الاصلاحي سنة 1921، والحزب الحر المستقل سنة 1922 ، والحزب الحر الدستوري الجديد سنة 1934 واسباب الخلاف الداخلية والخارجية بينها . وقد اصبح الحزب بعد سنة 1934 يعرف بالحزب الدستوري القديم .

وتعرضنا في الفصل الخامس الى نشاطات الحزب الخارجية وركزنا خاصة على وفوده وبعثاته وممثليه بباريس. ثم تناولنا صدى الحزب في العالم العربي الاسلامي في المغرب والمشرق واقصى بلاد الهند ، والدور الذى لعبه الثعالبي بين سنوات 1923- 1934 في الدعاية لمبادىء حزبه والتعريف باوضاع التونسيين العامة وما كانوا يعانونه من جور النظام الاستعمارى الفرنسي . وذكرنا التعاطف الذى كان يوليه المفكرون العرب والمسلمون امثال شكيب ارسلان والملك ابن سعود للمسلمين التونسيين ، وما كان يبديه هؤلاء من تعاطف مع احداث العالم الاسلامي كمساندتهم لثورة الريف المغربي 1921-1926 ، وسقوط عاصمة الخلافة سنة 1920 ، وتكوينهم لجنة لمساندة الخليفة العثماني سنة 1923 .

وفي الفصل السادس والاخير محاولة لوضع ايديولوجية للحزب الدستوري ، بينا جذورها ووضحنا دعائمها التي كانت تقوم اساسا على فكرة الجامعة الاسلامية والانتماء الى الخلافة العثمانية وضرورة الاصلاح الداخلي الثقافي والسياسي . ولخصنا عناصر ايديولوجية الحزب اولا في الوحدة الوطنية التي

تقوم على وحدة الدين واللغة وحكومة الباي ، وسلطة الحماية كحكم جائر مشتــــرك يجب ازالته ، ووحدة الوطن والارض، وثانيا في الوحدة العربية الاسلامية التي ظهرت على الخصوص بعد سقوط الخلافة العثمانية وظهور الدولة التركية . وهذه الوحـــدة تعتبر في نظر الحزب مكملة للوحدة الوطنية .

وقد ذكرت نتائج البحث في الخاتمة التي جاء فيها على الخصوص ان الحزب الدستوري بين سنوات 1919ـ1934 كان قد ضم عدة اتجاهات متنافرة / اسلامية ، ومعتدلة ، واشتراكية ، وليبرالية . وكان زعماؤه خليطا من خريجي جامع الزيتونـــة التقليديين ، وخريجي الجامعات الاوربية المتحررين ، ومع ان هذه الاتجاهات قـد اثرت على مواقف الحزب ومطالبه الا ان الغلبة كانت للتيار الاسلامي الذي كـان يقوده الثعالبي والقليبي . فحافظ الحزب بذلك على انتمائه العربي واتجاهـــه الاسلامي ، وروحه الوطنية والدفاع عن مقوماتها وتفاعله مع احداث المغرب والمشرق العربي وارتباطه بالخلافة الاسلامية .

واذا كان هذا الموضوع مدينا لاحد فانه مدين بالدرجة الاولى الــــى الاستاذ المشرف الدكتور ابي القاسم سعد الله الذي اولانا اهتماما كبيرا ودفعنا الى العمل والنشر منذ شهر سبتمبر 1980 . وهو لم يمدنا بالتوجيه العلمـــي والمنهجي فحسب وانما كان ايضا يوجهنا الى مظان المادة العلمية ويسعــــى لاحضارها لنا . وعلى الرغم من انشغالاته الكثيرة بالتأليف والتدريس فانه كـان يتابع قراءة فصول البحث بدقة وتعمق حتى اثناء عطله واسفاره .

فالى الاستاذ الجليل اقدم بشكري وامتناني . واني لا املك له وللذيـــن ساعدوني على القيام بهذا العمل في دور الارشيف ، وخاصة المشرفين علـــى محفظات المركز القومي للتوثيق بتونس الا الاخلاص والوفاء ما دام في العمر بقية . والله ولي التوفيق .

الجزائر (حي حيدرة الجامعي)

في 20 ربيع الثاني 1406هـ

الموافق لـفاتح يناير 1986م .

يوسف مناصـرية

المختصرات

أ.و.إ./م.ت.ق./ح.و. تونس :

ارشيف وزارة الاعلام ، مركز التوثيق القومي ، الحركة الوطنية ، تونس.

- A.1er. M. /S.MN.Tunis, C. :
  Archives Premier Ministère, Section Mouvement National, Tunis, Carton.
- A.O.M. / A.E.P. :
  Archives d'Outre Mer, Aix-En-Provence.
- A.M.I.. /CDN / M.N.Tunis; :
  Archives Ministère de l'Information, Centre de Documentation Nationale , Mouvement National, Tunis.
- A.Q.O. / S.T. 1917-40 :
  Archives Quai d'Orsay, Série Tunisie 1917-1940 .
- M.E.S.R.S./ H.M.N./C.S.H.T.F../C.N.D.S.T./ :
  Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique, Histoire du Mouvement National, Commission des Sources d'Histoire Tunisienne France, Centre National Universitaire de Documentation Scientifique et Technique.

المدخل

حالة تونس ما بين 1881-1918

1. الحالة السياسية والثقافية

2. الناحية الاقتصادية والاجتماعية

تعود اصول الحركة الوطنية التونسية الى ما قبل الاحتلال الفرنسي لتونس سنة 1881 ، وذلك حين حاولت النخبة المستنيرة اقامة دستور [1] يضع مصدر السلطة في يد الشعب ، ويرد على اغراءات الفرنسيين للباى بالانفصال عن الدولة العثمانية . وقد تنبه رجال الحركة الاوائل وعلى رأسهم خير الدين [2] الى نوايا الاستعمار الرامية الى اضعاف المملكة وابتلاعها مثلما كان الحال مع الجزائر !.

---

(1) صدر هذا الدستور في عهد محمد باى الثاني (1855-1859) وسمي بقانون عهد الامان . وجاء محمد الصادق باى (1859-1882) عاقدا النية على الاصلاح ، فوضع الدستور موضع التنفيذ ولكنه وقع فريسة اهواء وزيره مصطفى خزندار (1840-1873) من جهة وضغوط الفرنسيين والانكليز من جهة اخرى وتدخلت فرنسا وطلبت منه في صور من التهديد تعطيل الحكم النيابي الذى كانت قد الحت على قيامه من قبل . انظر / يونس درمونة ، تونس بين الاتجاهات ، (دار الكتاب العربي بمصر ، 1953) ، ص 36-38 . وكذلك / علال الفاسي ، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ، (تطوان ، الطباعة المغربية ، بدون تاريخ) ، ص 35-39 .

(2) خير الدين (1822-1889) من كبار رواد النهضة الاسلامية بتونس استفاد من التقدم العلمي باوروبا وتأثر خاصة بافكار الثورة الفرنسية وآراء المصلحين العثمانيين وادرك امراض المجتمع الاسلامي . عين وزيرا للبحر في عهد محمد باى الثاني ، فاجرى اصلاحات داخل الدولة منها تخفيض عدد الجند تخفيفا للنفقات . ولما عزل مصطفى خزندار عن الوزارة الكبرى وليها خير الدين (1873-1877) وادخل العديد من الاصلاحات على اجهزة الدولة منها تأسيس المدرسة الصادقية وتنظيم التعليم الزيتوني وتشجيع الطباعة والنشر . واضطر الى الاعتزال تحت تأثير خصومه من التونسيين ، وذهب سنة 1878 الى الآستانة حيث اصبح رئيسا للوزراء في الدولة العثمانية . ومن مؤلفاته (اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك) . انظر / نقولا ، زيادة ، تونس في عهد الحماية 1881-1934 ، (معهد الدراسات العربية العالية ، 1963) ، ص 33-51

وقد ركز زعماء الاصلاح الاوائل على ابقاء الانتماء الى الخلافة واقامة نظام دستوري يمكن الشعب التونسي من تقييد الباي ومراقبة تصرفاته وحراسة البـــلاد وحفظها من دسائس الاستعمار.

كما اهتموا بتطور اساليب العلم والمعرفة ، ووجدوا في شخص محمـــد الصادق باي خير معين ، فاسسوا المدرسة الصادقية في 13 جانفي 1875 ، وتشكلت لجنة لاعداد قانونها الاساسي تحت اشراف الوزير خير الدين بمعاضدة علماء الزيتونة . واهتمت هذه المدرسة ، بالاضافة الى العلوم العربية والدينيـة ، بتعليم اللغات الاجنبية كالفرنسية والايطالية والعلوم التكنولوجية وذلك بهـدف تكوين اطارات تقوم بتسيير شؤون الادارة والمدارس العربية .

وكانت هذه المبادرة تعكس فكر الوزير خير الدين الذي تأثر بحركـــة الاصلاح في الآستانة على يد المصلحين العثمانيين في عهد الخليفة عبد المجيد الاول امثال رشيد عالي باشا وافكار مدحت باشا الدستورية . ولعله كان قد تأثر بحركة محمد علي في مصر خاصة قضية ارسال البعثات الطلابية الى المعاهـــد الفرنسيـــة (3) .

غـير ان هذه المدرسة قد واجهت صعابا كثيرة وقفت مانعا امام فكرة الاصلاح وتكوين جيل قادر على مواجهة الغزو الغربي . اهمها تخوف الشعــب من المسخ الحضاري من جانب، ومن مكائد الوزراء ووقوع الباي لعبة في ايديهـم مـن جـانب آخـــر.

ومع ذلك فقد استمرت المدرسة الصادقية في تخريج جيل جديد حتــى انتصاب الحماية الفرنسية على تونس ، فحددت (اي الحماية) نشاط المدرســة وحولتها الى تكوين موظفين لادارتها الجديدة .

---

(3) سافرت اول بعثة تونسية الى المعاهد العليا الفرنسية والانكليزية سنــة 1880 تحت رعاية وتوجيه محمد البشير صفر . ومن تلامذتها علي بوشوشة وعلــي باش حامبة . انظر / البشير ، ابن الحاج عثمان الشريف ، اضواء على تاريخ تونس الحديث 1881ـــ1924 ، (تونس ، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، 1981) ، ص 84 .

2 ـ الحالة السياسية والثقافية :

فرضت الحماية الفرنسية على تونس بمقتضى معاهدة باردو في 12 ماي 1881 (4) .
وقد وقعها الباي محمد الصادق بينما كانت الجيوش الفرنسية تحاصر قصره (السعيد)
وتنص هذه المعاهدة على " ان الاحتلال الفرنسي لتونس انما هو احتلال مؤقت
يزول متى اتفقت السلطتان العسكريتان الفرنسية والتونسية على ان الامن قد استتب
في البلاد " (5) .

ويقول شارل اندري جوليان " ان سكان البلاد علاوة على ما احسوا في
اعماق انفسهم من عنيف التغيرات سرعان ما ادركوا انهم في قبضة سلطة منظمة وانه
اصبح من المتعذر عليهم التمرد ... كما دأبوا على ذلك عندما كانت الايالة
مستقلة " (6) . والواقع ان الشعب التونسي لم يعترف بهذا التوقيع وانكره في
ثوراته المتعددة خاصة في جنوب البلاد التي لم تفلح القوات الفرنسية في القضاء
عليها الا في سنة 1883 . وفر بعض زعمائها الى القطر الليبي وواصلوا الجهاد
هناك . ولعل هذا ما ينفي رأى جوليان من ان المسلمين التونسيين قد شعروا
بقوة السلطة الفرنسية وتنظيمها فاستكانوا .

---

(4) تتفق كلمة الحماية مع عبارة الفرنسي الشهير قمبيطة " لا جلاء ولا الحاق "
ويقول احمد قصاب في كتابه (تاريخ تونس المعاصر) ان الرأى العام الفرنسي في
هذه الفترة لم يكن متحمسا لايجاد مستعمرات، وهو ما دفع فرنسا الى الاستيلاء على
تونس دون احداث اى حركة مضادة لا من ناحية الاتجاه المعارض في الداخل ولا
من ناحية الرأى العام العالمي في الخارج، مما جعلها تعتمد تسيير وتنظيم ادارة
اقتصادية وسياسية بدون اللجوء الى طلب الاعانة المادية من حكومة باريس. وهذا
ما يفسر اعترافها ببقاء سلطة الباي على تونس ورفع رايته عليها والتمتع بالتمثيل
الدبلوماسي في الخارج . انظر: Ahmed, Kassab, Histoire de la Tunisie, l'époque contemporaine, Tunis, STD, 1976, p.5-7

(5) تخول هذه المعاهدة لفرنسا مراقبة الباي والاشراف على تنفيذ بنودها عن
طريق وجود ممثل لها بتونس، وهو المقيم العام ، يساعده مراقبون مدنيون في انحاء
المملكة ينوبون عن المقيم في مراقبة نواب الباي في تنفيذ فصول المعاهدة . انظر /
درمونة ، ص 26ـ28 .

(6) ش. ا جوليان ، المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي ، تعريب محمد مزالي
والبشير بن سلامة ، (تونس، ش ت ت ، بدون تاريخ) ، ص 11ـ15 .

وكان محمد العربي زروق ، اثناء ادارته لمدرسة الصادقية ، يقاوم النفوذ الفرنسي بكل ما يملك من براعة في حث الباي ووزرائه على اعلان الحرب ضد الفرنسيين ، ورفض معاهدة باردو . ولما انتابه الفشل ولم يجد اذنا صاغية لدعوته ، هاجر يائسا الى المشرق العربي وزار الآستانة ومنها قصد المدينة المنورة حيث توفي سنة 1902 . (7)

وهكذا فان القضية التونسية كانت قد طرحت منذ بداية التوقيع على معاهدة باردو واتفاقية المرسى (1883) . ولكن الحكومة الفرنسية لم تول اهتماما لذلك بل عملت فقط على تدعيم اركان الحماية وتعميق جذورها . فحولت النظام التونسي شبه الدستوري الى نظام تيوقراطي (8) دخلت البلاد بمقتضاه تحت سلطة نظام مطلق خال من جميع القوانين التي يمكن ان تحدد واجبات الشعب وحقوقه المشروعة تجاه الحكومة القائمة . واصبحت هذه القوانين تصاغ في مكاتب مصالح حكومة الحماية

---

(7) كان محمد العربي زروق (1832-1902) مديرا للمدرسة الصادقية ورئيسا لبلدية تونس، هاجر خوفا من بطش الوزير مصطفى بن اسماعيل (1878-1882) . وقد سبقه الى الهجرة مصلحون تونسيون منهم خير الدين سنة 1878 الى دار الخلافة العثمانية ، ومحمد بيرم الخامس (1839-1889) سنة 1879 . انظر / ابن الحاج عثمان الشريف، ص47 .

(8) كان للباي حكم صوري فقط حيث ان الحكم الحقيقي صار في يد هياكل الحماية الفرنسية يقودها مقيم عام ، بمثابة وزير لفرنسا بتونس تابع لوزارة الخارجية والبرلمان الفرنسي . وقد استولت فرنسا على السلطة التشريعية بمقتضى مرسوم مؤرخ في 14 اكتوبر 1884 خولت فيه للمقيم العام مراقبة الاوامر والمراسيم العلية ، وانه لا مفعول لها الا بامضائه . ثم صارت التشريعات تحضر في ديوانه وتقدم الى الباي لوضع خاتمه عليها دون سابق اطلاع، فاصبح المقيم بعد ذلك يتحكم في السلطتين التشريعية والتنفيذية يستمد فيها آراءه من المجلس الشوري الذي كان يشارك فيه فرنسيون منتخبون ، ثم اصبح مع الزمن مفتوحا لبعض التونسيين الذين يعينهم المقيم العام (38 فرنسيا و 15 تونسيا) .

اما مناطق الجنوب فقد كانت تحت الحكم العسكري المباشر بواسطة ضباط فرنسيين تابعين لقائد جيش الاحتلال والمقيم العام مباشرة . انظر / درمونة ، ص30-31 وكذلك / Rodd Balek, "La Tunisie après la guerre", <u>Afrique française</u>, N°7-8, 30 année, (Juillet-Aout, 1920), p.226.

المختلفة ، ويوقع عليها الباى دون سند قانوني (9)

والواقع ان سلطة الحماية قد جردت الباى من جميع صلاحياته التشريعية والتنفيذية وذلك بتأويلها نصوص المعاهدات طبقا لاوامر لاحقة يتخذها المقيم العام الفرنسي بتونس . فصار الباى يوقع على الاوامر دون ان يستشار حتى في صياغتها .

وفي 2 افريل 1885 صدر قانون المجلس البلدى بمقتضى امر علي ، بجريدة الرائد التونسي (10)، وكان يتعلق بدفن الاموات واستخلاص متأخرات الاملاك وتغيير اسعار ماء زغوان وسلب حقوق مالكيه .

واجتمع الاعيان التونسيون وعلى رأسهم الشيخ حسونة ابن القاضي رئيس جمعية الاوقاف ، والشيخ محمد بن عاشور ، شيخ الطريقة التيجانية ، والشيخ عثمان كشك وكيل جامع الزيتونة ومحرر العريضة ، وسالم بن ميلاد امين التجارة ، وحسونة الاخوة امين العطارين وغيرهم من رجال الفكر والعلم والتجارة والدين ، وقدموا عريضة الى الباى علي (1882—1902) عرضوا عليه باسم جميع التونسيين الاضرار التي الحقت بتجارتهم من جراء تغيير رسم الجمارك وتخصيص القلم الفرنسي بها ، وعزل الموظفين من اهل البلاد وتعويضهم بالاجانب (11) وتضمنت العريضة ستة بنود دافعت على املاك المجلس البلدى ووجوب تفويضه مسائل التونسيين لانه اعلم بها من غيره . وطالبت باحترام الشرع الاسلامي في قضية دفن الاموات ، وانكرت العقوبات التي سلطت على من يعجل الدفن بقولها "فهل احكامنا

---

(9) انظر / A.Q.O./S.T.1917-40, N°37 , Lettre du Président du Conseil au Délégué Résident De Castillon, Paris, 24/8/1920 annexes.

(10) ظهرت الصحافة العربية بتونس اول مرة سنة 1860 . وكانت جريدة (الرائد التونسي) هي اول جريدة ظهرت اسبوعية في شهر جويلية في نطاق حكومي . وكانت تهتم خصوصا بنشر الاخبار السياسية عن البلاد العثمانية ، واهتمت بالادب والفكر . وتنشر في القسم العربي منها اوامر وقرارات الحكومة . ولما اصبحت تونس بالحماية الفرنسية ، اقتصرت الجريدة على نشر اوامر الحكومة ومقرراتها والمسائل الشرعية وكل ما يهم حكومة الحماية . وقد انشئت على غرار جريدتي (الوقائع المصرية) في وادي النيل ، و(المبشر) في الجزائر . انظر / عمر بن قفصية ، اضواء على تاريخ الصحافة التونسية 1860—1970 ، (تونس ، دار ابو سلامة للطباعة والنشر ، 1972) ، ص 6 .

(11) استقدمت حكومة الحماية تراجم عربا من لبنان يحسنون اللغتين العربية والفرنسية واستخدمتهم في ادارتها بتونس . ومنهم نعمان الخوري الذي كان مترجما للوزارة الكبرى .

الدينية صارت توجب علينا العقوبة ؟ " ، ثم رفضت تدخل السياسة في الشؤون الدينية [12].
ونلاحظ هنا استبداد سلطة الحماية بالشريعة الاسلامية مما ادى بها الى التدخل في جزئياتها وقلعها من جذورها . وقد جاء هذا الرد من الاعيان التونسيين بطريقة منطقية مبنية على اسس قانونية مدعمة بالحجج الدامغة التي تدل على سعة ثقافة وعلم محرري العريضة . وربما كانت مطالبتهم بفصل الدين عن الدولة تعتبر دليلا على اتساع ثقافتهم الاسلامية والاوروبية ، وهو مبدأ كان قد نادى به التيار الليبرالي بعد الثورة الفرنسية .

وركز (محررا العريضة) ايضا على احترام المقابر الاسلامية مثل مقبرة الزلاج [13] ومقبرة الفرياني اللتين تعرضتا الى نبش قبور اشراف الامة من طرف عمال افران الجير ، واستعمال احجارها في المباني وغيرها .

ورفضوا تعيين حكم للبغيات يجريه المجلس البلدى في بلاد تونس الاسلامية ، لان ذلك يعتبر اعترافا به وهو امر ينكره صريح الشرع الاسلامي . واحتجوا اخيرا على قرارات جمعية ماء زغوان وتغيير اسعار المقادير المملوكة واعتبروا ذلك عين التعدى على ملكية الاشخاص ، ولئن كان للجمعية الحق في تقدير الماء لمن لا يملكه بعد ، فانها لا تملك اية سلطة على الذين ملكوا مقاديره قبل تأسيسها .

وكان الباى علي قد استقبل الوفد التونسي وسمع منه سرد المطالب ووعده بتحقيقها . ثم ان الاعضاء ، اخذا للحيطة ، اجتمعوا ووجهوا مكتوبا الى الوزير الاكبر ، محمد العزيز بوعتور [14] ، فصلوا له فيه جميع مجريات الامور .

---

(12) محمد بن عثمان ، السنوسي ، خلاصة النازلة التونسية ، تقديم وتحقيق محمد الصادق بسيس ، (تونس ، الدار التونسية للنشر ، 1976) ، ص 75–85 .

(13) الزلاج ، هو الشيخ محمد بن عمر الزلاج من صوفية تونس ، وصاحب المقبرة ودفينها . ولد بتونس وتربى بالمنستير واحترف الزليج بمدينة تونس . ولا زال قبره معروفا وعليه قبة بمقبرة الزلاج . توفي سنة 601هـ .

(14) عاش بين (1814–1907) ، درس العلوم بجامع الزيتونة ، وتولى وزارة المال والاستشارة في عهد محمد الصادق باى ، والوزارة الكبرى في عهد اخيه علي باى واستمر وزيرا الى عهد الناصر باى . انظر / السنوسي ، ص 83–92 .

وقد جاءت هذه المطالب ردا على صدور الأمر العلي الخاص بقانون المجلس البلدى الذى طعن السيادة التونسية في صميمها وكان يهدف الى مسخ شخصيتها العربية الاسلامية دينيا واجتماعيا واخلاقيا بحيث تنتشر المظالم ويكثر التعدى وتسوء الاخلاق وتفقد روح المقاومة والغيرة على الدين والوطن • وليس هناك شك من أن هذا القانون كان من املاء السيد بون كامبون المقيم العام آنئذ ، الذى لم يكد يسمع باستقبال الباى للمحتجين حتى سارع اليه واعترض على استقباله واحتج بشدة ،الشيء الذى أخاف الباى واضطره الى تعليل موقفه •

وكان رد فعل شركة ماء زغوان شديدا على التونسيين مما دفعهم الى تقديم الشكوى ثانية ،واضطربت أحوالهم ، ولكنهم أجمعوا على عدم مخاطبة السفارة الفرنسية في ذلك وابقاء الامر بين ايدى الباى .وعملوا على الحذر من دخول الاجانب بينهم خاصة منهم الايطاليين لانهم كانوا يعلمون النزاع القائم بين الفرنسيين والايطاليين على امتلاك القطر التونسي (15) .

وأتت النازلة الاولى بعيدة عن المسائل السياسية ولم تنتقد سياسة الحماية الفرنسية الادارية والعسكرية والمالية والقضائية • ولم يلتفت أصحابها الى قضية ادماج الجيش التونسي في الجيش الفرنسي واحداث المراقبين الاداريين ورجال الشرطة ،وذلك رغم اغراءات التجار الايطاليين في قرض الدولة مقدار دينها من المال •

فكان احترام التونسيين للحماية ظاهرا سواء كان عن صدق اوعن تقية • ولكنهم كانوا يجهرون بالضر الذى مسهم في صميم شخصيتهم الدينية والوطنية • وهو ما يفسر تقبلهم للحماية عن مضض يمليه عليهم ضعفهم المادى !

وكان لهذه العريضة نتائج ايجابية وأخرى سلبية تمثلت الاولى في رجوع احكام الأموات ودفنهم على الوجه الشرعي الاسلامي بموجب صدور أوامر الباى بضبط قانون المجلس البلدى على الوجه الذى قدمته العريضة تقريبا •

أما الثانية فتمثلت في صدور قرار عن سلطة الحماية يقضي بعقاب أعضاء الوفد البارزين بالعزل والنفي والسجن • فعزل الشيخ الحاج احمد الورتتاني من التدريس

---

(15) السنوسي ، ص102-103 •

وجميع مهامه ،والشيخ الصادق الشاهد من التدريس والتعليم في المدرسة الصادقية ، والشيخ محمد السنوسي من كتابة جمعية الاوقاف ، وعمت عملية العزل هذه كلا من رجال العدالة ، ووكالة أوقاف المساجد وجوامع المالكية وامانة العطارين والسراجين . وعينت حكومة الحماية في مكانهم رجالا مخلصين لها لا يقولون الا بقولها .

وهذا تصرف لا يحتاج الى تفسير اذا ما قيس بأوامر الباى المذكورة ،ذلك ان هذا القمع والزجر هو نوع من الترهيب لادخال الرعب في قلوب الجميع واعطاء درس لكل من تسول له نفسه النطق والاحتجاج مرة ثانية .

وقد سخطت الطائفة اليهودية على ما ناله المسلمون بمقتضى أوامر الباى ، فأغلقت جميع أماكن تجارتها وامتنعت عن المعاملة ،وتجمعت في مظاهرات . فوقعت اشتباكات بينها وبين رجال شرطة الحماية خاصة لما هجمت الطائفة اليهودية على المجلس البلدى وألحقت به أضرارا مادية نتج عنها قتل أحد اليهود رميا بالرصاص .

فتدخلت سلطة الحماية واستدعت بعض أعيان اليهود وسوت المسألة سلميا . ويتضح الفرق هنا بين معاملتها لليهود المعبرين عن سخطهم بالعنف، وموقفها من المسلمين المقاومين بالعرائض وهو أضعف الايمان . وذلك لشيء واحد وهو لأن الأوائل (اليهود) قاموا ضد المسلمين ،أما الآخرون فقد ثاروا ضد الحماية !

ثم أصدرت الحكومة الفرنسية بباريس وتونس عفوها على المعزولين والمنفيين ، بمناسبة عيد الجمهورية في 14 جويلية 1885 . واعادتهم الى وظائفهم بعد أن قدموا الاعتذارات كتابيا الى الباى ،ولم يستفد الشيخ الورتتاني من هذا العفو ،لأنه لم يقدم اعتذاره (16) .

والظاهر ان رجال هذه النازلة قد تأثروا بالآراء الاصلاحية الاسلامية التي كان يقودها جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ،وخاصة منهم احمد الورتتاني (1828 — 1885) الذى كانت تربطه صلة وثيقة بالوزير خير الدين واصلاحاته المتعلقة بالأوقاف وتوجيه الحياة الاجتماعية الاسلامية . وكانت قد اسندت اليه رئاسة الاوقاف بعد هجرة

---

(16) نفس المصدر ، ص 161—175 . وص 308— 309، 315—325 .

خير الدين ومحمد بيرم الخامس فأداروها على أحسن وجه .

والرجل الثاني هو محمد السنوسي (1849ـ1900) الذى تأثر هو الآخر بآراء الافغاني وعبده لا سيما عند زيارته للآستانة والمشرق العربي والحجاز سنة 1882 ، وصار من أعضاء جمعية (العروة الوثقى) .

ويشترك الرجلان (الورتتاني والسنوسي) في تأثرهما بزيارة محمد عبده لتونس سنة 1884 ، ولعلهما استمدا منها روح المقاومة والاحتجاج بالحجة الدامغة (17) .

ومهما يكن من أمر فان لهذه الحركة صداها القوى في الصحف الاجنبية والاسلامية حتى ان (الافغاني وعبده) شيخا النهضة الاسلامية قد رفعا خبرها الى الصحف الاوروبية وأوصلاها الى البرلمان الفرنسي ، وراسلا بذلك الشيخ محمد السنوسي .

ولم تمر سنتان على اخماد حركة الاعيان سنة 1885 حتى ظهرت دعوة اصلاحية جادة تزعمها الشيخ محمد المكي ابن عزوز (18) ، حث فيها على العودة الى مقاومة

---

(17) زار الشيخ محمد عبده تونس للمرة الأولى سنة 1884 ، من 6 ديسمبر الى 5 جانفي 1885 ، اتصل اثناءها بالعائلة المالكة وكبار العلماء ، وحضر دروس جامع الزيتونة واجتمع برجال الحركة الاصلاحية ومنهم البشير صفر . أنظر :
ـ محمد مواعدة ، محمد الخضر حسين حياته وآثاره ، (تونس ، الدار التونسية للنشر ، 1974) ، ص 51ـ52 .

(18) محمد المكي ابن عزوز (1852ـ 1916) علم من أعلام العلم والأدب والمعرفة . ينحدر أصله من بيت جزائرى من نواحي برج بوعريريج عريق في الديانة والفضل والهداية والاصلاح . وكان والده مصطفى أول من استقر من عائلة ابن عزوز بالبلاد التونسية ، وهو صاحب زاوية نفطة الشهيرة حيث ولد الشيخ المكي تحت رعاية ابيه العلمية والتربوية ، وأخذ العلم على علماء الجريد أمثال عمه الشيخ محمد المدني ابن عزوز ، والشيخ النورى بن بلقاسم النفطي . ثم ارتحل الى تونس واخذ بجامع الزيتونة على شيخ الاسلام محمد الشاذلي ابن صالح ، واحمد ابن الخوجة وسالم بوحاجب ، ومحمد النجار . واشتهر بالتفوق في الفنون الادبية والبراعة في العلوم الرياضية .

وتوفي بالآستانة مخلفا مجموعة من التآليف والرسائل . أنظر :
ـ محمد الفاضل ابن عاشور ، تراجم الاعلام ، (تونس ، د . ت . ن . ، 1970) ، ص 183ـ193 .

الجمود والتخلف .

وقد اشترك هذا الشيخ في اصلاحات خير الدين على عهد محمد الصادق باى اذ كان يشغل منصب خطة الفتيا بنفطة ولكنه سرعان ما اعتزلها اختيارا سنة 1880 ، وعاد الى التدريس الحر بجامع الزيتونة . وكان قد زار الجزائر (حوالي 1880) واطلع على أحوال المسلمين بها واتصل بعلمائها وأخذ عليهم وخاصة منهم الشيخ محمد ابن ابي القاسم ، صاحب زاوية الهامل (قرب بوسعادة). ولعله كان غائبا من تونس عند حدوث النازلة ، فبعث بقصيدة شعرية شد فيها أزر السنوسي في منفاه في غيرة وطنية ثابتة (19) .

وقد زاده اطلاعه على ضنك وضر المسلمين بالجزائر وتونس تمسكا بمبدإ الاصلاح أثر به في طلبة الزيتونة وشيوخها مما أدى بعد ذلك الى تأسيس مدارس عصرية كالخلدونية على نحو ما كانت عليه الصادقية من قبل .

ولم يكن الشيخ المكي منتميا الى البلاط الملكي ولم يتقلد منصبا رسميا من مناصب التدريس ، فهاجر الى الآستانة سنة 1905 وعين مدرسا للحديث الشريف بدار الفنون ومدرسة الواعظين . ونال شهرة واسعة بين رجال العلم والمعرفة المسلمين والعرب .

وقد ذكرناه هنا لأن حركته سبقت بسنة واحدة حركة هامة غيرت وجه تونس الحضارى والعلمي ، اذ اقترنت بانشاء جريدة (الحاضرة) سنة 1888 وبتأسيس الجمعية الخلدونية سنة 1896 على يد شيوخ وطلاب الزيتونة والصادقية معا .

ففي سنة 1888 تأسست جريدة الحاضرة على يد نخبة من شيوخ الزيتونة وعدد من خريجي المعاهد الفرنسية والانكليزية العليا مبعوثي المدرسة الصادقية سابقا . وكانت هذه الجريدة ذات نزعة اسلامية قومية ظاهرة عملت على نشر الفكر القومي ، وتأثرت خاصة بأفكار الجامعة الاسلامية ، واعتنت بالاخبار والادبيات والدراسات التاريخية وقضايا التعليم والاقتصاد . واسندت رئاسة تحريرها الى السيد علي بوشوشة (20) ، فجمع حوله نخبة من

---

(19) طالع نص القصيدة في السنوسي ، ص 248-249 .

(20) عاش بين (1859-1917) وينتسب الى أسرة كبيرة من أصل جزائرى كانت مقيمة بمدينة بنزرت . كان من خريجي الزيتونة والصادقية ، قضى ثلاث سنوات بمعاهد انكلترا العليا وعاد منها سنة 1881 وصار من خيرة الموظفين بالكتابة العامة للحكومة التونسية . **زار** الآستانة وتأثر بعلمائها . انظر :
- ابن قسفصية ، ص 55 .

المثقفين الاقوياء الذين اهتموا في مقالاتهم بنشر الفكر الاسلامي في أرجاء القطر التونسي والدعوة الى اعادة العمل بالدستور.

والظاهر أن جريدة الحاضرة تأسست على غرار الجرائد المصرية متأثرة بآراء محمد عبده ، ومحمد فريد عند زيارتهما الاولى لتونس من جهة ، وبآراء البشير صفر التجديدية الناهضة من جهة أخرى . وكان قد أعجب بحركة النهضة المصرية عند زيارته للقاهرة وتعرفه على مصطفى كامل بفرنسا . ومن رواد هذه الجريدة البارعين ايضا نذكر البشير صفر والشيخ سالم بوحاجب ، ومحمد النوري ، ومحمد الاصرم وغيرهم (21).

وقد استمرت الحاضرة في الصدور حتى سنة 1910 واستقبلها التونسيون بنفوس متعطشة للعلم والمعرفة ، خاصة بانها كانت اول جريدة عربية حرة تصدر بالقطر التونسي. ومن أهم دعواتها الموجهة الى الطلبة وأوليائهم ، ما كان يكتبه رئيس تحريرها من تحريض الطلبة على الدراسة وتشجيع ذويهم على ارسالهم الى الخارج لتلقي العلوم والمعارف العصرية .

ولم تكن حكومة الحماية لتقف موقف المتفرج على نشر الثقافة الاسلامية بأسلوب جديد . فأصدرت سنة 1897 أوامرها الوزارية التي فرضت بها دفع ضمان مالي قدره ستة آلاف فرنك فرنسي قدم على كل جريدة عربية . فاحتجبت جميعها عن الصدور وعلى رأسها جريدة (سبيل الرشاد) للثعالبي ، وبقيت منها فقط جريدة الحاضرة التي دفع مشرفوها الضمان المالي المطلوب (22).

وواصلت الحاضرة اهتمامها بمسائل المغرب العربي الكبير حيث كتب البشير صفر عدة مقالات دافع فيها عن استقلال المغرب ضد الدسائس الفرنسية سنة 1904 . ويذكر علال الفاسي ان الحاضرة كانت تربطها علاقة بالحركة الدستورية المراكشية (23).

وقد أدت بعض الجرائد العربية الاخرى رسالة حضارية الى جانب جريدة الحاضرة .

---

(21) ابن الحاج عثمان ، ص 70.

(22) ابن قفصية ، ص 9 ، وكذلك : A.O.M./A.E.P. 26H1, Secrétariat Général du Gouvernement Tunisien, Service de la Presse Musulmane, Revue Trimestrielle, mai 1935, Tayeb Ben Aïssa, "Coup d'oeil sur la presse Tunisienne", El-Ouazir, du 23 mai 1935.

(23) الفاسي ، ص 42-43 .

وكانت تقريبا كلها في خدمة الفكر الاسلامي والاصلاح الديني والنهضة العربية والعلمية ·
ونشير هنا الى جريدة (الزهرة) الاسبوعية التي أسسها عبد الرحمن الصنادلي سنة 1890 ·
وقد تكون هذا الصحفي الشهير بمصر وتأثر برجالها وأخذ عنهم ،فركز اهتمام جريدته على
الأخبار الوطنية ونقد الادارة الفرنسية حتى سنة 1897 حيث منعتها هذه الأخيرة من
الصدور ·

ومن الجرائد الاسلامية التي دافعت بشدة وتحمس على الخلافة العثمانية هناك
جريدة (الصواب) لمحمد الجعايبي التي اسسها سنة 1904 ،وجريدة (البصيرة) التي
أسسها أحد السوريين الاستاذ نجيب ملحمة سنة 1893 ،مما يدل على تماسك المسلمين
وتعاضدهم ·

أما الجرائد التي نالت رواجا في الميدان الثقافي والاصلاحي والادبي فنذكر منها
جريدة (ترويج النفوس) التي زودت المسلمين بأخبار العالم ،لصاحبها عزوز بن احمد
الخياري ،وجريدة (المعارف) لمؤسسها الصادق الحمودى ،و(العدلية) التي مثلت
نزعة الشباب التونسي في الميدان الادبي ،لصاحبها الهادى بن احمد عباس ، يشاركه في
تحريرها الشيخ الثعالبي بمقالاته الشهيرة وقلمه النابه ،وجريدة (الاسلام) الاجتماعية
الاصلاحية الدينية لمديرها محمد الهاشمي بن عثمان المكي (24) .

ولما كان التعليم بجامع الزيتونة يوجه الطالب وجهة يطلق فيها العنان لنفسه ،
وينقطع للتفاني في تحصيل علوم الدين ولا يلتفت الى العلوم الاخرى المحيطة به في
العالم ،فان النخبة التونسية وعلى رأسها البشير صفر ،قد عمدت الى تأسيس الجمعية
الخلدونية سنة 1896 وجعلت برامجها مكملة لما كان يدرس بجامع الزيتونة · واعتمدت
على تعليم التاريخ والجغرافية والاقتصاد السياسي والفيزياء والكيمياء وعلم الادارة
والرياضيات واللغة الفرنسية ·

ويذكر بعضهم ان تأسيسها كان باشارة من البشير صفر الذى تأثر بما رآه في مصر ،
ولذلك جاءت الجمعية الخلدونية تابعة لجامع الزيتونة ومكملة له مثل ما كان الأمر
بالنسبة للمدارس المصرية العصرية التابعة للازهر ·

وكانت هذه الجمعية ترمي الى ربط تونس بالعالم الاسلامي ارتباطا وثيقا ،وتزويد

---

(24) للتوسع طالع ابن قفصية (أضواء على تاريخ الصحافة) ،وانظر كذلك :
A.O.M./A.E.P. 26H1, Op. cit.

المسلمين بالعلوم العصرية . وقد اختلط فيها خريجو المعاهد الاوروبية المصريين بعلماء الزيتونة الدينيين . وعمت الفائدة بذلك جميع التونسيين والجزائريين المترددين على الزيتونة والخلدونية .

أما هدفها السامي فكان اثبات قدرة الدول الاسلامية على الخروج من التخلف وتلقي العلوم العصرية على يد ابنائها دون اللجوء الى وصاية أجنبية . وهو ما أدى بالعقيد بارون الى القول ، وهو يتحدث عن تأثر التونسيين بالجامعة الاسلامية : ((ان هذا الاعتقاد الجماعي ، الذي كان في نفس الطبقة المسيرة المتعلقة في المدارس الفرنسية يقوم على مفهوم ان المسلمين قد استفادوا بما فيه الكفاية من دروس دولة الحماية ، وقد تحصلوا على تجربة وقدرة يخولان لهم ضمان تسيير شؤون بلادهم بمفردهم .)) (25)

وقد أراد التونسيون بذلك فعلا اثبات ما ذهب اليه الشيخ محمد عبده وصحبه من أن الاسلام لم يكن أبدا حضارة جمود وتخلف اجتماعي ، بل هو عامل نهضة وتقدم ووسيلة رائعة توصل صاحبها الى أعلى درجات الحضارة والرقي .

ويختلف وضع تونس الثقافي على وضع اختها الجزائر ، اذ أن الفرنسيين ، رغم انهم حرموا تونس من الاستفادة من الصحف والمنشورات العربية والاسلامية الصادرة بالمشرق ، لم يفلحوا في ذلك بنفس الدرجة التي افلحوا بها في الجزائر . فبالاضافة الى قيمة جامع الزيتونة الاعظم العلمية ، فان التونسيين لم ينقطع مددهم من الشرق . فكانوا على اتصال دائم بمنشوراته خاصة منها الاصلاحية مثل مجلة المنار لرشيد رضا (26) .

وانتخب أول رئيس للجمعية الخلدونية الاميرلاى محمد القروى تساعده نخبة من خريجي الزيتونة والصادقية . وكان البشير صفر يدرس بها مادتي التاريخ والجغرافية

---

(25) انظر : A.M.I./CDH/AT. Tunis, N° 3-13, Rapport du Colonel Baron, pp. 17- 18.

(26) ليس هناك مجال للمقارنة بين الوجود الاستعماري في البلدين حيث ان الفرنسيين اعتبروا الجزائر جزءا لا يتجزأ من فرنسا ، بينما تركوا للتونسيين شبح الباى بمثابة بصيص من نور لم يفقد بوجوده الأمل ، وان كان محكوما بكماشة الحماية وأوامرها اللاحقة .

وبين فيهما اهداف الاستعمار الفرنسي [27] . فأصبحت الخلدونية مركز اشعاع ثقافي واصلاحي كان له أثر كبير في الحياة الفكرية بتونس [28] مما أدى بأحد المعمرين الى القول : ((اذا ما قدر أن تندلع ثورة بالبلاد التونسية فان خيئة أركان ثوارها تكون قد تخرجت من الخلدونية .)) [29]

وعمل البشير صفر عند توليته رئاسة جمعية الاوقاف [30] (1898-1908) على توسيع نطاق الاعمال الخيرية واحياء ما اندثر من اساليب الفنون الموسيقية العربية . ومن أعماله أيضا خطابه الجرئ الذى دافع فيه عن الحضارة العربية الاسلامية وبين مزاياها على الانسانية جمعاء . وكان قد ألقاه امام اعضاء مؤتمر الجمعية الجغرافية الفرنسية بتونس سنة 1904 ، وكان له صدى عميق في الصحف الاجنبية والوطنية [31] .

ولم يقتصر عمله في الجمعية الخلدونية والأوقاف على الامور الثقافية بل تعداها الى المسائل السياسية لاسيما سنة 1906 حين القى خطابا امام المقيم العام ستيفان بيشون (1901-1906) والوزير الأكبر بوعتور ، عبر فيه عن افتقار جمعية الاوقاف الى المواد الكافية للقيام بواجبها وذكر ان البؤس قد عم قسما كبيرا من التونسيين بسبب المعاملات الاستعمارية [32] .

---

(27) ابن الحاج عثمان ، ص 72-73 .

(28) بواعدة ، ص 52 .

(29) ابن الحاج عثمان ، ص 72- 73 .

(30) أحدثت جمعية الاوقاف بامر من الصادق باى عام 1873 باشارة من وزيره الأكبر خير الدين وأول رئيس لها هو محمد بيرم الخامس الذي اشرك معه في ادارتها مجلسا مؤلفا من ثلاثة اعضاء احدهم من رجال الادارة والآخران من اعيان الاهالي والتجار ، وجعل نظرهم في الاوقاف على قسمين الاول على الاوقاف الاهلية ، والثاني على أوقاف الجوامع وقراءة القرآن وغير ذلك . انظر : التنوسي ، ص 79 .

(31) نشر هذا الخطاب اول مرة بالفرنسية سنة 1904 ، ثم ترجم الى العربية ونشر سنة 1984 مع عدة تراجم للمؤلف . انظر : البشير صفر ، الجغرافية عند العرب نشأتها وتطورها ، تقديم وتعريب حمادى الساحلي ، (بيروت ، دار الغرب الاسلامي ، 1984) .

(32) عبد العزيز الثعالبي ، تونس الشهيدة ، ترجمة وتقديم سامي الجندى ، (بيروت ، دار القدس ، 1975) ، ص 10-11 .

وبينما كان رأى المقيم العام يؤكد العزم على معاملة التونسيين بروح العدل والكرم ، فان المعمرين قد انكروا ذلك وانتقدوا موقف المقيم بيشون رغم ان مطالب البشير صفر لم تكن لها علاقة مباشرة بالسياسة (33) ، ولكنها نظرا لضعف النفوس قوبلت بحماس شديد من طرف الشعب واعتبرت ضربا من الجرأة والشجاعة .

ورغم ان الصحف الاستعمارية قد هاجمت هذا الخطاب واحتجت عليه ، فان المؤتمر الاستعماري المنعقد بمرسيليا سنة 1906 قد استدعى محمد الاصرم ، رئيس الجمعية الخلدونية ، لسماع مقترحاته .

وجاء في تقرير محمد الاصرم امام المؤتمر المذكور التركيز على التفاهم بين التونسيين والفرنسيين ، وان لم يكن مطمئنا لذلك نظرا لتبني الفرنسيين مبدأ حق الغازي في الهيمنة الشاملة . واقترح بعث جريدة عربية تدافع عن مصالح التونسيين وتنشر بينهم معاني التقدم والحضارة الاوروبية . وطالب بمنح التونسيين دستورا يصبحون معه أحرارا متساوين في الحقوق السياسية مع الاوروبيين (34) .

والمفهوم من ذلك هو منح التونسيين المساواة مع الفرنسيين وليس العودة الى العمل بالدستور التونسي المسمى بعهد الامان . ولعل المقصود هو تطبيق القانون العام الفرنسي عليهم مع مراعاة أحوالهم الشخصية ؟ ولكن تصدى المعمرين الشديد لمثل هذه المطالب أبقاها في طي النسيان .

وقد أعطت زيارة الشيخ عبده الثانية لتونس (من 9 الى 22 سبتمبر 1903) نفسا جديدا للشباب التونسيين وزادتهم حمسية للعمل الاصلاحي ، فقام خريجو المدرسة الصادقية بتأسيس جمعية اسموها (جمعية قدماء تلامذة الصادقية) تولى رئاستها الاولى خير الله بن مصطفى . وكان من اعضائها البارزين علي باش حامبة (35) ، وهو صاحب

---

(33) قدم البشير صفر مشروعا لبعض الاصلاحات في 24 مارس 1906 الى المقيم العام بيشون . فأثارت هذه البادرة احتجاج جرائد المعمرين ، مثل جريدتي (المعمر الفرنسي ، وتونس الفرنسية) . وكان المعمر فيكتور كارنيار (هو رأس الفتنة) ، رئيسا للمعمرين الفرنسيين بتونس والناطق بلسانهم الى سنة 1914 . أنظر : - جوليان ، المعمرون ، ص 88 .

(34) جوليان ، ص 81-86 .

(35) علي باش حامبة (1879-1918) درس بالزيتونة والمدرسة الصادقية والمعاهد الفرنسية . وعاد فتوظف في العدلية . وكان له ضمير وطني وقاد . فاشترك في تأسيس جمعية قدماء تلامذة الصادقية ، وساهم في تنشيطها . وكان يحمل فكرة الاصلاح في نفسه ، فأسس جريدة (التونسي) سنة 1907 يدافع عن حقوق الشعب التونسي ، وساهم في أحداث طرابلس سنة 1911 فنفته فرنسا ، فذهب الى الاستانة وعمل بها وارتقى الى عدة مناصب عليا ، ---

فكرة تأسيسها ، وعبد الجليل الزاوش ، وحسن قلاتي [36] وغيرهم • وكانت الجمعية تهدف الى النهضة الفكرية والرقي الاجتماعي والتعريف بالنهضة الاوروبية الحديثة • واتبعت أسلوبا معتادا في نشاطها ، فألقت المحاضرات باللغة الفرنسية ، وشارك في نشاطاتها علماء جامع الزيتونة ، مثل الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، بمحاضرات تناولت المدنية والحرية والعدالة في الاسلام ، وتاريخ الدول الاسلامية [37] .

وقد أدى ظهور هذه الجمعيات الاصلاحية الى ظهور حركة معارضة من طرف المحافظين الذين حاربهم الاصلاحيون من قبل • وكانت هذه المعارضة تبحث لها أولا عن زعيم قدير يرد على كتابات مجلة المنار المصرية ، ونشاطات الجمعيات التونسية ، وثانيا عن جريدة تبث افكارهم • وقد وجدوا ذلك في شخص الشيخ محمد النجار المفتي المالكي المعروف بغزارة علمه • فكان يتابع مقالات مجلة المنار وينتقد كل ما تكتبه ويقدم الحجج الدينية ضدها ويثبت مخالفتها للمذهب السني • ويقوم بذلك في دروسه اليومية ومجالسه النصف حولية التي يحضرها الامير والعلماء •

وكانت مجلة (السعادة العظمى) التي أسسها الشيخ محمد الخضر حسين تمثل حركة المحافظين في بعض المسائل القليلة ، اذ أنها كانت معتدلة ومترفعة عن الأذى الشخصي [38] .

ولكن مثل هذه التصرفات الضعيفة لم تكن لتنال من عزيمة قوم آمنوا بالاصلاح وتكاتفوا على تحقيقه بتوحيد آراء جمعياتهم ونشاطاتها ، بل ان حجج المحافظين وتهجمات

== وقضى بقية حياته في الدفاع عن وحدة المغرب العربي •

(36) حسن قلاتي ولد بقصر البخاري (الجزائر) وهاجر الى تونس مع أبيه وعائلته بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر • نشأ نشأة اوروبية بحتة وتثقف ثقافة عالية مع حظ من العربية • أحرز شهادة الحقوق في مدينة الجزائر • وصار من أعلام الحركة التونسية السياسية في بداية القرن 20 الى جانب علي باش حامبة ونفي معه • ولما عاد الى تونس حقد على من تقدموا الى السياسة من بعده • أنظر :
— احمد توفيق المدني ، حياة كفاح (مذكرات) ، (الجزائر ، ش.و.ن.ت.) ، بلا تاريخ) ، ج 1 ، ص 222—224 •

(37) ابن الحاج عثمان ، ص 85 •

(38) مواعدة ، ص 53—54 •

المعمرين لم تزدهم الآ اتحادا وقوة وتعمقا في فهم الاصلاح الحقيقي •

وليس معنى ذلك ان الشيخ محمد الخضر الحسين كان محافظا بل كان مصلحا • فقد عمل على اصلاح الجامع الزيتوني وأسس سنة 1906 ،مع جماعة من أساتذته (جمعية تلامذة جامع الزيتونة) تحت رئاسة الشيخ الطاهر النيفر موقتا ثم الشيخ محمد رضوان الرئيس الرسمي لهيئتها • ولم تدم هذه الجمعية طويلا حتى تحولت سنة 1907 الى (الجمعية الزيتونية) تولى رئاستها الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور• وكان هدفها علميا وثقافيا واجتماعيا وهو اصلاح التعليم على الطريقة الازهرية الجديدة • وكانت هذه الجمعية تؤدى رسالتها عن طريق المحاضرات التي يلقيها شيوخ الزيتونة أمثال الشيخ النجار، والنيفر ،والنخلي وغيرهم (39) .

ومن جهة أخرى نجد تضافر مجهودات الخواص لمضاعفة عدد الكتاتيب العصرية لتحفيظ القرآن للاطفال وتعليمهم اللغة العربية وأصول الدين الاسلامي ،مما أدى الى انقلاب في الميدان الثقافي انعكست آثاره على الحياة الاجتماعية والسياسية (40) .

وعلق احد الكتاب الفرنسيين على مستوى الثقافة والتعليم بتونس فأكد : تأثر التونسيين الملتفين حول جامع الزيتونة بتطور الحضارة العربية الاسلامية في المشرق • ويتجلى ذلك خاصة في انتشار النوادى والجمعيات التي تعمل كلها في اطار الحركة الاسلامية ومحاربة رجالها للطرقيين جهارا معتبرينهم ((الجرح المهين للاسلام •))

---

(39) نفس المصدر ،ص 47-48 •

(40) ش• أ • جوليان ،افريقيا الشمالية تسير،ترجمة المنجي سليم وآخرون ، (الجزائر وتونس ، ش•و•ن•ت ،و د•ت•ن• ، 1976) ،ص 88 •

يجب التنبيه الى الدور الذى قامت به المدارس التبشيرية التي أسست خلال القرن 19 من أجل العودة بالتونسيين الى العهد الروماني القديم • وقد دعمها الكاردنال لافيجرى (1825-1892) ،استاذ تاريخ الكنيسة ،كان رئيسا على جميع اساقفة افريقيا وقرطاج سنة 1890 ،وكانت له مساهم كبرى في حركة الاحتلال والتبشير بالمغرب العربي) بقوة وأسس بعد الاحتلال معهدا ثانويا بقرطاج اطلق عليه اسم مدرسة القديس لويس ،ثم نقله الى مدينة تونس سنة 1882 تحت اسم مدرسة القديس شارل ،واصبحت هذه المدرسة من المعاهد العليا سنة 1889 وعرفت باسم ثانوية كارنو• وكان لخريجي هذا المعهد وأمثاله أثر على اتجاه الحركة الوطنية التونسية في مطلع الثلاثينات وفي مقدمة هؤلاء الحبيب بورقيبة الذى سنتناول نشاطه في فصل لاحق •

فأدى نشاطهم المتواصل الى نقص سيطرة الطرقيين بخلاف ما هو عليه الامر في الجزائــــر التي أصبح الدين فيها خاضعا لتعاليم صوفية خرافية (41).

ومع ذلك فقد عبر بعض العلماء التونسيين سنة 1917 عن أسفهم لفقدان تدريـــس اللغة العربية والتاريخ الاسلامي والعلوم التشريعية وعدم امكانية تدريسها قائلين ان معانيها زالت من القطر الجزائري ،لكنها باقية في تونس على ما فيها من عيوب وما علق بها من شوائب وما اعترضها من نقص الوسائل . ونددوا بمنع سلطة الحماية لابناء المسلمين من الدخول الى المدارس الفلاحية وما شابهها ،وغلقها في وجوههم (42).

ومع ان الحكومة الفرنسية كانت متذبذبة في تطبيق اصلاحاتها ، فان ثمار هـــذه الاصلاحات بدأت تظهر الى الوجود مع مطلع القرن العشرين . ففتحت المدارس أبوابها الى الاطفال التونسيين ،وبدأت دور النشر التونسية ترى نور الحرية ،وقللت الادارة مــن عنفها السياسي . وتوجت هذه الاعمال كلها بظهور الجمعيات السابقة الذكر التي احدثت انقلابا فكريا شاملا في المـجتمع .

ولكن الحكومة الفرنسية كانت واقعة بين ضغط طبقة المعمرين من ناحية وسندان الطائفة اليهودية من ناحية اخرى . فبالاضافة الى موقف المعمرين المعادى الذى أبرزناه، هناك موقف الطائفة اليهودية التونسية التي وسوست لها أحقادها على المسلمين وزادتها اندفاعا ابواق ساسة فرنسا المعادين للاصلاحات ،فانسلخت من الجنسية التونسية . فلم يبـق امام المسلمين التونسيين اذن الآ العمل بمفردهم ، فأسسوا جريدة التونسي والتفوا حولها (43).

أسس علي باش حامبة جريدة التونسي فى 7 فيفرى 1907 ،وكانت ثاني جريدة وطنية

---

(41) أنظر A.M.I./CDN/MN.Tunis, N°A 1-60, P.Sylvère,"La France et les difficultés Tunisiennes", Revue Universelle, 1929, p.668.

(42) أنظر: A.1er M. S/MN.Tunis, C.2, Correspondance, ministère des Affaires Etrangères, Direction des affaires politiques et Commerciales, Stokhm, 20 novembre 1917, les griefs de Salah Chérif et Sfalhi devant le Comité Holando-Scandinave.

(43) أنظر : A.M.I./CDN/MN. Tunis, N° B 3-13, Autobiographie du Cheikh Thaâlbi, p. 5-6.

تصدر باللغة الفرنسية بعد جريدة (بريد تونس) للثعالبي [44] ،وتطور برنامجها مع الزمن ،وقد طالب فيه أصحابه بتمثيل التونسيين في المجلس الاستشارى ،والمشاركة في التحصيل على اراضي الدولة بواسطة بعث مراكز تونسية للتعمير . ودافعت بشدة عن مسألة تعليم الذكور والاناث ابناء التونسيين والغاء القرارات التي تمنعهم من تقلبد الوظائف الادارية المالية [45] .

وكانت سلطة الحماية قد أصدرت قانونا سنة 1907 يجعل من المجلس الاستشارى قسمين الاول فرنسي يتكون من 39 عضوا منتخبين من ثلاث هيئات انتاجية فلاحية و تجارية و متنوعة ،والثاني تونسي يتكون من 16 عضوا يختارهم المقيم العام [46] . فانتقدت جريدة التونسي هذا القانون بشدة وطالبت بالزيادة في عدد التونسيين على أن يكونوا منتخبين مثل الفرنسيين .

وقد تأثرت جماعة التونسي بمطالب البشير صفر ،ولم تخالفها كثيرا خاصة في مسائل التعليم والاقتصاد . غير انها باشرت العمل السياسي بتدخلها في تنظيم مجلس الشورى . وقد تكون قد تأثرت فعلا بحركة الشباب التركي والشباب الايراني كما لاحظ عليها ذلك العقيد بارون بقوله : ((تأسست جريدة التونسي سنة 1907 بمشاركة أربعة أعضاء اختيروا من بين العشرة المؤسسين . وكان طابعها في البداية سياسيا يطالب بمشاركة التونسيين للفرنسيين في الحكم . وسرعان ما انقلبت الى حركة مضادة تحت ضغط بعض المتطرفين .)) [47] والارجح انه يقصد بعبارة " المتطرفين " الثعالبي الذى أصبح يشرف على تحرير القسم العربي بنفس الجريدة ابتداء من شهر اكتوبر 1909 .

---

(44) كان قانون الصحافة الفرنسي لا يرخص للتونسيين اصدار صحيفة فرنسية اللسان الا اذا كان امتيازها لفرنسي ،وذلك لمنع التونسي من التمتع بالحرية الصحافية التي يتمتع بها الفرنسي . ولم يعدل هذا القانون الا في سنة 1937 في عهد المقيم العام ارمان قيون . فأصبح للتونسي الحق في ذلك . أنظر :
ـ ابن قفصية ،ص 38 .

(45) جوليان ،المعمرون ،ص 91—94 .

(46) أنظر : A.Q.O./S/T.1917-40,N°318,Op.cit.

(47) أنظر :
A.M.I./CDN/MN.Tunis, Rapport Baron, N°13-15,p.17.

ومن هنا بدأت الحركة الوطنية التونسية تأخذ منعرجا آخر. فبينما كان عملها فيما قبل مختلطا بالاصلاح الديني والاجتماعي والفكري، فاننا نجدها بعد تأسيس جريدة التونسي تدخل في ميدان السياسة من بابها الواسع، وأصبحت تعرف بحركة الشباب التونسي. الا أن اختلاف آراء أصحابها وتعدد انتماءاتهم عرض الجريدة الى بعض الهزات أدت في الاخير الى القضاء على زعمائها واقصائهم.

واذا كان علي باش حامبة وعبد العزيز الثعالبي من مناصري الروح العصرية المطلعين على الثقافة الغربية والمتمسكين بأصول الحضارة الاسلامية، فان حسن قلاتي وعبد الجليل الزاوش كانا يميلان الى الاصلاح والحوار المعتدل. ومع ذلك فان الجميع كانوا يعملون على قيام سياسة تقارب مع الفرنسيين ما عدا الثعالبي فانه كان يميل الى التحفظ.

وهاجمت الصحافة الاستعمارية، وعلى رأسها جريدة المعمر الفرنسي، جريدة التونسي. فنعت المعمر كارنيار التونسيين باللاانسانية واللااخلاق، وأنهم قوم لا يخضعون الا للقوة. ثم أنكر عليهم امتلاك مستوى الكفاءة والاخلاق المطلوبة في تقليد الوظائف العمومية.

ومع ذلك فقد شارك أعضاء الشباب التونسي في مؤتمر المعمرين في اكتوبر سنة 1908 الخاص بدراسة شؤون بلدان شمال افريقيا، وأكدوا على المساواة بين الفرنسيين والتونسيين وذكروا المؤتمرين بأفكار الثورة الفرنسية (48).

وفي الحقيقة فان حكومة باريس، رغم سماعها بمطالب التونسيين الهزيلة، لم تول أي اهتمام لها، وبقي الحكم بجميع أنواعه، التنفيذي والتشريعي والقضائي في يد كاتب حكومة تونس العام الذي كان يعين بنفسه جميع الموظفين والاداريين والقواد، يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه. فكانت لهم السلطة المطلقة على التونسيين مما جعل هؤلاء يفقدون كل وسيلة ضمان على ممتلكاتهم وأنفسهم (49).

وكانت هذه بداية تطرف الحركة الوطنية التونسية سياسيا، فازدادت مواقفها حدة خاصة عند انضمام الشيخ عبد العزيز الثعالبي اليها حيث أضاف نشرة باللغة العربية الى جريدة التونسي سماها (الاتحاد الاسلامي) تولى رئاسة تحريرها بنفسه، وأصدر أول عدد منها في شهر اكتوبر 1909، وضح فيه أهداف النخبة التونسية الحقيقية، وأكد على وجوب اتحاد الشعب

---

(48) جوليان، المعمرون، ص 97–103.

(49) أنظر: A.Q.O./S.T.1917-40, N°318, Op.cit.

التونسي وتكاتفه.

وكانت نشرة (الاتحاد الاسلامي) قوية اللهجة بالغة الحجة في مبادلاتها الكتابية ، مما جعل آراءها مسموعة ومؤثرة في الاوساط الشعبية ، فأدت الى تخوف الحكومة الفرنسية[50].

ويرى بعض الفرنسيين ان حركة الشباب التونسي قد ظهرت خاصة بعد 1908 بنشاط صحيف وثوري في جرائد ما العربية كمرشد الأمة لصاحبها الشيخ سليمان الجادوى ، و(المشير) للطيب بن عيسى[51] . وقد غذى هذه الحركة (المهيج) عبد العزيز الثعالبي الذى رجع من المشرق العربي والحجاز و تركيا يحمل فكرة الجامعة الاسلامية الثورية[52] .

وكان تخوف الفرنسيين في المغرب العربي خاصة والاوروبيين في البلدان الاسلامية عامة من هذه الثائرة واقعا فعلا ، وهو ما أدى بالعقيد بارون الى القول سنة 1920 ((ان الشكل الذى عليه حركة الجامعة الاسلامية اليوم خطير بحيث أصبحت لها اتجاهات واقعية وأهداف عملية قابلة للانجاز ... تطمح في النهاية الى عدم فائدة وجود الوصاية الاوروبية على البلدان الاسلامية . وقد أصبح كل المسلمين بجميع طبقاتهم يؤمنون بذلك[53] .

---

(50) أنظر A.M.T./CDN/MN.Tunis, N°s 3-13, Rapport Baron, p.77

(51) أسست الاولى سنة 1909 والثانية سنة 1911 . وكانت لهما رصيفات تونسية كثيرة نذكر منها جريدة (البصيرة) (1893—1897) تركية النزعة اسلامية الاتجاه . وسبيل الرشاد (1895 — 1897) يديرها الثعالبي ، علمية وسياسية ، عربية اسلامية . والقلم يديرها محمد البحرى 1904 وطنية معتدلة . والصواب لمحمد الجعايبي (1904) سياسية اسلامية . اما الجرائد التي صدرت سنة 1907 فهي (التقدم) ، و(المنصف) ، و(المرشد) ، و(المعارف) ، و(العدلية) — شارك فيها الثعالبي . وهناك جرائد اخرى صدرت سنة 1908 هي (الفتح) و(الاسلام) . وقد توقفت هذه الجرائد كلها عن الصدور ابتداء من 1911 الى 1920 بقرار من المقيم العام باستثناء جريدة الزهرة التي صارت شبه رسمية منذ 1904 . طالع : A.O.M./A.E.P./ Zell , op.cit.

(52) أنظر A.M.T./CDN/M.N.Tunis, N° A 1-60, France et Déf.Tun. Revue Trimestrielle, 1929, pp.666-673.

(53) أنظر A.M.T./CDN/MN.Tunis, N°S 3-13, Rapport Baron, pp.13-14

ولعل انتماء هؤلاء التونسيين الاحرار لفكرة الجامعة الاسلامية هو الذى جعلهم يقفون صفا واحدا في اكتوبر 1911 ضد الاعتداءات الايطالية على طرابلس الغرب آخر معقل للخلافة العثمانية في المغرب العربي • فانفعلت النفوس بالشعور الاسلامي وزادتها الصحف العربية التي امتلأت بحوادث طرابلس اضطراما •

وفي هذه الظروف دعت الادارة الفرنسية ،عن طريق المجلس البلدى بتونس ،الشعب يوم 7 نوفمبر 1911 لحضور تسجيل مقبرة الزلاج • وانتشر بين الناس خبر ((فرنسة الاراضي الزراعية واخراجها من رعاية الحكومة التونسية واحكامها الاسلامية الى دائرة القانون الفرنسي(54))) ورغم معارضة بعض نواب المجلس البلدى التونسيين لهذا التسجيل ،فان الادارة الفرنسية تعمدت كتمان الخبر وهو ما يدل على سوء نية سابقة • فتمركز رجال الشرطة وفرق الجيش الفرنسية حول المقبرة وحضرت جموع الشعب ظنا منها ان الامر واقع • وشاعت بينها اشاعات كثيرة منها ان الادارة ستجعل بعض أقسام المقبرة ممرا لخطوط السكك الحديدية • وفي هذا الجو المكهرب رمى احد رجال الشرطة الفرنسية تونسيا برصاصة فقتله • وألقت الشرطة القبض على عدد كبير من التونسيين • فهاج الشعب ووقعت اشتباكات بين الطرفين أسفرت عن عدد من القتلى وكثير من الجرحى(55) .

وقد تركت هذه الاحداث أثرا عميقا في نفوس التونسيين جددت به آلام أحداث طرابلس ،فكاد الشعب ان يختنق • وزاده تعسف الجالية الايطالية بتونس تضمرا ،اذ كانت تتمتع بمكانة ممتازة في شركة الترام للنقل الفرنسية ،التي يتقاضى فيها العامل التونسي

---

(54) عارض عبد الجليل الزاوش عملية التسجيل في تلك الظروف ،يوم 2 نوفمبر ،وطلب رسميا الغاءه لان الأفكار في تونس قد تهيجت ضده ،ويخشى وقوع حوادث مؤلمة • فاصدر المجلس البلدى قرارا بالغائه ،لكن الادارة الفرنسية تعمدت ان لا يبلغ امر الالغاء الى العامة • انظر :
ـ المدني ،ج 1 ،ص 41ـ43 •

(55) للتوسع في احداث الزلاج ومقاطعة ركوب عربات الترام ، طالع :
ـ الجيلالى ابن الحاج يحيى ،ومحمد المرزوقي ،معركة الزلاج ،ط1 ، (تونس ،مكتبة المنار ، 1961) • وكذلك :
Chedly, Khairallah, Le Mouvement évolutionniste Tunisien, Notes et Documents, Tome 3, (Tunis, Marc Garrot, 1938), pp.4?-5? .

أجرا زهيدا لا يكاد يذكر اذا قيس بما يتقاضاه الفرنسي والايطالي ،مع انه يقوم بنفس العمل معهم وأكثر.

وكانت هذه الاسباب مجتمعة ومتفرقة قد اضطرمت نارها خاصة لما تسبب سائق ايطالي في قتل طفل تونسي يوم 9 فيفرى 1912 . فكانت كلها دافعا للتونسيين الى مقاطعة ركوب عربات الترام (فيفرى 1912) والمطالبة بنفس الاجور التي كانت تدفع للعمال الايطاليين القائمين بنفس العمل (56) .

وأصر التونسيون على موقفهم وشجعتهم خطب ائمة المساجد وشيوخ الزوايا ،فالتفوا حول جريدة التونسي والصحف الاسلامية ،وتألفت لجنة للدفاع عن حقوقهم ،تكونت من علي باش حامبة وعبد العزيز الثعالبي وحسن قلاتي ومحمد نعمان والاستاذ الفرنسي ديستري .

و تمسكت الادارة الفرنسية برأيها واعتبرت انقطاع التونسيين عن شركة النقل ومساندة جماعة الشباب التونسي لهم ،مؤامرة سياسية ضدها . ورد علي باش حامبة على كاتب الحكومة العام بقوله : ((اني اتساءل لماذا يراد الزج بفرنسا في أمور لا علاقة لها بمصالحها ... لن نرضى اذا ما ناقشنا أعمال ادارة الحماية او شركة خاصة مسؤولة عن مصلحة عمومية ... بأن يعترض علينا بدعوى اننا نكسر شوكة فرنسا في هذه البلاد .)) (57)

وقد كان رد فعل الادارة متوقعا اذ نفت زعماء المعارضة بأمر علي صدر في 13 مارس 1912 ،قضى بنفي علي باش حامبة ،وحسن قلاتي ،ومحمد نعمان ،وعبد العزيز الثعالبي خارج تونس . تمكن كلهم بعد مدة من الرجوع الى تونس ، باستثناء باش حامبة ، الذى استقر بالآستانة حتى وفاته (58) .

وكتب رسالة الى أحد اصدقائه قال فيها : ((اني اقطع صلتي بصفة نهائية مع البلاد التونسية . ان من الاشجار شجرة يمكن كسرها ولكن يستحيل ان تنحني ،فاعذرني اذا أنا كنت شبيها بها .)) (59) .

---

(56) جوليان ،افريقيا ،ص 89—90 .
(57) جوليان ،المعمرون ،ص 130—131 .
(58) أنظر : Khairallah, pp.97-99
(59) نفس المصدر ،ص 132—133 .

ولاحداث الزلاج والترام أسباب كثيرة بعيدة وقريبة ،منها ما فاضت به الصحف العربية التونسية اثر أحداث طرابلس ،فأثارت العزائم وأحيت الهمم ،ومنها ما قامت به الادارة الفرنسية بدافع الحقد على التونسيين لكبح جماحهم واطفاء تحمسهم لمناصرة اخوانهم الليبيين ·

فلقد كانت الصحافة العربية في تونس تنوه بالدفاع ومناصرة الشعب الليبي ضد العدوان الايطالي وفظائعه ،وحرضت الشعب على اعانة اخوانه بكل ما يملك ،وفتحت الاكتتابات لجمع الاعانات المالية والصحية · وقد لب التونسيون نداء الجهاد وقدموا أموالهم وأمتعتهم ،وفيهم من التحق بصفوف المجاهدين في طرابلس (60) ·

اما الأسباب البعيدة والتي أدت الى انتشار الوعي في صفوف الشعب التونسي فيمكن ارجاعها الى اضراب الطلبة الزيتونيين في 15 مارس 1910 ،حين فارقوا الدراسة ووجهوا عريضة الى الحكومة التونسية طالبوا فيها بضبط جداول أوقات التدريس لوضع حد لغيابات المدرسين وتدريس مواد التاريخ والجغرافيا ،والحق في اجتياز الامتحان بعد ثلاثة سنوات واعفاء الطلبة من الخدمة العسكرية ، وقد ناصرهم علي باش حامبة · ثم انتهى هذا الاضراب في شهر افريل من نفس السنة بعد اطلاق سراح ثمانية من الطلبة المسجونين ،وتعهد الحكومة باعتماد مبدأ الاصلاحات ·

ووقع تجمع كبير لهم في شهر ماى من نفس السنة أيضا ،حضره جمع غفير من الشعب ، خطب فيه عدد من زعماء الحركة التونسية (الاصلاحيين) و(المتطرفين) · وكان من بينهم الثعالبي الذى بلغت كلمته نفوس المجتمعين ، لا سيما لما تأسف على فقدان دروس الفلسفة والماورائيات وانعدام الاجتهاد في تفسير القرآن (61) ·

وهكذا كان لهذه المظاهرات الطلابية أثرها في نفس الشعب التونسي فشددت من طبيعة الخلاف بين جماعة الشباب التونسي وحكومة الحماية الخاضعة للمعمرين ·

ويرجع الثعالبي الاسباب الحقيقية لاحداث الزلاج ومقاطعة الترام الى النهضة الصحفية التونسية في بداية القرن العشرين ،التي أحدثت الرعب في أوساط الحكومة الفرنسية · أضف الى ذلك زيادة الضرائب التي لاقت استنكارا عاما من طرف الشعب حتى ان بعضهم هدد

---

(60) ابن قفصية ،ص 14–15 ·

(61) جوليان ،المعمرون ،ص 129–132 ·

بالهجرة من البلاد اذا لم تتراجع الحكومة عن فرض هذه الضرائب (62) .

وكان رد فعل سلطة الحماية ، بالاضافة الى عمليات النفي والقمع ، ان عطلت جميع الصحف العربية بقرار صادر عن قائد جيش الاحتلال تحت تأثير المعمرين . فأعلنت حالة الحصار ، ولم يسبق من هذه الصحف الا جريدة الزهرة التي صارت شبه رسمية . ودام هذا التعطيل من 8 نوفمبر 1911 الى أول فيفري 1920 (63) . فآلت تونس بعد ذلك الى الهدوء (64) .

وبقي الشعب التونسي منذئذ في حالة ثورة مقيدة بسلاسل الحرب وعملية الطوارئ الدائمة . ففرضت عليه حالة الحصار ، وحرم فيها من حرية الصحافة والتجمع وألزم بجواز سفر في حالة خروجه من البلاد ، بخلاف الفرنسيين وجميع الجاليات الاجنبية بتونس (65) .

وكان الثعالبي قد نفي الى فرنسا رفقة علي باش حامبة . فطرحا المشكلة التونسية على رجال السياسة والرأي هناك . ويذكر الثعالبي ان هؤلاء نصحوهما بالتخلي عن الدفاع عن القضية التونسية بجدية لان الظروف ليست ملائمة وانهما سوف لا يجدان أذنا صاغية لمطالبهما في الوسط الفرنسي ، لأن البلاد كانت تجهز نفسها لخوض الحرب . فليس هناك اية امكانية لتغيير سياسة الاستعمار الفرنسي (66) .

ولم يكن امام الرائدين التونسيين والحال هذه الا الحفاظ على روح الحركة وتأجيل طرحها الى ما بعد الحرب . فذهب علي باش حامبة الى الآستانة حيث استقر فيها مجاهدا في سبيل الخلافة الاسلامية الى أن توفي سنة 1918 . وراح الثعالبي يجول في البلدان الاسلامية في المشرق العربي والحجاز والهند للتعرف على أحوال المسلمين ودراسة أوضاعهم والعمل على استنهاضهم . ثم عاد الى تونس أثناء الحرب ليتزعم حركة الشباب التونسي التي ظهرت سنة 1919 بوجه جديد وبمطالب جديدة وباسم جديد أيضا .

---

(62) أنظر : A.M.I./CDN/MN.Tunis, B.3-13, Auto. Thaâlbi, p.6

(63) ابن قفصية ، ص 15 .

(64) أنظر : A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° A 1-60, Free dij.Tun.p.668-673.

(65) أنظر : A.Q.O./S.T. 1917-40, N°312, Lettre Pd au Dél.Rd., Op.cit.

(66) أنظر : A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B 3-13, Auto.Thaâlbi, p.6-7.

واجتازت تونس الحرب العالمية الاولى على هذه الحالة بل ان المراقبة الفرنسيـــة ازدادت حدة والسلطة متانة ، ودفع الشعب مـجبرا 000 62 مـحارب من بينهم 3000 مـتـطـوع [67] ؛

وهكذا فشلت سياسة التعاون والنزاهة التي انتهجها الشباب التونسي وعلى رأسهم علي باش حامبة ، ويفسر ديران انجليفيال أسباب هذا الفشل التي ادت في الأخير الـى التطرف بقوله : ((لعله من التهور أن ننفي وجود فكرة ثورة عنيفة دامية كامنة في ذهن كل تونسي ، قادرة على فك البلاد من يد الوصاية الاجنبية ، ولما كان هؤلاء المتطرفون يرون أن مقترحاتهم ... تقع امام لامبالاة وعدوان مواطنيهم (الفرنسيين) ، فمن الصواب أن نبرز أخطاء حكومة الحماية التي حققت ما لم تستطع تحقيقه كل هيجانات حركة الجامعـــة الاسلامية وأعمال تركيا الفتاة ... وقد خضعت الحماية الى انذارات المعمر الفرنسي دى كارنيار الذى ما فتئ يطلب رأس حركة الشباب التونسي باستمراره واعتبرت أحداث الزلاج ... مؤامرة ضد أمن الدولة وتعمدت انكار الطابع الديني البحت على تعاطف التونسيين مع الطرابلسيين ضد ايطاليا ...))

((ان حكومة الحماية في الحقيقة هي التي انشأت حزب الشباب التونسي ، وأثارت غضب شعب مرهف الاحساس ، وهي التي أعدت الطريق الى الثورة .)) [68]

اما العقيد بارون فيحدد أصول الحركة السياسية التونسية بقوله : ((ان الحركـــة السياسية التونسية قد أخذت أصولها من نشاط النخبة التونسية المتضلعة في العلـــوم والقانون واللغات والنظريات الاجتماعية المصرية ، يقودها بعض رواد الجمعية الخلدونيـة التي لم تسلم الحماية من نقدها .)) [69]

ومهما يكن من أمر فان أفكار الجامعة الاسلامية ونشاطات رجال النهضة التونسية وضغوط الحماية الفرنسية وجشع المعمرين ومظالمهم كانت كلها عناصر ساهمت في ظهور الحركة السياسية التونسية بعد صراع مرير مع سلطة الحماية ، وقد لقحتها تجربة مرارة الحرب العالمية الاولى فعادت بعدها أشد تطرفا ووضوحا في مـطالبها .

---

(67) نفس المـصدر .

(68) أنظر: André, Duran-Angliviel, Ce que la Tunisie demande à la France, préface de Marius Moutet et d'Ahmed Essafi, (Paris, 1921), p. 33-35.

(69) أنظر: A.M.I./CDN/MC.Tunis, N°3 5-13, Rapport Baron, p.17-18.

2ـ الناحية الاقتصادية والاجتماعية :

ونختم هذا الفصل بلمحة عن الحالة الاقتصادية والاجتماعية ٠ فأول ما عمدت اليه سلطة الحماية في الميدان الاقتصادي هو فتح أبواب القطر التونسي على مصراعيه للهجرة الفرنسية والاوروبية ، وسنت لها قانونا يفتح أمامها أبواب التجنيس بالجنسية الفرنسية ، ليسهل عليها التوظيف في الادارة والسلك الحكومي ٠

وبينما اقتصرت أعمال الجالية الفرنسية القليلة في بداية الاحتلال على التجارة والوساطة في بعض المسائل الحكومية كالبريد والتلغراف والسكك الحديدية ، فان عددها بدأ يتزايد بعد ذلك وتنوعت مهامها ووظائفها في سائر المرافق خاصة منها الزراعة والصناعة ٠

وقد استولت سلطة الاستعمار على الاراضي واقتطعتها للفرنسيين ، وعلى خزينة الدولة ووزعتها عليهم ومنحتهم كل التشجيعات المادية والأدبية ، ثم استحدثت لهم وظائف من العدم يتقاضون عليها أجورا من خزينة الدولة التونسية ٠

وأمنتهم من الجانب القضائي بأحداث محاكم فرنسية يلتجئون اليها في نزاعاتهم مع التونسيين في قضايا العقارات وغيرها ٠ وثبتتها بمراسيم صدرت في جوان 1884 ، وسبتمبر 1885 ، وجانفي 1898 ، أكمست بها أفواه الساخطين المحتجين ٠ كما وضعت المحاكم التونسية تحت المراقبة المباشرة ، فأسندت رئاسة العدلية ودائرة النقض والابرام التونسية الى موظفين فرنسيين تدعمهما قوات الأمن والزجر ٠

وبذلك خلقت طبقات ثلاث متصارعة في البلاد ٠ فادارة الحماية وحكومة الباى تتنازعان السلطة وتعتقد كل واحدة منهما الحكم الفعلي ، والشعب التونسي وعلى رأسه الطبقة المثقفة يتألم ويقاسي الويلات ويطالب بحقوقه المهضومة ، والمعمرون يضغطون على الحكومة دفاعا عما شيدوه في أرض خصبة لا يريدون أن يشاركهم فيها أحد (70) .

وفي حين نجد تغلب ادارة الحماية على الباى وتجريده من جميع سلطه ، نجد النخبة التونسية المثقفة تقف صامدة أمام تعسف المعمرين واستبدادهم وجشعهم ٠

وقد امتلك المعمرون أخصب الاراضي واستغلوها بأحدث الآلات الفلاحية ، وأقصى الفلاحون التونسيون عن أراضيهم وصاروا اجراء فيها لدى المغتصبين ٠

---

(70) درمونة ، ص 28-32 ٠

ولم يقتصر استغلال هؤلاء على الفلاحة بل تعداها الى امتلاك المناجم ومصائد الاسماك والبنوك والمصارف والمصانع في شكل شركات . فأحدث ذلك تقلبات بعيدة الأثر على أحوال المجتمع التونسي فبدأت الصناعات التقليدية تتدهور والمهن الحرة والحرف تنقرض ، وخاصة منها صناعة (الشاشية) التي كان يرتزق منها ما يزيد على 7000 عامل . ولم تستطع منافسة ما كان يستورده الأجانب من بضائع (71) .

وعم البؤس وكثر الشقاء وانتشر الفقر . وليس أدل وابلغ مما وصف به الاداري الفرنسي شارليتي سنة 1907 حالة التونسيين فقال : ((ان الحضور الفرنسي قد اطاح بالهياكل التقليدية للحياة الاقتصادية وان ظروف عمل الاهالي كانت تقودهم حتى الى الموت السريع (72) .))

وهذه الحالة المزرية هي التي دفعت البشير صفر سنة 1906 الى أن يطالب في خطابه أمام المقيم العام بوقاية التونسيين من هذا الاستغلال البشع وانقاذهم من وضعهم المتدهور بنشر التعليم المهني والتجاري والفلاحي بينهم ، وحماية اليد العاملة والنهوض بالصناعات المحلية والحفاظ على الملكية واقرار العدالة الجبائية من أجل التخفيف من الازمة الاقتصادية القائمة . وكرر محمد الاصرم نفس المطالب تقريبا امام المؤتمر الاستعماري سنة 1908 ، وركز على المساواة الاقتصادية في الميدان الفلاحي الذي هو المورد الحقيقي للتونسيين .

اما البشير صفر فقد حذر المؤتمرين من سوء العواقب السياسية التي قد تترتب على حرمان التونسيين من حقوقهم الطبيعية (73) .

وكان المقيم العام بيشون قد أكد للتونسيين رغبته في الاصلاح ووعدهم بنشر العدالة ورفع المظالم . لكن المعمرين لم يرضوا بذلك وانتقدوا موقفه بشدة ، ووصفوه بالضعف . فعدل

---

(71) جوليان ، المعمرون ، ص 89 .

(72) نفس المصدر ، ص 19-20 .

(73) انشأت فرنسا منذ 1903 مدارس للتعليم الفني منها مدرسة ايميل لوبي المهنية لتعليم التونسيين الصناعة دون الوصول بهم الى مستوى الاطارات الفنية . وبلغ مجموع تلامذتها 165 منهم 119 فرنسيا ، 31 اجنبيا ، و7 اسرائيليين . ولم يتجاوز عدد المسلمين ثمانية ، وكانوا محرومين من الدخول الى الاقسام التحضيرية واقتصر اختصاصهم على النجارة . اما الميكانيك فمنع عليهم منعا باتا . أنظر :

- نفس المصدر ، ص 81-108 .

عن رأيه واستمرت سياسة المحق الجماعي .

وكانت الضرائب واقعة كلها على عاتق التونسيين ولم يدفع الفرنسيون منها الاّ القليل رغم أنهم كانوا يملكون كل الوسائل الاقتصادية وبيدهم ميزانية البلاد كلها . وكان عدد موظفيهم يفوق ثلاثة أضعاف عدد السكان الاصليين في الادارة التونسية ،الذي لايقل على ستة آلاف موظف . ويبلغ عدد ما يملكه 200 الف مستعمر فرنسي من الاراضي الزراعية الخصبة مما يوازى مما يملكه مليونان من التونسيين من الاراضي القاحلة المعدومة الانتاج (74) .

وكان الفلاح التونسي والحال تلك يعاني من قساوة المعمرين الذين أبعدوه الى الاراضي القاحلة الجرداء وفرضوا عليه الضرائب ، ويقاسي من اداءات المرابين ومقدمي الزوايا المشعوذين . فهو خماس محروم من الملكية الصغيرة مجبور على اداء الضريبة لئلا يتعرض للاحكام الجبرية والسجن .

وقد انعكست هذه السياسة الاقتصادية على الاحوال الاجتماعية ،فسادت روح المحق والقضاء المبرم على الشعب . فانتشرت الامراض خاصة المعدية منها وفتكت بالشعب ، وعم الفقر والجوع وكثر عدد المتسولين .

وكان المسلمون لا يتمتعون بأى ضمان اجتماعي يحميهم من حوادث الشغل وغيرها . بل اصيبوا بمرض خطير على النفوس والقلوب شجعتهم الادارة الفرنسية على تعاطيه ،فرخصت فتح الحانات والملاهي ،فأصيب التونسيون بأمراض أخطر من السل والوباء ، وهي الآفات الاجتماعية وعلى رأسها الادمان على الخمر (75) .

ولكن المصلحون التونسيون لم يقفوا مكتوفي الايدى أمام هذه الحالة الخطيرة ،فرغم ان الادارة الفرنسية كانت تمنع على المسلمين انشاء مؤسسات خيرية (76) ،فان البشير صفر رئيس جمعية الاوقاف ،قد عمل على احداث مسقر للعجزة (77) ،وشجع المدرسة الفلاحية التي ظهرت للوجود سنة 1902 واهتمت بتدريب الاطفال اليتامى وابناء الفقراء على

---

(74) درمونة ، ص 28- 39 .

(75) جوليان ،المعمرون ،ص 108 .

(76) أنظر : A. Temi. B./ill. Tunis, C.2, op.cit.

(77) وضع حجر أساسه الرئيس الفرنسي Emile Lobet ، والباى محمد الهادى سنة 1903 ،ودشنه المقيم العام بيشون والوزير الاكبر بوعتور سنة 1906 . أنظر :

— ابن الحاج عثمان ،ص 86 .

(78)
الأشغال الفلاحية بالوسائل العصرية ، ويمنحها ضيعة لتدريب تلامذتها على الاعمال التطبيقية .

ولنا في الاخير أن نلخص وضع تونس العام معتمدين على التقرير الذى قدمه الشيخان صالح الشريف المدرس بجامع الزيتونة سابقا ، واسماعيل الصفايحي قاضي تونس سابقا ، أمام اللجنة الهولندية السكندنافية المجتمعة في نوفمبر 1917 ، وهو يفصل لنا حالة البـلاد السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، بقوله : ((لقد سلطت الادارة الفرنسية الضرائب على التونسيين الذين لا يملكون شيئا ، وأعفت منها الفرنسيين الذين يملكون كل شيء . ففي تونس كان يمثل 20.000 فرنسي 38 ممثلا في المجلس الاستشارى ، بينما لم يكن يمثل مليونين من التونسيين سوى 15 عضوا فقط تعينهم الادارة الفرنسية من المناوئين لها . ولم يكن للمسلمين أى نصيب في الادارة حيث لم يكن للباى اية سلطة لا في تعيين الموظفين ولا في عزلهم . وكان المسلم عرضة للمعاقبة دون ارتكاب اى خطإ ولا يستطيع الدفاع عن نفسه .))

((أما العدالة فكلها عيوب اذ يحاكم فيها المسلمون لانهم لم يحيوا الفرنسي في الشارع ، ويعفى الفرنسيون الذين يسيئون للمسلمين . وأدخلت فرنسا لصالحها أروع التنظيمات العسكرية وانتهكت بذلك جميع القوانين ، فقتلت الفرق التونسية على جبهات الحرب وأجبرت المسلمين من سن 17 الى 50 على الدخول في الحرب والقتال في الخنادق والجبهات الاولى . بأى حق يقاتلون ؟))

((اما الارض الخصبة فقد احتكرها الاوروبيون ووظفوا لاستغلالها عملة ايطاليين استقدموهم من طرابلس الغرب ، فلم يكن امام المسلمين الا التسول في الشوارع ، والحال هذه وحكومة فرنسا تتدخل لتضع قوانين لقمع وزجر المتشردين الذين اجبروا على تعاطي العمل (غير المسجل اداريا) المجاني دون اداء الضرائب . وتعاقبهم في حالة المقاومة والعصيان ، بالسجن والاعدام . ولو أن احد المسلمين يقتل رميا بالرصاص أو يموت متأثرا بمرضه في مكان ما فانه يدفن في المكان الذى قضى نحبه فيه ، ذلك أن الفرنسيين يعتقدون ان جثمان المسلمين يلقح الارض لمدة خمسين سنة مقبلة فينعمون بخصوبتها ! .))

---

(78) نفس المصدر .

((اما الصحافة الاسلامية فقد صودرت منذ اربع سنوات ،وحق التجمع لا وجود له .
وفي سنة 1908 حرمت سلطة الحماية طلبة الزيتونة حتى من حقهم في تكوين جمعية . هل
من المستغرب ان نرى المسلمين يئنون تحت نير سلطة الحماية ؟ انه غير صحيح ان
العساكر الاسلامية قد اجتازت الحدود للدفاع عن فرنسا . ان الشعب التونسي لم يتنازل
أبدا عن حقه في الحرية ، بل سيواصل العمل في صمت نحو حريته ،وان الوقت مناسب
الآن وقد حان أوان المحاسبة وطلب الحرية والاستقلال .)) (79)

---

(79) قدم الشيخان هذا التقرير باسم الجزائر وتونس . واكتفينا هنا بما يتعلق بتونس فقط . أنظر: A.Ferah. B/AN.Tunis, C.2, op.cit.

الفصل الأول

تأسيس الحزب الحر الدستوري التونسي 14 مارس 1920

1- مناخ تأسيس الحزب
2- برنامجه
3- نظامه الاداري
4- موقف الشعب التونسي من الحزب.

1- مناخ تأسيس الحزب :

توسعت فكرة الحركة الاسلامية في أرجاء العالم الاسلامي خاصة خلال العقدين الأولين من القرن العشرين . وكانت تهدف أساسا الى فك الشعوب الاسلامية من مخالب الاستعمار وسيطرته . وقد زاد الحركة ايمانا وثقة ببلوغ الهدف ، شعور هذه الشعوب بقدرتها على تسيير شؤونها بنفسها بفضل علماء الاسلام ومفكريه ، فأصبح الايمان بالنصر قويا والتأكد من ضعف الدول الاستعمارية وزوال شبح عظمتها وجبروتها أقوى وأعظم .

وقد اتجهت هذه الحركة نحو توحيد جهود المسلمين والعمل على ترقيتهم الفكرية ثم السياسية ثانيا ، وتجلى عملها خصوصا في حركة النهضة السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية التي أثبتت في دراساتها المختلفة قدرة الدين الاسلامي على النهوض بالشعوب واحتوائه على جميع شروط الحضارة المعاصرة . فكان ذلك دحضا للذين وصفوه بالجمود والتخلف وعدم مسايرة العصر .

ولم تكن الحركة الوطنية التونسية بمعزل عن هذه الحركة ، بل هي جزء منها كما أشرنا الى ذلك فيما سبق . وليست بمعزل ايضا عما كان يجري في العالم من أحداث وتقلبات فكرية وسياسية . فقد كانت على صلة وثيقة بالحركة الوطنية الليبية وتأثرت ايما تأثر بقانون الميثاق الاساسي الذي منحته ايطاليا لليبيين سنة 1919 ، وحقهم في تسيير شؤونهم الداخلية بأنفسهم من ناحية ، وبما نالته الحركة الوطنية المصرية من استقلال عن الهيمنة الانكليزية سنة 1920 من ناحية أخرى (1) .

كانت الحركة التونسية تسير ضمن التيار الاسلامي في المشرق والمغرب وفي آسيا والهند . وكانت لها اتصالات بالدول الاوروبية ايضا . فاستفادت (الحركة) من صراعاتها عن طريق جرائد أحزابها المختلفة التي استغلت شعور المسلمين المستعمرين وأثارتهم ضد اعدائها

---

(1) انظر: A.O.M./A.E.P./ 27a1, Ministere de la guerre, Etat-Major de l'Armée, Section Afrique et Orient, Bulletin de Renseignement des questions Musulmanes, Paris le 21/4/1922, p. 2-3.

وكذلك : أ . و . ل . ، ت . ق . م . و . تونس رقم 32-3- ... ، " صفحة من تاريخ الجهاد السياسي في تونس ، المحكمة العسكرية الفرنسوية توالي سرد رأيها في الحركة الوطنية التونسية " ، جريدة الشورى ، عدد 159 (القاهرة ، 8 ديسمبر 1927) .

ومعارضيها • ومثال ذلك الصراع الانكليزي الفرنسي في افريقيا وآسيا ،الذي استغلته الحركة الوطنية المصرية لذلك ـ عملا بمبدأ (عدو العدو صديق) ـ وصادقت الفرنسيين ضد الانكليز،حتى ان فرنسا استدعت الشيخ محمد عبده لزيارة الجزائر وتونس سنة 1903 ، للضغط على اعدائها اولا ثم لكسب عطف المسلمين بهذين القطرين ثانيا ،ولئن أظهر القادة التونسيون سياسة التعاون والاصلاح مع فرنسا في بداية القرن ،فانهم وقفوا مع الالمانيين والنمساويين والعثمانيين ضد فرنسا خاصة بعد نفي زعماء حركة الشباب التونسي سنة 1912 (2) .

وكان للحركة الاسلامية الأثر البعيد في تكوين الحركة التونسية ونضجها وتحديد اتجاهها بعد مرحلة اليأس والقنوط من سياسة التعاون مع الفرنسيين • فقد نال المغضوب عليهم من فرنسا ،وعلى رأسهم علي باش حامبة وصالح الشريف ،تعهدا من ألمانيا والنمسا والدولة العثمانية اثناء الحرب الاولى ،تعهدا بتكوين دولة اسلامية اطلقوا عليها اسم (جمهورية شمال افريقيا) تضم كلا من المغرب والجزائر وتونس وليبيا ،اقترن ميلادها بانتصار الدول المتعهدة • وقد فقد هذا التعهد قيمته بانهزامها (3) .

استغل المغاربة هذه المساعدة وعملوا على نشر افكارهم في الاقطار الاسلامية خاصة منها المغربية • وساعدتهم الدعاية الالمانية على ايصالها الى أوساط المسجونين المغاربة • وقد انتشر هؤلاء المنفيون في دول اوروبا كألمانيا وسويسرة • وشنوا الحملات العنيفة على الاستعمار الفرنسي والانكليزي معا • وكان على رأسهم محمد باش حامبة صاحب (مجلة المغرب الاسبوعية) (4) • وزادتهم حماسا تصريحات الحكومة الالمانية والحاحها

---

(2) ا• و• ل• ،ت• ق• /ح• و• /رقم 32-3 ،نفس المصدر •

(3) محمد يوسف نحلة ،تطور الحركة الوطنية في تونس 1881-1956 ، (رسالة ماجستير لم تطبع ،قدمت الى المعهد العالي للدراسات القومية والاشتراكية بجامعة المستنصرية ، العراق ،سنة 1981) ،ص 85•

(4) كانت تصدر بجنيف ابتداء من سنة 1916 باللغة الفرنسية ،ودافعت عن حقوق المغرب العربي • طالع -Bechir, Tlili, "La grande guerre et les questions Tunisiennes : Le groupement de la "Revue du Maghreb" 1916-1918", Cahiers de Tunisie, T.XXVI, N° 101-102, 1er et 2ème trimestre, (Tunis, F.L.S.H., 1978), p. 33-108.

على منح الشعوب المستعمرة الحق في نيل استقلالها واسترجاع ما سلب منها ظلما وعدوانا . فشارك محمد باش حانبة الى جانب الوفد المصري، في مؤتمر القوميات الثالث المنعقد في جوان 1916 بمدينة لوزان وعرض مطالب الجزائر وتونس وركز على منحهما استقلالهما الكامل واسترجاع حقوقهما المغتصبة [5] . كما حضر وفد مغربي جزائري تونسي برئاسة الشيخ محمد العتابي، وصالح الشريف، واسماعيل الصفايحي، الى جانب ممثلي الدول الاسلامية الاخرى، امام مؤتمر اللجنة الهولندية السكندينافية المنعقد في شهر نوفمبر 1917 بستوكهولم، وطالبوا فيه باستقلال بلدانهم الكامل دون قيد أو شرط . بل انهم هددوا فرنسا بتنظيم ثورة مسلحة ضدها بعد ان ذكروها بوعودها خاصة منها تصريحات السيد ريبو (Ribot) الناطق باسم الجمهورية الفرنسية، ((بأن فرنسا تقاتل فقط من أجل حقوق الشعوب .)) [6]

وفي اواخر سنة 1918 تكونت لجنة جزائرية تونسية في المهجر، من السادة الشيخ صالح الشريف، ومحمد الخضر حسين، ومحمد مزيان التلمساني، ومحمد الشيبي التونسي، ومحمد بيراز الجزائري، وحمدان بن علي الجزائري، ومحمد باش حانبة، وبعثت لائحة باسمها الى مؤتمر فرساي طالبت فيها بمنح هذين البلدين حق تقرير مصيرهما . ثم حررت رسالة الى الرئيس ويلسون في 2 جانفي، ألحت عليه فيها باحترام مبادئه وتطبيقها على شعبي الجزائر وتونس [7] .

---

(5) أنظر: -A.M.I/CDN/M.Tunis, N° B 3-13, Rap.Baron, p.22-23.

(6) كان هذا الوفد يتكون من ممثلين عن القوقاز، ومصر، والهند، وطرابلس الغرب، وبنغازي، وتركستان، والجزائر، وتونس، والمغرب الاقصى، الذى قال باسم الشيخ العتابي يهدد فرنسا : ((ان بمناطق فاس، والرباط، ومكناس، والدار البيضاء، ألوفا من المواطنين المسلحين مصممين على الدفاع عن المغرب الأقصى الى النهاية ضد فرنسا .)) ولعله يقصد الاعداد لثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي ؟ أنظر :
A.1er M./S.M.Tunis, C.2, Rap.*Ministère* des A.E.(Con.Stockholm, Comité Holando-Scandinave, du 10 novembre 1917).

(7) وجهت هذه اللجنة تقريرا مفصلا الى مؤتمر الصلح تحت عنوان (مطالب الشعب الجزائري- التونسي) ونشرته (مجلة المغرب) في عددها الصادر في ديسمبر 1918 . طالع :
- الحبيب الجنحاني، محمد باش حانبة، (تونس، د .ت.ن .، 1966)ص 50-52، وكذلك :
- A.M.I./CDN/M.Tunis, N° B 3-13, Rap.Baron, p. 56-57.
- Mustapha, Kraiem, Nationalisme et Syndicalisme en Tunisie 1918-1929, (Tunis, Union Générale Tunisienne du Travail, 1976), p. 130-131.

واذا كانت الطريق قد شطت برجال الحركة الوطنية التونسية المنفيين عن الاستقلال بعد هزيمة حلفائهم ، فان زعماءها في الداخل قد اعتمدوا على مشاركة الشعوب المغربية في الحرب الى جانب الحلفاء ، ليطالبوا باستقلال بلدهم . وزادتهم تصريحات رؤساء هذه الدول وجمعياتها تمسكا بذلك واندفاعا الى الامام وراء عدالة قضيتهم التي اعترف بها ساسة فرنسا مرارا وتكرارا .

وقد بعث الفرنسيان كليمنصو وليبح سنة 1915 ، باسم مجلس النواب والشيوخ الفرنسي ، رسالة مفتوحة الى الرئيس الفرنسي برياند *Briand* ، طلبا منه فيها أن يطبق سياسة حرة في الجزائر وتونس والمغرب تسودها الثقة وتكون واضحة المعالم واسعة الكرم . وفي شهر نوفمبر من السنة الموالية صوت مؤتمر جمعية حقوق الانسان بباريس بالاجماع على حق الشعوب الصغيرة والكبيرة في الاستقلال . وعرض الاشتراكي الفرنسي موتي ، نائب مقاطعة الرون ، في تقريره امام المؤتمر المذكور ، المنعقد في جانفي 1917 ((ان خمسة ملايين من الاهالي الجزائريين لا يتمتعون باي حق في معظمهم بينما يتمتع مليون واحد من الفرنسيين بجميع الحقوق .)) (8)

وصرح مجلس الامة الفرنسي في جوان من نفس السنة ان فرنسا تبتعد عن كل فكرة تقتضي الاستيلاء والاستعباد للشعوب الصغيرة ، وهي تفتح لهذه ضمانات دائمة امام جمعية الامم لنيل استقلالها .

وكان الرئيس ويلسون قد أعلن عن نقاطه الاربع عشرة في جانفي من نفس السنة أيضا (1917) منح فيها جميع الشعوب حق تقرير مصيرها دون تمييز عرقي أو ديني ، ونادى بتكوين جمعية امم من الشعوب الكبيرة والصغيرة يمكن لكل شعب مستعمر من طرف قوة أجنبية ان يطرح رغائبه امامها ، وهي ترد عليه (9) .

وقد انتشرت هذه التصريحات في فرنسا وتونس والبلدان الاخرى ، ونالت اعجاب الشعوب المضطهدة . فلم تكد الحرب العالمية الاولى تضع أوزارها حتى قامت هذه الشعوب

---

(8) أنظر: - *A.M.I./CVN/nd.Tunis, N° 3-13, Rap.Baron, p. 23.*

(9) أ. و. ل. ، م. ت. ق / ح. و / رقم 32-3 ، (صفحة من تاريخ الجهاد السياسي في تونس ـ المحكمة العسكرية الفرنسوية توالي سرد رأيها في الحركة التونسية) جريدة الشورى ، عدد 160 ، (القاهرة ، في 15 ديسمبر 1927) .

ـ خاصة منها العربية في المشرق والمغرب ـ بطلب استقلالها ، وهو المفهوم الحقيقي لمبدأ حق تقرير المصير (10) .

ومهما كان أثر مبادئ الرئيس ويلسون وتصريحات الفرنسيين في دفع هذه الشعوب المضطهدة الى المطالبة باستقلالها ، فان هذه الشعوب ـ العربية خاصة ـ كانت تمر بعد الحرب بتقلبات عاطفية اسلامية حادة وهي نتيجة طبيعية للازمات التي عرفها العالم الغربي الأوروبي في هذه الفترة .

لقد كانت تونس احدى هذه الشعوب العربية التي تقدمت بعرائضها للمؤتمر فرساي معتمدة أساسا على مبادئ الرئيس ويلسون . غير ان الثقة لم تكن مطلقة في وفاء الاوروبيين بوعودهم ، وهو ما جعل الشيخ الثعالبي يرد على حسن قلاتي لما سأله في جوان 1919 عن امكانية تطبيق آراء ويلسون في مستعمرات فرنسا ، بقوله انه ليس طفلا ، لينخدع لذلك وانما سيعتمد عليها لبسط مطالب التونسيين امام السياسيين الفرنسيين (11) . وهو ما يدل على سعة تجربة الثعالبي وحنكته السياسية واستغلاله للاوضاع العالمية لبسط القضية التونسية بوجه جديد أقل ما ينتج عنه التعريف بها وانتشارها في الاوساط الاسلامية والاوروبية .

ولم يكد دخان طلقات مدافع الفرح من اعلان نهاية الحرب في شهر نوفمبر 1918 يتبخر في السماء حتى اسرعت النخبة التونسية المثقفة من المسلمين واليهود الى عقد اجتماع عام لمناقشة كيفية تقديم عريضة باسم التونسيين الى الحلفاء للمطالبة بحق تقرير المصير . وسرعان ما اجتمعوا وسرعان ما انقسموا بين المطالبة بحكم ديمقراطي دستوري يتحقق فيه الاستقلال الذاتي ، وبين الحصول على الاصلاحات التدريجية وقد مالت الطائفة اليهودية مع الفئة المسلمة المعتدلة (12) .

---

(10) نفس المصدر ، رقم 77 ـ 2 ، (بعد 16 عاما ـ صفحة من تاريخ الحركة الوطنية التونسية 1920 ـ 1936) بقلم صالح بلعجوزة ، جريدة مرشد الامة ، الصادرة في 12 نوفمبر و14 ديسمبر 1936 .

(11) احمد الدرعي ، دفاعا عن الحداد او بكت كتب الكيت ، تقديم وتحقيق محمد انور بوسنينة ، (تونس ، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ، 1976) ، ص 187 ـ 188 .

(12) انظر Khaïrallah, Hist. Synd., p. 151-155 -

كان الشيخ الثعالبي يقود الفئة الاولى ، فدعا الى اجتماع آخر تخلف عنه اليهود ، وحضره أبرز الاعضاء التونسيين وعلى رأسهم احمد الصافي (13) ، وحسن قلاتي . واجتمع رأيهم على ايفاد احمد السقا (14) الى باريس يحمل عريضة باسم التونسيين الى المؤتمرين بفرساي يطالب فيها بتطبيق مبادئ الرئيس ولسون الاربعة عشر (15) .

وقد علق الفرنسيون على اتحاد كلمة التونسيين رغم اختلاف آرائهم ، فأعادوا الفضل في ذلك الى قدرة الشيخ الثعالبي على الجمع بين ذوي الثقافة العصرية المتفتحين على الحضارة الاوروبية وبين شيوخ الزيتونة المتشددين في التمسك بالمحافظة . ثم وجهوا اللوم الى سياسة فرنسا التعليمية التي مكنت هذه النخبة التونسية من تعلم القوانين على كراسي جامعات فرنسا ومقاعد جامع الزيتونة الذي ترك به التعليم حرا ، فصار منهم المحامي والطبيب والموظف السامي (16) .

وقد جمعت هذه النخبة فعلا بين الثقافتين العربية والفرنسية ، وأخذت معظم شهاداتها العليا من معاهد وجامعات باريس ، وذلك باستثناء الثعالبي والرياحي وابن يحيى وأمثالهم ممن تخرجوا أو ترددوا على جامع الزيتونة . وكان الدكتور احمد السقا

---

(13) ينتمي احمد الصافي الى عائلة تونسية مسلمة اشتهرت بالقضاء . ولد حوالي 1890 ، وانضم الى حزب الشباب التونسي وهو ما يزال طالبا . وظهر مع ميلاد الحزب الدستوري وانتخب امينا عاما له ، وكان يسهر بحماس على املاك الحزب . انظر :
Mustapha, Kraïem, "Le Vieux Destour: Implantation géographique et assise socio-professionnelle ", in actes du premier Congrès d'Histoire de la civilisation du Maghreb, T. 2, N°1, (Tunis, 1979) p. 250-261

(14) ولد في 3 مارس 1892 بالمنستير . تزوج من فرنسية في أوت 1917 . وكان أبوه قائدا على مدينة قابس . درس بتونس وتابع دراسته العليا بباريس ونال بها الدكتوراه سنة 1916 . وفي بيته اقام الشيخ الثعالبي سنة 1919 مدة شهر ، وهو شريكه في تحرير كتاب (تونس الشهيدة) . أنظر : نفس المصدر .

(15) محمد محفوظ ، تراجم المؤلفين التونسيين ، (بيروت ، دار الغرب الاسلامي ، بلا تاريخ) ، ج 1 ، ص 284-285 . وكذلك :
- *Rodd Balek, "La Tunisie après la Guerre", Afrique française, N° 30, (Juillet-Août 1920), p. 226-227.*

(16) انظر :
- *A.O.M./A.E.P. 2781, Op.cit. ,p.2-3.*
- *Rodd Balek, "Op. cit.".*

من العناصر المتخرجة من جامعات باريس والمتخصصة في الميدان القانوني • فخولت له النخبة القيام بمهمة تبليغ مطالب التونسيين الى موءتمر فرساى • فسافر الى باريس في بداية شهر افريل 1919 (17) يحمل عريضة بمطالب الشعب التونسي •

ذكر التونسيون الفرنسيين في مقدمة العريضة بنص معاهدتي الحماية اللتين كان هدفهما الوحيد هو رفع مستوى التونسيين الى مستوى الشعوب القادرة على حكم نفسها بنفسها ، وان واجب المعاهدتين أصبح أخطر من ذلك بكثير، فلا ينبغي التردد في النهوض به ، اى تعديل نظام الحماية تعديلا حاسما ، لانه لم يقم منذ بدايته الا على الضغط والظلم والارهاب والتعسف وطمس كرامة الشعب ومعالم شخصيته •

ولاحظت العريضة ان الشعب التونسي أصبح يعي حقوقه جيدا و تفتحت عيناه على المبادىء والمثل التي غمرت العالم المتمدن ، وهو يطالب الشعب الفرنسي أن يكشف عنه مظالم الحكم المتسلط ، وأن يرد له ثمرة انتصاراته التي نالها بسواعد أبنائه • وان ذلك لا يمكن أن يتحقق الا اذا ردت اليه حرياته ونظامه الدستوري القائم على المسوءولية والفصل بين السلطات •

ثم ألحت العريضة على الفرنسيين بدوافعهم الانسانية وبما قدمته تونس من تضحيات جسام في الدفاع عن فرنسا في ساعات الهزيمة المنكرة ، حين دفعت تونس خمسة وستين ألفا من فلذات أكبادها فوقع منهم خمسة واربعون ألفا بين قتيل وجريح في سبيل فرنسا (18) .

وتساءل التونسيون في الاخير اذا ما كان الشعب الفرنسي قد تنكر لمبادئه ،

---

(17) قال الثعالبي انه سافر الى باريس يوم 10 جويلية 1919 بطلب من النخبة التونسية ليلتحق باحمد السقا الذى سبقه الى هناك باربعة اشهر • وعليه يكون هذا الاخير قد سافر في بداية افريل من نفس السنة •

(18) كان اليهود التونسيون معفيين من التجنيد الاجبارى أثناء الحرب ، وكذلك الجالية المالطية • بينما عم التجنيد كل المسلمين منذ بداية الحرب باستثناء سكان مدينة تونس ، ولم يطبق على الايطاليين الا ابتداء من سنة 1915 • أنظر :
-Rodd Balek, "La Tunisie après la guerre", Afrique française, N° 30, (avril 1920), p.126-131.

اذ في الوقت الذى شعرت فيه ايطاليا بتطور الفكر بين شعوب العالم فبدأت تعمل على منح ليبيا حكما ذاتيا يكفل لها الحرية والعدالة ، بقيت وعود فرنسا بالحرية للشعوب الواقعة تحت سلطتها حبرا على ورق (19) .

و نلاحظ ان المريضة أرادت ان تدغدغ مشاعر الرأى العام الفرنسي و تثير عاطفته باسم مبادئه الانسانية المعروفة ، وأرادت استغلال ذلك للحصول على نظام دستورى . والحقيقة ان مفهوم تصريحات الحكومة الفرنسية ورجال البرلمان والانسانيين الفرنسيين لم تكن تعني منح شعوب المستعمرات استقلالها ولا حتى اعطاءها نظاما دستوريا حرا ، وانما المراد بذلك كله هو فقط احداث اصلاحات اجتماعية واقتصادية و ثقافية وسياسية لتحسين وضع شعوب هذه المستعمرات مكافأة لها على ما قدمته من تضحيات فداء فرنسا من ناحية ولكي تستمر تبعيتها (الشعوب) وارتباطها بها من ناحية أخرى . ويختلف الأمر بالنسبة للسياسة الانكليزية والايطالية اختلافا كليا في كل من مصر وليبيا ، وذلك حسب مصالح كل بلد .

و بينما كان السقا يكثف جهوده في باريس وينظم اتصالاته هناك ليعرف با قضية التونسية ، كانت النخبة التونسية بتونس تجتمع من حين لآخر بمنازل اعضائها اذ لم يكن لها مقر في هذا الحين ، ولم يكن لها اسم تعرف به .

وكان على رأسها الشيخ الثعالبي ، ومحمد الرياحي ، وصالح بن يحيى ، وفرحات بن عياد (20) . وقد اجتمع من حولهم اعضاء كثيرون من محامين و تجار وصحفيين ، يعملون

---

(19) د رمونة ، ص 158-161 .

(20) ومن اعضاء هذه النخبة ايضا نذكر السادة : احمد السقا ، على كاهية ، الدكتور قرطبي ، احمد الصافي ، حسن قلاتي ، محمد نعمان ، الصادق الزمرلي ، حمودة المنستيرى ، الطيب الجميل حسونة العياشي ، عبد الرحمن اللزام ، الطاهر بن عمار ، محمد التليلي ، الهادى الرياحي ، الهادى الكسورى ، احمد حفيظ ، الجيلاني بن رمضان ، صالح بن العجوزة ، بشير عكاشة ، محمد الجعايبي ، الطيب بن عيسى ، عبد السلام القلي ، السيد حسونة (تاجر بالمهدية) ، مقداد الورتاني ، راجح ابراهيم ، الشاذلي القسطلي ، عزوز العنابي ، بوبكر العروسي ، مصطفى بن عبد الله ، الشاذلي بن رباله ، عبد القادر القبائلي ، عبد السلام البكوش ، بيدوين سيموث (اسرائيلي) عمر المقدم ، عبد اللطيف الخشين ، مصطفى شلوف ، الحبيب زويتن ، رحيم بن مصطفى ، محمد المقدم ، محمود المبزع ، حسن بن سا ، صالح شرقي ، احمد حمزة ، محمد حجوج ، العروسي المنشاوى ، توفيق الفندرى ، روبير سوريا ، ايدوارد نطاف (اسرائيليان) .

ونضيف الى هذه القائمة كلا من الامير محمد الجبيب باى ولي العهد ، وابنه محمد الصالح باى . أنظر : أ . و . ف ، م . ت . و . /ح . و . / تونس ، رقم 32-3 ، الشورى ، عدد 161 ، 22 ديسمبر 1927 .

كلهم من أجل بلوغ الهدف الذى سافر من أجله السقا . واتفق رأيهم على ارسال الشيخ الثعالبي الى باريس لشد أزر مبعوثيهم واستغلال معارف الشيخ هناك من الفرنسيين لعله يبلغ الهدف .

ومع أننا لا ندرى تاريخ اجتماع النخبة بالضبط ، الا أن بعض تقارير الشرطة الفرنسية تشير الى انه وقع سريا في نهاية شهر جوان 1919 ، بحضور اساتذة من جامع الزيتونة وبعض أعيان مدينتي صفاقس وتونس . وقد اتفق الجميع على الدفاع عن مصالح المسلمين التونسيين ، وشرعوا في جمع الاموال لتغطية مهام وفديهما بباريس ، ونشر المقالات في الصحف الفرنسية والاجنبية للمطالبة بتحسين أوضاع المسلمين التونسيين (21) .

وسافر الشيخ الثعالبي فعلا يوم 10 جويلية من نفس السنة بعد أن جمع كثيرا من الوثائق عن أحوال التونسيين العامة ليعتمد عليها في التعريف بالقضية في باريس أمام الرأى العام العالمي والفرنسي خاصة منهم الاشتراكيين والانسانيين . ولكي يطالب باصلاح النظام القائم بتونس ، ودفع مظالم سلطته .

ولم يكد الثعالبي يصل الى باريس حتى ضم جهوده الى السقا وبدأ بتعريف الفرنسيين بالقضية التونسية وبشرحها لهم بوضوح ولعل هذه هي أول مرة تطرح فيها هذه القضية سياسيا على مسرح الأحداث الدولية على هذا الشكل وبهذا المفهوم ، الذى حدده الثعالبي في سجله ، وهو تغيير نظام الحماية نهائيا ومنح التونسيين حريتهم ، وحقهم في الانتخاب والمراقبة والمشاركة في ادارة البلاد (22) .

وقد استطاع الوفد التونسي ، برئاسة الثعالبي ، بعد شهر فقط من وصول هذا الأخير الى باريس ، أن يقنع الكثير من الفرنسيين بعدالة قضيته . فساندها الاشتراكيون والشيوعيون منهم ، واهتموا بالدعاية لها في صحفهم اليسارية المتطرفة التي عبرت عن حقوق الحركة

---

(21) أنظر: - A.Ter M./S.HH.Tunis, C.1 , Note de Police Spéciale de Sureté du Chemin de Fer des Ports de Tunis, du 2 juillet 1919.

(22) أ. و. ل. ح. م. ت. ق. /ح. و/ تونس ، رقم 32-3 د (صفحة من تاريخ الجهاد السياسي في تونس) ، الشورى ، عدد 163 ، (5 جانفي 1928) .

التونسية (23) . ثم انهم ناصروا الثعالبي وشجعوه على القاء المحاضرات والخطب للدعاية لقضيته . غير ان الوفد شعر بالعجز عن القيام بهذا العبء الثقيل ، فاستند على رجال السياسة والفكر الفرنسيين الاكثر تأثيرا في الرأي العام ، واستغل براعتهم الكتابية والكلامية في نشر آرائه والدعاية لقضيته .

وقام السقا بتقديم الثعالبي الى الاستاذ مارسال كاشان ، الاشتراكي الفرنسي ، الذى وعد الثعالبي ووفى بوعده ، بعرض القضية التونسية على مجلس النواب الفرنسي ، بعد أن قدم له الثعالبي تقريرا مفصلا عن ذلك (24) .

ومن الجمعيات الفرنسية التي ساندت التونسيين في مطالبهم ، جمعية حقوق الانسان ، التي وعدت الثعالبي بالاشتغال بقضية تونس . الا أنها لم تتناولها الا في نهاية سنة 1919 نظرا لانشغالاتها الكثيرة .

ونظرا لاهمية الدعاية في ذلك الحين ، فاننا نجد التونسيين يركزون عليها كثيرا من أجل كسب أكبر عدد ممكن من الانصار . فانضم الثعالبي الى جمعيات فرنسية كثيرة خدمة لقضيته ودعاية لها . نذكر منها جمعية فرنسا والشرق ، والجمعية الفرنسية بالشرق ، والجمعية الفرنسية - الاسلامية ، والجمعيات العلمية ، وفرقة المستنير التي أسس احد فروعها بعد ذلك المستشرقون المقيمون بباريس ، وعينوا الثعالبي رئيسا لها . كما كان في نية هذا الاخير تأسيس جمعية فرنسية - تونسية تمنح رئاستها للسيد شارل جيد ، ولكنه أسر قبل تحقيق هذه الامنية (25) .

---

(23) أنظر : - A.M.I./CDN/MN.Tunis, N°A 1-60, Fce dif.Tun.)p. 673-674

وعن موقف الاشتراكيين الفرنسيين من الحزب الدستوري ، أنظر أيضا :

-Selwa, Zangar, "Les Socialistes et les questions arabes au lendemain de la première guerre mondiale", Les Cahiers de Tunisie, T.XXVIII, N° 113-114, 3e et 4è tri,(Tunis, FLSH,1980)) p. 77-

(24) جاء في تقرير العقيد بارون ان السيد السقا كان قد ربط علاقته مع الاستاذ كاشان قبل وصول الثعالبي الى باريس . وقد وعده بعرض القضية على البرلمان الفرنسي بشرط أن يقدم له السقا تقريرا مفصلا عن ذلك ، يكون خاليا من الأكاذيب والمبالغات . انظر :

- A.M.I./CDN/MN.Tunis, N°33-13,Rap.Baron,p.30-31.

وكذلك : أ . و . ل . م . ت . ق / ح . و / تونس ، رقم 32-3 3 (صفحة من تاريخ الجهاد السياسي في تونس) ، الشورى ، عدد 165 ، (القاهرة ، 19 جانفي 1928) .

(25) أنظر : -A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° 3-13, Op.cit., p;31-32.

وبالاضافة الى اعتماد الثعالبي على الشخصيات الفرنسية والاجنبية في خدمة قضيته ، فانه اعتمد ايضا على المسلمين المقيمين بباريس ، وخاصة منهم المغاربة . فأسس لاول مرة جمعية الطلبة التونسيين بباريس وترأسها بنفسه . والظاهر أنه اعتمد فقط على المسلمين منهم ، مما أدى بمحمد باش حامبة الى أن يطلب منه في رسالته بتاريخ 16 نوفمبر 1919 ، أن ينصح أعضاءها بضم جهودهم الى اخوانهم اليهود والاستعانة بهم (26).

وكان الثعالبي يقوم بجولات دعائية في المحلات العمومية ويكثر من الخطب والمقالات الصحفية . وقد تلقى مساعدة كبيرة من الحزب الاشتراكي الفرنسي . ولم ينفرد الثعالبي بهذا العمل لوحده وانما شاركه فيه كل من السقا ، ومحمود المبزع ، وعبد اللطيف الخشين ، وحسن ابن مسا ، وصالح شرقي وغيرهم . وقد اجتمع معهم الثعالبي في 5 سبتمبر 1919 وأقاموا حفلا وطنيا بمناسبة يوم عيد الاضحى شارك فيه بعض التونسيين الاخرين مثل مصطفى شلوف ، والحبيب زويتن . ومن الشخصيات الفرنسية الشهيرة التي حضرت حفلهم وساندت قضيتهم السيد جوزيف برانس ، ولونجي (Longuet) ورونو (Renaud) ودى بيني (De Pinet) ، وكلهم من الاشتراكيين والانسانيين . وكلف الثعالبي الاستاذ السقا بقراءة خطاب تعرض فيه الى مطالب التونسيين وبين أسبابها . فنال اعجاب الحاضرين خاصة منهم السيد لونجي الذى وعدهم ، باسم الاشتراكيين بتبني القضية والعمل على تحقيق العدالة للشعب التونسي .

ولم يقتصر عمل التونسيين على الخطب والمحاضرات والتجمعات ، بل تعداها الى تمويل الصحف الاجنبية من أجل قضيتهم . ومن الصحف التي اهتمت بذلك نذكر جريدة (لومنيتي) ، لسان الحزب الشيوعي الفرنسي ، التي اهتم فيها مديرها السيد دينوى بنشر بعض المقالات عن القضية التونسية وتعرض الى وعود الرئيس كليمنصو التي جاء فيها بأن الامم الاوروبية ستعمل على سعادة شعوب مستعمراتها (27).

وبهذه الاعمال يكون الوفد التونسي ، برئاسة الثعالبي ، قد عرف الرأى العام العالمي والفرنسي بمطالبه ، وكسب الاشتراكيين الفرنسيين في صفه . ولكن هؤلاء كانوا ينظرون الى القضية التونسية بعين انسانية ومصلحية في أبعادها . وحتى الرأى العام الفرنسي لم يكن

---

(26) أنظر : -A.Q.O./S.T1917-40,N°318,Correspondance du Rédident Général-Tunis au Président Millirand, Tunis, le 28/7/1920, p. 48-56, (Cor.Bach Hamba avec Taâlbi).

(27) أنظر : -A.M.I./CDN/MN.Tunis, N°B.3-13, Rap.Baron, p. 32-34

يقصد بتعاطفه مع التونسيين منحهم دستورا يفصلهم عن فرنسا ، بل ان هذه المعاملة بالاحسان كانت فقط من أجل اجراء اصلاحات فرنسية بتونس كالزيادة في عدد الاعضاء التونسيين في مجلس الشورى ، وفتح ابواب التعليم لابنائهم على ان يجرى ذلك كله في اطار المعقول ، أى دون التخلص من الاستعمار الفرنسي .

واستمر الوفد التونسي في تكثيف نشاطه السياسي . وبعث احتجاجات الى جمعية حقوق الانسان خصصها لقضية انشاء المحاكم ، ووجه مثلها الى المقيم العام بتونس ، والبرلمان الفرنسي بباريس [28] . وقد اشتغل الثعالبي اثناء ذلك بتأليف كتابه (تونس الشهيدة) الذى نشره سنة 1920 . ويعتبر هو آخر سلاح طرحت به المسألة التونسية باتجاهها الجديد على البساط السياسي العالمي . ذلك ان نشاطها قد قل خاصة بعد فشل الحزب الاشتراكي الفرنسي في انتخاباته (اكتوبر 1919) . فكانت هزيمة هذا الحزب بمثابة الضربة القاصمة لآمال النخبة التونسية بتونس ، بل كانت مفتاحا لما كانت تنطوى عليه نفوس أعضائها من اختلاف في الآراء بين المبغضين للحماية الفرنسية والراضين عنها .

ونلمس مظاهر هذا الاختلاف في المراسلات التي لم تنقطع بين الثعالبي والنخبة التونسية بتونس . ذلك ان علي كاهية ، وفرحات بن عياد ، والصادق الزمرلي ، والشاذلي القسطلي كانوا كلهم يتابعون الأحداث ويرتاحون الى انتشار دعوتهم ، ويتبادلون الرسائل والآراء مع الثعالبي . وقد أبدوا له تخوفهم من انعكاس هزيمة الحزب الاشتراكي الفرنسي ، الذى ربطوا قضيتهم به ، على حركتهم ، وصارحوه بميولهم الى الاعتدال واتباع سياسة التعاون مع الفرنسيين . وكتب له علي كاهية بتاريخ 20 اكتوبر 1919 يقول : ((يجب ان تقنع الرأى العام الفرنسي بوجوب تغيير حالتنا اما بمحو المؤسسات القائمة أو باحداث اصلاحات جذرية وحقيقية .)) وراسله الشيخ صالح بن يحيى بتاريخ 7 نوفمبر 1919 ايضا يعبر له عن مدى ميول التونسيين الى الاعتدال ، فقال : ((ان التونسيين بمجرد أن سمعوا بانهزام الحزب الاشتراكي الفرنسي الذى ربطوا قضيتهم به ، قد انهارت معنوياتهم وتلاشى حماسهم لمبادئهم وهاجروها .)) [29] . كما كاتبه ابن عياد بتاريخ 4 ديسمبر 1919 ، يقول : ((يجب التعريف

---

(28) أنظر : -A.Q.O./S.T.1917-40, N°318, (Cor.Hamba Taâlbi) du 22, 23 et 28/12/1919 et du 2,8 et 17/1/1920.

(29) أنظر : - A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B.3-13, OP.cit, p. 36-37.

بشخصيتنا وهويتنا وتوضيح برنامجنا و تحديد مطالبنا والاعلان عنها • وان ما يخيف أنصار سياسة الاغتصاب والتعدى حاليا هو مطالبة الامم المهضومة الحق باعادة حريتها واستقلالها بصوت عال • ونحن لا نخشى المتابعة في ذلك لاننا لا نهدف الى خلق البلبلة وخلق التفرقة • انما هدفنا الوحيد هو أن نفهم العالم ، عن طريق الاحتجاجات والتصريحات ، بأننا نريد العيش في ديارنا آمنين في سلام واننا لسنا مجرمين ولا غزاة •)) (30)

و بينما كان هؤلاء المعتدلون يحاولون ارغام الثعالبي على الرضوخ لرأيهم ، فان محمد باش حامبة كان يمثل لوحده اتجاها متطرفا اراد التأثير به على الثعالبي وكان يلح عليه في اتباعه ، ويحرضه على المطالبة بالاستقلال الكامل (31) ، لان سياسة الرجاء والتسامح لم تعد تجدى نفعا ((وان زمن العمل في الخفاء قد ولى وراح ، ويجب المطالبة بالاستقلال صراحة دون مراوغة ، والاعلان عن الهدف للشعب (الاستقلال) ، وهو الطريق السليم لأن فرنسا ما زالت تعتبرنا شعبا مغلوبا على أمره رغم ما ضحينا به من أجلها •)) (32) وكان يلح عليه في مراسلاته بان يلقاه في بلد محايد ليتفق معه على وضع برنامج للحركة • وفضل أن يكون ذلك بالقطر السويسرى لكونه مقر عصبة الامم • وقد ركز باش حامبه في جميع مراسلاته على مواصلة الكفاح والمطالبة بالاستقلال ، وحث التونسيين على الاعلان عن رفضهم لسلطة الحماية والتصريح بالانفصال عن فرنسا • وكان يبعث الامل في نفس الثعالبي و يقوى ثقته في المستقبل و يحثه على نشر كتابه (تونس الشهيدة) وضرورة توزيعه في العالم العربي لاستنهاض الرأى العام العالمي ضد فرنسا (33) .

ووقف الثعالبي موقفا وسطا بين الاعتدال والتطرف ، فكان بذلك أكثر واقعية من الطرفين . وراسل النخبة التونسية يحثها على الصمود والوفاء لمبادئها ومساندة الحزب الاشتراكي الفرنسي الذى ساندها من قبل ، اذ هو الوحيد الذى اعترف بقضيتها ، وأكد لها عدم بغضه

---

(30) نفس المصدر ، ص 39-49 •

(31) كرر باش حامبة عبارة (يجب المطالبة بالاستقلال صراحة دون مراوغة) في جميع مراسلاته مع الثعالبي •

(32) أنظر : -A.Q.O./S.T.1917-40, N°318, Op.cit.

(33) نفس المصدر •

للاحزاب الاخرى (34) . ثم كاتب حمودة المنستيري ،أحد اعضاء هذه النخبة ،في شهر فيفري 1920 ،يقول له : ((ان حركة ويلسون قد اخفقت وان الآمال المبنية عليها قد انهارت ، ... ولهذا لزم الاستعداد لكفاح طويل مرير،انه لم يعد الآن في الامكان المطالبة بالغاء نظام الحماية ،فذلك قول لا يسمع لعاليوم أحد انما يجب أن نطالب باعلان الدستور التونسي ،وأخذ زمام الحكم بأيدينا ،وادارة بلادنا بأنفسنا وتكتفي فرنسا بالاشراف والحماية الخارجية ، كما هو منطوق ومفهوم معاهدة 1881 .)) (35)

ومع ذلك فقد اتفق الثعالبي مع الطرفين المتطرف والمعتدل على تقديم العرائض والاحتجاجات باسم الشعب التونسي . فلبى باتباعه هذه الطريقة رغبة محمد باشحامبة في الدعاية للقضية من جهة ودعم أعمال فرحات بن عياد في تحرير العرائض وتقديمها الى الباي ، والمقيم العام ،والبرلمان الفرنسي من جهة أخرى . الا ان سير هذه العملية (تحرير العرائض) لم يكن سليما . فالشعب لم يكن يعي أبعادها وأهدافها ،فأعطى فرصة لمحبي الاعتدال أن يحرروا العرائض بأسلوب خال من التطرف . ومن ذلك العريضتان اللتان بعثهما فرحات بن عياد الى الثعالبي والموجهتان أساسا الى الباي والمقيم العام ،وقد حررهما بنفسه ووقع عليهما أكثر من خمسمائة تونسي . وكان الهدف من ارسالهما الى الثعالبي أخذ رأيه فيهما وتنقيحهما . ولكن ابن عياد طلب منه ان يراعي شعور التونسيين المتخوفين من اضطهاد سلطة الحماية ،وأن لا يضيف عليهما شيئا من الشدة والتطرف حتى لا يحجم التونسيون عن امضاء العرائض في المستقبل (36) .

وقد رد عليه الثعالبي في 28 ديسمبر 1919 يلح عليه في ايقاظ روح الأمل في النفوس وقال له : ((لقد حانت الساعة التي يجب أن نرفع فيها أصواتنا . يجب امضاء العرائض وتقديمها بدون تراخ وهذا آخر رجاء أعلقه عليكم ،واني أضمن لكم ، لو نجحتم في اقناع الناس بامضاء العرائض ،اننا سنتحصل على الدستور المطلوب مع كل الضمانات الملائمة .

---

(34) أنظر: - A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B 3-13, Op.cit, p. 41-42.

(35) المدني ،ج 1 ،ص 173 .

(36) رسالة فرحات بن عياد ،بتاريخ 3 ديسمبر 1919 الى الثعالبي ،أنظر :
A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B.3-13, Op;cit., p. 39.

ان الزمن الذى مضى لم يترك مكانا للصمت الآن ،فالعجل العجل !))(37)

استمر العمل يجرى على قدم وساق لامضاء العرائض طبقا لارادة الثعالبي وابن عياد وباش حامبة . ووصف محمد الرياحي سير هذه العملية في رسالته الى الثعالبي بتاريخ 15 ماى 1920 ،فقال : ((ان العرائض على وشك الانتهاء ،خاصة الموجهة لك لعرضها على الرأى العام بباريس . غدا يوم عيد الفطر ،يكون فيه العيد عيدين ،عيد احتفال البلاد بالفطر ، واحتفالها بالاستقلال ،فهو عيد الاحرار .))(38)

ولم يتحقق أمل رجال الحركة في امضاء العرائض من طرف الشعب التونسي الآ في بداية شهر جوان 1920 رغم الجهود التي بذلت من أجل ذلك . والواقع ان الحزب الحر الدستورى قد استمد برنامجه السياسي من هذه العرائض.

ولعل البعض يتساءل عن سبب احجام الشعب عن امضاء العرائض وتخوفه من هذا الامر . ان لهذه القضية أسبابا في مقدمتها نشاط فئة الاعتدال ،وعلى رأسها حسن قلاتي ، وهي الفئة التي تريد التجاوب مع سلطة الحماية وتنادى بمشاركة التونسيين في ادارتها . وقد استفحل امر هذه الفئة خاصة بعد انهزام الحزب الاشتراكي الفرنسي ،فأوهمت الشعب التونسي ان العاقبة ستعود عليه بالاضطهاد والنكال .

هذا من ناحية ،ومن ناحية أخرى هناك موقف جمعية الطلبة التونسيين بباريس ، التي اعترفت في برقيتها الى المقيم العام الفرنسي بتونس ،بسلطة الحماية وطالبت باشراك التونسيين في تسيير ادارتها (39) .

تأثر الشعب بهذه الآراء المعتدلة واتبع خط المسالمة وابتعد عن الحركة وتأخر عن تمويلها ، فساهم بهذه العملية ،عن قصد أو عن غير قصد ، في تحطيمها وارغامها على الميل الى الاعتدال الصريح !

---

(37) أ . و . إ . م . ت . ق / ح . و / تونس ،رقم 32-3 B (صفحة من تاريخ الجهاد) ،الشورى ، عدد 167 (القاهرة ، 2 فيفرى 1928) .

(38) انظر : - A.M.I./CDN/MN.Tunis, B 3-13, Op.cit., p. 39-49.

(39) انظر : - A.Q.O./S.T.1917-40, N°318, Op.cit., (Cor.Bach Hamba: à Taâlbi, du 2 et 16/11/1919).

ومما زاد الأمر حدة تعمق حسن قلاتي في الاعـتدال و تشككه في قدرة الوفد التونسي على تحقيق هدفه ،ومطالبته بتشكيل وفد آخر يسافر الى باريس ليعمل بطرق جديدة تتماشى مع الظروف ، وتختلف عن تلك التي اتبعها الوفد الأول الفاشل • ثم ان حسن قلاتي صرح أمام أعضاء الحركة (بتونس) اثناء اجتماعهم في أول فيفرى 1920 ،بوجوب اتباع سياسة التعاون مع سلطة الحماية تكون موجهة أساسا نحو الاصلاحات الحقيقية • وقد لقي قلاتي معارضة شديدة من طرف محمد الرياحي الذى انكر سياسة التعاون من أساسها ،ورفض الاعتراف بأدنى حق لفرنسا في تونس (40) •

و يمكن أن نستخلص من خلال هذه الآراء المختلفة أربعة اتجاهات ،الأول اتجاه ثورى يدعو الى الاستقلال الكامل ومعاداة الفرنسيين صراحة ، و يمثله محمد باش حامبة ،والثاني اتجاه اصلاحي ينادى بالمساواة بين الفرنسيين والتونسيين وتحقيق حكم ذاتي في اطار الجمهورية الفرنسية ،و يمثله حسن قلاتي ،والثالث اتجاه معتدل يسعى الى النهوض بالتونسيين في اطار سلطة الحماية و يمثله فرحات بن عياد ،وعلي كاهية ، والشاذلي القسطلي ، والاتجاه الرابع واقعي مرن ،و يمثله الثعالبي ، والرياحي ،وابن يحيى • وقد استغل أصحاب هذا الاتجاه ظروف نهاية الحرب فطالبوا بالاستقلال ثم عدلوا عن هذه السياسة لما رأوا عدم جدواها ، و سلكوا بدلا من ذلك منهج الاصلاح •

لقد تأثر الاتجاه الأول (الثورى) بالحركة العربية الاسلامية في المشرق الاسلامي ، وديار الغربة باوروبا الغربية معا • وسيطرت على أصحابه فكرة الجامعة الاسلامية خاصة لما أصيبوا بخيبة أمل في سياسة التعاون التي انتهجوها مع سلطة الحماية في بداية حياتهم السياسية تحت تأثير ثقافتهم الغربية •

و بقي الاتجاه الثاني (الاصلاحي) متمسكا بثقافته الغربية ومؤمنا بسياسة التعاون مع الفرنسيين وادخال اصلاحات على نظام الحماية ، بينما نادى الاتجاه الثالث بمشاركة التونسيين في ادارة شؤون البلاد في ظل سلطة الحماية •

اما الاتجاه الرابع والاخير (الواقعي) فهو اتجاه عربي اسلامي في أصله ، لم يكن أصحابه يؤمنون في قرارة أنفسهم بسياسة التعاون مع الفرنسيين • وكانوا منذ البداية يؤمنون بالاستقلال

---

(40) أ• و• إ• ، م• ت• ق / ح • و •تونس رقم 32-33 (صفحة من تاريخ الجهاد) ، **الشورى** ، عدد 165 ، (القاهرة ، 19 جانفي 1928) •

الكامل عن طريق التمسك بمبادىء الرئيس ويلسون والتعلق بسراب شعارات الفرنسيين أثناء الحرب الاولى. وقد ظهر ذلك جليا في محافظتهم على أصالتهم العربية الاسلامية التي تمثلت في سياسة الثعالبي ، وفي آرائه التي تضمنها كتاب (تونس الشهيدة) ، وهي الآراء التي أثر بها على باقي الاتجاهات فسارت في ركابه حين تقديم العريضة لمؤتمر فرساي سنة 1919 . ولكن الآية انعكست عند خيبة الأمل في المؤتمر المذكور ، فرضخ الاتجاه (الواقعي) ، كما سنرى ، الى الاتجاهين الآخرين : الاصلاحي والمعتدل ، وسار على منوالهما . وصارت مبادئهم قدرا مشتركا . وبذلك أصبح الاتجاه الرابع واقعيا مرنا بعد أن كان ثوريا متصلبا . ونلمس هذا التحول جليا واضحا في أهداف برنامج الحزب الحر الدستوري التونسي السياسية .

2 - برنامج الحزب :

عقدت النخبة التونسية اجتماعا عاما بتونس يوم 5 فيفرى 1920 ، واتفق الجميع على برنامج سياسي جديد ، صار بعد اقراره النهائي يمثل المطالب الأساسية للحزب الحرّ الدستورى التونسي ، و يبيّن هدفه على المدى القريب والبعيد . وعرضها ابن عياد على الثعالبي في رسالة له بتاريخ 7 فيفرى 1920 أيضا ، للدراسة والتحقيق . فوافق عليها الثعالبي بعد تعديلها وردها اليه في 18 فيفرى من نفس السنة (41) .

وكان الشيخ صالح بن يحيى ، وهو أحد أقطاب الحزب البارزين ، وأحد مساعدى الثعالبي المخلصين ، متفائلا بهذا البرنامج . فراسل الثعالبي يوم 6 مارس 1920 يطلب رأيه ويشرح له أن المطلب الأول القاضي بتكوين مجلس منتخب انتخابا عاما ، فيه خير كثير اذ الأغلبية ستكون للتونسيين ، فتسير الأمور بارادتهم .

ثم ان نفس الأعضاء عقدوا اجتماعا عاما بتونس يوم 14 مارس 1920 ، وهو أول اجتماع تأسيسي للحزب الحر الدستورى التونسي ، وقرروا أن الغاية التي يهدف اليها الحزب هي الاستقلال ، وانما مطالبه التي سيفاتح بها الوفد الدستورى كلا من الباى والمقيم العام ، هي مطالب مرحلية فقط ، وستمكن الحزب من العيش في ظلها ريثما يكوّن شبه رأى عام من التونسيين . و تعهد المنخرطون في الحزب على نشر أفكاره والسعي في ادخال الناس في شعبه وحثهم على امضاء العرائض (42) . وقد سمينا (غاية الاستقلال) بالاهداف البعيدة ، و (مطالبه المرحلية) بالاهداف القريبة .

كانت أهداف الحزب الحر الدستورى التونسي البعيدة ترمي الى تخليص البلاد التونسية من نير الاستعباد ورفع الشعب الى مستوى الشعوب الحرة الاخرى ، فيتمتع بحقوقه وحرياته مثلها . و بناء على ذلك فقد عمل في اتجاه هذه الغاية بجميع الوسائل النافعة له ، واجتهد

---

(41) أنظر : - A.Q.O./S.T.1917-40, N°318, Cor.Délégué Rd Gl au Pd Conseil, du 24/11/1920, p.197.
- A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B 3-13, Op.cit., p. 41-42.

(42) أ. و. ل. م. ت. ق/ح. و/ تونس ، رقم 54-B2 ((جملة المؤتمرات التي عقدها الحزب الحر الدستورى التونسي من سنة 1920 الى 1955)) مقالة بقلم عمر بن قفصية .

في وضع دستور يضمن للشعب التونسي حكمه الذاتي ويسير شؤونه بنفسه طبقا لمبادئ العدل المستبعة من الشعوب المتمدنة ·

وقد فصل المؤتمرون معاني ومرامي الحزب البعيدة · فالتزموا — في برنامجه — بفصل السلط التشريعية والتنفيذية والقضائية ، وضمن الحريات الشخصية في المسكن والاجتماع ، والملكية ، والقول ، والكتابة ، والنشر ، وجعل منها حقوقا مقدسة لجميع سكان المملكة التونسية · وكان يؤمن بأنها من مستلزمات النجاح وازدهار البلاد ، ثم قال أخيرا بضمان بقاء السلطة وراثية في الاسرة الحسينية المالكة وتعهد بالاخلاص لها · وقد جاءت هذه الأهداف (البعيدة) مفصلة على النحو التالي :

1) الحكومة :

تتألف الحكومة في حكم الدستور من الوزراء الذين يختارهم من يعينه الامير لتأليف الوزارة ، وتولى رئاستها · وتكون الوزارة مسؤولة أمام مجلس الأمة التونسي · ويجب لبقائها في الحكم أن تتمتع بثقة الأغلبية · ولهذه الوزارة الحق في تكليف المقيم العام الفرنسي بتونس بادارة السياسة الخارجية تحت مسؤوليتها ، وذلك ريثما تتمكن الحكومة التونسية من تسيير شؤونها الخارجية بنفسها مباشرة بواسطة مكلفين بشؤونها الخارجية (43) .

2) مجلس الأمة التونسي :

يتكون مجلس الأمة التونسي من أعضاء ، ينتخبهم التونسيون خاصة · ونظرا للحالة الراهنة يمكن للجاليات الأجنبية أن تنيب عنها ممثلين لا يمكن أن يتجاوز عددهم ثلث مجموع أعضاء المجلس ، وذلك رغما عن عدم أي حق شرعي يسمح للأجانب بالمشاركة في العمل التشريعي مع التونسيين · وهذه الحالة مرهونة بتمكن الأجانب من الامتثال للقوانين التونسية ·

وفيما يخص الحقوق المدنية فان كل تونسي له من العمر واحد وعشرون سنة له الحق في انتخاب الأعضاء التونسيين بمجلس الأمة · أما انتخاب الأعضاء الاوروبيين فيجرى على مقتضيات خاصة تصدرها الحكومة بالاتفاق مع المقيم العام ويصادق عليها مجلس الأمة ·

---

(43) أنظر - *Daniel, Goldstein*, *Libération ou Annexion, Aux chemins croisés de l'Histoire tunisienne 1914-1922*, (*Tunis, MTE, 1978*), p. 294.

كما تتأسس مجالس عامة في مراكز الولايات (القائدات) تكون وظيفتها مشاركة (رئيس المجلس (القائد)) في ادارة الولاية . وينتخب أعضاؤها بالاقتراع العام . ويجب على الحكومة انشاء مجالس بلدية في جميع أنحاء المملكة التونسية ، ينتخب أعضاؤها بالاقتراع العام ، كبقية المجالس الانتخابية الاخرى . كما يجب أيضا أن تؤسس حجرات تونسية بحتة للفلاحة والتجارة في جميع المدن الكبرى التونسية . وينتخب أعضاؤها الفلاحون والتجار التونسيون .

وتخصص مداخيل الميزانية التونسية لمصاريف المصالح العامة التونسية والجيش الوطني التونسي الذى يجب أن لا يتجاوز عدده ما يلزم لحفظ استقرار البلاد وأمنها . ولا يمكن استعماله بأى صورة لمحاربة شعوب تدين بالدين الاسلامي ، دين الشعب ، اذ هو اعتداء فظيع على دين البلاد الرسمي ودين جيشها (44).

واذا كان هذا البرنامج (المدى البعيد) الذى هو الوجه الحقيقي للحزب الدستورى ، يهدف أساسا الى الاستقلال التام وتكوين نظام تونسي حر فان البرنامج السياسي الذى واجه به حكومة الباى والاقامة العامة معا ، ما هو الا تمهيدا لتحقيق الأهداف البعيدة للحزب . وقد تضمنت مطالبه أساسا ثماني نقاط ، ثم أصبحت تسعا باضافة مطلب التعليم الاجبارى . وهي كالتالي :

1 . تأسيس مجلس استشارى ، يتكون من أعضاء تونسيين وفرنسيين منتخبين بالاقتراع العام ، له السيادة الكاملة في وضع برنامج أعماله ، وله اختصاصات واسعة فيما يخص الميزانية .

2 . تأسيس حكومة مسؤولة امام هذا المجلس .

3 . الفصل بين السلطات التشريعية ، والتنفيذية ، والقضائية .

4 . دخول التونسيين في جميع الوظائف الادارية بشرط أن تتوفر فيهم الضمانات الثقافية والاخلاقية المتوفرة في المترشحين الفرنسيين .

5 . المساواة في أجور الموظفين ذوى القدرات المتساوية في الوظائف المتشابهة دون تمييز لصالح الاوروبيين على حساب التونسيين .

---

(44) الدرعى ، ص 195-198 ، وكذلك : -A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B3-13, *Op. cit.*, p. 42-46.
-A.Q.O./S.T.1917-40, N° 318, *Op.cit.*
- Rober-Raymond, "Le Nationalisme Tunisien", Afrique française, Renseignements coloniaux et Documents, N° 6 Bis, 35 année, (Juin 1925), p. 217-226.

6 • تنظيم بلديات منتخبة بالاقتراع العام في جميع أنحاء المملكة •

7 • حرية الصحافة، والاجتماع ، وتأسيس الجمعيات •

8 • مشاركة التونسيين في شراء أسهم الاراضي الزراعية وأملاك الدولة (45) •

وقد أراد الحزب الدستوري بالمطلب الأول الغاء سلطة المقيم العام الفرنسي من جهة وابعاد نفوذ الفرنسيين التشريعي والتنفيذي والمالي من جهة أخرى • اذ أن المقيم العام كان هو رئيس (المؤتمر الاستشاري) يقدم له مقرراته و تشريعاته، و تعديلاته على الميزانية، والمؤتمر يصادق عليها دون مناقشتها ، لانها بطبيعة الحال كانت كلها في صالح الفرنسيين • وكان هذا المؤتمر يتألف من فرنسيين وتونسيين، الثلثان منتخبان من الاوائل، والثلث الباقي يعينه المقيم من التونسيين، ويتم اختياره من بين الموالين لسياسة الحماية، ومع ذلك فالمقيم لا يستشيرهم في شيء •

---

(45) أنظر : *- A.Q.O./S.T.1917-40, N°318, Co. pd Conseil au Ré Gl Tunis, du 4/8/1920, p. 73-74.*

أخطأ السيد ديران انجليفيال في ترتيب هذه المطالب في كتابه (ما تطلبه تونس من فرنسا ص43-44) الى المطلب السابع (بالتعليم الاجباري) وصوابه ما اثبتناه هنا • اما (التعليم الاجباري) فهو المطلب التاسع الذي أضافه وفد الحزب الدستوري الثاني فيما بعد • ونفس الخطأ ارتكبه علال الفاسي (الحركات ، ص52-53) • كما ان هيئة الاركان الحربية (1 27H A.O.M./A.E.P) قد خالفت بين النقطتين السابعة والثامنة • وكذلك الامر ايضا بالنسبة لاحمد الذهبي (دفاعا عن الحداد ، ص194-195) اذ عكس بين الرابعة والسابعة، وبين الخامسة والسادسة • اما الاستاذ ش • أ • جوليان (افريقيا الشمالية تسير ، ص92-93) فقد خلط بين عريضة التونسيين الى مؤتمر الصلح وبين برنامج الحزب الحر الدستوري التونسي ، فاعتبر العريضة هي البرنامج السياسي له •

وذكر السيد ابن الحاج عثمان الشريف في كتابه (أضواء على تاريخ تونس) ان المبدأ الاول من برنامج الحزب هذا ، كان يهدف الى الازدواجية في التمثيل النيابي ، من ذلك انه كان يطالب بنصف عدد نواب المجلس ، وقد اعتمد في هذا الرأي على ما جاء في كتاب الحبيب بورقيبة (مدخل الى تاريخ الحركة القومية ، ص 40) (46) . والحقيقة ان القائل بهذا المفهوم هم الاشتراكيون الفرنسيون الذين اصدروه في جريدة (الزمن) الفرنسية في 02 فيفري 1921 ، فهو رأي خاطئ من أساسه ، توضحه النقطة الاولى نفسها من البرنامج (47) .

فالمطلب الاول اذن كان يهدف الى احداث مجلس شوري تسود فيه الأغلبية التونسية ، فتملك السلطة التشريعية بيدها ، و يبقى المقيم العام من أعضاء السلطة المسؤولة امام هذا المجلس ، وهي السلطة التنفيذية ، وأعلى مسؤولية يمكن أن تسند اليه هي : وزير ، اذ يستحيل عليه ان يصبح بايا ولا رئيسا للوزراء ، فلا يصلح له الا منصب وزير الشؤون الخارجية ، وهذا ما تنص عليه روح معاهدة باردو وما يريده أصحاب الدستور .

و رغم ما في النقطة الرابعة من البرنامج من منافع للتونسيين في فتح أبواب التوظيف أمامهم ، فان شرطي الكفاءة الثقافية والاخلاقية قد يحولان بينهم و بين بلوغ هذا الهدف . ذلك انه لم تكن لاغلبيتهم ثقافة عالية مثلما هي لدى الفرنسيين ، باستثناء الأقلية المحظوظة . فلا يمكن اذن أن يقوم على رأس هذه الوظائف الا العارفون بأمورها وأساليبها ولغتها ، وهم الفرنسيون والاقلية التونسية ، و تبقى الأكثرية من هؤلاء مبعدة الى المناصب الثانوية .

اما شرط الاخلاق فقد طرح أساسا لابعاد عمليات الرشوة والمحسوبية والربا وغيرها ، التي كان يتعاطاها الفرنسيون وغيرهم من الاوروبيين واليهود ، وحتى بعض التونسيين ، ممن كانت بيدهم بعض المناصب الادارية . ولعل الدستوريين قد أرادوا اظهار مرونتهم ورغبتهم في الاصلاح العادل ؟ ولكن كان عليهم أن يشترطوا العدالة في التوظيف ، والمساواة في المعاملة ، دون اشتراط الثقافة والاخلاق ، لكيلا تستعمله فرنسا ضدهم .

ولعل أعضاء الحزب هنا قد سادتهم فكرة النخبة المثقفة ثقافة أوروبية ، و يستبعد أن تكون من أفكار ذوى الثقافة الاسلامية ، لأنه كان عليهم أولا المطالبة بتعريب الادارة وارجاعها

(46) ابن الحاج عثمان ، ص 201 .

(47) أنظر :- -Duran-Angliviel, p.45-

الى أصلها حتى تتمكن أغلبية السكان من الاستفادة من هذا المطلب. ولعل قائلا يقول انهم كانوا ينتظرون من المجلس الاستشاري (حين تعيينه) المطالبة بذلك ؟ ولكن هذا المطلب عاجل ، فهو من نقاط برنامج المدى القريب ، ولا يقبل التأجيل ! .

وكانت البنود الاخرى كلها في صالح التونسيين اذ تنص على الغاء القيادات الواقعة تحت سيطرة المعمرين المباشرة ، و تعويضها بمجالس بلدية منتخبة بالاقتراع العام ، فتكون السيطرة الحقيقية فيها للاغلبية بطبيعة الحال . ولكن الواقع غير ذلك ، فالشعب في البوادى والأرياف لا يملك لا الثقافة ولا المال ، ولا يعرف حتى معنى المجالس البلدية .

فهذا اذن مبدأ لا يمكن ان يقوم الا في اطار الاستقلال وزوال الجهل ، والقوات العسكرية الفرنسية ومكاتبها العربية من مناطق الجنوب ، اذ يستحيل ان يطبق نظامان مختلفان ، الاول مدني (مجالس بلدية) والثاني عسكرى (مكاتب عربية) في نفس الوقت على نفس الاشخاص .

وربما كان البند الوحيد الذى جاء لصالح التونسيين كاملا غير منقوص هو البند الخاص بحرية الصحافة والاجتماع ، و تأسيس الجمعيات . فتنتشر بمقتضاه الثقافة والوعي السياسي والفكرى ، و تقوى العزيمة على مواجهة المسخ الحضارى ودفع المظالم ، و بالتالي تكوين جيل يقدر النيابة في مجلس الشورى و يدافع عن مصالح بلده الحقيقية أولا ، ثم يطالب بالاستقلال الكامل ثانيا ، طال الامد أو قصر .

و نجد موضوع المساواة في الاجور بين أصحاب القدرات المتساوية من الفرنسيين والتونسيين ، في صالح الاقلية المحظوظة فقط من التونسيين . وكذلك الامر بالنسبة لمشاركة هؤلاء في شراء أسهم الاراضي الزراعية واملاك الدولة . فالمستفيد من ذلك هي الاقلية البورجوازية التونسية وحدها ، مع اننا لا يمكن أن نتجاهل المنفعة التي يمكن أن يجنيها باقي الشعب اذ يصبح مزارعا خماسا أو نصافا ، لدى التونسيين المسلمين الذين يحترمون عقيدته و تقاليده ، و يحفظون كرامته ، بخلاف المعمرين المستبدين بكل شيء لا يراعون شيئا من مقومات شخصيته .

ومع ذلك كان على الدستوريين المطالبة بالغاء نفوذ الواردات الاجنبية وصناعاتها على السوق التونسية ، فتحفظ بذلك الصناعات والحرف الشعبية التي كانت مصدر عيش الأكثرية .

ومن دون شك فان هذا البرنامج ، في جميع بنوده ، كان يهدف الى زوال سلطة الحماية ، وتقييدها امام مقررات المجلس المطلوب تأسيسه ، ولم يطالب البرنامج بالغائها ، بل كان يريد العودة بها الى تطبيق نص معاهدة باردو ، فتعود للباي السلطة الكاملة على البلاد ، ويبقى المقيم العام بمثابة وزير خارجيته ، وسفير فرنسا لديه معا • ويتمكن الشعب التونسي من استرجاع سلطاته الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية ، فيستطيع حينئذ العودة الى التمتع باستقلاله وتسيير شؤونه بنفسه •

ونستنتج من هذه المناقشة ان المطالب التسعة التي تضمنها برنامج الدستوريين ، كانت واقعية جدا ، وسارت في اطار قانوني هدفت من ورائه الى الرجوع بالحماية الى الالتزام بمبادئ معاهدة باردو • ولكن سلطة الحماية بقيت متصلبة في موقفها ولم تكن لها أدنى ارادة في الاطلاع على نص المطالب مما جعل السيد ديران - انجليفيال ، الاشتراكي الفرنسي ، يقول : ((انه من الانفع لنا ان ننظر مليا في المطالب الدستورية التي يطالبنا بها التونسيون حتى نتمكن من مناقشتها • فهم قابلون باطار الحماية ، وبعبارة أخرى أوضح ، فهم ملتزمون بالواقع ويقفون في مجمل القول ، عند حدود كيفية التعاون مع سلطة الحماية •))(48)

وذكر هذا الكاتب انه حضر معظم جلسات الوفود الدستورية الى باريس ، في جانفي 1921 ، وشهد تصريحها الى الحكومة الفرنسية بالاعتراف بالحماية كعامل تاريخي لا مناقشة فيه • وقد اطلعنا على العريضة التي قدمها الوفد الدستوري في شهر ديسمبر 1920 ، برئاسة الطاهر بن عمار ، وكان ديران - انجليفيال من بين أعضائه ، ولم نعثر على مثل هذه العبارة ، بل ان الوفد ألح في الطلب على منح التونسيين دستورا ، وتحمل الوفد باسم الشعب التونسي جميع الاجراءات التي يمكن أن تؤخذ في شأن ممثليهم ، وهم : الشيخ الثعالبي ، وابن يحيى ، والرياحي ، الذين كانوا يمثلون الشعب في قضيته العادلة (49) .

ولعل التصريح المذكور كان من رئيس الوفد ، ولم يكتب في العريضة ، وبالتالي فهو

---

(48) أنظر: -Duran-Angliviel, p. 42-43.

(49) أنظر: -A.Q.O./S.T.1917-40, N° 318, Cor.Le Délégué de la Résidence Générale de France -Tunis au Pd G;Leygues, Tunis, le 24/11/1920, p. 192-194.

مسؤول عنه وحده وليس الحزب كله . وأكبر الظن ان الذى صرح بذلك هو السيد فرحات بن عياد الذى كان يمثل الحزب في باريس منذ شهر اكتوبر 1920 . مع ان المعروف ان هدف الدستوريين هو الرجوع بسلطة الحماية الى تطبيق مضمون معاهدة باردو نصا وروحا ، وربما ذلك ما كان يقصد ديران- انجليفيال ؟ .

واستمر الحزب الحر الدستورى التونسي في صراع مرير مع سلطة الحماية التي أنكرت مطالبه واعتبرتها مخالفة لنص معاهدة باردو واتفاقية المرسى ، ولم تستجب له الا قليلا حيث رفعت حالة الحصار ،وأعلنت عن تفريق السلط في السنوات الاولى التي تلت الحرب . ونظرا لسلبية فرنسا ونظامها وتعنتها أصيب الحزب الدستورى ، مع مرور الزمن ،بخيبة أمل ، فاضطر الى التعنت والكبرياء ،واتخذ موقفا متصلبا لا رجعة فيه ، ورفض مبدأ التعاون مع الحماية ،وجاهرها بطلب الاستقلال الكامل (50) . وقد كشف بذلك عن هدفه البعيد والاسمى .

---

(50) أنظر - Mohemd-Salah, Lejri, Evolution du Mouvement National Tunisien, des origines à la deuxième guerre mondiale, (Tunis, MTE, 1974), (Thèse), T.1, p.28.

3 ـ النظام الاداري :

تطرقنا الى تحليل البرنامج السياسي للحزب الحر الدستوري ، بقسميه العاجل والآجل . ونريد الآن أن نتناول نظام هذا الحزب الاداري ، ونتعرف على هياكله .

لقد تأسس هذا الحزب رسميا تحت اسم (الحزب الحر الدستوري التونسي) [51] ، يوم انعقاد مؤتمره الاول بمدينة تونس ، بدار الشيخ المختار كاهية ، بتاريخ 14 مارس 1920 . ولم يعلن عنه جهارا الا يوم انعقاد مؤتمره الثاني بتونس في 3 جوان 1920 ، بمنزل الشيخ حمودة المنستيري بالمرسى ، حيث تقرر الاعلان عنه حالا [52] . وأخذ من مدينة تونس مقرا له ، واعترف به رسميا اثر استقبال الباي محمد الناصر للوفد الدستوري يوم 18 جوان 1920 أيضا ، وموافقته على مبادئه .

وكان القانون الاساسي للحزب الدستوري يفتح عضوية الحزب لكل المسلمين واليهود التونسيين غير المتجنسين بجنسية أجنبية والقاطنين بالقطر التونسي ، شريطة أن يلتزموا بمبادئ الحزب ويقسموا يمين الاخلاص لبرنامجه على كتاب دينهم المقدس ، وأن يسعوا في نجاحه بكل وسيلة وبصدق واخلاص .

ويقع هذا القانون في واحد وعشرين فصلا حدد فيها النظام العام للحزب كالآتي :

1ـ الشعب المحلية
2ـ اللجان التنفيذية المحلية
3ـ شعب الجهات
4ـ اللجان المركزية للجهات
5ـ مؤتمرات الجهات
6ـ المؤتمر العام
7ـ اللجنة المركزية الرئيسية (وتعرف ايضا باسم اللجنة التنفيذية) .

---

(51) أشار اليه الدرعي (دفاعا عن الحداد ، ص 195) والعقيد بارون (تقريره ، ص 42ـ 43) تحت اسم (الحزب الحر التونسي الموحد) .
(52) أ . و . إ ، م . ت . ق / ح . و / تونس ، رقم 54ـ2 B ، ابن قفصية ، (جملة المؤتمرات) .

وقد نص الفصل الخامس من هذا القانون على السماح لاعضاء الحزب بتأسيس شعب محلية في كل بلد تونسي ،وحدد النظام الداخلي لهذه الشعب واعتبر حضور جلساتها أمرا ضروريا على كل عضو تابع لها ،وله بها بطاقة انخراطه في الحزب ،وان يقوم بواجبه نحوها • وإن حدث أن أخل العضو بأحد واجباته تقترح اللجنة التنفيذية المحلية طرده من الحزب على اللجنة المركزية في الجهات •

وكان دور الشعب المحلية هو ربط عمليات الحزب في الجهات ،وقيام أعضائها بالبحث ومد بعضهم بالوسائل اللازمة لنشر الدعاية للحزب وإدخال فكرته في وسط الطبقات التونسية وجلبهم للمشاركة في أعماله •

والسلطة العليا في الشعب المحلية هي (اللجنة التنفيذية المحلية) التي تتركب من ثلاثة أعضاء على الاقل يقع انتخابهم في جلسة مكونة من جميع الاعضاء التابعين للشعبة • وتجتمع هذه اللجنة لزوما مرتين في الشهر على الأقل من أجل توزيع العمل على جميع أعضاء الشعبة وتكوين الحركات المحلية واستدعاء الجلسات العامة للشعبة • واللجنة المحلية ملزمة بالارتباط المستمر بلجنة الجهة وإعطائها تقارير عن جميع حركاتها •

ونص القانون على تأسيس شعب للجهة لربط العلائق بين الشعب المحلية ،ولكنه اشترط أن لا تتأسس شعبة للجهة الا اذا احتوت على خمس شعب محلية لا يقل أعضاؤها على خمسمائة عضو • وفي حالة انفراد شعبة محلية ،يجب أن تلحق بأقرب شعبة للجهة •

ومن مهام شعب الجهات احترام مبادئ وبرنامج الحزب ومقررات المؤتمر العام واللجنة التنفيذية المركزية • وعلى هذه الشعب ان تجعل تراتيب خاصة بها لا يمكن بحال أن تغاير تراتيب الحزب • وقبل فتح كل مؤتمر جهوي يجب أن تعقد جلسة الشعب العامة لتسمية نواب للمؤتمر •

وتدير شعب الجهات لجنة مركزية للجهة تتركب من خمسة أعضاء على الأقل يؤخذ نصفهم من البلدة التي هي مركز الجهة والنصف الآخر ينتخبه مؤتمر الجهة. كما ينتخب النصف الأول من الجهة • واللجنة مسؤولة عن أعمالها امام مؤتمر الجهة •

وتتلخص مهام اللجنة المركزية للجهة في ربط العلائق مع الشعب المحلية ومدها بتعليمات اللجنة المركزية الرئيسية بتونس مع جميع الارشادات التي تفيدها في أعمالها • كما للجنة

المركزية للجهة السلطة المطلقة في ضبط العمل في دائرتها وعليها أن تتخابر و تتفق مع اللجنة المركزية بتونس . وإن كان هذا العمل على جانب من الاهمية ، توجه منظمة عن حركة الحزب في كافة أنحاء جهتها الى اللجنة المركزية الرئيسية للحزب بتونس ، و توجيه اثنين من اعضائها كل شهر الى نفس اللجنة بتونس لاحاطتها علما بحالة الحزب في الجهة وإعدادها (اللجنة) بما تراه من الارادة والمقترحات .

اما مؤتمرات الجهات فيجب أن تجتمع قبل انعقاد المؤتمر العام للنظر في حالة الحزب بالجهة و تحرير الاقتراحات المراد عرضها على المؤتمر العام ، وتعيين نواب الجهات في هذا المؤتمر العام . ويتألف مؤتمر الجهة من نواب الشعب المحلية الذين يقع تعيينهم في جلسة عامة . ومن أعمال مؤتمر الجهة انتخاب اللجنة المركزية للجهة .

و يتألف المؤتمر العام من نواب شعب الجهات الواقع تعيينهم من طرف مؤتمرات الجهات على نسبة عضو عن كل شعبة واجب وجوده في مؤتمر الجهة ، لتمثيل الشعبة وعضو آخر عن كل فريق يتركب من مائتين وخمسين عضوا عاملا . و يستمع المؤتمر العام الى تلاوة تقرير اللجنة التنفيذية المركزية للحزب بتونس و يبحث في سياسة الحزب ومنهجه وله السلطة العليا في ادخال كل التغييرات على برنامج الحزب السياسي وتنظيماته و تقع مقررات هذا المؤتمر بالاغلبية المطلقة و ينتخب أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب بتونس . و يتجدد هذا الانتخاب على رأس كل سنتين (53) .

وتتركب هذه اللجنة من خمسة عشر عضوا منهم كاتب عام ، وكاتب عام معاون (54) .
و تتلخص مهام هذه اللجنة في مراعاة مقررات المؤتمر والحفاظ على برنامج الحزب وتسهر

---

(53) اتفق الدرمي (ص 195-198) مع العقيد بارين (ص 42-46) على ان المؤتمر العام يجتمع مرتين في السنة على الاقل ، بناء على استدعاء من الامين العام للحزب او اذا رأت لجنة الحزب الادارية ضرورة لذلك بعد موافقة أكثر اعضائها . كما يجتمع ايضا بناء على طلب معلل يتقدم به خمسة وعشرون عضوا . ولم يأت ذكر هذه التفاصيل في القانون الاساسي للحزب الذي اعتمدنا عليه .

(54) كان للجنة التنفيذية المركزية بتونس ، بالاضافة الى أمينها العام والامين المساعد ، أمين للمال وامين مساعد له .

على تطبيقه، وتعمل على انتشار حركة الحزب في البلاد وتقوم ببسط أعمالها ومساعيها لدى المؤتمر، وايصال آراء المؤتمر العام ومقرراته الى الشعب المحلية في انحاء البلاد، ومدها بالتعليمات اللازمة لنشر حركة الحزب .

واللجنة التنفيذية المركزية للحزب مسؤولة لدى المؤتمر العام في أعمالها ومن واجبها أن تدعو المؤتمر العام لعقد جلسة عامة فوق العادة (55) .

وحدد القانون الاساسي للحزب كيفية اداء اليمين الدستورية، والقبول في العضوية للحزب . فأوجب على كل من يروم الانخراط في سلك الحزب أن يقسم باليمين المعبرة شرعا على أنه يحترم أصول الحزب وبرنامجه (56) . وهذه صورة اليمين المقررة : ((أقسم بالله العظيم على العمل بمبادئ الحزب الحر الدستوري التونسي والاخلاص له مدة حياتي ، ولا أخونه أبدا ، والله على ما أقول شهيدا ، وهو حسبي ونعم الوكيل .)) (57) .

ويشترط في كل شخص يريد الدخول للحزب ان يقدمه عضوان من أعضاء الحزب ثم يقع عرضه على اللجنة المحلية فاذا قررت قبوله اقسم اليمين لدى الهيئة المكلفة بقبول الاعضاء ، فاذا وافقت على قبوله ، فله أن يرفع طلبه الى اللجنة المركزية بتونس وهي تقرر ما تراه (58) .

---

(55) تقوم اللجنة المركزية للحزب بدعوة المؤتمر العام كلما اقتضى الحال لتقرير أمر هام يتعلق بتغيير برنامج الحزب او سياسيته العامة وغير ذلك من الامور الخطيرة . أنظر :
. و. ل. م. ت. ق / ح. و. / تونس، رقم 24—4 A، (القانون الاساسي للحزب الحر الدستوري) ، صورة طبق الاصل .

(56) المدني ، ج 1 ، ص 195—196 ، وكذلك بارون ، ص 42—46 .

(57) الفصل الثاني من القانون الاساسي للحزب .

(58) ذكر المدني ، ج 1 (ص 195—196) ان الراغب في الدخول للحزب يجب أن يقدمه اثنان من أعضاء اللجنة المركزية ، وذكر بارون (ص 42—46) انه يجب ان يقدم من طرف عضوين في الحزب الى اللجنة الادارية مباشرة . والصواب ما حدده الفصل الثالث من القانون الاساسي للحزب الذي اعتمدنا عليه .

اما فيما يخص الصحافة فان الحزب يختار لسان حاله من بين الصحف التونسية الصادرة بالعربية والعبرية والفرنسية، لنشر دعايته وأفكاره في الاوساط الشعبية .

وقد حدد الحزب كيفية تمويله رسميا على أن يشترك كل عضو فيه بعشرة فرنكات شهريا (59). ويتقبل الحزب كل التبرعات التي تقدم الى امين ماليته او تسلم له .

والتزم الحزب في سياسته الخارجية بتوجيه وفود عنه الى باريس وغيرها، لخدمة مبادئه والدعاية لها، وتنفيذ مقرراته كلما مست الحاجة لذلك . ووضح مهام هذه الوفود والبعثات وحدد مهامها، وألح خاصة على وجوب توحيد جهودها، وضمها الى جهود البعثات والوفود التي سبقتها والتنسيق معها، وان لا تقوم الوفود بأى عمل دون تشريك الوفود السابقة فيه . وأن تركز وفود الحزب جهودها حول عقد المؤتمرات، والقاء الخطب وتنظيم الدورات وكل ما من شأنه أن يعرف الامم الاخرى بمطالب الشعب التونسي ويعرب لها عن اراداته (60) . ويجب أن يعين عمل هذه الوفود ويحدد بناء على موافقة أعضاء الحزب ولجنته الادارية .

وبناء على هذا القانون الاساسي للحزب الحر الدستورى التونسي أجمع الحاضرون على منح رئاسة الحزب للشيخ عبد العزيز الثعالبي، غيابيا . ووقع انتخاب اعضاء اللجنة التنفيذية الاولى . واختير المحامي احمد الصافي أمينا عاما للحزب والمحامي صالح فرحات أمينا عاما مساعدا، والشيخ حمودة المنستيرى أمينا للمال، ومحمد الصالح ختاش أمينا مساعدا للمال . والسادة الاعضاء المنصف المنستيرى، والطيب الجميل، ومحيي الدين القليبي، واحمد توفيق المدني، وعلي كاهية، والشاذلي خزندار (61) .

---

(59) ارتفعت هذه القيمة في اجتماع 2 جوان 1921 الى 12 فرنكا . أنظر :
- المدني، ج 1، ص 195-196 .

(60) استمد الحزب سياسته الخارجية من نص رسالة ابن عياد الى الثعالبي بتاريخ 7 فيفرى 1920 التي نقلت جزءا منها الاقامة العامة بتونس . أنظر :
- *A.Q.O./S.T.1917-40, N°318, Cor.Rd Gl au Pd du Conseil, Tunis le 24/11/1920, p.197.*
-*Rober-Raynaud, "Le Nat...", Af.fse, N°6 (1925), p.217-226.*

(61) نسجل هنا امتناع السيد حسن قلاتي عن أداء اليمين الدستورية . أنظر :
ابن الحاج عثمان، ص 197، وكذلك ابن قفصية، أضواء على الصحافة، ص 26 .

وقد انعقد موءتمر الحزب الثالث في 21 ماى 1921 بدار الشيخ المختار كاهية ، اثر خروج الشيخ الثعالبي من السجن ، و تقرر تسليمه ادارة الحزب . واطلع على مطالبه التي أصبحت تسعة بعد ما زادها الوفد الدستورى الثاني الى باريس مطلب التعليم الاجبارى (62) .

ثم كان اعضاء الحزب على ميعاد يوم 29 ماى 1921 ، بدار الشيخ حمودة المنستيرى ، تحت رئاسة الشيخ الثعالبي ، وأعيد انتخاب اللجنة التنفيذية . فبقيت أمانة الحزب العامة في يد المحامي احمد الصافي ، واختير احمد توفيق المدني أمينا عاما مساعدا للقلم العربي والطيب الجميل أمينا عاما مساعدا للقلم الفرنسي ، والشيخ حمودة المنستيرى أمينا للمال ، والمحامي الاسرائيلي البير بسيس ، أمينا للمال بالنيابة ، ولكنه لم يحضر اطلاقا . كما اختير الاستاذان المنوبي درغوث والطيب رضوان مستشارين للمالية (63) . اما السادة الاعضاء فهم عبد العزيز الثعالبي وهو في نفس الوقت رئيس الحزب ، وصالح بن يحيى (64) ،

---

(62) أ . و . ا . ، م . ت . ق / ح . و / تونس ، رقم 54–2 ، ابن قفصية (جملة الموءتمرات) .

(63) لم يأت ذكر امانة القلم العربي والفرنسي واستشارة المالية في القانون الاساسي للحزب . ولكن اضيفت هذه المناصب خلال الموءتمر الثالث للحزب ، وذلك لتدعيم هياكله ماليا ودعائيا . ولعل السوءال المطروح هو لماذا لم يضف ايضا منصبا لأمانة القلم العبرى ما دامت العبرية هي اللغة الثالثة للسانه الرسمي ؟ ويبدو أن رفض اليهود تولي المناصب العليا التي اسندها لهم الحزب هو من الاسباب الرئيسية التي جعلت موءتمر الحزب الثالث لا يهتم بايجاد منصب للقلم العبرى .

(64) الشيخ صالح بن يحيى من أصل جزائرى من واحات الجزائر ، ساهم الى جانب اخوانه من الجزائر كالشيخ ابراهيم اطفيش ، وابراهيم بن الحاج عيسى ابو اليقظان ، في تدعيم الحزب الحر الدستورى التونسي واعتبروه حزبهم ، وجاهدوا الى جانب الشيخ الثعالبي ، بالمال والكلمة المقروءة والمسموعة ، ونشروا اسمه في الجزائر غربها وشرقها . فشددت عليهم سلطة الحماية الخناق ، وشتتتهم بين الجزائر والقاهرة ، وفيهم من سجنته .

عن نشاط الجزائريين في هذا الحزب ، أنظر :

— محمد الصالح الجابرى ، ((تونس في نظر الشعراء الجزائريين)) مجلة الفكر ، السنة 29 ، العدد 4 ، (تونس ، جانفي ، 1984) ، ص 57–63 ، وكذلك كتابه : النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900–1962 ، (الفصلان الثالث والرابع : النشاط الصحفي ، والوطني) .

ومحمد الرياحي ،وعلي كاهية ،وايلي جريح ، والمحامي ألبير وزان ،وهما اسرائيليان ، ولم يحضرا اجتماعات الحزب اطلاقا (65) .

كما انتخب المؤتمر لجنة تشريعية للحزب برئاسة الثعالبي ،و بعضوية احمد الصافي وغيره (66) . ثم تشكلت لجنة لنشر الدعوة الدستورية من بين أعضاء الحزب البارزين كالثعالبي ،والصادق النيفر (67) . ووقع تشكيل اللجنة المالية تحت رعاية السيد حمودة المنستيري ،ومحمد الصالح ختاش (68) .

وقد لاحظت هيئة الاركان الحربية الفرنسية ان خروج الشيخ الثعالبي من السجن في شهر ماي 1921 ،قد أحدث فرحة منقطعة النظير في تونس ، فاجتمعت من حوله وفود عمال (عربات الترام) ، وعمال السكك الحديدية ،وتلامذة المدرسة الصادقية ،والموظفون التونسيون بالاقامة العامة ،وأعضاء الشعب الدستورية بالمدن والمراكز الداخلية ،وهذا فضلا عن شيوخ جامع الزيتونة . وذكرت الهيئة ان الثعالبي كان ، أثناء احداث يوم 05 افريل 1922 (تنازل الباي محمد الناصر عن العرش ، والمظاهرات الشعبية التي تبعت ذلك ورفض الاصلاحات الفرنسية) ،يقيم خفارة في مكتب الحزب بشارع انكلترا في قلب مدينة

---

(65) كان من اعضاء هذا الحزب السادة : فرحات بن عياد ،الصادق النيفر،صالح فرحات ، محمد الجعايبي ،الطاهر بن عمار،محمد بن عمار،محمد التليلي ،محمد الصالح ختاش ، احمد جعيط، مصطفى آغا ،الشاذلي المورالي ،الشاذلي خزندار،سليمان الجادوى ، والطيب بن عيسى .

(66) ومن اعضاء اللجنة التشريعية نذكر صالح فرحات ،الطيب الجميل ،ايليا جيرح ،والبير بسيس ،وهما اسرائيليان ولم يشاركا .

(67) نضيف اليهما الشاذلي المورالى ،والطيب بن عيسى ،وسليمان الجادوى ،ومحمد الجعايبي ،وصالح بن يحيى ،واحمد جعيط ،والمنوبي درغوث ،والشاذلي خزندار،والبير وزان ،ولكنه لم يشارك .

(68) وكان من بين اعضاء هذه اللجنة مصطفى آغا ،والمنوبي درغوث ، والشاذلي خزندار،ومحمد بن عمار ،واحمد جعيط ،وصالح بن يحيى ،ومحمد التليلي ، والبير بسيس ،ولم يشارك ايضا . للتوسع طالع :

ـ المدني ،ج 1 ،ص 192 ـ 195 ، وكذلك : أ . و . ا . ، ت . ق/ح . و . / تونس ، رقم 3-13 B ، عمر بن قفصية (خلاصة الابرار أو ترجمة زعيم الاحرار) ، ص 5 .

تونس[69]. وان دل ذلك على شيء فانما يدل على الجد والمثابرة لاعطاء الحزب نفسا جديدا وقويا .

ولم يشارك اليهود التونسيون في نشاط الحزب رغم المناصب العليا التي خولت لهم به مثل منصب نائب اللجنة المالية . وسواء تأثر اعضاء الحزب المسلمين بآراء محمد باش حامبة ووصاياه بالعناية باليهود واشراكهم في الحركة الوطنية ، أو انهم وقعوا تحت تأثير الثعالبي الذي طالما أوصاه باش حامبة باليهود ، فان الاعضاء المسلمين قد فتحوا امام اليهود ابواب الحزب على مصرعيها . وذلك لامرين على الاقل ، لكونهم يهودا تونسيين ، لهم الحق في العضوية ثم للاستفادة منهم استراتيجيا وماديا .

وكانت الصحافة هي الوسيلة الاولى التي اعتمد عليها الحزب في نشر آرائه ومبادئه بين صفوف الشعب وكسب عضويتهم . فبالاضافة الى الخطب التي كانت تلقى في المساجد ، والنوادي ، والساحات العامة ، وكذلك الندوات الشعرية ، هناك الصحافة العربية والفرنسية التي كانت تبث الدعاية للحزب بكامل ارجاء الوطن في المدن والارياف ، ابتداء من يوم اعتراف الباي به . فمن الصحافة العربية التونسية [70] نذكر (جريدة الصواب) ، التي تبنت آراء الحزب رسميا واهتمت بالدعاية له . وكانت تشرح مطالبه ، وتنوه بغاياته وتشيد بذكره ، وتبث أفكاره ، وتعلق على أعمال رجاله في الخارج والداخل . ولما عطلت سلطة الحماية هذه الجريدة ، يوم 5 افريل 1922 ، لاهتمامها بحادثة تنازل الباي عن العرش ، خلفتها جريدة (الاتحاد) . ولما تعطلت هذه الاخيرة من طرف صاحبها باتفاق مع سلطة الحماية ، أنشأ الحزب الدستوري جرائد أخرى عبر فيها عن آرائه السياسية وغيرها . وكان من بينها وأبرزها جريدة (الأمة) ، و (المبشر) ، و (العصر الجديد) ، و (المشير) ، و (افريقيا) . ولكنها جميعا تعطلت هي الاخرى ، لأسباب كثيرة منها ما أوقفته سلطة الحماية ، ومنها ما توقف من تلقاء نفسه لاسباب مالية وغيرها[71].

---

(69) أنظر: -A.O.M./A.E.P. 27H1, Op.cit., p.3-7.

(70) باستثناء جريدة الزهرة التي وقفت على الحياد .

(71) ابن قفصية ، أضواء على تاريخ الصحافة ، ص 20-21 . وكذلك :

- A.O.M. /A.E.P. 27H1, Op.cit.

وهناك جرائد عربية أخرى ظهرت لنفس الغرض وصارت اللسان الرسمي للحزب الحر الدستوري التونسي ،وأبرزها جريدة (الارادة) التي ظهرت سنة 1934 ، لصاحبها الاستاذ المنصف المنستيري (72) .

ومن صحافة الحزب الفرنسية ،نذكر جريدة (صدى الصحافة *L'Echo de la presse*) التي أسسها الشيخ الثعالبي في مارس 1923 . وقد دافعت بشدة عن القضية التونسية ، ولكنها توقفت عن الصدور على أثر محاكمة صاحب امتيازها ،الفرنسي بول دوستوكهولم . ثم اصدر الحزب جريدة اخرى سماها (الحر *Le Libéral*) سنة 1924 . ولما صار الاستاذ الشاذلي خير الله عضوا في لجنة الحزب التنفيذية ، أصدر جريدتيه (اللواء *L'Etendard*) و (صوت التونسي *La Voix du Tunisien*) التي شارك فيها احمد الصافي ،وصالح فرحات ،وسواهما من أعضاء الحزب البارزين . ثم تأسست جريدة فرنسية اخرى سنة 1932 ،هي (العمل التونسي *L'Action Tunisienne*) لصاحبها الحبيب بورقيبة .

وعندما وقع تقسيم الحزب الحر الدستوري التونسي الى (الدستور الجديد) و(الدستور القديم) ، أصدر الاخير جريدة فرنسية اللسان سماها (صوت الشعب *La Voix du Peuple*) ، وصارت هي اللسان الرسمي له وللجنته التنفيذية (73) .

وقد عملت كل هذه الجرائد العربية والفرنسية على نشر الدعاية للحزب وكسب الاعضاء وجمع الاموال من الفلاحين ،والعمال ،والتجار ،والموظفين التونسيين . وأثارتهم ضد سياسة

---

(72) ذكر الاستاذ علال الفاسي (الحركات ،ص59) انه كان للحزب الحر الدستوري اكثر من عشرين صحيفة عربية تؤيده وتنشر دعوته . والحقيقة ان هذه الجرائد على كثرتها لم تكن كلها للحزب انما كانت اما لبعض اعضاء لجنته التنفيذية ،واما لبعض التونسيين الغيورين على وطنهم ،ولكنهم لم يتبنوا قضية الحزب رسميا . فكانوا يدافعون عن مبادىء الحزب حبا منهم في وطنهم ،وشعورا منهم بصحة هذه المبادىء وقوتها .

(73) ابن قصية ، أضواء على تاريخ الصحافة ،ص 38-41 . وانظر ايضا :

- A.O.M./A.E.P. 27H1, Loc.cit.

سلطة الحماية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وقدمت هذه الدعاية للحزب اكبر خدمة في جمع الاموال لتغطية مصاريفه في الداخل والخارج (74) . ومع ذلك فقد أسس الحزب سنة 1920 مجلة خصصها لجمع الاموال ، وهي (مجلة الفجر) التي كانت في ظاهرها علمية وأدبية وفكرية ، ولكن باطنها كان وسيلة لجمع الاموال (75) .

ومع ما كانت تقدمه هذه المجلة من أموال للحزب ، وما كان يتحصل عليه ايضا من الاشتراكات عن طريق اعضائه ، فان ذلك لم يكن كافيا لمصاريفه الكثيرة . واعتمد الحزب اذن على تبرعات الشعب الحرة ، وكلف بعض اعضائه بجمع الاموال من مختلف المدن ومناطق البلاد التونسية (76) .

ولم يكتف الحزب بالاعتماد على مشاركة الشعب التونسي المالية والمعنوية ، بل تعداها الى جمع التبرعات من الشعب الجزائري . ووجه الدعوات لطلب الاعانة من الجمعيات الاسلامية في العالم . فجاء في تقرير حكومة الحماية الفرنسية بتونس ، أن الشيخ الثعالبي قد راسل يوم 25 نوفمبر 1922 ، الجمعية الاسلامية بلندن ، يطلب منها اعانة مالية لحزب الدستور ، وشرح لأعضائها ، الذين كان أغلبهم هنودا ، ما يعانيه الشعب التونسي المسلم من مظالم سياسة حكومة الحماية وتعسف المعمرين الفرنسيين . وقد ألح الثعالبي في طلب الاعانة المادية من هذه الجمعية حتى لا يتعرض الحزب الى الزوال ، وحتى يتمكن من مواصلة كفاحه ضد طغيان واستبداد

---

(74) ذكر العقيد بارون (تقريره ، ص 51—52) ان مجموع التبرعات التي تحصل عليها الحزب ووقع ضبطها في سجل الثعالبي ومراسلات اعضاء الحزب ، التي ذكرت مصاريف بعثاته ووفوده الى باريس ، قد بلغت في مجموعها 140.000 فرنك بين يوم 10 جويلية 1919 و 6 جويلية 1920 . ثم لاحظ العقيد بارون ان الرقم او المبلغ الحقيقي لهذه المصاريف قد يكون أعلى بكثير ! ؟

(75) المدني ، ج 1 ، ص 179—180 .

(76) جاء في كتاب الاستاذ المدني (حياة كفاح ، ج 1 ، ص 197—198) ان أغلبية اعضاء الحزب قد صادقوا في جلستهم المنعقدة يوم اول جويلية 1921 ، على تعيين خمسين عضوا يتكلف كل واحد منهم بجمع خمسمائة فرنك في مدة لا تزيد عن الخمسة عشر يوما . أنظر كذلك :
- *A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B 3-13, Rap. Baron, P.51-53.*

المسيحيين (77) .

وذكرت الوثيقة ان هذه الجمعية الاسلامية قد سبق لها رأن ارسلت اعانات مادية الى الريفيين بالمغرب الاقصى، وهو ما جعل الثعالبي يسرع في توجيه الطلب اليها . وقد ألح المقيم في هذه الرسالة على الرئيس الفرنسي ، في ابلاغ السفارة الفرنسية بلندن ، هذا الخبر لكي تعمل من جهتها على التأثير على هذه الجمعية وتمنعها من الاستجابة الى ارادة الثعالبي . ثم طلب المقيم من حكومته أن تقدم له تقريرا مفصلا عن هذه الجمعية الاسلامية . وختم رسالته آسفا ((انه من المؤسف ان يتلقى حزب الدستور اعانات من الخارج تمول نشاطه من جديد ، وهو الآن في حالة تدهور واضح ، وعاجز عن جمع الاموال التي تحتاج اليها دعايته من القطر التونسي .)) (78)

وكان الحزب فعلا يعاني من أزمة مالية حادة اذ منعته الحكومة الفرنسية ، الاستفادة من تبرعات الشعب بقرار صدر سنة 1921 ، خاصة بعد أن تبين لها خلال التحقيق الذى أجرته في قضية الشيخ الثعالبي ، اعتماده الكلي على اشتراكات و تبرعات التونسيين .

ولكن ذلك لم يقلل من عزيمة اعضائه . فبالاضافة الى رسالة الثعالبي الى الجمعية الاسلامية بلندن ، نجدهم يجتمعون تحت رئاسة الثعالبي ، في بداية شهر جوان 1922 ، في منزل احد اعضاء الحزب . وقد اتفقوا على توسيع عملية التبرعات باسم الجمعيات الخيرية واستغلالها لصالح الحزب الدستورى . و رغم ان أعضاء هذه الجمعيات الخيرية لم يكونوا كلهم دستوريين ، فان الثعالبي استطاع اقناعهم بفكرته هذه وأكد لهم أن الحكومة الفرنسية لا تستطيع أن تمنع التبرعات الخاصة بالجمعيات الخيرية .

ولم يكن ذلك يخفي عن أعين الصحافة الاستعمارية التي نددت بهذه العملية وطلبت من حكومة الحماية أن تراقب سجل التبرعات الخاصة بالجمعيات المذكورة ، وان تطلب منها حسابات دقيقة (79) .

---

(77) أنظر: - A.Q.O./S.T1917-40, N° 319, *Correspondance Résident Général de France à Tunis au Pd Raymond Poincaré, Tunis le 18/12/1922, P. 222.*

(78) نفس المصدر .

(79) نفس المصدر . وكذلك : - A.M.I/CDN/MN.Tunis, N° A 5-14, (Le Parti Jeune Tunisien), *La Tunisie française*, du 10/6/1922.

واذا كانت دعوة الحزب قد انتشرت في العالم الخارجي ، وطلب رجاله الاعانة المادية والمعنوية من الجمعيات الاسلامية في العالم ، ترى هل كان لهذا الحزب صدى في الجزائر ؟ وهل وجه الدعوة للجزائريين ايضا ؟ وهل استجاب الشعب الجزائري الى ندائه ؟

لقد اعتبر الجزائريون قضية الحزب الحر الدستوري التونسي قضيتهم وانتصارها هو انتصارهم . فاندفعوا في العمل فيه ودعموه بجهودهم السياسية والمالية والفكرية . ولم يكن هذا العمل مقصورا على المهاجرين الجزائريين المستقرين بمختلف المدن التونسية ، بل كان منتشرا ايضا في المدن الجزائرية وأريافها . وكان الجزائريون يهدفون الى استقلال القطرين التونسي والجزائري . وذكر تقرير حاكم الجزائر العام الى المقيم العام الفرنسي بتونس في نهاية سنة 1920 ، ان الجزائريين كانوا مسلتفين حول جمعية دينية تعمل على الدعاية لاستقلال القطرين التونسي والجزائري معا ، وهم كلهم ثقة بان كل المستعمرات الفرنسية ستنال استقلالها عن طريق هذه الجمعية مثل ما هو الأمر في مصر وليبيا وغيرهما من البلدان التي نالت استقلالها بناء على مبادئ الرئيس ويلسون .



وكان الشيخ صالح بن يحيى على رأس هؤلاء الجزائريين ، اذ كان عضوا بارزا في حزب الدستور التونسي . واستغل حرفته التجارية وتجول في منطقة بني مزاب بالواحات الجزائرية وجمع سنة 1920 ، مبلغ 130.000 فرنك باسم ((دستور أهل تونس ، ومديره الشيخ الثعالبي)) ووجهها للحزب (80) .

وقد شارك في تمويل الحزب الدستوري جزائريون كثيرون كانوا في الجمعية الدينية التي ذكرها حاكم الجزائر العام في تقريره المذكور ، وشاركوا فيها بأموالهم ، وقرنوا مصيرهم بمصير الحزب الدستوري التونسي ، وضموا نشاطهم لنشاطه ، وأموالهم لأمواله . وكل انتماءاتهم تدل بوضوح على اتجاههم الوحدوي العربي الاسلامي ، فكانوا كلهم فيما يظهر من الملاكين الكبار والتجار في الجزائر والمغرب الاقصى ، والمغضوب عليهم والمعادين لسلطة الاستعمار ، ومنهم من شارك في وفد الاحتجاج على قضية التجنيد الاجباري المفروض على الجزائريين ، ومنهم من كان يراسل صحف المشرق العربي وينشر فيها ، ومنهم اصدقاء سليمان الباروني وكتابه

---

(80) أنظر : - A.Q.O./S.T.1917-40, N°31?, Cor. Délégué de la Résidence Générale de France à Tunis au Pd G.Leygues, Tunis le 15/11/1920, a/s Comité occulte de propagande (en Algérie) en faveur de l'indépendance de l'Algérie et de la Tunisie, Annexe 1 et 2 p. 179-183.

الذين يجمعون المال لاقامة حركة ضد الفرنسيين (81) .

وقد أكد التقرير ان جهود هذه الجمعية كانت موجهة الى تدعيم الحزب الحر الدستورى التونسي ، وهي تنظم الاشتراكات و تجمع التبرعات لنشر دعايته ، و تمويل بعثاته الى باريس للمطالبة بالدستور ، وكذلك لسد مصاريف قضية الشيخ عبد العزيز الثعالبي .

ومن أنشط أعضاء هذه الجمعية وأبرزهم الشيخ صالح بن يحيى بن الشيخ سليمان ، والشيخان بعلي صالح بن بعلي ، واطفيش ابراهيم بن محمد بن ابراهيم ، وهم مراقبـــو

---

(81) نقتصر هنا على بعض الشخصيات لنبين انتشار أفكار الحزب الدستورى في مختلف مدن الجزائر ، ولنبرز شعور الجزائريين والتونسيين بوحدة الهدف والمصير . كان من بين هؤلاء السادة : بعلي الحاج صالح بن محمد ، من منطقة أولاد عنان ، وهو ملاك بناحية قالمة وقاطن بمنطقة بني يزقن ، وكان مبعدا من طرف الفرنسيين الى مدينة (تزميت ؟) لموقفه المعادى لهم . وزكرى بن السعيد ، وهو تاجر بمدينة قالمة ايضا . وكان من أعضاء الوفد الجزائرى الذى توجه الى باريس للاحتجاج ضد قضية التجنيد الاجبارى سنة 1912 . وسيدى عيسى بن الحاج عبد العزيز بن محمد ، التاجر بمدينة الجزائر ، وكان يشغل وظيفة وكيل في قضية التجنيد الاجبارى . وطراشين عبد الله بن الحاج حمو ، التاجر بعنابة ، وهو من مراسلي صحف المشرق العربي . وابو كمال عبد الله بن الحاج صالح التاجر بالجزائـــر العاصمة ، وهو صديق وكاتب سليمان الباروني ، وكان وكيلا في قضية التجنيد الاجبارى ، وكان بصندوقه المالي هو وحده مبلغ 200٠000 فرنك ، جمعها لتمويل المقاومة في ليبيا ، واسمه الحقيقي (البليدى) وغيره الى (ابي كمال) . واخوه بليدى محمد تاجر بعين الصفراء ووجده بالمغرب الاقصى ، ومدينة بشار . و بكير بن الحاج عيسى بن بكير بن يعقوب ، ملاك بمدينة ورقلة . وخوطة الحاج عيسى بن موسى ، ملاك في مدينة بوغارى (الجزائر) ، والقاطـن ببني يزقن ، وقد عاقبته سلطة الاستعمار بمدينة بوغارى ، اثر انتخاب نواب البلديـات بها . وقارقوز حاج محمد بن محمد بن عيسى ، ملاك بمدينة الاصنام والمديـنة والجلفة ، والقاطن ببني يزقن . و بن بكير ، ملاك بالبليدة ، ووكيل بقضية التجنيد الاجبارى .

ـ أنظر : نفس المصدر .

التلامذة الجزائريين بمدرسة (السلام) القرآنية الحرة في تونس ،التي كان يشرف على ادارتها الاستاذ الشاذلي المورالي • ونذكر ايضا الشيخ صالح بن الحاج عمر المدعو (سيوسيو) الذى يعتبر ايضا من أعداء الهيمنة الفرنسية • وكانوا جميعا على علاقة وطيدة مع الشيخ صالح ابن يحيى الذى ألقت عليه سلطة الاحتلال الفرنسي القبض صحبة الحاج محمد الرياحي ، في تونس ،يوم 28 اكتوبر 1920 ،بتهمة تهديد أمن الدولة (82).

ورغم ان الفرنسيين قد أعطوا لهذه الجمعية الجزائرية عدة تفاسير، واعتبروها من وحي الحركة الشيوعية العالمية (وهو تفسير كان سائدا في تلك الفترة) فان موقف الجزائريين من الحزب الدستورى لدليل على وحدة الهدف والمصير•

وقد انتشرت دعاية الحزب في جميع أرجاء البلاد التونسية ،وتكونت له شعب بمدنها الرئيسية ،أخذت تتطور تدريجيا • وكانت لهذه الشعب صحف ناطقة باسمها تنشر آراء الحزب ،مثل جريدة (العصر الجديد) بمدينة صفاقس ، التي كان يحرر جل مقالاتها الاستاذ محيي الدين القليبي • ومما يدل على تمسك الشعب التونسي بمبادئ الحزب وأهدافه البعيدة والقريبة ، احتجاجه على تعطيل سلطة الحماية لهذه الجريدة في شهر فيفرى 1924 •وقد عبر على ذلك بتنظيم مظاهرات عمت مدينتي تونس وصفاقس•

وجاء في تقرير هيئة الاركان الحربية الفرنسية ، سنة 1922 ،ان مبادئ الدستور كانت منتشرة في جميع أنحاء البلاد • وكان الشعب لا يفرق بين عبارتي (الدستور) و (الجهاد المقدس) • ورغم ما في هذه العبارة من مبالغة ، تهدف الى تحريض الحكومة الفرنسية على الحزب الدستورى ، فانها في نفس الوقت تبرهن على انتشار مبادئ الدستور في المدن والأرياف والجبال التي كانت تحت الحكم العسكرى • وقد عمت هذه المبادئ جميع الشرائح الاجتماعية (83).

وكان اعضاء الحزب يعملون على تأسيس الشعب الدستورية في المدن الرئيسية بالبلاد ، كصفاقس ،وسوسة وغيرهما ، فضلا عن شعبه التي انتشرت بسرعة في مدينة تونس • وقد اعتمد

---

(82) نفس المصدر•
(83) أنظر:
- A.O.M./A.E.P. 27H1, Op.cit, p. 7-8.

الحزب من أجل تحقيق هذا الهدف ،بالاضافة الى الصحف العربية والفرنسية التي لعبت دورا بارزا في نشر أفكاره ،وشرح مواقفه ،والتعريف بنشاطه ، اعتمد على العناصر الشابة. واستغل طلبة جامع الزيتونة وغيره من مراكز التعليم ،في بث الدعاية له خاصة اثناء عطلهم الصيفية .

وقد ذكرت مصالح الشرطة الفرنسية ان أعضاء الحزب الدستوري قد طلبوا في صيف 1922 ،من طلبة جامع الزيتونة الاعظم أن يستغلوا عطلهم الصيفية في تنظيم شعب للحزب بمدنهم وقراهم والعمل على الدعاية له وكسب المنخرطين والاعضاء بهذه الاماكن (84)

هذه بعض الاشارات الى نشاط الحزب الحر الدستوري التونسي وكيفية تمويله ،و نشر مبادئه بين صفوف الشعب ،و تكوين شعب له على مستوى القطر التونسي . وقد أردنا من خلالها توضيح القاعدة التي تأسس عليها الحزب والطرق التي انبنى عليها .

---

(84) أنظر: A.Ier M./S.MN.Tunis, C.1, Note, Gouvernement Tunisien, Sureté Publique a/s Dirigeants du Destour et Etudiants, Grande Mosquée, Tunis le 10 juin 1922.

4 — موقف الشعب التونسي من الحزب :

ما هو موقف الشعب التونسي من الحزب الحر الدستوري؟ وما مدى نفوذ الدعوة الدستورية في أعماقه ؟

لم يكن الشعب قبل الاعلان عن الدستور فاقد الشعور، بل كان يستمد كما سبق احساسه الروحي، بالاضافة الى نشاط الحركة الوطنية قبل الحرب الاولى، مما كان يلقنه له جامع الزيتونة من مبادئ اسلامية. فتلامذة الزيتونة هم الذين قادوا المظاهرة التي شارك فيها جمع كبير من المسلمين التونسيين بتاريخ 10 مارس 1920 احتجاجا على احتلال القوات الانكليزية للآستانة عاصمة الخلافة الاسلامية وضد قرار اللجنة الاستعمارية الفرنسية الخاص باستصلاح اراضي الاحباس، وكرروا نفس المظاهرة يوم 14 مارس السنة، الأمر الذى أجبر سلطة الحماية على تفريق المتظاهرين بالقوة (85).

ولعل اول رد فعل قام به الشعب التونسي لصالح الحزب الدستوري هو سخطه على اعتقال الشيخ الثعالبي في جويلية 1920. ويظهر أن الخطر كان كبيرا مما أدى الى تخوف الاقامة العامة من ذلك فأبرقت الى حكومة باريس تبلغها الأثر الذى تركته قضية الثعالبي في نفوس الشعب، وتنصحها اذا ما أرادت ارسال الثعالبي الى تونس أن تلتزم بكتمان أمره وأن تحتفظ بتاريخ تحويله سرا، وكذلك تاريخ وصوله، واسم الباخرة التي تحمله حتى تتجنب الاصطدام بالسخط الشعبي (86). وقد وصف السيد برتون، محامي الثعالبي، في مارس 1921، شعور التونسيين نحو الثعالبي فقال ان هذا الاعتقال قد أحدث هيجانا معتبرا في نفوس الشعب التونسي، ولم يزد الثعالبي الا اجلالا واحتراما في نظر

---

(85) أنظر: - A/M.I./CDN/MN.Tunis, N° B 3-13, Rap.Baron, p. 57-58.

(86) أنظر: - A.Q.O./S.T.1917-40, N° 318, Lettre Pd du Conseil Ministre des A.E. à M.Ministre de la Guerre, Paris le 11/8/1920, (analyse, Jeunes Tunisiens a/s de Taâlbi, Télégramme du Déléguée de Résidence Tunis, N° 422, Tunis, le 8/8/ 1920), p. 88.

التونسيين (87) . ولما خرج الثعالبي من سجنه في ماى 1921، هرع الشعب التونسي بمختلف شرائحه من عمال شركة الترام والسكك الحديدية التونسيين، و تلامذة المدرسة الصادقية، وشيوخ الزيتونة، وموظفي الاقامة العامة التونسيين، ووفود شعب الحزب الدستورى من مختلف المدن من وسط البلاد وداخلها، جاءوا كلهم يهنئونه و يحتفلون باطلاق سراحه (88).

وقام الحزب الدستورى بتأسيس شعب له في جميع انحاء البلاد، وركز خاصة على الشمال والساحل التونسي كبنزرت، ورأس الجبل، وماطر، وباجة، وتونس، وسوسة، والقيروان، والمهدية وغيرها . كما أسس شعبا له بالجنوب التونسي بمدينتي صفاقس وقابس، وركز نشاطه بباقي المدن الاخرى عن طريق خلايا صغيرة و بواسطة المناضلين الدستوريين المستقرين بها (89) . وأحسن مثال على ذلك ما كان يقوم به يوسف الرويسي في منطقة الجريد وقفصة، والسيد الأمين بن مصطفى بن الحاج مبارك وصهره القاضي عبد السلام قعيد بمدينة تالة (90) .

وأعاد الاستاذ مصطفى كريم عدم تأسيس شعب حزبية بالجنوب التونسي الى قلة وعي الشعب سياسيا، ونفسيا، واجتماعيا (91)، بينما ترى هيئة الاركان الحربية الفرنسية أن ذلك يعود الى الحالة الاقتصادية السيئة التي كان عليها سكان هذه المنطقة (92). ولعل الارجح هو أن السبب الرئيسي كان يتمثل اولا في قوة وصلابة النظام العسكرى ومكاتبه العربية بالجنوب، و ثانيا كون أغلب الدستوريين كانوا في بداية الامر من مدن الشمال .

وكان رؤساء هذه الشعب اما محامين، او ملاكين، او مدراء مدارس قرآنية، من موظفين، أو من أعيان البلد وأغنيائه . وكانت مهمتهم الدعاية للحزب ونشر مبادئه، وجمع التبرعات

---

(87) أنظر: - A.Q.O./S.T.1917-40, N°319, Note Chef Cabinet Pd au Chef cabinet Ministre A.E., Paris le 30/3/1921, p. 73-74.

(88) أنظر: - A.O.M./A.E.P. 27H1, Rap.Etat-Major, Paris le 21/4/1922.

(89) أنظر: - Kraiem, "Le Vieux..", P. 257.

(90) يوسف الرويسي، " مذكرات يوسف الرويسي السياسية "، مراجعة د . عبد الجليل التميمي، المجلة التاريخية المغربية، عدد 35-36، (تونس، ديسمبر، 1984)، ص 159-218 .

(91) أنظر: -Kraiem, "Op.cit".

(92) أنظر: -A.O.M./A.E.P. 27H1, Op.cit.

والاشة راكات باسمه . وكان نشاط هذه الشعب مرتبطا ارتباطا كليا باللجنة التنفيذية للحزب التي كانت تبعث وفودا عنها تقوم بجولات في انحاء البلاد لشرح مبادئ الحزب ونشر الدعاية له، وجمع الاموال . وقد توجه وفد دستوري برئاسة صالح فرحات ،وضم علي كاهية ، ومصطفى الكعاك ،الى مدينة صفاقس في نهاية سنة 1921 ،واجتمع بالدستوريين من أعيان المدينة وكبار الملاك والموثقين والتجار، في منزل علي القرقوري، ثم توجه نفس الوفد الى مدينة قابس حيث استقبلهم بها الدستوريان حسن بابا ومحمود عباس (93) .

وقد كان للحزب الدستوري نشاط واسع في هاتين المدينتين وضواحيهما مما جعل المراقب المدني يشير في تقاريره الى سلطة الحماية ، الى سكوت السلطة التونسية المحلية وغضها النظر عن نشاط الدستوريين الذين أصبحوا يفتحون الكتاتيب علنا و يجمعون الأموال تحضيرا (لليوم العظيم) ،ويعني به الاستقلال أو الثورة ؟ (94) .

وكانت الشعب الدستورية المنتشرة في المدن تنشر الوعي بين صفوف الشعب (95) . وأصبحت المبادئ الدستورية في مطلع سنة 1922 منتشرة انتشارا واسعا في كامل أرجاء البلاد حتى قيل أنه كان بامكان الحزب الدستوري استنهاض الشعب بكامله بمجرد اشارة بسيطة وجمعه حول مبادئه . وقد لعب طلبة جامع الزيتونة الاعظم دورا بارزا في الدعوة الى الحزب . فجاء في تقرير مراقب مدينة بنزرت المدني ،يوم 26 جوان 1922 ،ان الداعية الدستوري احمد بن الحاج الصادق عياد ،قد تمكن من كسب عضوية 533 فرد برأس الجبل ،وعسوجة ،ورفراف ،وباب قرينا (غار الملح) . وكان يصحبه في جولته الدعائية طالبان زيتونيان . ورغم ما كان يلاقيه هؤلاء الدعاة من اضطهاد السلطة ،فانهم كانوا بحق الجنود

---

(93) أنظر: - Kraïm, " Le Vieux...", p. 265.

(94) نفس المصدر ،ص 266 .

(95) قال شلبي ان الداعية الدستوري الكبير ،حمدة الزمار، أسس وحدة في الاعوام الاولى 56 شعبة للحزب ،من عدة جهات في القطر التونسي . أنظر :

— محمد الحبيب شلبي ، " لجنة التحقيق في حوادث الوطن القبلي في جانفي 1952، وحوادث قصر هلال والمكنين " ،المجلة التاريخية المغربية ،عدد 35-36 ، (تونس ،ديسمبر، 1984) ،ص 123 .

الحقيقيين للحزب الدستوري (96) .

ولقد كان للصحافة الدستورية أثر كبير في اثارة الحماس الشعبي . و سنتعرض الى المظاهرات الشعبية اثر نشر جريدة (الصواب) خبر تنازل الباى محمد الناصر على العرش سنة 1922 ، والسخط الشعبي على القوانين الفرنسية التي كانت تهدف الى القضاء على الشخصية التونسية كتغيير القضاء الاسلامي الى قضاء فرنسي سنة 1926 . فلقد كان الشعب منقادا طواعية الى الصحافة الدستورية لا نكاد نجد الفرق بين الاعيان والشباب المثقف في الاهتمام بهـا ومتابعتها . ومن خلالها عرف الشعب شهية الاطلاع وذاق طعم السياسة وهي التي أصبحت تقود الرأى العام التونسي ،وهي التي صقلته بطابع وطني منسجم رائع ،وتبث فيه روح الكراهية الحقيقية للحماية الفرنسية (97) .

وقد ذهلت هيئة الاركان الحربية الفرنسية سنة 1929 من انتشار الصحافة الدستورية العربية والفرنسية ،واندهشت من كثرة قرائها التونسيين مما جعلها تلاحظ الفرق الشاسع بين التونسيين والجزائريين في هذا الميدان (98) .

وكانت مدينة تونس هي مسرح أعظم نشاطات الحزب الدستوري ،والمظاهرات الشعبية التي وقعت بين سنوات 1920 و1926 . ثم تلتها مدن اخرى كبنزرت التي احتضنت أحداث سبتمبر 1924 . وكان الدستوريون يغتنمون مواسم الاعياد الدينية والوطنية ليجتمعوا بالشعب و يحركوا فيه الشعور الديني والوطني ،و يبعثوا فيه كراهية الاستعمار ،و يحثوه على

---

(96) أنظر : - *A.1er M./S.MN.Tunis, C.1, Rapport , le Contrôleur Civil de Bizerte à M.Le Résident Général à Tunis, Bizerte le 16/6/1922, (a/s Nationalisme dans le Caïdat de Bizerte).*

(97) أنظر : - *A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° A 1-60,(Fce dif. Tun.), p. 677-678.*

(98) لاحظت هيئة الاركان الحربية سنة 1929 انه كان بتونس جريدتان يوميتان ،وخمس اسبوعية ،ونشريتان ،تصدر كلها بالعربية ،وجريدتان اسبوعيتان باللغة الفرنسية . وكانت تسحب كلها ما لا يقل عن 20.000 نسخة ،تتخاطفها الايدى بتعطش منقطع النظير .
أنظر : - *A.O.M. /A.E.P. 27H4 Rap.Etat-Major, du 7/8/1931.*

الانخراط في الحزب ودفع الاشتراكات ·

وكانت دعاية الحزب يكسوها طابع وطني ديني معاد للفرنسيين، ذلك ان صالح فرحات صرح في احد اجتماعات الحزب بالشعب سنة 1924 انه ((يجب الانخراط في الحزب للتخلص من نير الطغاة·)) (99) فقابله الشعب بالهتاف " يحيا الدستور، تسقط فرنسا " · وفي اجتماع آخر في نفس السنة دعا فيه صالح فرحات الحاضرين الى الاقتداء بالمصريين، للحصول على استقلالهم · وعبر الحاضرون على مفهومهم للاستقلال، ونادوا : (تسقط فرنسا) · وكانوا مدفوعين بالشعور الاسلامي والحماس الوطني يبعثه فيهم الدستوريون من ناحية، وفكرة الجامعة الاسلامية و ثورة الريف المغربي من ناحية أخرى · وسادت عبارتا (الاستقلال، والكفاح ضد الاجنبي الغاصب) على جميع احتجاجات الحزب الدستورى واتصالاته بالشعب · فنما شعور معاداة الفرنسيين في نفوس الجماهير وعاشت عليه وراحت تلتف حول شعب الحزب افواجا متتالية، وزادها ارتباطا بها تلك الشعارات التي كانت مرفوعة على باب مقر الحزب وأبواب شعبه بالحلفاوين وغيرها، (تونس للتونسيين)، و (الاستقلال أو الموت) · وكانت هذه الشعارات مكتوبة بحروف عربية بارزة (100) .

وكان دعاة الحزب ينشرون الدعوة الوطنية في الاوساط الشعبية بجرأة فائقة و بايمان قوى · ونذكر هنا ما قام به الدستورى عبد الرحمن اليعلاوى في اكتوبر 1924 بمناسبة المولد النبوى الشريف، حيث اجتمع بالشعب امام احدى شعب الحزب بتونس، ورفع العلم التونسي وخاطب الجماهير قائلا : ((ان هذا العلم الذى كثيرا ما دنست سمعته، يذكركم اليوم باسم الرسول الذى يفرض علينا مولده واجب الدفاع عنه، يجب أن تدفعوا أغلى ما تملكون، وهو دمكم الذى هو لون هذا العلم ··· لنناد : الاستقلال أو الموت·)) (101)

وكان أحمد توفيق المدني يقود مواكب شعبة أخرى بتونس في نفس اليوم رافعة شعارات مختلفة منها (لسنا راضين على الباى والحكومة الفرنسية) و (تحيا تونس و يسقط الروم) و (يحيا مصطفى كمال و تركيا) · وعرفت المدن التونسية الاخرى نفس الجو السياسي، ورفعت فيها الشعارات بنفس الحماس، وخاصة منها مدينة بنزرت التي نادى فيها الشعب

---

(99) أنظر : - *Kraïem, Nati. Synd.*, p. 177.

(100) نفس المصدر، ص 177—180 ·

(101) نفس المصدر ·

((أيها المسلمون التونسيون انهضوا من نومكم الطويل ،وافتحوا أعينكم و تذكروا أجدادكم ، هل تذكرون ما قام به أبطال الاسلام قديما •)) (102)

وكانت النخبة المثقفة من الاعيان والطلبة تتابع الاحداث عن كثب و تستجيب الى نداءات الحزب الدستوري • ولذلك علقت عليها هيئة الاركان الحربية فقالت : ((ان قيام المظاهرات الموجه بتونس أصبح مستوقعا في كل لحظة ،و تجرى عنيفة و تسير مع الظروف ،و تدعو الى بغض وكره الاجانب •)) (103)

وفي ديسمبر 1928 وقعت مظاهرات طلابية قام بها تلامذة جامع الزيتونة • وكان سببها قرار سلطة الحماية القاضي بتغيير كيفية الارتقاء الى مسؤولية الكاتب الشرعي بتونس •فتوقف التلامذة عن الدراسة وانتشرت العدوى في الاوساط الشعبية و تمادت سلطة الحماية في تعسفها وأغلقت جامع الزيتونة لكونه منبع الاحتجاجات والهيجان • فثارت ثائرة الحزب الدستوري واحتج بشدة على هذه التصرفات الجائرة واعتبرها اهانة للمشاعر الاسلامية المقدسة • و تجاوبت الاوساط الشعبية مع آراء الدستوريين وساندت الطلبة في مظاهرات يوم 19 جانفي 1929 • وأغلقت خلالها محلات التجارة في تونس وصفاقس • وقد اختير هذا اليوم عن قصد لأنه يوم سبت ،يأخذ فيه اليهود عطلتهم و تكون محلاتهم مغلقة • فعاشت تونس آنئذ يوما حزينا مما أجبر سلطة الحماية على التراجع عن قرار غلق جامع الزيتونة ، وعادت الحياة الى مجراها يوم 20 جانفي (104) .

و يدل هذا التضامن على مدى قوة الحزب الدستوري ومتانة اتصاله بالفئات الشعبية في الشمال والجنوب من جهة ومدى تمكنه من توجيه الشعب نحو أهدافه و تربيته على معاداة سلطة الحماية من جهة أخرى • كما يدل ايضا على صدق روح الشعب و تعلقه بجامع الزيتونة الاعظم • وكان جل شيوخ و تلامذة الجامع الاعظم دستوريين حتى ان سلطة الحماية اعتبرته

---

(102) نفس المصدر ،ص 180–181 •

(103) أنظر: - A.O.M./A.E.P. 27H4, Rap. Etat-Major, du 7/8/1931

(104) أنظر: - A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° A.1-60, (Fce dif. Tun.), P.679-680.

((معقل الوطنية ، ورمز الشعور الديني ·)) [105] وقد كان لجامع الزيتونة أهمية كبيرة فعلا في نفوس التونسيين خاصة والمسلمين الذين ترددوا عليه عامة · فكان له الأثر البليغ في صقل شعورهم الوطني ، وطبع نفوسهم بطابعه الثقافي الاسلامي · وكان شأنه مع الحزب الدستوري شأن جامع الازهر مع الحزب الوطني ·

ولم تأت سنة 1933 على الحزب الدستوري حتى كان يضم جميع الشرائح الاجتماعية التونسية من شيوخ جامع الزيتونة وطلبته ، وكذلك المثقفين ، والمحامين ، وأساتذة المدارس الحرة ، والموثقين ، والوكلاء ، وكتاب المحاكم ، والصناع ، والتجار ، والفلاحين ، والحرفيين ، والملاك ، والموظفين ، والعمال ، وسائقي السيارات · ولعل ذلك ما ادى بالادارة الفرنسية الى القول : ((ان الحزب الحر الدستوري كان بين سنوات 1924 و1933 ، حزب الرجال المخلصين ·)) [106]

ولعل أصدق شريحة التزمت للمبادئ الوطنية الحقة هي الطلبة الزيتونيون الذين كانوا متعلقين تعلقا شديدا بالحزب الدستوري · وذلك بحكم انتمائهم الاجتماعي ، ووضعهم الثقافي وبعد تصورهم الحضاري · اما الشرائح الاخرى ، فرغم حسن ايمانها بالقضية الوطنية وتعلقها بمبدأ الاستقلال ، فان مفهومها له يختلف ، بحكم انتمائها الاجتماعي ومستوى ثقافتها وتصورها ومصالحها · ولعل خير من كان يعبر عن هذا المفهوم ، هم : الحزب الاصلاحي ، والحزب المستقل ، والحزب الدستوري الجديد ، التي سنتناولها فيما بعد ·

وقد عمل الدستوريون كاحمد الصافي ، وصالح فرحات ، ومحيي الدين القليبي ، وغيرهم على تغذية الروح الوطنية وتوجيه الشعب نحو المطالبة بالاصلاح السياسي ، كاقامة مجلس تشريعي ، ومحاربة التجنس والاندماج ، والاصلاح الثقافي كالتحريض على بناء المدارس

---

(105) نفس المصدر ، ص 680 ·

(106) أنظر : - *Kraiem, "Le Vieux..".. p. 268-269*

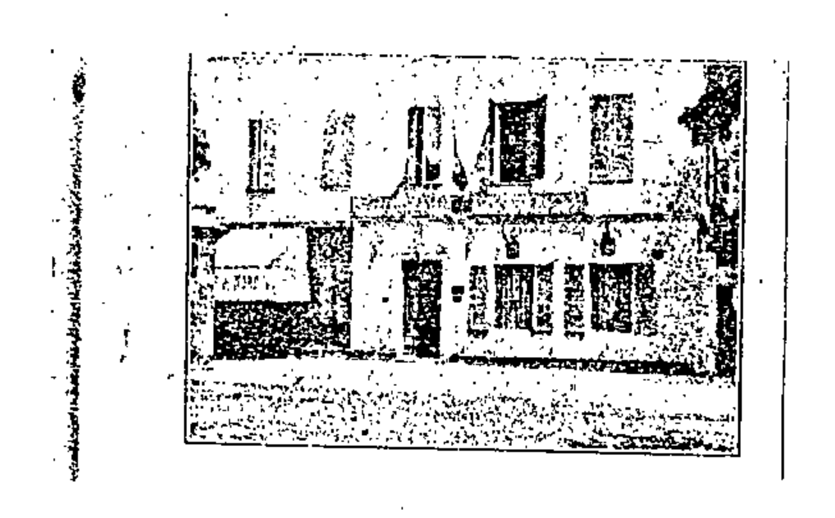
الحرة باللغة العربية ، والاصلاح القضائي والديني كالدفاع على القضاء الاسلامي ومحاربة المسخ الحضارى ، والاصلاح الاقتصادى كتشجيع المصنوعات الوطنية والاقبال على الحرف التقليدية والزراعية ، والاصلاح الاجتماعي كالمحافظة على القيم الخلقية والدينية ، وعدم تقليد الاوروبيين في تعاطي المحرمات كالخمر والربا وغير ذلك ٠

ولئن كان لهؤلاء كلهم دور في دفع عجلة الحركة الوطنية الى الامام في جميع جوانبها ، فان الشيخ الثعالبي كان له دوره هو الآخر في ذلك رغم غربته وأعماله في اطار الجامعة الاسلامية ٠ فلقد كان له اتصال وثيق بالشعب الدستورية والدستوريين ٠ وكان يتبادل معها الرسائل في المناسبات والاعياد الاسلامية ٠ ونورد هنا رده على شعبة الحلفاوين لنتعرف من خلاله على فكرة الاستقلال الحضارى الذى كان يعتقده الثعالبي وبناه على التاريخ والدين والوطن ، وروح التضحية التي دعا اليها شعبة الحلفاوين في مطلع سنة 1933 بقوله : ((ابنائي الاعزاء ليوث الكريهة ٠٠٠ طلائع الحق الهضيم وأنصار القومية النبيلة ٠٠٠ وخليق بكم أن ترسلوها شعلة توقد الجوانح فاما حياة طيبة واما مر... ح ٠٠٠ ان الحركة قدسية لا تموت ٠ فسيروا على بركة الله ٠٠٠ غير ناظرين الا الى **الواجب** الذى في أعناقكم للدين والتاريخ والوطن فان النكوب عنه انتحار شنيع وموت أبدى ٠))(107)

---

(107) أ ٠ و ٠ ل ٠ ، ٠ ت ٠ ق ح ٠ و ٠ / تونس ، رقم 13 - 3 3 ، رسالة خطية من الشيخ عبد العزيز الثعالبي الى اعضاء شعبة الحلفاوين الدستورية ٠ (ردا على الرسالة التي وجهتها اليه الشعبة بمناسبة عيد الاضحى) ، القاهرة ، في 30 افريل 1933 ٠

هذه صورة مقر الحزب الحر الدستوري التونسي ، 25 نهج انكلترا - تونس - معلق على بابه العلم التونسي مكتوب على يمينه إسم الحزب باللغة العربية وعلى يساره اسمه باللغة الفرنسية . ويظهر نفس العلم في شكلين مصغرين فوق نافذتي المقر.



المصدر : Afritue Française, 35 année, N° 7, (juillet, 1925), pp. 329.

الفصل الثاني

قيادة الثعالبي للحزب من خلال مواقفه ومؤلفاته

١- حياته حتى ١٩١٩.
٢- آراؤه من خلال مؤلفاته.

1– حياته حتى سنة 1919 :

يعد الشيخ عبد العزيز الثعالبي من المفكرين المسلمين البارزين في ميدان الاصلاح الاجتماعي والسياسي والديني . وهو خطيب ومحدث ومؤرخ يستند على الأدلة العقلية الفلسفية ، وحبه الله نعمة الاجادة في الحديث والقدرة على الكلام وجمال العبارة تبعثها حرارة الايمان في نفسه ، لا يستعصى عليه تعبير وهو يسبح في بحر من الأفكار في هدوء وسكينة يبعثها صراع الحق مع الباطل .

جمع الثعالبي بين النضال السياسي الوطني والقومي والعمل الفكري والحضاري من أجل النهوض بالأمة العربية الاسلامية ، وهو ما أدى بالامير شكيب أرسلان الى أن يشيد بحامسه بقوله : ان الثعالبي بحر لا ساحل له . وان يصفه رفيقه في الاصلاح الاسلامي ، الاستاذ عجاج نويهض بقوله : انه خطيب من الطراز الأول أخذ من جمال الدين الافغاني حماية بيضة الاسلام ، ومن عبد الرحمن الكواكبي السياحة ودراسة شؤون العرب المسلمين عن كثب ولكن مصباحه كان مصباح ابن خلدون . وقد جمع الثعالبي بين التنظيم القومي العملي والقدرة العجيبة على الحديث الشهي الذى يحول به الحقائق الفلسفية الى طعام ذهني (1) .

وقال الاستاذ ابوكنانة في شأن الثعالبي : نشأه جامع الزيتونة تنشئة الشهامة العربية والعزة الاسلامية ، فكانت نشأته هذه تدفع به الى الآفاق الواسعة حتى لا يدع قضية اسلامية دون أن يشارك فيها بما أوتي من قوة (2) . كما وصفه الاستاذ عمر بن قفصية التونسي ، أحد رفاقه في الجهاد الوطني ، انه زعيم تونس الأكبر الذى جاهد بانفراده

---

(1) عجاج نويهض ، " الثعالبي : انطباعاتي عنه في فلسطين " ، مجلة الأديب ، سنة 33 ، ج 9 ، (سبتمبر 1974) ، ص 2–7 .

(2) أبوكنانة ، " أخبار العالم الاسلامي — العروبة في شمال افريقيا " ، مجلة التمدن الاسلامي ، ج 7 (1364 هـ) ، ص 91–92 .

حتى انضمت له الجماعات و((لا أعلم هل هو التضحية ام التضحية مجسمة فيه ·)) (3)

ومن شهادات الفرنسيين فيه قول الاسكندر ميليراند (الذى تولى رئاسة الجمهورية الفرنسية) : ((ان الثعالبي معاد لفرنسا ولسلطة الحماية في معظم أعماله ونواياه ومقاصده ·)) (4) وقول العقيد بارون : انه رائد من رواد حزب الشباب التونسي الاكثر نشاطا والأشد تطرفا (5) · وقول هيئة الاركان الحربية الفرنسية،انه رجل مرن في آرائه لين في وسائلــه مما جعل الاحزاب المعارضة لفكره تجتمع من حوله و تنقاد اليه و تسير في ركابه (6) .

ومهما اختلفت الآراء حول شخصية الثعالبي الفكرية والسياسية فانه كان من المفكرين المسلمين العرب الذين انضجت الثقافة الاسلامية قرائحهم وكون تاريخها أذواقهم وعمّق الاســلام مفاهيمهم ووسعها وأعدهم للثورة · فكان الثعالبي ثائرا على أطوار الحيــاة الراكدة بعد كبوة المسلمين ،وعمل على تحبيب آرائه للشباب المسلم الناشئ · وزينها في وجوههم ببراعة فلسفية ، ففتح بذلك النفوس والضمائر ومهد الطريق أمامهم للثورة في وجه الاستعمار · وكان سلاحه الخطب والأحاديث والكتابات الصحفية التي ألهب بها نفوس الشباب المستحمسين ودفعهم الى النهوض بالاعباء الثقال والأمور العظام لانقاذ أمتهم ودينهم ·

فحذا الشباب حذو الثعالبي وأنكروا حياة الركود والجمود والتخلف ،وعملوا على جمع الناس من حولهم وطبعوهم بطابع النهضة العلمية والفكرية ·

والثعالبي هو محمد عبد العزيز بن ابراهيم بن عبد الرحمن ،ينتسب الى جــده الثالث والثلاثين الشيخ سيدى عبد الرحمن الثعالبي دفين الجزائر،صاحب التفسير المسمى بالجواهر الحسان ،والى جده الثاني والاربعين الحسين — رضي الله عنه — بن علي بن أبي طالب — كرم الله وجهه ·

---

(3) أ · و · ط · م · ت · ق / ح · و / تونس ،رقم 13—3 B ،ابن قفصية (خلاصة الابرار) ،ص 1—12 ·

(4) - *A.Q.O./S.T.1917-40, N°319, Lettre, M.Président du Conseil Ministre des Affaires Etrangères, à M.L.Saint, Résident Général à Tunis, Paris le 4/4/1921, a/s Analyse affaire Taâlbi,p.78-79.*

(5) - *A.M./CDN/MN.Tunis, N°B 3-13, Rap. Baron, p. 15.*

(6) - *A.O.M./A.E.P. 27H1, Rap. Etat-Major Général, Paris, le 21/4/1922, p. 2-3.*

ولد بعاصمة تونس في 15 شعبان 1293هـ (1875م) [7] ، وتربى في كنف والده على الدين والاخلاق الحميدة ، ونشأ تحت رعايته التربوية والفكرية وأخذ عليه مبادئ التسامح والكرامة والكرم . وبعد حفظ القرآن والفتوى والقراءة والكتابة تابع دروسه بمدرسة باب سويقة الابتدائية ، ثم أدخله ابوه الى الجامع الزيتوني الاعظم وعمره لا يتجاوز الرابعة عشرة ليتعلم العلوم الدينية واللغوية كالفقه والحديث النبوى الشريف والاخلاق وعلم الكلام والفلك والمنطق والرياضيات والنحو والصرف والادب العربي . ومن أساتذته الشيخ مصطفى بن خليل في الفلسفة ، والشيخ السماتي في الرياضيات [8] .

وكان الثعالبي شغوفا بالمطالعة والدرس فظهر ذكاؤه وامتاز بنباهته على أقرانه وبدأت عليه علائم القلق مما كان عليه التعليم بالجامع الأعظم من ضعف وما كان عليه الشعب من جهل وضلال واضمحلال . ففارق جامع الزيتونة قبل اتمام الدراسة والاحراز على شهادة التطويع . وقيل انه تابع دروس المدرسة الصادقية والخلدونية ، والأرجح انه كان يتردد على دروسهما وخصوصا الخلدونية التي تؤمها النخبة التونسية المستنيرة ، بخلاف الصادقية التي ضعف دورها مع حلول الحماية بتونس [9] .

---

(7) اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ ميلاد الثعالبي ، ارجعه الزركلي وسامي الجندى (مقدمة كتاب تونس الشهيدة) الى سنة 1874 ، وأعاده كحالة الى 1876 ، وابن قفصية (خلاصة الابرار) والمرزوقي وابن الحاج يحيى (معركة الزلاج ، ص 176-177) الى 1875م ورجحنا الرأى الاخير لكونه تونسيا واعتمدنا التاريخ الهجرى الذى حدده الثعالبي بنفسه في (ترجمته المذكورة ، ص 1-3) ، أنظر :

- خير الدين الزركلي ، الاعلام ، ط 2 (مطبعة كوستاتوماس وشركاه 1954) ج 4 ، ص 136 . وج 10 ، ص 126-127 .

- عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، (دمشق ، مطبعة الترقي ، 1958) ، ج 5 ، ص 240 .

(8) نذكر من شيوخه ايضا المكي بن عزوز ، والصادق خالد ، ومحمد بلخوجة ، واسماعيل الصفايحي ، ومحمد النجار ، وحسين بن حسين ، والصادق الصفر ، وسالم بوحاجب ، والطاهر الرياحي ، وابراهيم مزغني . انظر -A.M.I./CDN/MM.Tunis, N°B 3-13, Rap.Baron, p. 1-3.

(9) محفوظ ، ج 1 ، ص 281-291 .

وقد استنار عقل الثعالبي وتوسعت معارفه وبدأ يحس بوجوب المطالبة بالاصلاحات السياسية والاجتماعية والتعليم العام والغاء الخرافات والاوهام والبدع الفاسدة . وتأثر في ذلك بأساتذته المصلحين مثل المكي بن عزوز وسالم بوحاجب وغيرهما ممن ورثوا فكرة الاصلاح عن الوزير خير الدين .

وقد انقسمت حياة الثعالبي جزئين : حياة عامة اهتم فيها بالكفاح السياسي واستقلال تونس من وطأة الاستعمار ، وحياة فكرية عمل فيها على نهضة العالم العربي الاسلامي علميا وحضاريا .

فانشغل منذ صباه بالتفكير والبحث عن أمراض العالم الاسلامي التي فككت أواصره وأذهبت قوته ومجده . ووضع نصب عينيه العمل على ابراز أمراض مجتمعه وأفكاره ومبادئه ، وحقوقه ، وأسرار حياته العقلية والاجتماعية وتوضيحها لاولياء أمر المسلمين . وشرع منذ 1894 يكتب المقالات الطويلة بأسلوب أخاذ مستقد وينشرها في الجرائد المصرية (كالمقياس) و (الفيوم) ، تحت أسماء مستعارة . وأسس في السنة الموالية مع جماعة من الشباب التونسيين جريدة وطنية الاتجاه اسلامية المنهج ، سماها (سبيل الرشاد) ترأس ادارة تحريرها بنفسه . وعملت هذه الجريدة على نشر الافكار الحرة والجادة لاستنهاض الهمم وتربية العقول ، واسمها يدل دلالة واضحة على هويتها .

ولم يكن هذا النشاط ليرضي السلطة الاستعمارية ، فأوقفت الجريدة وصادرت أوراقها ، بتهمة التطرف ومهاجمة ادارة الحماية صراحة ، وسجنت أصحابها لمدة شهرين (10) .

كما تأثرت الجريدة ايضا بقانون الضمان الجائر الذى فرض على كل صحيفة سياسية دفع مبلغ مالي قدره 8 000 فرنك . فتوقفت عن الصدور ل... أصحابها على الدفع (11).

قرر الثعالبي مغادرة وطنه ، واتجه في أول الامر الى ... مدنها واطلع على أحوال المسلمين بها . ولسنا ندرى بالض... ولكن الظاهر أنه جاءها بنية العمل الصحفي ، وغادرها لما تاكد ان الجزائر بلد فرنسي ـ حي

---

(10) أنظر: - A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B 3-13, Rap. Baron, p.3.

(11) أ. و. ا.م. ت.ق/ح.و. تونس، رقم 13-3 B ، ابن قفصية (خلاصة الابرار، ص1-2

نظر القانون الفرنسي – يحارب فيه رجال الفكر العربي الاسلامي من جزائريين وغيرهم. وكانت فترة التسعينات فترة هجرة جماعية للمثقفين الجزائريين ، فحز ذلك في نفس الثعالبي ، وعاد الى تونس وحاول الذهاب الى مصر، فلم تأذن له سلطة الحماية بذلك ، فاتجه نحو طرابلس الغرب سرا عن طريق الصحراء التونسية وخليج جربة بحرا . واستقر بها مدة شهرين نشر خلالها عدة مقالات في جريدة (التركي – الطرابلسي) اليومية . تناول فيها شتى الموضوعات السياسية والفكرية والاجتماعية . فأثارت عاطفة المسلمين مما أدى بسليمان ناصف باشا والي ليبيا عندئذ أن يقنع الثعالبي بمغادرة طرابلس عاصمة ولايته ، الى مدينة بنغازى .

وغادر الثعالبي طرابلس وأقام بين أهل مدينة بنغازى عزيزا مكرما . غير أنه لم يلبث أن فارقها بعد شهرين الى جزيرة كريت وتعرف على أحوالها خاصة وانها كانت تعيش عاصفة استقلالها وانفصالها عن الدولة العلية . ثم غادرها ايضا الى بلاد اليونان ومنها الى الآستانة التي بقي بها مدة سنة كاملة اختلف فيها الى نوادى السياسة والعلم والفكر . وتعرف على العلماء ورجال الفكر المسلمين من أتراك وعرب وافغانيين وهنود ، وتناقش معهم في أحوال العالم الاسلامي ومسائله ودرس معهم مشاكل السياسة في المشرق آنئذ (12) . ويبدو أن الثعالبي كان قد نال اعجاب رجال الخلافة الاسلامية فاهتموا به اهتمامهم بالمصلحين التونسيين الذين سبقوه الى الهجرة كخير الدين ومحمد بيرم الخامس .

ومن رجال النهضة الاسلامية الذين حظى الثعالبى بالتعرف عليهم ، الشيخ أبو الهدى الصيادى افندى ، الذى عرض عليه منصبا عاليا في دائرة الوظيف العمومي ، ورفضه الثعالبي وتذرع بجهله لمثل هذه الوظيفة ، وبين للشيخ ابي الهدى ان هدفه الوحيد هو الاطلاع على أحوال المسلمين في البلاد التي يزورها ، والتعرف على أفكار رجال العلم فيها وتبادل الآراء معهم (13) . وقيل : انه تقابل ايضا مع السلطان عبد الحميد الثاني ، وتبادل معه الآراء حول أوضاع الخلافة الاسلامية . ونحن لا نستبعد ذلك ، لأسباب كثيرة أهمها اهتمام السلطان عبد الحميد بتمريض (الرجل المريض) وخاصة جناحه المشلول الجزائر وتونس وطرابلس بعد حين .

---

(12) أنظر : - A.M.I./CDN/MN.Tunis, B 3-13, Op.cit.

(13) أنظر : - Op.cit., p . 3-4.

والظاهر ان مترجمنا قد أوقف حياته على معرفة أحوال المسلمين عن كثب ، فلم تمر عليه سنة بالآستانة حتى رحل عنها حوالي سنة 1897 الى مصر حيث كان له فيها أصدقاء ومعارف كثيرون ، قضى بينهم مدة ثلاثة أشهر كان محل احترام وتقدير الجميع . فأقيمت على شرفه الندوات الثقافية والمسامرات الادبية .

وراح يكتب مقالاته الطويلة في صحف مصر الكبيرة ومجلاتها الراقية كجريدة (المؤيد) و(مجلة الموسوعات) وكشف اللثام عن الأحوال السياسية والاجتماعية بتونس(14) .

ويبدو أنه قصد من وراء تلك المقالات هدفين أساسيين ، الأول خدمة الأمة الاسلامية وتوعيتها بمصيرها المهدد ومسؤوليتها الخطيرة ، وثانيا تعريفها بأحوال تونس وما يعانيه المسلمون فيها تحت حكم الاستعمار الفرنسي . ولعل ذلك هو ما دفع بلجنة تحرير جريدة (الموسوعات) المصرية ان تنتخبه ليكتب لها مقالا حول مستقبل العالم الاسلامي . فنشرته بتوقيع (السائح المغربي) (15) ، عرض فيه أمراض ومداواة العالم الاسلامي وختمه باقتراح عقد مؤتمر اسلامي عام للبحث عن مداواة شؤون المسلمين الاخلاقية والمادية والسياسية . وقد كان لهذه الدراسة صدى كبير في الاوساط الفكرية ورجالها فيهم من مدحه وفيهم من انتقده . ومع ذلك بقيت فكرة عقد مؤتمر تشغل بال المفكرين المسلمين وكتابهم . ومن الذين نادوا بتطبيقها المفكر الاسلامي والكاتب الوطني الروسي الشهير اسماعيل بك سفرنسكي .

وبقي الثعالبي بين سنوات 1898–1902 يتردد بين الآستانة والقاهرة ، يقضي شتاءه في الاولى وصيفه في الثانية ، وبقية الفصول في زيارة بقية البلدان الاسلامية . فزار أناضوليا ومقدونية والعراق وسوريا والنمسا وايطاليا والسودان . وكان خلال اقامته بمصر

---

(14) أ . و . ل . م . ت . ق / ح . و . تونس ، رقم 13 – 3 B ، ابن قفصية (خلاصة الابرار) ، ص 2–4 .

(15) أشار الى هذا الاسم ابن قفصية (خلاصة) بالسائح المغربي ، وذكره الثعالبي في (ترجمته) بفاتح المغربي . ورجحنا الاول للدلالة على وضعية الثعالبي في ذلك الحين وأهملنا الثاني لكونه مترجما عن العربية ، وقد تكون الترجمة خاطئة كما هو الامر بالنسبة لكتابة اسم مجلة (الموسوعات) التي ترجمت الى مجلة (المسودات) .

يحضر دروس الأزهر الشريف وخاصة منها المحاضرات الفلسفية واللغوية وتفسير القرآن والاحاديث النبوية . ودرس مختلف النظم السياسية التي كان يجهلها ، وخالط الكتّاب والباحثين ورجال الاصلاح المصريين كمحمد عبده ورشيد رضا . ونال في مصر وغيرها من البلدان شهرة واسعة كبيرة وعرف فيها بفن الخطابة والوعظ والارشاد ، وبكتاباته الشهيرة ، ومهارته السياسية ، ومحادثاته الذكية ، ونبوغه العلمي . وانتشرت خطبه وأحاديثه خاصة في مدن مصر كالفيوم وبني سويف وابي الشيخ وسوهاج (16) .

ولم يكن الثعالبي عالة على أحد في سياحته بل كان يلبي حاجياته المادية من أعماله الصحفية والعلمية . فكان يدرس بجمعية (شمس الاسلام) المصرية واكتسب بمحاضراته الشيقة شهرة واسعة وسمعة طيبة بين رجال العلم والفكر والاصلاح المسلمين الملتفين حوله كعبد الرحمن الكواكبي وعثمان بن غالب ، وعمر بك لطفي ، والشيخ فضل الله ، ورفيق بقلادم ، وغيرهم ممن ذكرنا ومن لم نذكر .

وكما كانت الصلة وثيقة بين مترجمنا وبين المفكرين المسلمين الذين ذكرناهم ، فانها كانت تدعو الى التنافر والتباعد مع بعضهم الآخر . ونجد على رأس هذه الشرذمة القليلة مصطفى كامل ، الزعيم المصرى ، الذى كتب مقطعا في جريدة (تنيس) Tenes الفرنسية هاجم فيه الثعالبي وقال انه كان عالة على بعضهم في مصر وغيرها شأنه شأن الشيخ محمد عبده ، وعلي يوسف ، ورشيد رضا ، ورياض باشا .

ورد الثعالبي في رسالة وجهها الى مدير الجريدة اعترف فيها بأن يهاجمه مثل مصطفى كامل ، لأنه وضعه في مصاف علماء الاسلام الكبار كالشيخ عبده وعلي يوسف وسواهما (17) . والواقع انه وان كان الثعالبي قد استفاد من رحلاته وتجولاته ودروس الازهر ومخالطة علماء مصر والآستانة وغيرهم ، فانه لم يكن يعد في هذه الفترة على الأقل ، في مصاف محمد عبده ولا علي يوسف .

ومن أعمال الثعالبي في مصر أيضا مشاركته مع بعض مفكريها في تأسيس هيئة

---

(16) أنظر : - *A.M.I./CDN/MN.Tunis, B 3-13, Op.cit., p.1-4.*

(17) أنظر : - *Op.cit., (Lettre de Si Taâlbi), La Dépêche Tunisienne, du 8/9/1904.*

لكتابة تاريخ الاسلام العام (18) . وجاء في قانونها الاساسي انشاء مراكز لها في جميع البلدان الاسلامية ووضع مراسلين لها هناك ، والعمل على اجراء بحوث تاريخية في أى بلد اسلامي تكون مرجعا ودليلا لمعرفة واقع هذه البلدان والاطلاع على حقيقة أوضاعها الحالية وربطها بماضيها المجيد .

والظاهر ان مشاركة الثعالبي في هذه المنظمة لا تعود فقط لقدرته العلمية وثقافته الواسعة وانما ايضا لكونه أحد المسلمين العارفين بأحوال المغرب الاسلامي أكثر من غيره . فربما اختير لهذا السبب لتمثيل هذا الجزء من العالم الاسلامي في تلك المنظمة ؟

وعاد الثعالبي الى تونس في صيف عام 1902 (19) ، ((غريب الشكل والنزعة والمنطق

(18) كانت هذه المنظمة تضم : عبد العزيز الثعالبي ، واحمد بوشاسكي ، أمين مجلس التنظيم ، واحمد بك تيمور ، وعيسى بك بهجت ، مدير الدار الاسلامية ، ورفيق بك الاكبر ، وحقي بك ، ومحمد فريد ، وحافظ بك سلطان ، وعصمان بك طالب رفعت ، واسماعيل باشسيرسك ، مدير المدارس العسكرية ، وعمر بك لطفي ، استاذ القانون ، والمؤرخ اسماعيل بك .

ولئن لم يكتب لهذه المنظمة النجاح على ما يظهر ، خاصة حين غادر الثعالبي مصر وعاد الى بلاده ، وأهملها باقي اعضائها ، فانها بادرة حسنة ليت مفكرينا اليوم يقتدون بها لانقاذ تراث الامة من الزوال والفناء .

(19) ذكر عمر بن قفصية انه عاد سنة 1903 ، وقال العقيد بارون انه عاد سنة 1902 منفيا من مصر . وقد استهدف بذلك شخصية الثعالبي . ويوضح لنا الثعالبي ذلك بقوله : ((ومن الاكاذيب المخجلة زعم التقرير (اى تقرير بارون) ضمن تعرضه لذكر سياحاتي من تاريخ حياتي اني خرجت من مصر منفيا سنة 1902 ، وهذا لم يقع اصلا . فقد سافرت من تلقاء نفسي في أواسط يوليو من تلك السنة ... ولكن يظهر ان الوكيل السياسي الفرنساوى في مصر يومئذ كتب الى حكومته كذبا وتخرصا انهم بمساعيه اخرجوا الثعالبي من مصر . ولما سئلت عن هذه النقطة في التحقيق نفيتها باشمئزاز ولكن بالرغم من ذلك اثبتوها في الخلاصة حتى يصوروني للحزب الذى يؤيدني في فرنسا اني رجل مقلق حقيقة ليس في تونس فحسب بل وفي غيرها ايضا حتى يبرروا سوء سلوكهم معي .)) أنظر :

— أ.و.ل.ء.م.ت.ق/ح.و.ر. تونس ، رقم 13—3 ، 8 رسالة الثعالبي من بغداد الى ابي الحسن صاحب جريدة الشورى ، القاهرية التي نشرتها تحت عنوان (الاستاذ الثعالبي يرد على المحكمة العسكرية ، تصحيح أكاذيب وتفنيد مفتريات) بعددها 161 ، (القاهرة ، 22 ديسمبر 1927) .

والقلم ،يتكلم بأفكار جمال الدين الافغاني ومحمد عبده و يعجب بالكواكبي ... و يدعو الى التطور والحرية وفهم أسرار الدين .)) [20] ولم يلبث بها حتى توجه نحو الجزائر والمغرب الاقصى [21] واسبانيا و زار جل مدنها واطلع على أحوالها . ثم عاد سنة 1904 الى تونس مرورا بمناطق الاوراس بالجزائر، وشن حملة قوية ضد الحالة السياسية التعسة والمفاسد الاخلاقية التي كانت رائجة رواجا كبيرا [22] .

وذكر بعضهم انه حاول تأسيس جريدة باللغة العربية في المغرب الاقصى للتعبير عن آرائه ونشر افكاره . وطلب مساعدة جونار، حاكم الجزائر العام آنئذ . ولكنه لم يفلح في ذلك رغم ترحيب جونار بفكرته . ولسنا ندرى لماذا لم يقم بنفس العمل في الجزائر، وما الذى أعاقه على تنفيذ فكرته في المغرب الاقصى ؟ [23]

وقد أحاط به أهل العلم والادب في تونس وهو يحلل لهم المواضيع الاصلاحية والسياسية ، ومسائل الخلاف بين الصحابة والاولياء وأصحاب الكرامات . فأثار حفيظة كبار الشيوخ الناقمين على الاصلاح فثاروا ضده و نصبوا له العداء واتهموه بالخروج عن الدين الاسلامي ومضايقة المسلمين .

أخذ الثعالبي يدافع عن نفسه وعن مبادئه ، وألف كتابا سماه (روح التحرر في القرآن) [24] ، دافع فيه عن الحقيقة ووضح لأعدائه - وخاصة الفرنسيين - والمشنعين على

---

(20) محمد الفاضل ابن عاشور ، الحركة الادبية والفكرية في تونس ، محاضرات (تونس ، الدار التونسية للنشر ، 1972) ، ص 73-74 .

(21) ذكر الثعالبي انه توجه الى المغرب الاقصى سنة 1903 في مهمة سياسية دامت أربعة أشهر ، سببها خلع السلطان مولاى عبد الحفيظ ، والي مراكش ، اخاه السلطان مولاى عبد العزيز . فباسم من قام الثعالبي بهذه المهمة ، هل باسم السلطان عبد الحميد الثاني بصفته خليفة على المسلمين ، او باسمه الشخصي ، بصفته داعية اسلاميا ؟ هذا ما لا نعلمه الآن . أنظر :
- انور الجندى ، عبد العزيز الثعالبي رائد الحرية والنهضة الاسلامية 1879-1944 ، (بيروت ، دار الغرب الاسلامي ، 1984) ، ص 26 .

(22) أ . و . ل . م . ت . ق / ح . و . تونس ، رقم 13-3 B ، ابن قفصية (خلاصة الابرار) ص 2-4 .

(23) عبد العزيز الثعالبي ، روح التحرر في القرآن ، ترجمة حمادى الساحلي ، ومراجعة محمد المختار السلامي ، (بيروت ، دار الغرب الاسلامي ، 1985) ص 8 .

(24) وضعه الثعالبي باللغة العربية وترجمه الى الفرنسية السيدان الهادى السبعي والمحامي ابن عطار الاسرائيلي ، وصدرت طبعته الفرنسية الاولى بباريس سنة 1905 ---

الاسلام خطأ أحكامهم ،وبين لهم ان الاسلام كفيل بسعادة الانسانية جمعاء،وان انحطاط المسلمين يعود الى البدع المخالفة لدينهم والتي الصقت بمبادئه السمحة .

وركز خاصة على مرونة الدين الاسلامي و تماشيه مع العلوم العصرية . وبين التسامح الديني في القرآن وعلاقته بالاجناس البشرية التي دخلت في ظله والتي بقيت على دينهما وعاداتها . ثم تعرض في الاخير الى موضوع المرأة في الاسلام وأهمية حريتها و تقدمها وأخلاقها ولباسها وعلاقتها مع الرجال (25) .

ولم تكن آراء الثعالبي في هذه الفترة متطرفة رافضة لكل ما هو اجنبي ،وانما كانت معتدلة تدعو الى التقارب والأخذ بيد المسلمين للخروج من التخلف الحضاري والفكري والاجتماعي . ورغم ذلك حوربت آراؤه من طرف الاستعماريين ،لأنهم كانوا يرفضون كل اصلاح يرفع من شأن المسلمين . واحتج ضدها المحافظون والطرقيون ،لأنها كانت تهدد منزلتهم الاجتماعية ونفوذهم الديني .ولذلك كان هذا الكتاب بمثابة الصاعقة . فقد هزت نفوس المعادين وأثارت ضجة الاستعماريين وأنصارهم واعتبروه خروجا عن الدين والحادا وكفرا به . ولقد كان حقيقة خروجا عن المألوف الذي آلفه المشعوذون و شب عليه الجامدون . ومع ان ضجة المعادين كانت قوية ، فان صيحة المناصرين كانت تؤكد صحة اسلام الثعالبي الذي استمر على حاله يدعو الى الاصلاح والنهوض بالمسلمين .

والملاحظ أن هناك عوامل أثرت على طريقة الثعالبي في الدعوة الى الاصلاح السياسي والاجتماعي . فهو من ناحية لم يكن مقيدا بانتماء الى البلاط الملكي ،ولا بوظيفة لدى ادارة الحماية ،ومن ناحية اخرى كان على دراية بأحوال المسلمين وقوة شكيمة السلطة الاستعمارية . ولعل هذه العوامل هي التي جعلت دعوته تقوم أولا على مهاجمة الطرقيين والمناداة بالاصلاح الاجتماعي ،والعمل ثانيا على اقناع السلطة الفرنسية بالحجة والبرهان على قبول الاصلاحات السياسية . فجاءت دعوته شطرين اصلاحا مباشرا واصلاحا غير مباشر. ومن ثم فهي شبيهة بدعوتي ابن باديس والعقبي خلال العشرينات في الجزائر.

=== والثانية ببيروت (دار الغرب الاسلامي) سنة 1985 في مجلد واحد مع الطبعة العربية الاولى . أنظر : *A.Taâlbi, C.Bennattar, A.Subai,* <u>*L'Esprit Libéral du Coran*</u> *, (Paris, 1905).*

(25) <u>نفس المصدر</u> ،ص 10-100 .

ووقعت سلطة الحماية تحت تأثير اعداء الثعالبي واعتبرت آراءه ضربا من الجرأة والتطرف ونصبت له العداء ووضعت له فخا سقط فيه بين مخالب الاستعماريين وأنياب الطرقيين. وذكرت جريدة (لادبيش تونزيان) (26) ان المفتي الحنفي قد استدعى الشيخ الثعالبي وسألـــه عما اذا كان قد خالف القرآن والدين ؟ فرد عليه الثعالبي بقوله : ((أبدا ، وكتاباتي موجـودة لتثبت صحة أقوالي . اني انتقد فعلا أعمال شيوخ الزوايا .)) ثم ان الحراس أخذوا الثعالبي امام نائب كاتب الحكومة التونسية العام الذى زج به في السجن المدني بحجة انقاذه مـن حكم الاعدام الذى تريد محكمة الشرع ان تنفذه فيه من جهة ومن سخط المتظاهرين عـلـى أعمـاله من جهة أخرى . وكان المسمى نوار، شيخ الطريقة العيساوية ، عندئذ يطوف الاسواق ويحرض الناس على الثعالبي المارق من الدين . وأكبر الظن ان هذا الشيخ كان عميلا من عملاء حكومة الحماية أجرته لتنفيذ خطتها (27) .

وبعد أن زج كاتب الحكومة التونسية العام بالشيخ الثعالبي في السجن ، طلب رسميا من محكمة الشريعة ان تلغي اهتمامها بقضيتـه ، لأنها من مهام محكمة الدريبـــة الأهلية (28) . فأصبحت قضية الثعالبي بذلك في يد احد الفرنسيين ، وهو رئيس المصالح القضائية الاسلامية .

ماذا فعلت محكمة الدريبة بالثعالبي ؟ هل اطلقت سراحه بعد أن أنقذته من ظلـم محكمة الشريعة كما كانت تزعم ؟

لقد عملت على تضليل الرأى العام التونسي من مناصرى المتهم خاصة . ولكي تظهر لهم عدالة حكمها وانقاذها له من جور محكمة الشريعة ، نشرت دعاية مفادها أن مفتيي المالكية والحنفية قد قدما تقريرا للباى محمد الهادى ، هدداه فيه بتقديم استقالتهما لو لم تحتـرم آراءهما في قضية الثعالبي (29) .

---

(26) أنظر - A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B 3-13, (le cas de Si Taâlbi), <u>la Dépêche Tunisienne</u> du 2/7/1904.

(27) <u>نفس المصدر</u> .

(28) الدريبة أصلها الضبطية ، تأسست سنة 1857 كمجلس من المجالس المتفرعة عن قانون عهد الامان . وصار هذا المجلس مشهورا عند التونسيين بالدريبة . واليه ترفع قضايا الجنح الخفيفة . واذا قضي بسجن المخالف اخذ الى سجن الدريبة . أنظر : السنوسي ، ص176 ـ 177 .

(29) - A.M.I./CDN/MN.Tunis, N°B 3-13, (Le cas de Si Taâlbi), <u>La Dépêche Tunisienne</u>, du 3/7/1904.

وليس هناك شك في ان المظاهرة التي قام بها بعض العامة من التونسيين (30) يوم 5 جويلية 1904 حول دار الباي، وصاح فيها الناس باعدام الثعالبي، هي أيضا من تدبير حكومة الحماية وعملائها . ولعل الحقيقة هي ما وصفت به جريدة (لاديباش تونزيان) الشيخ الثعالبي امام المتظاهرين بقولها : ((سي الثعالبي، كان ضحية حساسية الجماهير المفرطة العمياء التي زادتها بعض الشخصيات (التونسية) غيظا وهيجانا .)) (31) وكان الثعالبي يتأمل في جموع مضطهديه والساخطين عليه ويرسل عليهم نظرة ملؤها الشفقة والحنان والالم والنم معا، والحسرة على انسياقهم وراء جهلهم والانقياد لاعدائهم !

وبقي الشيخ سجينا الى صبيحة يوم 23 جويلية 1904 حين وقف امام محكمة الدريبة برئاسة صالح عباس وساعديه محمد بن بوبكر والعروسي الحداد وكاتب المحكمة ومترجمها محمد شنيق، ومحامي المتهم السيد ابن عطار الاسرائيلي . يحضر المحاكمة جمع غفير من الاعيان المسلمين ورجال القضاء والصحافة . وكان الثعالبي واقفا امام الجميع ودلائل الفرح تظهر على وجهه، وهو يرسل على الحاضرين نظرة ساخرة مستبصرة تكسوها قشرة من حزن وحسرة عميقة وهو يتمتم بعبارة ((لم يعد هناك دين .)) (32) وقضي الأمر بمقتضى البند 15، 513 من قرار القضاء التونسي الصادر في 18 مارس 1896، وصدر فيه الحكم النهائي بشهرين سجنا مع اسقاط مدة السجن الوقائي، دون السماح له بالدفاع عن نفسه. وبذلك تكون مدة سجنه قد دامت من 2 جويلية الى 2 سبتمبر 1904 .

وكانت التهم الموجهة اليه هي : أولا انتقاد القرآن الكريم وتفسير غير لائق بالدين الاسلامي، وثانيا اهانة رجال الدين الاسلامي بشهادة النازلة التي قدمها ضده السادة حميدة

---

(30) ذكرت الجريدة ان عدد المتظاهرين كان قد بلغ 2 000 . وفي الامر مبالغة دون ريب، لأن الشعب كان أكثره يعي اهداف الثعالبي ومعاني اصلاحات . أنظر :
- *Op.cit.*, *la Dépêche Tunisienne*, du 6/7/1904.

(31) نفس المصدر .

(32) قال هذه العبارة بالعامية، وهي (ما عادش الدين) . أنظر :
A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° 3 3-13, (*L'Affaire de Si Abd el Aziz Taâlbi*), *La Tunisie Française*, du 24/7/1904.

قشحوك ،وعمر عجيرة ،وبشير القناتي ،واحمد قمارت (33) . والظاهر ان سلطة الحماية قد احسنت اختيار التهمة والرجال الذين قاموا بتنفيذها .

وكتبت الجريدة الفرنسية (الجمهوري) الصادرة في 24 جويلية من نفس السنة تقول ان الصحافة التونسية الفرنسية كلها ساخطة على الدعوى التي اقيمت ضد الشيخ الثعالبي ، وهي تعرف بأن الحجج الكافية لم تقدم في محاكمة المتهم ،فكان بذلك ضحية انتقام نزعات حزبية ،اذ أن القاء القبض عليه بتهمة جنحة الاعتقاد والرأى هي عملية منافية لحقوق الافراد ، أضف الى ذلك ان صيغة المحاكمة لم تكن عادلة فلم تذكر اسماء الشهود في جلسة المحكمة ولم يسمح رئيسها بقراءة الحجج المقدمة ضد المتهم ،و بقيت مجهولة حتى من طرف محامي الدفاع نفسه (34) .

وان كان لموقف هذه الجرائد هدف اسمى - رغم صحة أقوالها - فهو اقامة البرهان على ان القضاء الاسلامي ما يزال متخلفا لم يبلغ مستوى العدالة والحرية التي وصل اليها القضاء الفرنسي ،مع العلم ان هذه المحكمة لم تكن محكمة اسلامية صحيحة . و ربما تكون هذه الجرائد قد أدت هذا الدور باذن من سلطة الحماية خاصة ونحن نعلم ان العقد الأول من القرن العشرين كان زمن الاصلاحات الفرنسية في مستعمراتها ،فاغتنمت تلك الفرصة لالغاء المحاكم الاسلامية نهائيا لما فيها من (مظالم) ،واستبدالها بمحاكم فرنسية (عادلة) ؟ !

ونحن لا ننفي ذنب المسلمين واساءتهم للثعالبي سواء منهم الطرقيون المشعوذون العملاء او السائرون في الضلال وراء أوهامهم . وانما نقول ان سلطة الاحتلال الفرنسية هي التي كانت تدير كل شيء ،لأن اصلاحات الثعالبي تهدد كيانها هي بالدرجة الاولى اذ أن زوال عملائها الخاضعين (للقضاء والقدر المحتوم) هو زوال العبودية والجهل والفقر والذل الذي سلطته فرنسا وأتباعها على رقاب الشعب .

---

(33) شهد المحتجون انهم سمعوا الشيخ الثعالبي يقول ان الشيخ عبد القادر الجيلاني ابن زنا . فعلى مذهبه ومذهب ابيه اللعنة .

(34) - A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B 3-13, (Abus de pouvoir), <u>Le Républicain</u> , du 24/7/1904.

ونشرت جريدة (لاديباش تونزيان) حديث الثعالبي الى المحامين الفرنسيين المتعاطفين معه، وهو قوله : ((اني مسرور بهذا الحكم وأتمنى ان يؤدى الى تجنب مثله في المستقبل . وأظن ان الحكومة الفرنسية قد أخطأت في شأني عن طريق الشخصيات القوية (يقصد الطرقيين) التي هي من أعند أعدائي ، لأني أحارب الجهل والتعصب . واني لا أطلب العفو في حكم يشرفني الى الأبد في عالم الاحرار ومحبي التقدم والحضارة .)) (35)

وفي الحقيقة ان هذه التهم قد ألصقت به لا لشيء الا لأنه كان يأخذ على المسلمين حفظهم للقرآن الكريم دون فهم معانيه ، فاستحوذوا عليه وقيدوه بجمودهم وقلة اجتهادهم في تفسير آياته . وكان يهدف الى اخراجهم من ضلالهم وتخلفهم والوصول بهم الى التمسك بمبادئ الاسلام الصحيحة التي تتماشى مع كل عصر .

وعلى اية حال فان محاكمة الثعالبي كانت ((أول مظهر لتمييز الحركة الجديدة واقامة الفوارق بين مناهج التفكير السابق ، وكان ذلك عاملا على تكوين عطف الكثيرين عليه .)) كما وصفه الشيخ محمد الفاضل بن عاشور .

وقد وقفت بعض الجرائد الفرنسية موقفا مضادا للثعالبي في محاكمته ، وعلى رأسها جريدة (Ténès) الفرنسية التي نشرت عدة مقالات أكدت فيها الحكم عليه بالاعدام . والظاهر انها تأثرت بموقف جريدة (الحاضرة) التي كانت تقوم بحملة ضده وتريد من وراء ذلك فرض آرائها في العالم ونشر فكرة خروج الثعالبي عن الدين وكفره به . ذلك ان (الحاضرة) كانت تمثل حينئذ رأى المحافظين الموظفين لدى ادارة الحماية الداعين الى الاصلاح التدريجي دون اثارة سخط الفرنسيين .

غير ان العالم الاسلامي كان يتعاطف مع الثعالبي تعاطفا كليا خاصة صحفه الاصلاحية وعلى رأسها مجلة (المنار) للشيخ رشيد رضا . ويقول الثعالبي انه تلقى ما يزيد على عشرة آلاف شهادة تعاطف من مختلف انحاء العالم الاسلامي وهي كفيلة بان تبطل اساءة جريدة (الحاضرة) لسمعته ، وان تثبت خطأ الجرائد التي تسير في ركابها وخطأ الذين غالوا في

---

(35) أنظر : - Op. cit. , (Procès de Si Taâlbi), La Dépêche Tunisienne ; du 24 /7/ 1904.

الاساءة له في كتاباتهم (36) .

وعلى الرغم من أن الثعالبي كان يعلم ان مصدر الحركة المضادة لآرائه هي سلطة الحماية الواقعة تحت تأثير المعمرين وليس فقط ما يقوم به المحافظون والطرقيون التونسيون من أعمال ، فان الظاهر ان أيام السجن قد اثرت على فكره ووجهت اصلاحاته . فبينما نادى بسنوات 1902 — 1904 بالاصلاح الاجتماعي والديني ، فاننا نجده سنة 1904 يركز على الاصلاح السياسي . فلم يكد يغادر سجنه حتى تصدى بعزيمة قوية لحركة الاستعماريين المضادة للاصلاح السياسي ، واتفق مع زميله الفرنسي الرائد ديستري على تكوين جريدة يومية فرنسية اللسان كشفا فيها مساوئ ادارة الحكومة التونسية وعدم تنظيمها . وكان الثعالبي يؤمن ايمانا راسخا أن مثل هذه الجريدة سوف تكون لها نتائج ايجابية على التونسيين خاصة اذا استغل فيها بعض اقلام الفرنسيين المعتدلين ومحبي الاصلاح .

وقد سمياها (بريد تونس) وهي أول جريدة تونسية تصدر باللغة الفرنسية . فشنت في أول أعدادها حملة حادة ضد حكومة الحماية بأقلام مولعة بالسلام والفكر الحر . وطالبت بفتح أبواب التوظيف امام التونسيين ، واشراكهم في الحكم على قدم المساواة مع الفرنسيين ومنحهم حرية الصحافة وتأسيس المدارس والنوادي الثقافية . مما دفع بحكومة الحماية — بالاضافة الى اعمال بعض التونسيين المذكورة في غير هذا الموضع — للقيام ببعض الاصلاحات فاشركت التونسيين في أعمال المجلس الاستشاري ، وفتحت عدة مدارس لابناء المسلمين ، وسمحت للصحافة ببعض الحرية . كما وضعت حدا ، ولو جزئيا ، لتصرفات سياستها الادارية (37) .

وكون الثعالبي بذلك جوا سياسيا بتونس وكسب أنصارا كثيرين من كبار رجال الفكر الفرنسيين الاحرار والانسانيين مثل الرائد ديستري . ولم يقتصر عمل الجريدة على العمل الصحفي فقط بل تعداه الى الدعاية لها ولافكارها فقامت بعدة حفلات ومآدب دعت اليها كبار رجال السياسة . واغتنم الثعالبي هذه الفرص وتذاكر معهم مختلف المسائل العامة ووجوب اصلاح أوضاع التونسيين واخبارهم مما يعانونه من تعاسة وبؤس وتخلف . ووجد في شخصية الهادي السبعي ، المترجم السابق بالمحكمة الابتدائية بتونس ، أحسن معين له

---

(36) أنظر: - *Op.cit.*, (Une let. Taâlbi), du 8/9/1904.

(37) أنظر: - *Op. cit.*, (Autobiogrpphie Taâlbi), p. 5-6.

اذ كان يؤازره ويؤيده تأييدا كبيرا (38) .

وتمكن الثعالبي حينئذ من كسب الرأى العام حوله وأفهمه أفكاره عن قرب ، وبقي مندفعا في ميدان السياسة بقوة وعزيمة . واشترك مع علي باش حامبة سنة 1909 في تأسيس نشرية (الاتحاد الاسلامي) التابعة لجريدة (التونسي) وتولى رئاسة تحريرها بنفسه ، وأشهر فيها حملة عنيفة على مظالم الادارة وطالب باصلاح أمر التونسيين وحارب المفاسد وقاومها جهرا . وكانت مقالاته تصدر تحت اسم (سانحة) فتكون آنذاك جو سياسي تونسي جديد .

ولم يقتصر عمل الثعالبي على الاصلاح السياسي والديني فقط ، بل تعداه الى الاصلاح الثقافي على النهج الذى كان سائدا في مصر بين علماء الازهر وطلابه . فقد شارك سنة 1910 الى جانب علي باش حامبة والصادق الزمرلي في أحداث (الجامع الاعظم) التي تعرضنا اليها آنفا ، ووقفوا الى جانب المتظاهرين من طلاب الزيتونة . وكان الثعالبي يكتب المقالات الطويلة في جريدة (الاتحاد الاسلامي) دفاعا عن قضيتهم ، ثم فتح لهم بها ركنا يحررونه بأنفسهم ، فنال حبهم وكسب عطفهم (39) .

ثم أسس في نفس السنة جمعيات فكرية وثقافية بتونس عملت على نشر الثقافة والتعليم واهتمت خاصة بالقاء المحاضرات ، وتنظيم المسرحيات والامسيات الشعرية . ونذكر منها مثلا (جمعية الآداب) و (جمعية الشهامة العربية) . شارك فيها بنفسه مع بعض معاضديه وأنصار فكرته من طلبة الزيتونة (40) . واذا كان اسم (جمعية الآداب) يدل على اهتمامها بالادب والثقافة في عمومها ، فان (جمعية الشهامة العربية) لها أكثر من معنى حضارى عميق له أبعاده الثقافية والاجتماعية والاخلاقية والسياسية في المحافظة على مقومات الشخصية التونسية .

---

(38) أ . و . ط ، ت . ق / ح . ز . تونس ، رقم 13-3 ، ابن قفصية (خلاصة الابرار) ، ص 2 - 4 .

(39) الثعالبي ، تونس الشهيدة ، ص 11-13 .

(40) محفوظ ، ج 1 ، ص 282-284 .

ولا غرابة اذا وجدنا الثعالبي يرمي بكليته في أحداث طرابلس الغرب في 29 سبتمبر 1911، اذ كان من أنصار الخلافة الاسلامية وحاملي فكرة العمل على اعادة بنائها . ولذلك سخر قلمه ولسانه وكل طاقاته للدفاع ضد الغزو الايطالي وشد أزر المقاومة الطرابلسية والتعاون مع القادة العثمانيين (41) .

كما سخر كذلك جريدة (الاتحاد الاسلامي) للدعوة الى الجهاد ودعا الى مساعدة المجاهدين الطرابلسيين ماديا ومعنويا . وقد عبرت جريدته بقوة عن عواطف التونسيين الاسلامية ، فاستقبلوا الجيش العثماني المار بتونس استقبال المجاهدين الابرار ، ومنهم من تطوع معه مجاهدا في سبيل الوطن والخلافة الاسلامية .

واستمر الثعالبي يكتب و يخطب و يجمع التبرعات والادوية ، وقد فتح لها سجلات خاصة . ومما يدل على اشتعال عاطفة المسلمين التونسيين و تفاعلهم مع الأحداث استقبالهم للقادة العثمانيين في احتفال منقطع النظير ، وكان بينهم أنور باشا ونوري باشا وغيرهما (42) .

وأثرت أحداث طرابلس في فكر الثعالبي وجعلته أكثر تطرفا وصار بذلك من أبرز القادة التونسيين في مهاجمة الاستعمار ودعاة الوحدة الاسلامية ، ذلك انه يختلف عنهم في ثقافته واتجاهه و بعده الفكري والحضاري . فلم تفته أية فرصة لاظهار عدائه صراحة للادارة الفرنسية بتونس خصوصا والاستعماريين عموما ، واعلان ولائه المطلق للخلافة الاسلامية و تفانيه في خدمتها .

وظهر في قلب مظاهرات أحداث الزلاج الدامية سنة 1911 ومقاطعة ركوب عربات الترام سنة 1912 . مما أدى بسلطة الحماية أن تحكم عليه بالنفي في 16 مارس 1912 رفقة زملائه الستة علي باش حامبة ، ومحمد نعمان ، والشاذلي درغوث ، وحسن قلاتي ، الصادق الزمرلي . فاتجه الى فرنسا مع علي باش حامبة ، لطرح القضية التونسية هناك . وكان ساسة الفرنسيون في غنى عن سماع الثعالبي ، لانشغالهم بتطور الاحداث في أوروبا ، الأمر الذي اضطر الثعالبي الى السفر الى الآستانة ، ودخلها حوالي شهر نوفمبر من نفس السنة ، واستقبل فيها بحفاوة كبيرة و تعرف على شخصيات عربية شهيرة منها الامير فيصل الذي أصبح

---

(41) الثعالبي ، تونس الشهيدة ، ص 12 — 13 .

(42) محفوظ

ملكا على العراق فيما بعد ، و شاعرى العراق الكبيرين معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي . (43)

وقد عرضت عليه عدة مهام بعاصمة الخلافة (الآستانة) ، كمديرية أوقاف الحجاز، ومنصب قاضي بيروت ، فرفضها . ولكنه قبل طائعا مهمة المفتش العام للمكتبات التابعة للاوقاف ، وكلف بتنظيمها ووضع دليل لكتبها . ويقول انه قبلها لفائدتها العلمية التي فتحت له الاطلاع على الكتب الهامة والنادرة المحفوظة بها . غير أنه لم يبق بها طويلا حتى تنازل عنها بعد شهرين مختارا لا مرغما ، وغادر الآستانة في نهاية شهر ديسمبر 1912 (44) ، متوجها الى مصر . ثم غادرها في مطلع السنة الموالية الى مدينة عدن و زار مدن اليمن ومناطقها مثل لحج عبير ، والتلعة ، وميناء قبائل الردعة .

ولم يلبث ان عزم على الرحيل الى بلاد الهند الشاسعة ، فرحل بحرا من عدن الى جزيرة سيلان سرنديب ، واستقر بمدينة كولمبو بضعة أيام ومنها تحول الى مدينة قالي سيلان و زار مدينة كندة وجبل سرنديب . ثم أخذ طريقه الى جنوب الهند حيث تجول في أرجاء ايالاتها وعواصمها ، كمدينة مدراس ، وفلفلان وسواهما . ومنها الى سنغفورة ، وجاوة ، وسيام ، وشنغهاي ، ومدينة زنغون عاصمة بورما (45) ، ومنها الى كلكوتا ، واللهآباد وعليكرة ، ودلهي عاصمة الهند .

واتجه بعد ذلك الى مملكة تيمور ، وهيبو عاصمة راهيو نطانة ، ومملكة الو ثنيين مملكة تونك بصحراء الهند ، ومملكة بو حبال ، والبنجاب ، و بومباى . ثم غادرها في نهاية شهر جويلية 1913 الى مدينة مصوعة ومنها الى عدن ، ورجع الى القاهرة . ولم يكد يستقر بها حتى أخذ البحر الى نابولي بايطاليا في طريقه الى مدينة طولون ومرسيليا بفرنسا .

وقد قام الثعالبي بأعمال جليلة في المدن التي زارها خدم بها الاسلام والمسلمين ، وارتبط اسمه وعمله ارتباطا كليا بحركة الاصلاح الاسلامية في العالم الشرقي خاصة ، فألقى المحاضرات والخطب امام جمعية (التجمع الاسلامي) بمدينة قالي سيلان ، وجامع جمال

(43) عبد الرزاق الهلالي ، "الشيخ عبد العزيز الثعالبي" ، مجلة المورد ، مجلد 8 ، عدد 3 ، (وزارة الثقافة والاعلام بغداد ، دار الجاحظ ، 1979) ، ص 463-464 .

(44) ذكر الثعالبي في ترجمته انه خرج من الآستانة الى مصر في ديسمبر 1911 ، وهو خطأ مطبعي ، والصواب هو سنة 1912 لانه نفي من تونس في مارس 1912 .

(45) يذكر الثعالبي انه تردد على مدينة سنغافورة للمرة الثالثة وانه غادرها الى مدينة زنغون التي كان اليابانيون يحجون اليها .

صاحب بمدينة مدراس ،والجمعية الاسلامية بمدينة سنغافورة ،ومدرسة انانب ببطوانا ،وكان مديرها التونسي الشيخ الهاشمي بن المكي ،والمدرسة المحمدية بمدينة جليسبا ،وجامع مدينة هولان ،والنادى الوطني الهندى بمدينة كلكوتا وجامعتها الاسلامية ،والمدارس العليا بالآستانة .

ولم تقتصر نشاطاته هذه على الجمعيات العامة والجامعات بل تعدتها الى قصر السلطان بابا بمدينة بومباى ،ومنازل كبار التجار الهنود ،وملاجئ الحركة الاسلامية بقرية كوماى بجاوة ،وملجأ الحرب بمدينة برانك .

ويذكر الثعالبي ان الصحف الوطنية والاجنبية الصادرة بالبلدان التي زارها قد اهتمت بنشر محاضراته وخطبه وتصريحاته (46) .

وكانت الحكومة الفرنسية قد رفعت عنه القرار المتعلق بالنفي سنة 1913 ، فعاد الثعالبي الى تونس سنة 1914 (47) في بداية اندلاع الحرب العالمية الاولى ،ولم يبق هناك مجال للعمل السياسي بفرنسا . فاستقر بتونس واقتصر عمله بها على اللقاءات السرية والنشاطات الثقافية والعلمية بالنوادى والجمعيات ،اذ ان العمل السياسي كان محرما ،والصحف التونسية كانت ممنوعة من الصدور .

ويقول احمد توفيق المدني ان الشيخ الثعالبي كان أثناء الحرب يخطب على مسرح جمعية الآداب ،فقال في أحد فصولها معرضا بجمعية الشهامة التي كان يقودها محمد بورقيبة آنئذ ((ولكن يضيق صدرى ولا ينطلق لساني .)) (48) .وربما كانت تضايقه أوضاع المسلمين التي آلت الى البؤس والشقاء والدمار .

وبقي العمل السياسي يسير في الخفاء كبقاء السيف في غمد ،والثعالبي ينظم الاتصالات مع رفاقه من التونسيين والجزائريين الى أن انتهت الحرب فسافر الى فرنسا في 10

---

(46) أنظر - A.M.I./CDN/MN.Tunis, N°B 3-13, Autobio. Taâlbi, p.7-8.

(47) هناك اختلاف في تحديد تاريخ عودة الثعالبي الى تونس ،فأرجعه المقيم العام لوسيان سان الى سنة 1913 ،واتفق العقيد بارون مع مترجمي الثعالبي الآخرين على سنة 1914 أنظر
- A.Q.O./S.T.1917-80, N° 319, Lettre Rd Gl à Pd Conseil, le 20/4/1921
- A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B3-13, Rap.Baron, .

(48) المدني ،ج 1 ،ص 74 .

جويلية 1919 ليطرح قضية الشعب التونسي السياسية أولا ثم من أجل المداواة ثانيا ، وليضم جهوده لاعمال احمد السقا الذى سبقه بأربعة أشهر الى باريس و يطلع على الحالة السياسية ويجمع الرأى العام الفرنسي لتلبية المطالب التونسية (49) .

---

(49) رد الثعالبي على استجواب المقيد بارون له يوم 9 فيفرى 1921 . أنظر :

- *A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B 3-13, Rap. Baron, p.28.*

2 ـ آراؤه من خلال مؤلفاته :

ولنترك القضية السياسية هنا في نهاية سنة 1918، لاننا تناولناها في الفصل الاول، ولنتحدث الآن عن مؤلفات الثعالبي من كتب ومقالات ودراسات وآراء بعد أن رحلنا معه الى الشرق والغرب واطلعنا على أوضاع المسلمين هناك • فهل استفاد مترجمنا من هذه الرحلات، وهل سجل لنا من جديد ؟

لقد كان الثعالبي غزير الانتاج العلمي والفكري والتاريخي والادبي • غيران أكثر أعماله لم تزل تنتظر النور بعد • وقد انقسمت مؤلفاته الى كتب ومقالات ودراسات مطولة تناولت موضوعات شتى، ولكنها غير كاملة كما أكد ذلك بنفسه في ترجمته، وقال انه حاول عدة مرات أن يجمعها و يصححها و يحررها في أسلوب تاريخي، ولكنه لم يستطع نظرا لما اعترضه من عراقيل •

وكل ما نعلمه من مؤلفاته، من بعيد او قريب، هو ما جمعه على شكل حوليات(50)، ضمنها الأحداث التي اعترضته ومختلف الآراء والأفكار، وهي كثيرة الأهمية، خاصة انه وصف فيها نشاطات السلطان عبد الحميد الثاني، وأفكار ومآسي المشرق العربي آنئذ، والأخطار التي كانت تواجهه وأسبابها • وقد ضمت أعماله الفكرية عدة دراسات متسلسلة احتوت تأملاته الفكرية والعلمية التي استقاها من تجاربه الطويلة ورحلاته البعيدة (51) • وهي لم تنشر في مجملها • اما التي نشرت فنذكر منها مثلا الدراسة التي قدمها في المؤتمر العربي ببغداد سنة 1936 و نشرتها مجلة الهلال المصرية سنة 1939 بعددها الخاص تحت عنوان (العرب والاسلام في العصر الحديث، أمراض العالم العربي، أسباب انحطاطه أصولها ومداواتها • مع مدخل تناول فيه وضع تونس العام(52) • وانتهى فيها الى القول

---

(50) ذكر السيد ابن قفصية ان الثعالبي وضع لهذا الكتاب عنوانا هو (رسالة الشرق) • أنظر: أ•و•ل، م•ت•ق/ج•وتونس رقم 3-13 B، ابن قفصية (خلاصة الابرار)، ص7 •

(51) أنظر: - A.M.I./CDN/MN.Tunis, N°B 3-13, Autobio.Taâlbi, p.8-9.

(52) أنظر: -A.O.M./A.E.P. 29H35, Rapport Ministre de l'Intérieur au Gouverneur Général d'Algérie, Paris, le 24/11/1939

انه لا يرى أملا للنهضة الاسلامية غير الجامعات التي تكون لها مخططات مدققة في الاحياء والتجديد . لا تلك المترمتة التي لا تخرج عن عقول آلية تتحرك بارادة غيرها . ((واذا أردنا أن نحفظ للشرق منزلته الاولى ، أن نقتبس من الغرب كل جديد نجمل به ونبنذ كل قديم رث بال... وكفانا أن نحتفظ من ماضينا : الدين والأخلاق .)) (53) وقد التقى الثعالبي في قضية التجديد مع ابن العنابي في كتابه (السعي المحمود في نظام الجنود) الذى ألفه في مطلع القرن التاسع عشر (54) .

وله أيضا دراسات هامة عن حياة المسلمين في جاوة والهند ، وصف فيها العقائد والديانات البرهمية والبوذية بالتفصيل وأسرارها الكهنوتية ، وآدابها الدينية ، وأسرار الهيمنة الأجنبية على المسلمين ومهارتها في تفكيك عرى وأسس وحدتهم الوطنية ، ثم أبرز الفروق بين مختلف الدول الاستعمارية ونظمها السياسية المطبقة في مستعمراتها (55) .
وهذا بالاضافة الى الدراسات التاريخية التي تحدث فيها عن أسباب توغل الاسلام وانتشاره في أرجاء البلاد الهندية الشقيقة وانصهارها في حضارته (56) .

وللثعالبي دراسات أخرى كثيرة منها محاضراته في جامعة آل البيت ببغداد في فلسفة وتاريخ التشريع الاسلامي نشرتها مجلة الجامعة ببغداد بين سنوات 1925--1930 .

وله أيضا تآليف معروفة ترجم بعضها الى الفرنسية ككتاب (تونس الشهيدة) الذى ترجمه الاستاذ احمد السقا ، وكتاب (روح التحرر في القرآن) الذى اشترك في ترجمته الاستاذان ابن عطار الاسرائيلي والهادى السبعي ، وكتاب (القرض التونسي) الذى عارض فيه منح

---

(53) أنور الجندى ، تراجم الاعلام المعاصرين في العالم الاسلامي ، (القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، 1970) ، وقد سماه ((عبد العزيز الثعالبي تلميذ جمال الدين الافغاني وخليفة الكواكبي .)) نقلا عن مجلة الهلال 1939 .
(54) محمد بن محمود ابن العنابي ، السعي المحمود في نظام الجنود ، تقديم وتحقيق د . محمد بن عبد الكريم الجزائرى ، (الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1983)
(55) من أعمال الثعالبي في رحلته الاخيرة الى الهند سنة 1936 ، مقالات عن المنبوذين هناك . أنظر عنها :
- عبد العزيز الثعالبي ، مسألة المنبوذين في الهند ، (بيروت ، دار الغرب الاسلامي ، 1984) .
(56) أنظر :
- *A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B 3-13, Autobio. Taâlbi,* p.7-9.

تونس قرضا ماليا من فرنسا . أما الكتب العربية فهي (تاريخ شمال افريقيا) (57) ، وهو تاريخ مطول وصل فيه الى نهاية العهد الحفصي ، نشر قسما منه في الاعداد الاولى من (مجلة الفجر) التونسية ابتداء من شهر آوت 1920 ، تحت عنوان سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية في حوالى 100 صفحة . وكتاب (الكلمة الحاسمة) الذى طبعته مطبعة الارادة التونسية سنة 1937 ، و (معجز محمد رسول الله) – صلى الله عليه وسلم – الذى تناول فيه حياة النبي الكريم من فجر بعثته الى أن لقي ربه . ولسنا ندرى في كم من جزء وضعه ، ولكننا نعلم انه طبع منه الجزء الثاني ، وجاء شعاره على الصفحة الاولى منه : ((ان المجتمع الاسلامي هو نسيج الرسالة المحمدية ، فأروني ماذا صنع غيرها من الرسالات .))

ويذكر الثعالبي ان الدافع لتأليف هذا الكتاب هو ادراكه الفراغ في حياة المسلمين العلمية والاجتماعية والنقص الذى تفشى في ثقافتهم العامة الدينية والاخلاقية والسياسية واتخاذ دينهم مرتزقا بعد أن كان خلقا وسيرة (58) .

وقد اعتمد في تأليفه على الرواية الصحيحة وأسلوب النقاد المعاصرين . ومراد المؤلف من ذلك هو ارجاع المسلمين الى التمسك بعناصر الاسلام المتمثلة في سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وحسبهم في ذلك هداية الدين الاسلامي وانعاشه القوات الروحية والجسمية والعقلية (59) .

اما عن مذكراته ورحلاته الى مصر والشام والحجاز والهند فقد ذكر الزركلي في (الأعلام) (60) ان للثعالبي مذكرات في خمسة أجزاء ، ولعله يكون قد اطلع عليها مخطوطة . ويستبعد أن تكون قد نشرت قبل هذا الوقت ، خاصة وان كل مترجمي الثعالبي لم ينبهوا الى ذلك في أعمالهم التي اعتمدنا عليها .

ومع اننا لم نطلع على جميع مؤلفات الثعالبي لنتعرف أكثر على فكره وآرائه وأبعاده

---

(57) لعله هو الذى أشار اليه السيد عمر بن قفصية في (خلاصة الاسرار ، ص 7–8) ، تحت عنوان (تاريخ تونس) .

(58) عبد العزيز الثعالبي ، معجز محمد رسول الله تونس ، مطبعة الارادة ، 1357 هـ/1938 م ، ج 2 ، المقدمة ، ص ا – ط .

(59) نفس المصدر .

(60) الزركلي ، ج 4 ، ص 136 ، و ج 10 ، ص 126–127 .

الحضارية ، الا أننا نقول ان هدف الثعالبي الاسمى كان احداث انقلاب في نفوس الشباب المسلمين ينقذ به العالم الاسلامي من نكبته .

تعرضنا فيما سبق الى حياة الثعالبي الوطنية والاسلامية . ونريد الآن ، قبل التطرق الى أفكار كتابه (تونس الشهيدة) ، أن نستعرض ما قل ودل من أفكاره الاصلاحية التي خدم بها امته العربية الاسلامية .

لقد كان الثعالبي سائحا متجولا في أنحاء العالم الاسلامي والاوروبي بهدف استطلاع أوضاع المسلمين وتحليلها ، ومعرفة أمراضهم الاجتماعية والبحث على شفائها والوقوف على نفسيتهم والعمل على استنهاضها .

وقد سبقه الى البحث في هذا الموضوع رواد غربيون كثيرون ، ولكنهم كانوا رواد منفعة لا يبحثون عن أسرار الحضارة الشرقية عامة والاسلامية خاصة الا للكيد لها ، ولمغالطة أهلها وطالما غلط المسلمون وغيرهم من الشرقيين وظنوا أن الامة الاسلامية تمزقت وان حضارتها ماتت ولن تعود !

ولم يكن الثعالبي مثل هؤلاء الباحثين ولكنه أثبت في رحلاته أن الشعوب الشرقية عامة والاسلامية خاصة لا تزال حية ، ذلك ان المدنية الشرقية هي مدنية تعارف واخاء وتعاليمها البوذية ، والمسيحية واليهودية والاسلامية ، ترمي كلها الى وحدة البشرية . والتعاليم الاسلامية هي التي جمعت كل هذه التعاليم وجمعت شعوبها تحت لواء واحد لمرونتها (61) .

وكان الرأي السائد حينئذ بين المفكرين الغربيين وغيرهم هو أن الامة العربية قبل الاسلام كانت تعيش في حالة متدهورة من التفسخ والانحلال . ووقف الثعالبي موقفا مضادا لهذا الرأي واعتبره مخالفا للواقع ، ذلك ان الامم التي تنحط الى هذه الوهدة ، في نظره ، لا تكون فيها قابلية واستعداد للنهوض ولا ملكات لتلقي المبادئ والتعاليم (62) . فالعرب قد ظهر فيهم الانبياء والرسل وعليهم نزلت شرائعهم ، وأعاد

---

(61) أ . و . ! . ، م . ت . ق / ح . و . تونس ، رقم 14-5 A ، (محاضرات الثعالبي في نابلس (فلسطين ، آوت 1924) ، نشرتها جريدة لسان الشعب (التونسية) بتاريخ 17 آوت 1924 ، نقلا عن جريدة الاردن التي نشرتها تحت عنوان (ابن خلدون يتكلم) .

(62) الهلالي ، ((عبد العزيز الثعالبي)) ، المورد ، ص 465 (محاضرات الثعالبي في مادة الفلسفة الاسلامية بجامعة آل البيت ببغداد) نقلا عن جريدة الجامعة 15 آوت 1925 .

أسباب أمراضهم الاجتماعية الى احتكاكهم بالأجانب ولذلك كانوا في حاجة الى مخلص اجتماعي يستقيم وحدتهم، وكانت وسيلة هذا الخلاص الوحيدة هي الدين. واستدل على اثبات رأيه في، أن الامة العربية لم تكن منحطة، بانه لم يكد الاسلام يتفشى فيها ويصلح عقائدها وآدابها حتى تلاه أعظم انقلاب اجتماعي في العالم (63).

ولم يكن الثعالبي يفرق في جهاده السياسي والفكري بين الاستعمار الفرنسي والانكليزي والايطالي، بل كان همه الوحيد هو توحيد المسلمين وجمعهم في كفة واحدة ضد القوى الاستعمارية فاتفق بذلك مع كبار المفكرين المسلمين وعمل معهم خاصة على تمتين الروابط الاسلامية في آسيا وافريقيا، وكانت فلسطين هي المحور والمدار في العمل كله (64).

هذه هي فلسفة الثعالبي الاسلامية التي أراد بها اصلاح أمر الأمة الاسلامية، وركز فيها على فحص تاريخها وعقائدها وآدابها وعاداتها، والتعرف على روحية الاسلام والنهوض بأهله.

اما فكره السياسي الوطني فقد ضمنه كتابه (تونس الشهيدة) (65) وكشف للرأى

(63) نفس المصدر، ص 472 (محاضرات الثعالبي في مادة حكمة التشريع).

(64) قال الشاعر العراقي معروف الرصافي يمدح الثعالبي في حفل اقيم على شرفه ببغداد سنة 1925 :

تغرب ضاربا في الارض يبغي ∴ مدى من دونه خرط القتاد

\- - - - -

وكان طوافه شرقا وغربا ∴ لغير تكسب وسوى ارتفاد

ولكن ساح لاستنهاض قوم ∴ حكوا بجمودهم صفة الجماد

يغار على العروبة أن يراها ∴ مهددة المصالح بالفساد

طالع القصيدة في : ابن قفصية (خلاصة الابرار)، وكذلك : الهلالي، (الثعالبي)، المورد، ص 463-468.

(65) وضع الكتاب بالعربية وترجم للفرنسية وطبع بها. وبالاضافة الى الترجمة العربية التي قام بها الاستاذ سامي الجندي، التي اعتمدنا عليها، فان الاستاذ حمادي الساحلي قد قام بترجمته الى العربية ايضا وراجعه الاستاذ محمد العروسي المطوي، وطبع بدار الغرب الاسلامي ببيروت، 1984 في 391 صفحة. اما الطبعة الاصلية فهي :

\- Anonyme, La Tunisie Martyre, (Paris, Jouve Editeur, 1920), 212p.

واثبت بعد ذلك في تحقيق قضية الثعالبي انه من تاليفه.

العام العالمي عن مظالم سلطة الحماية الفرنسية بتونس . فنال رواجا كبيرا بسرعة فائقة في فرنسا وتونس وتعداهما الى العالم الخارجي في سويسره ، وألمانيا ، وروسيا ، والعالم العربي ، وترجمت منه فصول في الجرائد الامريكية .

وعلى الرغم من أن الحكومة الفرنسية قد جندت مصالحها لمنع انتشاره ، فان الثعالبي قد استطاع ان يوصله الى تونس عن طريق قوافل المسافرين ، فكان له بها دوي زعزع كيان الحماية ، ونال اعجاب بعض الصحف الفرنسية الحرة وخاصة منها الاشتراكية . واهتم به بعض رجال السياسة أيضا . وتسابقت الصحف العربية التونسية الى نشر فصوله والتعليق عليهما مما عرضها الى الحجز والاحتجاب عن الصدور (66) .

وكان أكبر مساعد للثعالبي على نشر كتابه ، الزعيم التونسي محمد باش حامبة (67) ، الذي كان متنقلا بين ألمانيا وسويسره في خدمة العالم الاسلامي عامة والجزائر وتونس خاصة . فقد كتب الى الثعالبي في أول ديسمبر 1919 يقول : ((لقد انتهيت من قراءة كتابـك ، واهنئك انت والذي ترجمه الى الفرنسية (68) ، ويجب طبعه بالعربية (69) ، فهو سلاح

(66) أنظر :
- A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° A 1-60, (La France et les dif. Tun.), p.674. et Goldstein, p.279-287.

(67) ولد محمد باش حامبة بن احمد بن الشريف في شهر جوان 1881 بتونس من أسرة تركية الاصل . التحق بالمدرسة الصادقية حيث تحصل على شهادة دراسة اللغة الفرنسيـة وشهادة الاهلية بالعربية . واشتغل مستخدما في ادارة المال ، ثم مترجما بدار العدلية ، ثم سمي حاكما بمحكمة الدريبة . دخل كلية الحقوق بجامعة باريس وفارقها اثر نفي اخيه علي باش حامبة ، واشتغل بالمحاماة بتونس . وكان مختفيا وراء اسم اخيه واستاذه علي ، ولكنه كان أحد رواد الحركة الوطنية التونسية . فشددت عليه الادارة الاستعمارية الضغط بعد نفي اخيه ، فخرج من تونس في شهر أوت 1913 الى باريس ثم الآستانـة وتأثر برجال الفكر الاسلامي هناك كشكيب ارسلان ، وشغل مناصب عليا بها . وانتقل بين سويسره وألمانيا في خدمة الحركة الوطنية المغربية التي خصص لها مجلة تحمل اسم (مجلة المغرب) . وتوفي في ديسمبر 1920 ببرلين . أنظر : الجنحاني ، ص 23-48 .

(68) ناقش احمد السقا ، مترجم كتاب (تونس الشهيدة) ، رسالة دكتوراه في الحقوق بالفرنسية بجامعة باريس ، بعنوان (نظام الحكم في الشريعة الاسلامية) ، وكان يعمل كاتبا لدى احد نواب البرلمان الفرنسي بباريس .

(69) قال الثعالبي انه قرر نشر كتابه بالعربية باتفاق مع اصدقائه ولكنه عدل عن ذلك لما علم ان الحكومة التونسية قد تقف ضده . وقال العقيد بارون انه تعمد نشره بالفرنسية ليبلغ أفكاره الى الرأي العام الفرنسي . ولعل هذا هو الصواب . أنظر :
- A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B 3-13, Rap.Baron, p.12.

لابد من استعماله ،لأن الدعاية هامة جدا وضرورية لاجبار فرنسا على تغيير سياستها معنا . كما يجب أيضا أن يترجم و ينشر بالانكليزية والايطالية .)) (70)

ووضع هذا الكتاب بأسلوب نقدى هاجم فيه صاحبه ادارة الحماية بصراحة حتى وصفه الفرنسيون بأنه هجاء سام قد يكون خميرة ثورة عارمة على فرنسا وقال فيه بعضهم الآخر بأنه نقد لاذع شديد التطرف والعنف تضمن الى جانب المعطيات الحقيقية ،كثيرا من التظلمات والتهم المهينة لفرنسا ودورحكومتها بتونس. (71)

وقد اعتبر الكتاب الحماية الفرنسية على تونس نكبة دهماء على الشعب التونسي ،مما أثار فرنسا وأقعدها فألصقت بمؤلفه عدة تهم منها تأثره بمقترحات الرئيس الامريكي ويلسون الداعية سنة 1919 الى منح حقوق الشعوب المغلوبة ،والتأثر ايضا بالقانون الاساسي الذى منحته ايطاليا لطرابلس الغرب في جوان من نفس السنة من جهة و بنشاط الحركة الوطنية المصرية الكثيف من جهة أخرى . وقالت انه تأثر خاصة بالنظريات الشيوعية التي تعيد الارض الى الفلاحين و تؤمم المنشآت الصناعية الكبيرة (72) .

و يعتبر الكتاب زبدة تجربة التونسيين السياسية ومعاناة حركتهم الوطنية و تطورها منذ بداية الاحتلال ، ضمنه المؤلف مظالم الحماية الفرنسية واستبدادها بحقوق الشعب التونسي . فطبع في باريس سنة 1920 في أكثر من 2000 نسخة وجهت الى الرأى العام الفرنسي . وأرسلت نسخ منه الى نواب البرلمان الفرنسي ،وأعضاء جامعة حقوق الانسان ، والشعب الاشتراكية والماسونية ومديرى أهم الجرائد وكبار رجال الفكر . وأرسلت منه ما يقارب

---

(70) أنظر :
- A.Q.O./S.T.1917-40, N°318, Cor.Résident Général Tunis au Pd Millerand, Tunis le 28/7/1920, p.48-56 (Cor. Bach Hamba avec Taâlbi).

(71) أنظر :
- Op. cit., Cor. du Rd Gl à Tunis au Pd Millirant, Tunis le 11/8/1920 (Annexe 1, Cor. Général Robillot, Commandant la Division d'Occupation de Tunisie au Résident Général-Tunis) p. 102-105.

(72) أنظر :
- A.O.M./A.E.P. 27H1 Op. cit .

500 نسخة الى تونس حسب ما حددته الاحصاءات الفرنسية نقلا عن سجل الثعالبي الخاص. ويقول الثعالبي انه بعث نسخا منه الى اسبانيا وايطاليا وانكلترا وسويسره والهند، ومصر وطرابلس الغرب وسوريا وتركيا وأمريكا التي طلبت منه بعض جامعاتها أن يطلعها على آراء شعوب شمال افريقيا السياسية، وكان هدفه من نشر هذا الكتاب وتوزيعه بهذه الكيفية هو النهوض ضد المظالم والتعديات التي ترتكبها فرنسا في تونس، وتنوير الرأى العام العالمي عن طريق هذه البسطة الجادة عن الحالة الراهنة .

وقد نال الكتاب اعجاب وتقدير الجميع خاصة منهم البرلمانيين الفرنسيين، فساند بعضهم قضية كاتبه وتبنوا آراءه، وطلب بعضهم الآخر مزيدا من المعلومات والتوضيحات، وتوصلوا الى أن طلبوا منه (الثعالبي) لقاءات استفسارية. ونشرت بعض فصول الكتاب على واجهات الصحف الفرنسية والعالمية. وتخاطفت نسخه الايدى في الجزائر وتونس وتسربت اليها رغم تشدد المراقبة الفرنسية ونالت رواجا كبيرا في الأوساط الشعبية (73) .

وقد وجه هذا الكتاب أساسا الى الرأى العام الفرنسي وتذكيره بمبادئ الثورة الفرنسية المبنية على الحرية والعدالة والاخاء، وهو الحريص على أن يراها منتشرة في العالم. وكان الثعالبي، وهو يفسر عظمة المبادئ الفرنسية الاخلاقية في نفوس التونسيين المحبين للعدالة، يريد أن يقدم للفرنسيين عرضا صادقا عن حقيقة الحالة التونسية المأساوية والتشهير بسياسة الاستعباد الاقتصادى والسياسي والفكرى، والكشف عن الدسائس التي يحيكها المستعمرون للشعب التونسي باسم الشعب الفرنسي. ويقول في مقدمة كتابه : ((ان ارادتنا، في هذه الساعات التي تنصف فيها الشعوب من مظالم التاريخ، أن نفضح لشعب فرنسا النظام الذى تمليه علينا حكومته منذ أربعين عاما، دون علم منه.)) (74)

ويتضح من ذلك ان الكتاب بقي محافظا على روح معاهدة الحماية وهو يطالب

---

(73) أ. و. ل. م. ت. ق/ح. و. تونس، رقم 32-3 B، (صفحة من تاريخ الجهاد السياسي في تونس-- رد المحكمة الفرنسوية على الاستاذ الثعالبي)، جريدة الشورى، عدد 157، (القاهرة، في 24 نوفمبر 1927)، وأنظر أيضا :

- A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° 3-13, Rap. Baron, p. 9-40.

(74) الثعالبي، تونس الشهيدة، ص 26.

بالاصلاحات التي طالما رفضتها السلطة الحاكمة تحت ضغط المعمرين ٠وأغلب الظن ان الثعالبي لم ينفرد بتأليف الكتاب وإنما شاركه فيه بعض المثقفين التونسيين المعتدلين ٠

ومضى الثعالبي يعمل على اقناع الرأى العام الفرنسي بحق الشعب التونسي في الحصول على ضمانات دستورية يعترف بها الحق الدولي لشعب له حضارته وتاريخه وأرضه وشخصيته ٠ هذا الشعب الذى حكم عليه الاستعماريون بالافلاس والموت الاقتصادى والاجتماعي والفكرى ،وحطموا طاقاته الاجتماعية كلها وحولوها الى قبضتهم ٠ ويتساءل الكاتب اذا كانت النية معقودة على تحطيم هذه الدوافع (النبيلة) ،واذا كان الشعب الفرنسي ينوى عن عمد أن يدع حكومته تقترف باسم فرنسا ((ضد شعبنا الطغيان والمظالم والعدوان التي يستهجنها حق البشر والاخلاق العالمية ويدينها امام مقت واحتقار الشعوب المتحضرة ٠)) (75) .

وجاء الكتاب متقنا دقيقا في تصويره للنظام التونسي قبل الحماية الفرنسية فصور للشعب الفرنسي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والقضائية التي كانت تسير عليها البلاد ٠ ونظرا لما تضمنه الكتاب من معلومات دقيقة واسعة ، فمن دون شك ان الثعالبي يكون قد استعان على تأليفه بتقارير المثقفين التونسيين ، كما لاحظ ذلك المقيد بارون ٠ فجاء الكتاب وافيا جامعا لمآسي التونسيين تحت الاستعمار الفرنسي ٠ فقد اطلع الثعالبي الفرنسيين بأن تونس كانت قبل الحماية تخضع ،كدولة مسلمة للحق العام الاسلامي الذى يميز بين السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية (76) .

فالسلطة التشريعية تنظمها أسس الشرع الاسلامي وهي قادرة على التطور الحر في حدود واتجاه هذا الشرع الذى يقضي بأن يكون القانون نتيجة تعاون شعبي ، يفرض على صاحب السلطة العليا ،الذى ينتخبه الشعب ،استشارة ممثلي الشعب في وضع القوانين

---

(75) نفس المصدر، ص 27 ٠

(76) تحدث الثعالبي هنا عن الدولة التونسية قبل الحماية وكان الدستور كان قد طبق بجدية ٠والحقيقة انه لم يطبق بصفة جادة اذ تعرض العراقيل كثيرة داخلية وخارجية خاصة من طرف فرنسا ٠ومع ذلك فان الكاتب يريد العودة اليه والعمل به وهو يدرك تمام الادراك ان فرنسا هي العدو الأول والاكبر له ٠ أنظر: نفس المصدر، ص 29 ٠

والرجوع الى رأيهم في سنها أو تعديلها . وهو يعني بذلك انكار استبداد حكومة الحماية التي اعتمدت على قوانين أجنبية لا تمت بصلة للشعب ، وهو يريد الغاءها لانها لا تستشير ممثلي الشعب — بل ليس هناك ممثلون له — وعليه فهي لا تمثله .

ثم ذكر بان تونس كانت تسير ضمن قوانين دستورية أعلن فيها ان الباى يلتزم بتمكين الشعب من امتلاك حقوقه امتلاكا كاملا ، و يضمن له الضمانات والحريات العامة وحقوقه وواجباته . وهو يقصد سلب المقيم العام الفرنسي بتونس حقوق التونسيين وحرمانهم من الضمان على أملاكهم ، ومنعهم من التمتع بالحريات العامة . فصارت عليهم جميع الواجبات نحو الحماية وليست لهم أدنى حقوق عليها . و بينما لم يكن للباى قبل الحماية الا السلطتان التنفيذية والتنظيمية ، وهو مسؤول امام المجلس الاعلى الذى هو الهيئة التشريعية التي تحرس الدستور وصاحبة الحكم الاعلى في تفسير قوانينه والتصويت على الميزانية وفرض الضرائب ، فان المقيم العام قد وضع في يده كل السلط وهو ليس مسؤولا امام المجلس الاستشارى المفتعل والمكون من الفرنسيين و بعض التونسيين الذين لا نائب لهم ، بل ان المجلس هو المسؤول امام المقيم الذى يقرر الميزانية والضرائب والمجلس يوافق فقط .

وأكد المؤلف ان دستور عهد الامان بقي قائما في تونس الى أن انتهكته سلطة الحماية سنة 1881 . وقد اراد من وراء ذلك أن يبرهن للرأى العام الفرنسي على تحطيم نظام الحماية للحق العام التونسي ، وتجريد الباى من جميع سلطاته وانتهاج أساليب جائرة في حكم قضت بها على مصالح التونسيين ، السياسية والاقتصادية وغيرها (77) .

وقد بين الثعالبي هذه الحقيقة للرأى العام الفرنسي لان سلطة الحماية ونوابها في البرلمان كانوا يظهرون له ان التونسيين يشاركون في مناقشات هذا المجلس وهم موافقون على اجراءاته في تحديد الميزانية وتحويلها وفرض الضرائب .

ثم قارن الكاتب بين وضع التونسيين على اختلاف أجناسهم ودياناتهم قبل الاحتلال و بعده . فبينما كانوا خاضعين — في نظره — قبله الى نظام قائم على احترام الفرد والممتلكات الشخصية ، و ثمار العمل ، والحرية في الرأى والفكر والاجتماع وجميع الحقوق العامة ،

---

(77) نفس المصدر ، ص 31—39 .

فانهم أصبحوا من بعده معرضين لجميع أنواع الاهانات والتسلط . فخضع تأسيس الجمعيات وانشاء الصحافة العربية في تونس الى مراسيم حكومية ، في الحين الذى تتمتع فيه الصحافة الفرنسية بالحرية الكاملة . و بالاضافة الى ذلك فقد كان نظام الحماية مدعما بشبكة مخابرات ومصالح أمن تقمع الفكر و تزجره و تلاحق أصحابه و ترعبهم (78) .

وفي هذه المقارنة مبالغة واضحة تعمدها الكاتب ليبرر دعوته الى العودة الى العمل بدستور عهد الامان . وفي الحقيقة ان التونسيين لم يكونوا يتمتعون بجميع هذه الحريات ، وانما كانت هناك محاولات نظرية للاصلاح باءت بالفشل عند مرحلة التطبيق تحت تأثير الاجانب من ناحية وأعداء الاصلاح التونسيين من ناحية أخرى .

ونلاحظ ان الثعالبي بعد أن بين للرأى العام الفرنسي الفرق الشاسع بين حياة التونسي صاحب الارض والمال والحق والوطن ، المحروم من جميع حقوقه والمحكوم عليه بالدمار في وطنه ، وبيّن حياة الاوروبي الاجنبي الاستعمارى المستغل للخيرات والمستبد بالارض الخصبة والمتمتع بكل الحريات والحقوق الشخصية والانسانية . انه أراد أن يذكرهم بما كان يعانيه الفرنسيون أنفسهم من حكم قياصرة الروم الارهابي . ذلك ان الادارة التونسية صارت كلها في يد الفرنسيين وعلى رأسهم الكاتب العام الفرنسي الذى خلف منصب الوزير الاول ، واسندت جميع مناصبها العليا الى غير التونسيين . وقد عملت سلطة الحماية على اقصاء الكفاءات الوطنية وابعاد كل تونسي له نية الاصلاح والدفاع عن وطنه . و رغم دقة انتقائه من طرف الادارة الفرنسية فان التونسي لا يقلد الآ الوظائف الثانوية البعيدة عن التأثير .

وهذا يعني أن الادارة كانت بعيدة كل البعد عن خدمة مصلحة الشعب التونسي ، لأن القائمين بأعبائها ليسوا تونسيين ولا يمكن لهم فهم حاجة المواطن التونسي الاصلي والتفاهم معه بأسلوب غير أسلوبه و شعور غير شعوره و بلسان غير لسانه .

و يصف الثعالبي الادارة الفرنسية بما فيها الادارة المركزية ، والأمن ، والمحافظات ، و مديرية المؤسسات الدينية والقضائية ، أنها ارهابية ومجرمة تمركزت كلها بين يدى الكتابة العامة التي تجمع القوة القضائية والتشريعية الى جانب الاسلحة الادارية . وهذه جرأة لم

---

(78) نفس المصدر ، ص 40-42 .

ألفها عند المتحدثين في السياسة من قبل . ولا غرابة في ذلك لأن الثعالبي والذين ساعدوه على جمع مادة كتاب (تونس الشهيدة) كانوا مثقفين ثقافة اسلامية واسعة ومتفتحين على الثقافة الاوروبية الحرة ، مما ساعدهم على تفهم روح الحرية والفكر عند الاوروبيين فخاطبوهم بأسلوبهم .

كما يصبغ الثعالبي صفة الاجرام أيضا على البلديات التي توزعت على أماكن تمركز الاوروبيين وخولت رئاستها الى قائد . و يتكون لها مجلسان نوابهما من فرنسيين فقط يتصرفون في الميزانية التي يدفعها التونسيون . فبينما كان هؤلاء يتمتعون قبل الحماية بمجالس بلدية منتخبة ، فانهم أصبحوا في عهدها لا يعترف لهم حتى بالشخصية القضائية. (79)

و يجب ألا نعتقد ان هذه البلديات كانت قبل حلول الاستعمار تسير سيرا حسنا خال من التوترات . فقد اعترضتها عدة عراقيل في مقدمتها تعفن النظام الادارى الذى كان يبحث عن الاستقرار في ظل الوزراء المعادين للاصلاح . وفي نهايتها عدم تفهم الشعب التونسي ضرورة وجود هذه البلديات .

ويشيد الثعالبي بازدهار حالة التعليم قبل الحماية و بتطور الحركة الثقافية وانتشار المدارس الحديثة في كل الاقاليم التونسية ، وذلك بالاضافة الى المدارس التبشيرية الايطالية والفرنسية التي ساهمت في النهضة العلمية بالقطر التونسي (80) . ولعل الثعالبي قد غض النظر عن خطورة التبشير متعمدا حفاظا منه على شعور الفرنسيين . ولكنه اتهم نظام الحماية بانه عمل من بدايته على تحطيم هذه النهضة العلمية والفكرية ، وتفطن الى مناعة اللغة العربية وصلابتها في نفوس التونسيين ، وانها عائقا ضد التوسع الاستعمارى والمسخ الحضارى ورمز الشخصية التونسية . فعمل النظام على استبدالها باللغة الفرنسية ، وحاصرها ماديا فلم تدرس الا قليلا . وهذا بالاضافة الى احتوائه على المدارس التي كانت تدرس العلوم العصرية و تسخيرها لخدمته ، كالمدرسة الصادقية .

وليس هناك شك في ان الثعالبي كان متفطنا لخطورة المدارس التبشيرية ، وانما الظاهر انه لم يكن هو الذى قام بدراسة الحالة التعليمية في تونس . ولذلك جاءت بعض

---

(79) نفس المصدر ، ص 43-53 .

(80) نفس المصدر ، ص 53-58 .

فـقرات الكتاب مـناقضة لآرائه فيه ·

و بعد حالة التعليم وصف الكاتب حالة القضاء التونسي الذى كان مـنبوذا هو الآخر تشرف على انهياره ادارة الحماية ، وصار شعارها فيه الانحلال والاذى ، وخراب الوطن · فلا وجود للتنظيم الادارى بالمحاكم ولا المرافعات بها · ووقع الشعب التونسي تحت رهن وخراب وصايات الادارة وعمليات الاستيلاء على ميراث القاصرين ، و تفشي السرقة والرشوة بينهم (81) .

اما الاقتصاد التونسي فقد صار كله في يد الاستعماريين وانتزعت الحكومة من التونسيين جميع الاراضي الخصبة بدعوى انهم غير قادرين على استغلالها ، وانها هـي المسـؤولة على جميع أحوالهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ·

واعتمد الثعالبي على احصاءات الاوروبيين أنفسهم حتى يقنع الرأى العام الفرنسي بصحة أقواله وما آل اليه الشعب التونسي من بؤس وفاقة · فهو يعاني من اضطهاد حكومة الحماية وامتلاكها أراضيه من جهة ومن تعدى المعمرين على املاكه الحرة من جهة أخرى · وفوق كل ذلك دعم المرابين و تعسفهم · فوجد الفلاح التونسي نفسه مطرودا من جميع أراضيه الخصبة مـبعدا عنها الى أراض جدباء ينـتظر متى تجيئه لجنة ادارية تطرده منها ·

وقد بيّن الثعالبي هذه الحالة التعسة وقارن بينها و بين أحوال التونسيين قبل الحماية وما كانت عليه أراضي الأحباس وأراضي القبائل وغيرها من قدسية واحترام · وهـي الآن قد سلبت من أصحابها الشرعيين واستثمرت أموالها في المشاريع الاستعمارية · ودلل على أقواله ببراهين قاطعة فضـح بها وسائل الحكومة التي تخدع بها الرأى العام الفرنسي الذى ترتكب الجرائم والمظالم باسمه ، لعله ينتبه الى ذلك و يندفع بوحـي من مبادئه السامية الى انقاذ الشعب التونسي من هذا الظلم المسرف ·

ولكن الظاهر أن الرأى العام الفرنسي كان فعلا راضيا على أعمال حكومته ومقتنعا بما تقدمه له من شواهد على صحة أقوالها وأفعالها · فلم يلب صيحة الثعالبي الا أصحاب المعارضة والانسانيون الفرنسيون ·

---

(81) نفس المصدر ، ص 69—88 ·

ومع ذلك فان الثعالبي قد بيّن أوضاع تونس تحت عناوين مختلفة (كالوضع الاقتصادى) و (وسائل وأهداف الاستعمار) و (آلة الزراعة الاقتصادية) و (الموسسات الزراعية) و (الصناعة التونسية) [82]. وقد وضح فيها سياسة الحكومة الصناعية التي اعتمدت منذ بداية الاحتلال على المزاحمة الاجنبية ومنحها الامتيازات، وأطلقت العنان للاستيراد، الأمر الذى أدى الى القضاء على الصناعات التونسية قضاء مبرما. فترك التونسيون صناعاتهم واضطروا الى البطالة.

والمسوءول الوحيد على ذلك كله هو الاهمال الحكومي، وفرض نظام الجمارك على المواد الاولية الضرورية للصناعة التونسية. فغياب الحماية الجمركية وعدم تنظيم القروض الشعبية، وعدم توزيع الطاقة الكهربائية على المصانع التونسية، واعفاء البضائع الفرنسية المستوردة من ضريبة الدخول الجمركية وتسليطها على المواد الاولية التونسية، اجتمعت كلها في القضاء على الصناعة التونسية.

اما الناحية الاجتماعية فان الثعالبي يحمل حكومة الحماية مسوءولية انتشار عناصرها كالربا والكحول والخدمة العسكرية. فالمرابون على اختلاف جنسياتهم منتشرون في أرجاء البلاد، يكبلون التونسيين بأحابيل الاحتيال ويستدينونهم بالرهن ويجردونهم من أموالهم تحت سمع وبصر سلطة الحماية وهي لا تحرك ساكنا. وبالاضافة الى طامة الربا هذه فان الشعب التونسي محروم من العمليات الاجتماعية كالسلف والتأمين الاجتماعي على الحريق ومساعدة الفقراء وسواهما. وليست له تعاونيات بيع ولا شراء [83]. واندفع الناس الى تعاطي الكحول ظنا منهم انه سينسيهم آلامهم. وعملت سلطة الحماية على انتشارها لتحطيم الشخصية الوطنية، فانتشرت المخامر وتوغلت في الاحياء الشعبية وترتبت عليها مصائب اجتماعية أخرى فكثرت الجرائم وعم البوءس واستفحلت الأمراض المزمنة وكثر عدد الوفيات [84].

والعنصر الثالث والأكثر خطورة على قيم المجتمع التونسي المسلم هو الخدمة العسكرية، التي ينحل فيها التونسي من أخلاقه ودينه، فيسرف في تعاطي الخمر ويرتكب

---

(82) نفس المصدر، ص 88-163.
(83) نفس المصدر، ص 154-160.
(84) نفس المصدر، ص 160-161.

الجرائم والخبائث ولا وازع له • ويعود الى أسرته بعد أن يدمن على أم الخبائث ، فيثور على شرائعها وقوانينها العرفية • فصارت الخدمة العسكرية بذلك أكبر عامل في اضعاف مقومات الشخصية التونسية الاسلامية • وبناء على ذلك عبّر الثعالبي بقوله ان ((الخدمة العسكرية هي أداة استعمارية)) ، ووصف سياسة ادارة الحماية بالفساد صراحة (85) .

و نتيجة هذه الأفعال مجتمعة تعكس لنا حالة الصحة العامة في المجتمع التونسي (86) • فقد عمه البؤس والشقاء ، وكثرت فيه الأمراض وقلّت فيه العناية بالمستشفيات ومآوى العجزة والمتوصفات • وقد تعمدت السلطة الاستعمارية افناء شعب أراد الحياة ، فكثر عدد الأموات وفاق في معظم الاحيان معدل الولادات سنويا ، مثل ما وقع سنة 1910 ، اذ كان عدد الولادات 2656 وعدد الوفيات 3378 ، وسنة 1914 حين كان عدد الولادات 2472 والوفيات 2886 •

وكشف الثعالبي عن سياسة سلطة الحماية العنصرية تحت عنوان (العرق الأعلى والعرق الأدنى) ، وما كان يعانيه الشعب التونسي من جرائها في اغتصاب حقوقه ونهب أمواله فخلقت بذلك طبقتان الاولى أوروبية مدللة ممتازة غازية تحميها قرارات الحكومة وجعلت منها (العرق الأعلى) والثانية تونسية ضعيفة مستذلة مضطهدة محرومة من كل حقوق الكائن البشرى وهي (العرق الأدنى) (87) .

وقد فسر العقيد بارون ذلك بأنه دعوة الى اثارة البغضاء والحقد العنصرى ، وهو تفسير مغرض واضح أراد به طمس الحقيقة (88) التي شرحها الثعالبي تحت عنوان (التسامح والكرم التونسي) (89) ، وبيّن الثعالبي أيضا كيف أنه لم يقع أى صراع ديني بالقطر التونسي منذ أن دخلته الشريعة الاسلامية • وركز خاصة على قضية اليهود الذين

---

(85) نفس المصدر ، ص 161–163 •   (86) نفس المصدر ، ص 163–172 •

(87) نفس المصدر ، ص 194 •

(88) أ • و • إ • ، م • ت • ق / ح • و • / تونس ، رقم 32–3 B ، (صفحة من جهاد التاريخ التونسي ، كتاب تونس الشهيدة ، في نظر فرنسا) ، الشورى ، عدد 156 ، (القاهرة ، 17 نوفمبر 1927) ، وانظر ايضا :

- *A.M.I.CDN.HN.Tunis, N° B 3-13, Rap. Baron, p. 4-5.*

(89) الثعالبي ، تونس الشهيدة ، ص 195–198 •

الذين وثقوا بروح التسامح الاسلامي في مدن شمال البلاد بعد أن كانوا مضطهدين من قبله ومبعدين الى مناطق الجنوب • فكانوا يتمتعون باستقلالهم الذاتي وكانت لهم حقوق المسلمين التونسيين وعليهم واجباتهم • كما نال المسيحيون حقهم في ممارسة شعائرهم الدينية في الحكومة الاسلامية بتونس • ولا مجال للمقارنة بين وضعهم في تلك الفترة ووضع المسلمين اليوم •

ومع ان الثعالبي أراد تنوير الفرنسيين بوصفه حالة التونسيين ، واستجلاب عواطفهم الحضارية ، فاننا نجده يدافع بشدة عن مقومات الشخصية التونسية العربية الاسلامية • وقد بيّن لهم في أسلوب تحذيري ان الشعب التونسي محافظ على شخصيته ولم يذب عبر التاريخ في أية حضارة من الحضارات التي تعاقبت عليه • فهو شعب محافظ بشدة على طبائعه الاساسية المميزة له والخالدة ، وتأثر بالحضارات الاخرى فقط بما لاءم طبعه من أرقى الصفات ، ((فأخذ عن القرطاجيين فعاليتهم البحرية وعن الرومان الفعالية الزراعية والرى ، وعن البيزنطيين البذخ والملذات وعن العرب الدين وحس العدالة المرهف ، والأخوة ، والمساواة ، والديمقراطية ، والعلوم ، والآداب ، والفنون ، وعن الأتراك التنظيم السياسي والاداري والتعاون الاجتماعي بالمساعدة والبر عن طريق المؤسسات الدينية • ولم يعرف من الفرنسيين الآ النهب والظلم عن طريق حكومة الحماية التي وصفت له ان الشعب الفرنسي هو شعب من الجائعين وقطاع الطرق وان حضارته هي كذبة هائلة تخفي عقلية أصحاب المتعة الدنيئة •)) (90)

وبراهين الثعالبي هذه تدل على تمسكه بحضارته • فقد أراد من وراء المؤثرات السابقة ربط التونسيين بالحضارة العربية الاسلامية وتمييزهم عن الاوروبيين عامة والفرنسيين خاصة • وقد يراودنا السؤال التالي : لو اتبعت فرنسا سياسة انسانية في تونس ، فهل تراه يفرق بينها وبين الحضارات الاخرى كالاسلامية مثلا ؟

كل ما تأكد لنا حتى الآن ان فرنسا لم تتبع هذه السياسة ، لأنها كانت من مبادئها المنطلقة من الشعور بالتفوق واحتقار قدرات الشعوب •

وبناء على هذه الأدلة طلب الثعالبي من الرأى العام الفرنسي تعديل النظام الفرنسي

---

(90) نفس المصدر ، ص 201-202 •

في تونس القائم على حساب كرامة الشعب بوسائل الاضطهاد والظلم والاستبداد والطغيان • وكان الكاتب يريد القول ان التونسيين لم يستفيدوا في شيء من الحضارة الفرنسية ،فاذا أراد أصحابها نشرها في هذا البلد فيجب أن يعدلوا عن اعتقادهم ان الشعب التونسي غير قادر على حكم نفسه بنفسه ،وان يعمدوا الى تغيير النظام السائد ويردون على التونسيين حرياتهم ونظامهم الدستوري القائم على المسؤولية وفصل السلطات الاجتماعية • وهو يريد بذلك الغاء نظام الحماية والرجوع الى الحكم بالدستور التونسي •

وكان المؤلف يعلم ان الرأى العام الفرنسي لا يقتنع الآ بالحجج الدامغة المنطقية فخاطبه بأسلوبه عساه أن يستجيب ،وينصر مبادئ حرية الفرد والجماعات التي هي من مقدسات ثورته ! والحقيقة ان تلك العبارات الحلوة لم يكن لها معنى الآ داخل أوروبا ، وكانت تنقلب الى ضدها كلما دخلت بلدا اسلاميا • ولسنا هنا في حاجة الى تقديم البراهين ، فهي أشهر من المعلوم بالضرورة •

وبعد طرح القضية التونسية بجميع مناحيها على هذا الشكل التحليلي الواضح ، ذيل الثعالبي كتابه بنص العريضة التي قدمها باسم الشعب التونسي بالاشتراك مع احمد السقا ، الى مؤتمر الصلح سنة 1919 ، وهذا ملخصها (91) :

1- أن يعتبر تونسيا يتمتع بحقوق المواطن التونسي ،كل من ولد أو أقام عشر سنوات متواصلة وبمحض ارادته على أرض تونس •

2- ان تكفل الحرية الشخصية كفالة تامة ، وأن يتساوى الجميع أمام القانون •

3- تنظيم السلطات العامة ،أن تكون السلطة التنفيذية وراثية في الأسرة الحاكمة ، ويكون الامير مسؤولا أمام المجلس الأعلى • السلطة التشريعية يتولاها المجلس الأعلى الذى

---

(91) جاءت العريضة بدون امضاء ولم يشر الى محررها • وأكبر الظن ان للثعالبي القسط الأوفر في ذلك ان لم يكن قد انفرد به لوحده ، ثم عرضها على اصحابه فوافقوا عليها • وقد ذكر محمد باش حامبة انه ترجمها الى الانكليزية وأرسلها الى صحف انكلترا وامريكا فنشرتها • ثم تساءل في رسائله للثعالبي : لماذا لم يمض التونسيون هذه العريضة ؟ ولعل مفهوم سؤاله (هل تظن ان الفرنسيين يجهلون كاتبها) هو (هل تظن ان الفرنسيين لا يعلمون انك أنت محررها) • ولاحظ عليها اخيرا الاطالة في موضوع نهب الاراضي والممتلكات • أنظر :

- A.Q.O./S.T.1917-40, N° 318, Cor.Rd Gl Tunis au Pd Millirand, du 28/7/1920, p. 48-56, (Cor. Bach Hamba à Taâlbi, du 16/11 et du 1er et 22/12/1919).

يتألف من 60 عضوا عن المواطنين التونسيين و تتفرع عنه هيئة استشارية لسن القوانين ·

4 ـ اما مراكز الادارة الحالية ، والقرى والمدن التي يجب أن تأخذ بنظام البلديات والقبائل ، فينبغي أن تكون لها جميعا شخصيتها المعنوية وان تزود بقيادة مستقلة لها مجالسها المنتخبة ، و يرأسها القائد · و ينتخب المحافظون لرئاسة المجالس الاخرى ·

5 ـ انشاء نظام تشريعي ذى سلطة قضائية مستقلة متمثلة في جميع مراتبها ودرجاتها · ان العدالة يجب أن تكون صادرة عن السيادة التونسية · والمطالبة باعادة تنظيم المحاكم التونسية وخاصة الشرعية ، وهي محكمة ثابتة للقانون العام على أسس ادارية سليمة عادلة ، تستثنى من ذلك محاكم الشريعة اليهودية والفرنسية التي يجب أن تنظر في الأحوال الشخصية للمسلمين واليهود والاوروبيين على التتابع ·

6 ـ حرية التعليم ، و يكون في المرحلة الاولى اجباريا باللغة العربية ، ويصبح تعليم اللغات الاجنبية اجباريا في المراحل الثانوية والعالية ، وانشاء مدارس عالية للمعلمين التونسيين لتوطيد نظم التعليم العربي · وتكون للغة الفرنسية الأفضلية على غيرها · وانشاء مدارس للتعليم الثانوى ، والصناعي ، والعالي ، والمهني ·

7 ـ تحرير و تحديد الاراضي ، والمحافظة على نظام المال العقارى ، و تغيير نظام المحاكم المختلطة الى محاكم مؤلفة من قضاة حقيقيين · وأن يشترك التونسيون على قدم المساواة مع الأجانب في شراء أراضي الدولة · وأن يحال بين الحكومة وبين التدخل في المنشآت الاقتصادية الخاصة الا اذا كان المقصود من التدخل الاشراف عليها لحمايتها و تشجيعها ·

8 ـ تعميم الأعمال التي تهدف للصالح العام في البلاد ، على أن تراعى فيها المصالح الاقتصادية وحدها ·

9 ـ أن يكون لطوائف العمال والموظفين والصناع والمستخدمين الحق في تأليف نقابات مهنية ، وحق الاضراب عن العمل ·

10 ـ أن تشرع قوانين اجتماعية تهدف الى حماية الطفل والمرأة والعجائز ، وأن

يصلح من نظام المساعدة والاحسان والاغاثة (92) .

والظاهر أن التونسيين كانت لهم الثقة الكاملة في أنفسهم وثقافتهم وامكانياتهم ، وتأثروا كثيرا بتصريحات الاوروبيين والامريكيين التي فرضتها ظروف الحرب ، فصمموا على طرد سلطة الحماية نهائيا ، وتكوين حكومة تونسية دستورية قوية يسيرونها بأنفسهم . ولا مكان للفرنسيين فيها الآ بصفتهم أجانب أو من توفر فيه الشرط الأول من البرنامج السياسي ، وقبل التجنس بالجنسية التونسية . وقد عبروا بصدق عن رغبتهم في الاستقلال وبناء دولة اسلامية حرة يحترم فيها الأجانب وعلى رأسهم الفرنسيون ، مثلما يحترمهم هؤلاء في أوطانهم . ولم ينادوا بالاستقلال الجزئي ((وفرض حمايتهم على الفرنسيين)) كما وصفهم بذلك بعضهم (93) ، بل ان رغبتهم كانت الحصول على استقلالهم واحترام سيادتهم الوطنية .

كما لاحظت مجلة افريقية الفرنسية على هذا البرنامج اهماله لليهود والايطاليين ، وتشدده على الفرنسيين . غير أن الحقيقة تنفي ذلك اذ أن اليهود التونسيين ليسوا قوة أجنبية محتلة ، بل هم رعايا تونسيون لهم جميع الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وحقوقهم القضائية مكفولة في محاكمهم التي حددتها النقطة الخامسة من البرنامج . واذا كان المقصود هم اليهود المتجنسين بالجنسية الفرنسية ، فهم فرنسيون . اما الايطاليون فلم يكونوا قوة استعمارية رسمية بالبلاد وانما هم عبارة على جالية أوروبية استفحل أمرها بمساندة سلطة الحماية الفرنسية لها ، واخماد شوكتها مقرون بزوال هذه السلطة .

وقد تأثر التونسيون في النقطة الثالثة الخاصة بتنظيم السلطات العامة ، بالأفكار الليبرالية القائمة على المبادئ الدستورية ، ولا يهمها نوع الحكم ، جمهوريا كان أو ملكيا ،

---

(92) أشار السيد ديران- انجليفيال الى هذا البرنامج جزئيا ، ولكنه اقتصر فقط على النقطتين الاولى والثانية ، وجزأ الثالثة الى رابعة وخامسة ، ورتب الرابعة الى سادسة ، والخامسة الى سابعة . وأهمل الخمس الباقية . وللتوسع طالع : الثعالبي ، تونس الشهيدة ، ص207-212 . وكذلك : درمونة ، ص158-164 . وانظر :
- *Duran-Angliviel, p. 40-42.*

(93) أنظر :
- *Rodd Balek, "La Tunisie...", Afrique Française, N°30, (Juillet -Aout 1920), p. 226-227.*

ما دام تحت رقابة المجلس الاعلى او البرلمان . غير أنهم احترموا منزلة الاسرة الحسينية بينهم ، ولكنهم قيدوها امام المجلس الاعلى ، أو ما يسمى عند المسلمين بمجلس الشورى . ولهذا الأمر أكثر من فائدة ، أقلها عدم استبداد الملك بالحكم ، فضلا عن العدالة والحرية والأمن .

ولعل اجبارية التعليم العربي والتفتح على اللغات الاجنبية ، وارسال البعثات العلمية الى جامعات اوروبا ، تدل كلها على حسن بصيرة التونسيين وتصورهم السليم لمستقبل بلادهم ، فقصدوا بذلك العمل على تكوين اطارات وطنية تغنيهم عن الأجانب وتتفهم معاني شعور الشعب ، وتعامله بأسلوبه ولسانه ، وتطوره في اطار المحافظة على مبادئه الاخلاقية والاجتماعية . مع العلم ان هذه السياسة كانت قد اتبعت قبل الحماية خاصة في عهد الوزير خير الدين .

اما اعطاؤهم الأولوية للفرنسيين في مصلحة الخدمات العامة ، فهو تحسبا لما سيتركه هؤلاء من فراغ في الادارة التونسية التي كانت مفرنسة في معظمها .

ومما يدل على ليبرالية فكر العريضة ، فتحها في النقطة السابعة باب الملكية الشاسعة امام الشعب ، ومناداتها بحرية التملك للاراضي ومنعها من تدخل الحكومة في المنشآت الاقتصادية الخاصة الا اذا كان المقصود هو حمايتها وتشجيعها . وقد نادى بهذه الافكار أصحاب النظام الحر الاوروبيون اذ أنكروا تدخل الدولة في تحديد حريتهم الاقتصادية بناء على فكرة (دعه يعمل) . ولكنهم عدلوا عنها حين اشتد التنافس بين الشركات الكبرى ، فسمحوا للدولة بالتدخل في تنظيم العلاقة بينها وحمايتها من الافلاس ، وفي ذلك تطابق كبير .

ولم تهمل العريضة حق الطبقة الشغيلة امام حرية المالكين الكبار . فطالبت بحق العمال والموظفين والصناع والمستخدمين في تأليف نقابات مهنية ، وخولت لهم حق الاضراب عن العمل ، كما هو واضح في النقطة التاسعة . وتكون قد استفادت في ذلك من تجربتها في حادثة الترام الآنفة الذكر في 1912 ، فضلا عن الافكار الاشتراكية والشيوعية التي بدأت تنتشر في العالم خاصة اثر ثورة اكتوبر الروسية سنة 1917 .

ونلاحظ أن الثعالبي قد تأثر كثيرا في كتابه هذا بنظام الدستور التونسي . فعمل

على اقناع الرأى العام الفرنسي على العودة اليه نظرا لتماشيه مع مقومات الشخصية التونسية ، وما يكفله لها من حقوق . وقد هدف الى الغاء نظام الحماية الفرنسية و تجريده من جميع سلطه وقلعه من جذوره . رغم انه كان يرى اعادة حريات التونسيين العامة في صحة التطبيق الحرفي لروح المعاهدتين اللتين تربطان تونس بفرنسا .

ولو كتب للمعاهدتين حقا أن احترمت بنودهما لبقيت سلطة الحماية عبارة على سفارة لفرنسا بتونس ،أو قل وزارة استشارية لعلاقة حكومة الباى الخارجية .

ومهما كان الأمر فان كتاب (تونس الشهيدة) قد تضمن أفكارا جديدة على الحركة الوطنية التونسية دافع فيها صاحبه على حقوق التونسيين وامتيازاتهم (94) . ولعل الثعالبي قد استعان على كتابته بآراء المثقفين التونسيين مثل السيد علي كاهية ،والصادق الزمرلي ، والشاذلي القسطلي (95) .

وقد اتسعت شهرته و بلغت قيمته مقاما عليا في نفوس المسلمين التونسيين ،حتى قال فيه مصطفى بن عبد الله ،أحد الدستوريين ،انه أغلى عليه من حياته وانه سينقله من يد الى اخرى . واستقبله الشعب التونسي ببهجة عامة رغم انه لم يطلع الا على ما ترجمه له بعض المثقفين التونسيين . وصار موضوع حديث الجميع في كل المحلات الخاصة والعامة (96) .

كما نال هذا الكتاب اعجاب الحزب الاشتراكي الفرنسي ،فكتب للثعالبي في 10 نوفمبر 1919 انه : ((غير قادر على أن يعبر له عن بهجته واعجابه بالنقد الحاد الذى تضمنه الكتاب ،وشغفه بسلامة ذوق كاتبه ،ومتانة استنتاجاته ،وقوة حججه . وان هذا الكتاب يعتبر هو النص المعبر بدقة عن مطالب التونسيين . فهو جدير بأن يكون الحلقة الرئيسية من سلسلة النشاطات الوطنية التي اختاركم الشعب التونسي للقيام بها امام رجال الامم المنصفين في العالم .)) (97) .

---

(94) أنظر: - A.Q.O./S.T.1917-40, N°318, Cor.Rd au Pd,du28/7/1920.

(95) أنظر: - A.M.I./CON/MN.Tunis, N° B 3-13,Rap.Baron,p.26-27.

(96) نفس المصدر ،ص 11-12 .

(97) نفس المصدر ،ص 37 .

وعلى أية حال فان هذا الكتاب قد شرح أحوال تونس العامة وفضح أساليب الاستعمار الفرنسي أمام العالم ، واعتمد الحجج والبراهين القوية الثابتة ، وبيّن أسلوب الانحطاط الحضاري الذي اتبعته سلطة الحماية الفرنسية ومعاملتها الشعب التونسي بنظام مذلة واحتقار.

ولئن عبر هذا الكتاب عن قدرة صاحبه الفكرية والتحليلية للاوضاع السياسية والاقتصادية وغيرها ، ودفاعه عن أصالة الشعب التونسي الاسلامية ، فانه أيضا قد عبّر حقا وصدقا عن ثورة (تونس الشهيدة) على الاستعمار الغاشم .

صورة الشيخ عبد العزيز الثعالبي في العشرينات نشرها الدستوريون الجدد سنة 1934 لاظهار تعلقهم بشخصه من اجل الدعاية لحزبهم وكسب الانصار له. وذلك ما يفهم من العبارة المكتوبة تحت الصورة " الاستاذ الجليل الشيخ عبد العزيز الثعالبي مؤسس الحزب الحر الدستوري التونسي رد الله غربته" .



ـ المصدر : المؤتمر العام للحزب الحر الدستوري المنعقد بمدينة قصر هلال في 2 مارس 1934، ص 1.

الفصل الثالث

سياسة الحزب الداخلية: حكومة الباي وسلطة الحماية

١. مع حكومة الباي
٢. مع سلطة الحماية.

عاشت تونس قبل الحرب العالمية الاولى تحت سياسة استبدادية تمليها اهواء الاقامة العامة • واستبدلت أثناءها بالاحكام الزجرية التي فرضتها ظروف الحرب • وقد ضحى التونسيون كثيرا في هذه الحرب دفاعا عن حرية وكرامة فرنسا • وقد أعلن ألابتيت (*Alapetite*) ، المقيم العام بتونس ، رسميا ، اثر نهاية الحرب مباشرة ، عن اعتراف فرنسا المخلصة لواجبها الحضاري — حسب ادعائه — بمنح التونسيين حرياتهم المنسجمة مع نظام الحماية •

ولم يلبث ألابتيت ان انتهت مهمته بتونس ، وخلفه فلاندان (*Flandin*) ، فأعلن هو الآخر ، اثر وصوله الى تونس عن رغبته في انهاء سياسة الاستبداد ، والسير بالتونسيين نحو الحرية والعدالة • غير أن هذه الوعود والمفاهيم التي أعلنها المقيم فلاندان ، قد اتخذت اتجاها آخر ، وانقلبت لصالح المعمرين • وذلك حين أعلن المقيم نفسه عن مشروع ضم أراضي الأحباس الخاصة ، وأراضي المنافع العامة والخيرية الى الاراضي الاستعمارية • [(1)]

وقد تذرعت الاقامة العامة في سن هذا المشروع ، بأسباب كثيرة ، وأكدت خاصة أن ادارتها كانت تتلقى تقارير مزعجة من مختلف أنحاء البلاد تشكو من ضعف الانتاج الزراعي و تطالب بضرورة استغلال اراضي الاحباس ، التي أهملها أصحابها وصارت غير منتجة ، وانعدمت منها جميع المنافع الخيرية [(2)] .

وأثارت هذه السياسة الاستعمارية سخط الدستوريين فحددوا منهاجهم السياسي الداخلي والخارجي • وذلك بالاضافة الى الأثر البليغ الذى تركته فيهم الأحداث

---

(1) انظر: *A.Q.O./S.T.1917-40, N°318, Lettre de Taâlbi à M.Président du Conseil, Ministre des affaires Etrangères, Paris le26/7/1920 p.34-37.*

(2) انظر: *A.O.M./A.E.P. 27H1 Rap.Etat Major, Paris le 21/4/1922.*

الوطنية والعالمية ،مثل تلك التي وقعت سنة 1922 ،كتهديد الباى محمد الناصر بالتنازل عن العرش ،والاصلاحات الفرنسية بتونس ،و تشييد نصب لا فيجرى التذكارى بها ،واستقلال مصر ، ومسألة الخلافة الاسلامية ،والثورة الريفية بالمغرب الأقصى . وكذلك قضية تجنيس التونسيين سنة 1924 ،واستلام الكتلة اليسارية الحكم بفرنسا في نفس السنة ،ومشروع تغيير القضاء الاسلامي الى قضاء مختلط سنة 1925 ،وغير ذلك من الأحداث الهامة التي كانت للدستوريين حافزا بارزا في توضيح منهاجهم السياسي ،ودافعا قويا في ابراز مواقفهم الوطنية وابداء آرائهم .

واتبع الدستوريون سياسة تعاطف و تعاون مع الباى محمد الناصر ،وسياسة حذر واحتجاج مع وريثيه محمد الحبيب باى ، والباى احمد من جهة ،وسلطة الحماية من جهة أخرى . واعتمدوا في ذلك على تقديم العرائض والاحتجاجات ،والدعاية الصحفية وارسال الوفود الى الداخل والخارج .

1 — مع حكومة الباى :

انتهج الحزب الحر الدستورى منذ البداية سياسة تعاون مع الباى محمد الناصر· فوجه اليه وفدا من أعضائه [3] ،برئاسة الشيخ الصادق النيفر،يحمل له عريضة مطالب الحزب ،يوم 18 جوان 1920 ،موضحا له رغبة التونسيين وإصرارهم على المطالبة بالدستور · وأكد له ان الشعب التونسي ،الذى استجاب الى نداء أميره وشارك في الحرب الاولى دفاعا عن الحرية والعدالة ،التي هو محروم منها اليوم ،قد عبر بذلك على اخلاصه لماضيه المجيد ،وأثبت جدارته بثقة أميره،وبالحرية والحق والعدالة · وأنه واثق بأن أميره ، المخلص لارادة أجداده — الذين سنوا قانون عهد الأمان — سيستجيب الى نداء شعبه ،ويعلن عن قيام الدستور ،ليضمن له حرياته العامة ،ويفصل السلطات الاجتماعية ويسمح بمشاركة الشعب الكاملة في ادارة شؤون البلاد دون تمييز عرقي أو ديني [4] ·

ووعد الباى الدستوريين بالعمل على تلبية مطالبهم ،وعبّر عن ثقته في أن الفرنسيين سوف لا يعترضون على اقامة هذا الدستور، فقال : ((كونوا على ثقة بأني سأبذل مجهوداتي في تحقيق رغائبكم ولا أظن رجال فرنسا المتلبسي · تاريخها بالعدل والحرية يبخلون بانجاز هذه المطالب·)) [5]

والظاهر أن الباى لم يكن يثق في سلطة الحماية ،وانما كان يقصد حكومة باريس التي تملك سلطة القرار· ولعله أيضا كان مطمئنا الى وعود الفرنسيين وتصريحاتهم أثناء الحرب من جهة ويؤمن بحق التونسيين في الحرية والعدالة التي حاربوا من أجلها من جهة أخرى·

---

(3) يعرف هذا الوفد ،الذى ترأسه الشيخ النيفر،المدرس بجامع الزيتونة ،باسم وفد الاربعين· وكان يتألف من ممثلين عن جميع طبقات الشعب التونسي من علماء ومدرسين وقضاة وتجار وصناع وعمال وفلاحين ومحامين · وكانت أغلبيتهم من مدينة تونس ،والباقون من سوسة والمهدية · أنظر :
— المدني ،ص 180—183 · وكذلك :
- Rodd Balek, "La Tunisie..", Af.fse, N°30, (Juillet-Aout, 1920), p.229-230.
- A.O.M./A.E.P. 27H1 Op.cit.

(4) طالع نص العريضة الكامل في :
- A.Q.O./S/T/1917-40, N°318, Lettre Pd du Conseil à Délégué Résidence Tunis, Paris le 4/8/1920(annexe2), p.65
- R.Baled, "Op.cit", p.226-231
- Lejri, T.1, P;191-192.

(5) أ·و·ا·م ،ت·ق/ح·و·تونس رقم 23—4 B ،(المسألة التونسية وتصريحات الأمير)، جريدة الصواب ،عدد 390 ،الصادر في 31 مارس 1922 ·

وقد توطدت علاقة الدستوريين بالباى منذئذ ، رغم المكائد التي كان يقوم بها الوزير الأكبر الطيب الجلولي وغيره من رجال حكومة الباى الذين كانوا يناوئون الدستوريين بايعاز من سلطة الحماية . ومما زاد هذه العلاقة متانة وقوة موقف الامير محمد المنصف(6) من الحزب الدستوري حيث ناصره وانضم اليه وأدى يمين الاخلاص للمبادئ الدستورية(7) .

وكان موقف محمد المنصف العدائي لفرنسا واضحا ، وانتماءاته الدستورية أوضح ، اذ جاهر بها ولعب دورا كبيرا بين وفد الاربعين الدستوري والباى محمد الناصر ، وفتح امام الدستوريين الأبواب التي أغلقها في وجههم الوزير الاكبر الجلولي . ورغم أن الباى محمد الناصر كان متيقنا من أن استجابته للدستوريين سوف تنال سخط سلطة الحماية ، فانه التزم بموقفه للضغط عليها وتلبية المطالب الدستورية(8) .

ففي سنة 1920 أبدى محمد الناصر باى لأول مرة رغبته في التنازل عن العرش كي يدعم مطالب الدستوريين ، واحتج بشدة على معاقبة سلطة الحماية رجال وفد الاربعين ، ورفض وضع خاتمه على العقوبات التي وجهتها لهم . وذكر مصطفى كريم ان الباى ، لما حذرته سلطة الحماية من عواقب رفضه اجراءات العقوبات ، صرح عن ولائه لفرنسا ، وعدم استطاعته معاقبة الدستوريين لأن ذلك يحط من قدره في نظر رعيته ((وتمنى الموت بدل أن يخالف ارادة الله .))(9)

وهذه المواقف تجعلنا نقول أن هذه العلاقة كانت قائمة على التعاطف من جهة الباى ، وعلى المحافظة من جهة الدستوريين . ذلك ان هؤلاء كانوا يدركون كل الادراك أن الباى

---

(6) لاقت مطالب الحزب الدستوري تشجيعا من محمد المنصف ، الذى أصبح همزة الوصل بينها وبين أبيه . ولما تولى المنصف العرش سنة 1942 ، ضرب على ايدى الفرنسيين ، وأدت مواقفه الى خلعه عن العرش وابعاده الى جنوب فرنسا . أنظر :
— يوسف الرويسي ، ((قضية المغرب العربي)) ، المجلة التاريخية المغربية ، عدد 35–36 ، (تونس ، ديسمبر 1984) ، ص 114–158 .

(7) البهلوان ، ص 43 .

(8) المدني ، ص 180–183 . وكذلك :
- *Kraiem, Nat.Synd.*, p.207.

(9) قال الفاسي ان المقيم العام توجه الى المرسى ((وقدم لائحة للملك تشتمل على اسماء 36 شخصا من زعماء الحركة ... طالبا من سموه المصادقة على ابعادهم . فأجابه الباى : ان لائحتك ناقصة العدد ، وكان من حقك ان تضم اليها اسمي واسماء افراد عائلتي .)) أنظر :
— الفاسي ، ص 55–56 .

لم يكن يملك سلطة القرار، ولهذا السبب استعملوا الباى كوسيلة ضغط فقط على سلطة الحماية لتلبية مطالبهم • ثم وجهوا أنظارهم نحو باريس وركزوا أكثر جهودهم لكسب الرأى العام هناك •

وزيادة على عدم امتلاك الباى سلطة القرار، فانه كان يواجه صراعا داخليا أثر على مواقفه الوطنية • فقد ذكر تقرير هيئة الاركان الحربية ، ان الباى لم تكن له لا سلطة ولا نفوذ • ولم يكن يتفق اطلاقا مع وزيريه الجلولي وخير الدين (10) ، اللذين كانا من المخلصين لفرنسا • فالباى كان لعبة في أيدى العائلة المالكة التي كانت منشغلة فقط بالبحث عن ايجاد اعانة مالية لتلبية اسرافها ومواجهة ديونها المتجددة • وقد كانت معادية لحكومة الحماية والوزراء الذين يتولون أمر البلاط (11) .

ونستنتج من ذلك ان الباى محمد الناصر، رغم انه كان مخلصا الى المطالب الوطنية فانه كان من جهة واقعا تحت تهديدات سلطة الحماية يساندها الوزير الأكبر ووزير العدل ، وواقعا من جهة أخرى تحت ضغوط الدستوريين تساندهم العائلة المالكة وعلى رأسها محمد المنصف •

وقد جاهرت العائلة المالكة الوزير الأكبر ووزير العدل بالعداء

---

(10) ولد طاهر خير الدين - ابن الوزير خير الدين - بتونس في 5 فيفرى 1875 ، وتعلم بثانوية كارنو والمدرسة العسكرية باسطانبول • كان مرافقا للسلطان عبد الحميد الثاني برتبة مقدم ، ثم جنرال • اعتزل الحياة العسكرية ، ليتفرغ الى العمل السياسي ، واستقر بتونس • ورضى العيش تحت الحكم الفرنسي قائلا : ((لأكون دائما تحت ظل علم (فرنسا) المجيد الذى رفرف فوق قسم كبير من بلاد الاسلام • وقد وجدت تحته الحرية والسعادة والاطمئنان ، والحياة •)) ولذلك وقع عليه اختيار المقيم العام لوسيان سان ، ليكون رجل العدالة في تونس ، وقال فيه ((وزير مسلم متفتح ، له ميول سياسية نجد فيها كل الضمانات •)) وللمزيد عن حياة طاهر خير الدين ، أنظر :
- *Mustapha, Kraïem, "Autobiographie et relations avec la Résidence de Tahar Khéreddine pacha, Ministre de la Justice de la Régence"* Revue d'Histoire Maghrébine, *N°2, (Tunis, 1974), p. 185-191.*

(11) أنظر :
- *A.O.M./A.E.P. 27H1, Op.cit.*

وطالبت الباى بابعادهما (12) . ولكن استناد هاذين الوزيرين على قوة المقيم العام الفرنسي ، والكاتب العام للحكومة التونسية جعلت هذه الازمة تطول حتى منتصف سنة 1922 ، حيث انتهت بابعاد الوزير الاكبر الجلولي ، ورضى الباى عن خير الدين .

ففي بداية سنة 1922 بدأ الحزب الحر الدستوري، يعمل على تكشيف علاقته بالباى محمد الناصر للخروج بالحزب من عزلته واعطائه نفسا جديدا . وقد اعتمد على عناصر جديدة اتجهت في نشاطها الى التطرف الواضح ، أمثال محيي الدين القليبي ، واحمد توفيق المدني ، وعبد الرحمن اليعلاوى ، والطاهر الحداد (13) .

واستغل الحزب في طرح قضيته قرب زيارة الرئيس الفرنسي ميليران الى تونس ، معتمدا على استفتاء الحقوقي الفرنسي بارتلمي (J.Barthélémy) ، الذى أصدره في حق تأسيس الاحزاب . كما اعتمد أيضا على مذكرة النائب البرلماني طايتنجر (P.Taittinger) التي عرضها على البرلمان الفرنسي في 2 فيفرى 1922 ، ووافق عليها خمس وعشرون نائبا يمثلون مختلف الاتجاهات ، وقضوا فيها بأن منح التونسيين دستورا لا يتناقض نهائيا مع روح الحماية (14) .

---

(12) أنظر : - Kraïem, Nat.Synd., p.207-208.

قام المقيم العام لوسيان سان بعدة اصلاحات في تونس منها تدشين الغرفة الفلاحية الاهلية ، والغرفة التجارية الاهلية في 19 و27 ماى 1921 . وأنشأ وزارة للعدل في 24 افريل 1921 ، وعين على رأسها طاهر خير الدين . وقد كانت مسائل القضاء التونسية تابعة لمديرية المصالح القضائية ، والمسائل الشرعية تابعة لقسم الدولة ، ويخضع الاثنان الى الوزارة الاولى وكتابة الحكومة العامة . ثم بعد اصلاحات 24 افريل ، صارت كل من الوزارة الاولى وكتابة الحكومة العامة ، يساعدهما بالنسبة للمحاكم التونسية موظف تونسي سام من وزارة العدل وقاض فرنسي يحمل رتبة نائب في وزارة العدل . أنظر : Lejri, T.1, p.196.

(13) أنظر : - Kraïem, Nat.Synd., p.176.

(14) أنظر :
-Kraïem, Op.cit., p.208-209.
- A.O.M./A.E.P. 27H1, Op.cit.
-Lejri, T.1, p.196-197.
- Goldstein, p. 400-401.

ولعل الضغط الذى مارسته العائلة المالكة على الوزراء لصالح الدستور، واكتساب هذا الاخير لبعض رجال القانون والبرلمانيين الفرنسيين، كان هو الدافع الاساسي الذى أشعر سلطة الحماية بالخطر يهددها و يضعف نفوذها . فمالت الى الدسائس و نسجت لعبة هدفت من ورائها الى فصم التحالف القائم بين الدستوريين والباى محمد الناصر (15) . وأوحت الى أحد موظفيها السيد ميزيير (Maiziaires) (16) بتنظيم لقاء مع الباى، يحاوره فيه حول موقفه من الحزب الدستورى . ونشر التصريح في صحيفة (Le Petit Journal) بتاريخ 22 مارس 1922، أكدت انه قد دار بحضور الوزير الاكبر، ووزير العدل ومترجم الديوان، خير الله بن مصطفى . وجاء في التصريح على لسان الباى أنه يجب تفكيك مطالب الحزب الدستورى لأن المقيم العام قد أنجز المطلب الاساسي باحداث وزارة العدل . وقالت الجريدة أن الباى رفض مساندته رغائب الحزب الاخرى، لأنه لا يوجد مكان للدستور في تونس (17) .

---

(15) علقت صحيفة (العصر الجديد) على حادث تنازل الباى عن العرش فقالت : ((أظهرت الايام أننا طلاب حق نريد أن نعيش في بلادنا كراما . فكبر ذلك على اعدائنا، وحاولوا زرع بذور الشقاق بين الامة وأميرها بنسبة أراجيف من القول الى سموه يتبرأ فيها، وهو البرىء من ذلك، من مطالب أمته .)) أنظر :

ـ أ . و . ل . م . ت . ق / ح . و . تونس رقم 23-4 B، (الامير يؤيد الامة في مطالبها)، العصر الجديد، الصادرة في 15 افريل 1922 .

وللتوسع في هذا الموضوع طالع : نفس المصدر، (اشاعة تنازل الملك عن عرشه)، جريدة الامة، عدد 27، الصادرة في 9 افريل 1922، ص 1-12 .

(16) علقت جريدة (بريد المساء الفرنسية عدد 882، الصادرة في 1922/4/3) على حادثة التنازل، فقالت أن ميزيير ذهب الى الباى بصفته مبعوثا من طرف المقيمية العامة وفتح الحديث معه . ثم بعد نشر الفصل في الجريدة (البوتي جورنال)، وعند مقابلة الباى مع المقيم العام سأله ما اذا كان هو الذى أرسل ميزيير لمذاكرته ؟ فأجابه المقيم بالسلب . فغضب الباى غضبا شديدا وطلب من المقيم ابلاغ حكومته رغبة الباى في التنازل عن العرش . ثم أكدت الجريدة أن هذه المكيدة كانت من صنع السيد Puaux كاتب الحكومة التونسية العام . أنظر :

ـ أ . و . ل . ، نفس المصدر، جريدة الامة، عدد 27، في 9 افريل 1922، ص 10 .

(17) أ . و . ل . ، نفس المصدر، (حوادث 5 افريل 1922 أسبابها ونتائجها)، جريدة الصواب، عدد 390، 1922/3/31 .

واغتاض الباى محمد الناصر من هذا التصرف ، وأدرك أن الأمر كان مقصودا من الادارة ، لايقاع العداوة والشقاق بين الامير والشعب ، وخاصة لما تبين له أن حديث الجريدة جاء مخالفا تماما المخالفة لما صرح به لها . فهدد بالتنازل عن العرش [18] ، وقامت الدوائر الاميرية بتكذيب تصريح الجريدة قطعيا موضحة : ((ان الوزير الاكبر ، ووزير العدلية والسيد خيرالله أتوا برجل افرنسي قالوا عنه انه أحد رجال السفارة فتلقاه الامير وحادثه بخصوص الشيوعية .)) [19]

و تناقلت الصحف العربية والفرنسية خبر تنازل الباى و نشرته في الأوساط الشعبية . وجاء تفصيل ذلك في جريدة (الصواب) الصادرة في 4 افريل 1922 بايعاز من حزب الدستور ، وقالت ان الباى دعا عشية يوم الاثنين 3 افريل المقيم العام لوسيان سان ، الذى كان مصحوبا بالسيد Rémy ، رئيس الدائرة الداخلية ، وصرح له برغبته في التنازل عن العرش ، وطلب منه ابلاغ ذلك الى وزارة الخارجية . فارتبك المقيم وطلب من الباى توضيح الاسباب الداعية لذلك ، فلم يجبه [20] .

ثم أوضحت نفس الجريدة أسباب هذه الحادثة التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ تونس منذ عهد الاستعمار ، وأرجعتها الى مضايقة سلطة الحماية للباى لارغامه على مضادة مطالب الحزب الدستورى الوطنية [21] . كما علقت جريدة (بريد المساء) الفرنسية ، الصادرة في 3 افريل 1922 على اللقاء الذى أجراه الباى مع المقيم العام وسان فيكتور (St.Victor) ، ممثل الحماية ، بعد حادث التنازل ، فقالت : ((فالأمير مع تأكيده بميله لفرنسا أظهر شهامة كبرى فناقش في النقط التي هي أساس مطالبه . ان الباى لا قصد له بتبديل معاهدة باردو من حيث الوجهة العمومية وانما يريد أن هذه

---

(18) نفس المصدر ، جريدة الامة ، عدد 27 ، في 9 افريل 1922 .

(19) نفس المصدر . وكذلك : Goldstein, p.404-405.

(20) أ . ر . ل . ، م . ت . ق / ح . و . تونس رقم 23—4 ، 8 (تضامن الامير مع الشعب ، رغبة سمو الباى في التنازل عن العرش) ، جريدة الصواب ، عدد 391 ، في 4 افريل 1922 .

(21) نفس المصدر .

المعاهدة لا تكون حائلا دون تقدم شعبه أو وسيلة لتركه في الجهل وإن لا يكون هو نفسه شبه موظف بسيط بلا نفوذ ولا يستشار ولو في أخطر المواقف .)) (22).

ولما شاع الخبر في أرجاء العاصمة يوم 5 افريل انزعجت منه خواطر التونسيين على اختلاف طبقاتهم، فأقفلت المحلات، وأضرب العمال وامتنع المحامون والوكلاء التونسيون مسلمون واسرائيليون عن المرافعة (23) احتجاجا عن المضايقات التي اضطرت الباي الى التنازل عن العرش. وتجمع المضربون حول مقر الحزب الدستوري ونادوا بحياة الباي وبحياة الحزب الحر الدستوري، وبسقوط الظلم والاستبداد . واعتلى كثير من الدستوريين يخطب فيهم بالثبات على المبادئ التي سطرها الحزب، وأكدوا على لزوم الهدوء والسكينة. وقد انتشرت هذه المظاهرات الى مدينة سوسة، وصفاقس، وسوق الخميس، والمطوية. وكثرت الاحتجاجات من داخل البلاد (24). وكانت جماعات المتظاهرين تسير في مقدمتها تلامذة المدارس، وطلبة الزيتونة، وعلى رأس كل جماعة زعيم مكلف بحفظ النظام الذى حرر عليه الحزب الدستوري بواسطة بلاغ نشره في ذلك الصباح (25).

---

(22) نفس المصدر، جريدة الامة، عدد 27، في 9 افريل 1922، نقلا عن جريدة (بريد المساء)، عدد 882.

(23) اجتمع الوكلاء لدى المحاكم والمحامون المسلمون والاسرائيليون وقرروا الاضراب عن كل حكم تصدره المحاكم التونسية في يوم 5 افريل 1922، لانهم يعتبرونه غير قانوني، لأنه ما دام الباي قد تنازل عن العرش فلا يمكن اصدار الحكم باسمه . وأبلغ هذا الاحتجاج الى كل من رئيس دائرة القضاء ومدير العدل بواسطة حسن قلاتي . أنظر :
— نفس المصدر، جريدة الامة، عدد 27، في 9 افريل 1922.

(24) أ.و.ط.، ت.ق/ح رقم 23—4 و، العصر الجديد، في 15 افريل 1922.
— وطالع بلاغ الحزب الدستوري الى الشعب في جريدة الامة، عدد 27، في 9 افريل 1922.

(25) علقت جريدة (الاتحاد) على هبّة الشعب التونسي الى نبإ (التنازل عن العرش) فقالت: وقع الاضراب عن العمل يوم الاربعاء 5 افريل وابتدأت المظاهرات صباحا. وكانت الاعلام التونسية تخفق على رؤوس الهيئات المختلفة. وكان عدد المتظاهرين في اول الامر يربو عن الثلاثين الفا (ثم ارتفع). وقصدت تلك الجموع المرسى حيث يقيم الامير، مصحوبة بجموع عظيمة من نساء العاصمة . وكانت كهرباء الحماس والوطنية الحقة تسير في ذلك اليوم النساء والصبية والشباب والشيب . أنظر :
— أ.و.ط.، نفس المصدر، (المظاهرة السلمية)، جريدة الاتحاد، عدد 34، الصادرة في 17 افريل 1922.

وعلقت هيئة الاركان الحربية على نشاط الحزب الدستوري فاستخلصت قائلة بتاريخ 21 افريل 1922 : ((ان الشباب التونسيين (الحزب الدستوري) ، الذين هم أقلية ، لكنها أقلية فعالة مهيجة ، لهم اليوم أنصار ضمن جميع الطبقات والاجناس التي تكون سكان المملكة . وعقيدتهم تنادي بالمساواة بين الطبقات والاجناس ، وتهدف في الأخير الى خلع سلطة الحماية .)) (26)

ونلاحظ أن العلاقة بين الحزب والباي كانت متينة وزادتها هذه الحادثة قوة وعمقا . واحتج الحزب على تنازل الباي ، وطالب من فرنسا أن تمكن الشعب التونسي من حرياته وحقوقه الشرعية ، وعبر عن تمسكه بشخص الباي محمد الناصر ، وأبرق في صبيحة يوم 4 أفريل الى الرئيس الفرنسي بوانكاري قائلا : ((ان الشعب التونسي يحتج بشدة وبكل قواه ضد هذه الألاعيب التي ترمي الى التفرقة بين الشعب وأميره ، وجعلهما متصادمين لبعضهما . ونحن نحتج ضد هذا التنازل ونطلب بأشد الحاح تخويل الضمانات الدستورية حالا للشعب المطالب بها .)) (27)

وذكرت جريدة الأمة بتاريخ 9 افريل 1922 ، ان الباي محمد الناصر دعا المتظاهرين على لسان علي كاهية ، يوم 5 افريل الى الرجوع لاشغالهم ، وأنه سيبذل مجهوده لنيلهم مطالبهم . كما ذكرت أن المقيم العام قدم ، اثر ذلك مباشرة ، بيانا الى الباي وطلب منه امضاءه ، بينما كانت القوات العسكرية الفرنسية تحيط بقصر المرسى . وقد جاء في البيان على لسان الباي : ((بناء على ما أشيع من الأخبار التي أزعجت رعايانا وما أظهروه من الود الذي أثر علينا أردنا تطمين خواطرهم بأننا لم نعزم على التنازل عن عرش أجدادنا وإننا لواثقون بفرنسا الحامية لتحقيق سعادة رعايانا على حسب ما تضمنته المعاهدات التي ربطت العائلة الحسينية بفرنسا .)) (28) ورغم رضوخ الباي الى الأمر الواقع ،

---

(26) أنظر : - *A.O.M./A.E.P. 27H1, Op.cit.*

(27) أ . و . ل . ه . م . ت . ق / ح . و . تونس رقم 23-84 ، (تضامن الامير مع الشعب رغبة سمو الباي في التنازل عن العرش) ، جريدة الصواب ، عدد 391 ، الصادرة في 14 افريل 1922 .

(28) نفس المصدر ، جريدة الامة ، عدد 27 ، في 9 افريل 1922 ، وكذلك *Kraiem, Nat. Synd., p.214-215.*

ذكر الشاذلي خير الله انه من الاسباب التي جعلت الباي محمد الناصر يتراجع عن قرار التنازل ، تصرف ولي العهد محمد الحبيب الذي ، رغم قسمه على القرآن الكريم بعدم استلام العرش ، ذهب الى الاقامة العامة وأعلن استعداده لاخذ ولاية العهد . أنظر :
- *Lejri, T.1, p.202*

سلطان القوة ،ولم يرفض امضاء هذا البيان ،فانه اشترط قبول برنامج مطالبه ، المكون من ثمانية عشر نقطة . فقبل المقيم عرض الباى وطلب منه أن يقدم عريضة مطالبه الى السيد ريمي . وقد خادعه بهذا التصرف واستعمل ضده ظرف السرعة والقوة معا ،ذلك أن ريمي لم يكن موظفا لدى الاقامة العامة ، وانما كان رئيسا لمصالح الباى الخاصة ،ومسجلا في قائمة الموظفين المدنيين . ووقع الباى على البيان وعادت المياه الى مجراها . لكن الخديعة انكشفت حين صرح المقيم بعد ذلك انه لم يتصل لا هو ولا أية سلطة فرنسية ، بأية عريضة من الباى (29) .

ومما يدل على أن العلاقة كانت وطيدة بين الدستوريين والباى مشاركتهما في تحرير العريضة التي قدمها الباى الى المقيم العام لما عاد للقائه يوم 8 افريل 1922، فجاءت نقاطها مطابقة لبرنامج الحزب حيث طالبت على الخصوص بأحداث مجلس تشريعي ينتخب انتخابا عاما ويوافق عليه الباى ،و تكوين حكومة مسؤولة تتألف من وزراء ،ويقع اختيار رئيس الوزراء من طرف الباى ،و يكون الوزراء جميعهم تونسيين . كما نصت العريضة أيضا على الغاء شراء الاراضي للاستغلال الاستعماري من أموال الدولة التونسية ، والغاء قانون تجنيس التونسيين ،وتوزيع القروض بالتساوي ،واحترام أملاك الأحباس العامة والخاصة ،وانشاء الجامعات في المملكة واحترام الشريعة الاسلامية . (30)

ولعل الحزب الحر كان قد تبنى مواقف الباى والتزم بالدفاع عن سمعته خاصة بعد توقيعه بيان المقيم العام الى الشعب الذى يأمره فيه بالتزام الهدوء . وقد شاع على الباى أنه أمضى هذا البيان مقابل مبلغ مالي قدره 200.000 فرنك . فثارت ثائرة أحمد الصافي ،الكاتب العام للحزب الدستوري ،و تولى الدفاع عن الباى وقدم احتجاجا بعنوان : (أكذوبة) ،جاء فيه : ((ان الامير يشاركنا صراحة في مطالبنا ،وان امضاءه قد جاء بناء على وعد قطعه المقيم العام على نفسه بأنه سيرد على مطالب الباى الخاصة بالاصلاحات الدستورية التي يطالب بها الشعب التونسي في ظرف أربعة أيام .)) (31)

---

(29) أنظر : - Kraïem, Op.cit.

(30) أنظر : - Kraïem, Op;cit.,p.215-216, et Lejri, T.1,p.200-201
- Goldstein, p.408-409.

(31) أنظر : -Kraïem, Op.cit, p.221-222.

وبالاضافة الى أن الحزب الحر الدستوري كان هو المحرك الرئيسي لهذه الأحداث في الداخل وانه هو الذي أعطاها شكلا شعبيا منظما ، فانه روجها في الخارج واستغلها كوسيلة ضغط وحجة لنيل مطالبه . فأصبغها بطابع دعائي انساني ،حيث كان فرحات بن عياد ، ممثل الحزب الدستوري بباريس ،ينشر الدعاية لايقاظ الرأى العام الفرنسي ،وينبهه الى الاهتمام بما يجرى في تونس وما يحاك ضد الشعب التونسي . فنشر المناشير والمقالات في الصحف الباريسية ، وعرف فيها بلب الازمة القائمة وأعاد الاعتبار الى تاريخ القضية التونسية ،مركزا على ضرورة الاستجابة الى المطالب الدستورية ، والتنديد بأعمال سلطة الحماية التي تريد احداث الشقاق بين مطالب الشعب التونسي الدستورية والشيوعيين (32) .

وقد نالت هذه الأحداث تفاسير متعددة حيث علقت عليها هيئة الاركان الحربية بتاريخ 21 افريل 1922 ، وأبرزت علاقة الباى بالحزب الدستورى فقالت : ((ان الاحداث التي لا يمكن (الاستهانة) بخطورتها ،قد أدت بالحزب الحر الدستورى الى أن يدخل مرحلة جديدة حيث أن الباى قد تضامن مع أبرز أعضائه المستنيرين وقدم معهم مطالب الحزب المفرطة الى المقيم العام ،وهدد بالتنازل عن العرش لو لم تلب مطالبه (33) .))

وعلقت عليها جريدة (بريد المساء) الفرنسية ، المؤرخة في 3 افريل 1922 ، بقولها : ((ان الازمة التي لا زالت موجودة هي قريبة الانتهاء لأن الذى كنا نتمناه حصل وهو حادث من شأنه أن يلزم الحكومة والبرلمان الفرنسي بالاهتمام بالمملكة التونسية وما بقي يأتي بطبيعته ،لأن الباى الذى هو مخلص لفرنسا له نوايا حسنة لا يريد أن يكون ألعوبة بين يدى مسيو بيو وهو حق لا ينافسه فيه أحد .)) (34)

وجاء رأى الحزب الحر الدستورى على لسان رئيسه الشيخ الثعالبي ، اثر اجتماع

---

(32) نفس المصدر .

(33) أنظر : A.O.M./A.E.P. 27H1, Op.cit.

(34) أ .و . ل . ، ت .ق / ح .و .تونس رقم 23-4 B ،(اشاعة تنازل الملك من عرشه) ، جريدة الامة ،عدد 27 ، الصادرة في 1922/4/9 ، نقلا عن جريدة (بريد المساء) ، عدد 882 .

أعضائه يوم 10 افريل 1922، بعد حديث طويل حول الاحداث ،وذلك في قوله : انه مهما كان الأمر فهي أحداث جد ملائمة ومفيدة للتونسيين (35).

وأثناء اجتماع أعضاء الحزب الحر الدستوري التونسي يوم 18 افريل 1922،لدراسة موضوع استقبال الرئيس الفرنسي ، الاسكندر ميليران، اتخذ الشيخ الثعالبي موقفا أبرز فيه حياد المسلمين التونسيين الكامل عن المشاركة في استقبال الرئيس الفرنسي • وسانده بعض الأعضاء في هذا الرأى (36).

ولعل الذين ساندوا الشيخ الثعالبي كانوا من الأمراء وهو ما يفسر ما جاء في تقرير هيئة الاركان الحربية يوم 4 ماى1922 ،حيث قالت : ((لقد تخلص الباى بمشقة، من دسائس الشباب التونسيين (الحزب الدستورى) ورجال بلاطه • فقد وافق الباى، بناء على تدابير المقيم العام الحازمة ، على ابعاد بعض أمراء العائلة المالكة عن البلاط ،وخاصة منهم الدساسين ،وذوى الارتباطات والمتحمسين لحزب الدستور•)) (37) ويدعم هذا الرأى تقرير الشرطة المؤرخ في 22 افريل 1922، الذى أشار الى ان الاميرين الصادق والرشيد قد أديا القسم الدستورى يوم 4 افريل من نفس السنة ،وأنهما كانا يشاركان في اجتماعات الحزب الدستورى بحلق الوادى الى جانب بعض بني عمومتهم (38) • وكان الثعالبي، بالاضافة الى زعامته للحزب ،يرأس شعبة حلق الوادى أيضا •

وقد انزعج الباى من هذا الموقف ،وأرسل برقية الى مقر الحزب الدستورى ، بتاريخ 19 افريل 1922 ،طلب فيها من مسؤوليه العمل على تهدئة الوضع لاستقبال الرئيس الفرنسي بحفاوة • واصدار منشور باسم الباى يحرض فيه الشعب على ذلك • وأخبرهم أنه اتصل بافادات من أعمدة الجمهورية الفرنسية تنبئ بحسن المستقبل و نجاح مساعي الشعب

---

(35) أنظر: -Kraïem, Mat.Synd., p.221.

(36) أنظر: -Kraïem, Op.cit, p.223.

(37) أنظر: - A.O.M./A.E.P. 29H35, Ministère de la Guerre, Etat-Major de l'Armée, Section d'Afrique et d'Orient, Bulletin de Renseignements des questions Musulmanes, datée à Paris, le 4 mai 1922.

(38) أنظر: - Kraïem, Mat.Synd., p.207.

التونسي وتلبية رغباته (39) .

وقد لبى الحزب الدستوري طلب الباى بناء على وعود الفرنسيين . غير أن الرأى العام التونسي عاد فانقسم من جديد حيث أن بعض الشيوعيين التونسيين وعلى رأسهم مختار العياري ومحجوب الزهاني ، قاموا يوم 23 افريل ببث دعاية دعوا فيها الشعب الى عدم المشاركة في احتفالات استقبال الرئيس الفرنسي . وادعوا أن الحزب الدستوري هو الذى كلفهم بذلك (40) .

وأرجع مصطفى كريم هذا الخلاف الى أن احد أعضاء الحزب الشيوعي ، وهو بارو (*Barreau*) أخبر الثعالبي بأن الوعود الفرنسية سوف لا تحترم من طرف الحكومة ، لأن الهدف من اعطائها ، في هذا الظرف ، هو فقط لتهدئة الأوضاع أثناء زيارة الرئيس الفرنسي لتونس . وستكون الحكومة الفرنسية بعدها ليست ملتزمة بشيء للدستوريين ، وسوف تضرب على كل احتجاج بيد من حديد . وبناء على ذلك خول الثعالبي لبارو نشر الدعاية بين التونسيين باسم الحزب الدستوري ، وأخذهم على مقاطعة احتفالات زيارة الرئيس . غير أن احمد الصافي كاتب الحزب الدستوري العام ، كذب صدور هذا الاذن ، وأصدر بالتعاون مع صالح بالعجوزة ، تصريحا في جريدة (بريد المساء) دعا فيه التونسيين الى المشاركة في الاحتفالات المقامة لزيارة الرئيس الفرنسي (41) .

والارجح هو أن الحزب الشيوعي كان قد قام بهذه الدعاية لصالحه ، ومع أن الثعالبي لم يكن راضيا على احتفاء الشعب التونسي بالرئيس الفرنسي ، فانه يستبعد أن يكون هو الآمر بما قام به الشيوعيون ، لأنه لو كان مقتنعا بذلك فعلا لأمر الدستوريين به وهو يعلم أن انفراده بالرأى يمس بوحدة الحزب . ولم يكن الحزب جاهلا بمراوغة الفرنسيين السياسية ، وانما وافق على استقبال الرئيس كوسيلة لتلبية مطالبه الدستورية ،

---

(39) حمل هذه البرقية الى مقر الحزب الشاذلي خزندار ، ومحمد العيد ، حفيد الباى . طالع نص البرقية في :
— أ . و . ل . م ، ت . ق / ج . و . تونس رقم 23—4 B (بشرى بنجاح الامة في مساعيها) ، جريدة افريقيا ، عدد 3 ، يوم الخميس 20 افريل 1922 .

(40) أنظر : -*Kraiem, Nat. Synd.*, p.223-224

(41) نفس المصدر .

واثبات عكس ما كان يتصوره الفرنسيون من أن الحزب الدستوري معاد لفرنسا و يثير الشعب ضدها .

ولما عاد الرئيس الفرنسي الى باريس ،وعرضت القضية التونسية أمام مجلس النواب يوم 4 جويلية 1922 ،صرحت أغلبيتهم لصالح بقاء النظام القائم و تشجيع المستوطنين الصغار والمتوسطين . وكان طايتنجر قد سحب مشروعه الخاص بالدستور، ورد على رسالة أحمد الصافي يخبره بأن النواب الذين ساندوا القضية سنة 1920 قد تخلوا عنها اليوم ،وذلك بسبب ما قام به الدستوريون من ضغط على سلطة الحماية وحكومة باريس . وهذه الأسباب كلها هي التي جعلته هو نفسه يقف ضدهم و يقدم تقريرا مفصلا عن محتويات صحافتهم لوزارة الخارجية الفرنسية (42) .

أما في تونس فقد بقيت العلاقة متوترة بين الباى محمد الناصر والمقيم العام لوسيان سان، حيث أظهر الباى تصلبا شديدا في شأن الوزير الأكبر ووزير العدلية وأكد على ابعادهما . ولكن مصالح فرنسا لم يكن يوافقها اقصاء هاذين الرجلين . ولم يكن الباى في قرارة نفسه ، بالاضافة الى الحاح الامراء على ابعاد الجلولي وخير الدين ، راضيا عليهما ، ولا على مدير تشريفاته خير الله بن مصطفى ،الذى كان متواطئا مع الوزير الاكبر في قضية (*Le Petit Journal*) .

وانتهى الأمر بعزل الوزير الاكبر الجلولي ،و تعيين مصطفى دنقزلي ،وزير القلم والاستشارة، مكانه، وخليل بوحاجب وزيرا للقلم والاستشارة مع ابقائه شيخا للمدينة كما كان . ونال طاهر خير الدين رضى الباى و بقي على رأس وزارة العدل (43) . أما خير الله ابن مصطفى فقد نال منصب مدير ادارة الاحباس (44) .

واذا كان دنقزلي قد نال رضى الباى والامراء ،فان خير الدين وخير الله قد فرضا عليه من طرف سلطة الحماية والرئيس ميليران، حيث ان هذا الاخير هو الذى منح خير الله ، بالاضافة الى المنصب المذكور ،وسام فرقة الشرف والنجمة الاميرية الثالثة (45) . أما

---

(42) طالع رسالة بول طايتنجر الى احمد الصافي بتاريخ 26 ماى 1922 في :

(43) أ . و . ا . ، . ت . ق /ح . و : تونس رقم 23—4 ، (حول الوزارة التونسية الجديدة) ، جريدة الامة ،عدد 29 ،الصادرة في 18 ماى 1922 .

(44) أنظر : *Lejri, T.1,p.203*-

(45) أنظر : *Lejri* ،ص 203 ،نقلا عن (الشاذلي خيرالله ،الحركة الوطنية التونسية ،ارشيف مركز التوثيق بتونس) .

الطيب الجلولي فقد عين وزيرا اولا شرفيا ، وجيزعلى أعماله وخدمته لسلطة الحماية في شخص ابنيه ، حسين وعزيز . فعينا في مرتبة (قائد) الاول على مدينة جربه ، والثاني على قابس . وعلقت الصحف الفرنسية التونسية على ابعاد الطيب الجلولي ، وأخفت عدم رضى الباى تحت ستار المرض الذى كان يشكو منه الوزير منذ سنة 1920 . ولكنها لم تخف اخلاصه الى الجمهورية الفرنسية وتفانيه في خدمتها (46) .

وبقيت العلاقة متينة بين الحزب الدستورى والباى محمد الناصر حتى آخر أيام عصره . وجاء في أحد تقارير الشرطة المؤرخ في 26 جوان 1922 أن احمد بن مصطفى ، وكيل الباى ، قد توجه يوم 24 جوان الى مقر الدستوريين يخبرهم ان المذكرة التي احتجت فيها العائلة المالكة على تصرفات المقيم العام مع الباى أثناء زيارته له في بداية شهر افريل الماضي قد تم تحريرها وأمضاها الجميع وأولهم ولي العهد . وسيقوم الشيخ الثعالبي بمهمة تبليغها الى الحكومة الفرنسية بباريس (47) . ويظهر أن الثعالبي لم يقم بذلك نظرا لوفاة الباى محمد الناصر في بداية شهر جويلية 1922 ، وانقلاب ولي العهد ضد الدستوريين .

ولا شك ان هذه المذكرة تقصد التهديدات التي وجهها المقيم العام لوسيان سان الى الباى أثناء تهديده بالتنازل عن العرش . وذلك ما يفسره الباى نفسه لولي عهده وهو قوله : ((انني لا أنكر ان أيامي أصبحت معدودات (48) ، وانك ستخلفني على العرش ولذلك احذرك من تصرفات الموظفين الفرنسيين السامين بالمملكة . انك تعلم ان المقيم العام قد ذهب معي الى أقصى الحدود حيث طلب مني الابتعاد عن أبنائي . واذا لم تتحقق

---

(46) أ . و . ا . ه . م . ت . ق / ح . و . تونس رقم 23–4 ق 3 ، جريدة الامة ، عدد 29 ، في 18 ماى 1922 .

(47) أنظر : - *A. 1er M./S/MN., C.2, Rapport: Gouvernement Tunisien Sureté Publique, Tunis, le 26 juin 1922.*

(48) ذكر ابو كنانة ان الباى محمد الناصر ((استقبل رئيس الجمهورية الفرنسي وما ان انقضت الايام الخمسة وقفل من وداع الرئيس ، حتى شعر بالتهاب في ابهامه أودى بحياته ولم يجد أحدا من اطبائه الاجانب الذين كانوا لا يفارقونه الا ساعات من الليل .)) أنظر :
- ابو كنانة ، ص 91– 92 .

رغبته هذه، فان الفضل يعود الى صمودى وحزمي ... اني أعتمد عليك أن تحمي عائلتي و شعبي و بلادى .)) (49)

و تعهد ولي العهد ، محمد الحبيب ، بتطبيق تعليمات أبيه وأن يضحي في سبيلها بحياته . ولكنه عدل عن ذلك غداة وفاة أبيه (50) ، وتعاون مع سلطة الحماية صراحة . فلم يكد يعتلي العرش في 10 جويلية 1922 ، حتى اتبع السياسة الجديدة التي سطرها له المقيم العام في خطبة المبايعة اذ قال له : ((اتحقق مولاى انكم تعملون لمساعدة مشروع التمدن والترقي اللائقين بالمملكة التي تعلقت بها فرنسا تعلقا راسخا ... وأن سموكم يثابر على العمل لأجل الاصلاحات ...)) ، ثم عبر له عن وثوق فرنسا فيه وعزمه على مشاركة الباى في العمل (51) . وكان جواب الباى مماثلا في المدح والتعهد بالاخلاص والوفاء لفرنسا ، والاعجاب بسلطة الحماية . وانتهى الى انه تعهد بتوثيق الروابط بين فرنسا وتونس ، وبذل جهده في مساعدة مشروع التقدم المادى والأدبي الذى شرعت فيه فرنسا منذ أربعين عاما (1881) (52) .

وقد أبرز الطيب بن عيسى ، في صحيفة الوزير ، الصادرة في 17 جويلية 1922 ، انقلاب الموازين أثناء مبايعة محمد الحبيب بايا . اذ وقع تقديم الموظفين الفرنسيين والاكثار منهم على حساب التونسيين ، و تبجيل أعيان الاسرائيليين على المسلمين واجراء المناداة بواسطة فرنسي لا يحسن العربية .

---

(49) أبو كنانة ، ص 91–92 .

(50) ولد الباى محمد الناصر في 28 شوال 1271هـ (14 جويلية 1855م) ، وجلس على العرش في 19 ربيع الاول 1324هـ (12 ماى 1906م) ، وتوفي في 16 ذى القعدة 1340 هـ (10 جويلية 1922م) ، وخلف من الانجال اربعة ذكور ، وهم الامراء : المنصف ، والهاشمي ، وحسين ، ومحمد . ومن الاناث ثلاثة ، وترك من الحلائل واحدة وهي الملكة قمر التركية الأصل . أنظر :

– أ . و . ل . م ، ت . ق / ح . و . تونسرقم 23–84 ، (مات الملك ، ليحيى الملك ...) ، الطيب بن عيسى ، جريدة الوزير ، عدد 108 ، يوم الاثنين 17 جويلية 1922 . وانظر أيضا :

- "La Morte del Bey di Tunisie l'investitura del suo successore" <u>Oriente Moderno</u>, N°2, anno II, (15 Luglio, 1922); p.105.

(51) أ . و . ل . م ، <u>جريدة الوزير</u> ، نفس المصدر .

(52) <u>نفس المصدر</u> .

ولعل هذه التغييرات تدل دلالة واضحة على تحكم سلطة الحماية في مقاليد الأمور وربما يفسر هذا التصرف بحرص الفرنسيين على اقصاء الدستوريين وأنصارهم من البلاط الملكي . وليس أدل على ذلك من منع الصحافة العربية من المشاركة ، لأنها متبنية في مجملها مبادىء الحزب الدستوري ، و تأخير مدرسي الجامع الاعظم الزيتوني عند المبايعة الى آخر الحفلة وقد كانوا في العهود السابقة ، باعتبارهم رجال دين ، يدخلون في المرتبة الاولى بعد المجلس الشرعي الذى حرم هذه المرة من الدخول على الباى نهائيا عند التعزية . ولعل ذنب هؤلاء الشيوخ الوحيد هو أنهم كانوا في مجملهم من أنصار الحزب الدستوري أو من أصدقاء الشيخ الثعالبي ومحبيه .

و بينما كان محمد الحبيب مناصرا للدستور في جميع مواقفه ، ومطلعا على جميع أعماله ومساعيه و برامجه ، أصبح بعد اعتلائه العرش ينفذ أوامر سلطة الحماية و ما تعرضه عليه من اصلاحات . فأمضى اصلاحات 11 جويلية 1922 التي قدمها له المقيم العام لوسيان سان ، والتي اشتملت على انشاء مجالس النواحي المختلطة ومجالس (قائدة) أهلية . وقضت بالغاء المجلس الشورى و تعويضه (بالمجلس الكبير) ، الذى يتألف من قسمين ، أحدهما فرنسي و يتركب من أربع وأربعين عضوا (53) ، والآخر تونسي (54) و يتركب من ثمانية عشر عضوا . ومن مهام هذا المجلس النظر في ميزانية الدولة التي تحضرها

---

(53) ينقسم عدد الممثلين الفرنسيين كالتالي : واحد وعشرون يعينون عن أكبر المصالح الاقتصادية والاستعمارية : (ستة نواب عن الغرفة الفلاحية للشمال ، ونائب واحد عن الغرفة التجارية ببنزرت وأربعة عن الغرفة التجارية بتونس ، وأربعة عن الغرفة الفلاحية والتجارية المركزية ، وأربعة عن الغرفة الفلاحية والتجارية للجنوب ، ونائبان عن الغرفة الاستشارية للمصالح المنجمية) ، وثلاثة وعشرون ينتخبون بالاقتراع العام ، ويمثلون في مجملهم 156.000 اوروبي . أنظر : Lejri, T1, p. 211-213.

(54) كان عدد الممثلين التونسيين موزعا كالتالي : عشرة نواب ينتخبون عن النواحي الخمس ، واثنان يمثلان المصالح التجارية والصناعية للعاصمة ، واثنان يختارهم الوزير الاكبر بمصادقة المقيم العام ، و يمثلان القطاع العسكرى ، واثنان من نبلاء اليهود ، وكانوا يعينون في معظمهم من طرف الادارة و يمثلون قرابة المليونين من السكان ، مع العلم ان القطاع العسكرى بالجنوب كانت تحكمه مكاتب الشؤون الاهلية ، ويضم دوائر مدنين ، و زرزيس ، و بن غردان ، و تطاوين ، ومطماطة ، والوطن القبلي . أنظر Lejri, T.1, p.211-213

— طالع قرار الباى محمد الحبيب في تنظيم هياكل المجلس الكبير ، الصادر في 1922/7/13 في :

" Decreti del 13 luglio 1922 relativi al nuovo Gran Consiglio della Tunisia", <u>Oriente Moderno</u>, N°6, anno II, (15/11/1922), p.348-370

الحكومة مسبقا ،وابداء اقتراحاته في شأن المصاريف والاداءات (55) .

وكان موقف الدستوريين من هذه الاصلاحات واضحا ،اذ رفضوها كلية واعتبروها اندماجية جاءت للقضاء على الكيان التونسي قضاء مبرما . وأعلنوا عن تمسكهم بمبادئ حزبهم التسعة ، وعملوا على الدعاية لها . غير أننا ، بالاضافة الى موقف الباي محمد الحبيب منهم ، وتهديد ومكر المقيم العام لوسيان سان ،نجد أن الحزب الدستوري قد انقسم على نفسه في تلك الظروف الحرجة ، فانشق عليه ذوو الاتجاه الاصلاحي المعتدل بقيادة حسن قلاتي ،ووافقوا على الاصلاحات المذكورة ،و تكتلوا مع الطائفة اليهودية ،وراسلوا وزارة الخارجية الفرنسية ، وباركوا اصلاحاتها باعتبارها مرحلة ثمينة - في نظرهم - في طريق الازدهار العام للبلاد التونسية (56) .

وجاء في تقرير للشرطة الفرنسية بتاريخ 26 جوان 1922، انه شاع عن الدستوريين رغبتهم في تنظيم مظاهرات احتجاج يوم وفاة الباي محمد الناصر، ضد تصرفات السلطات الفرنسية التي أدت بحياة أميرهم . ولاحظ التقرير أن الهدف من هذه المظاهرات هو تنبيه الدول العظمى والرأي العام العالمي الى عدم رضى الشعب التونسي عن سلطة الحماية (57) .

ولعل تصرفات الباي محمد الحبيب مع الدستوريين هي التي أقعدتهم عن القيام بهذه المظاهرات . فقد كانوا متذمرين من مواقفه ،ووقعت اختلافات كبيرة بينه و بين الثعالبي ، أدت في الأخير الى خروج هذا الاخير من تونس في جويلية 1923 . فبعد أن هدد الباي الدستوريين بإباحة أسرارهم لو لم يكف الثعالبي عن معاندته ،فضل رجال الحزب ابعاد زعيمهم خوفا على مصير حزبهم ومستقبله (58) . وعلق احمد الصافي على سفر الثعالبي في مقال له أصدرته جريدة (الصباح الصغير) بتاريخ 2آوت 1923، قال فيه ان الثعالبي لم يكن يمثل الحزب لوحده ، وان غيابه (الموقت ؟) لا يؤثر على مطالب الحزب في شيء . وأيده صالح فرحات في مقال أيضا نشرته جريدة (تونس الاشتراكية) يوم 3 آوت 1923 (59) .

---

(55) الفاسي ، ص 56 .

(56) أنظر: -Lejri, T.1 ,p. 213.

(57) أنظر: - A.1er M./S/MN.,C.2, Rapport de Police, le26/6/1922

(58) الفاسي ، ص 56-57 .

(59) أنظر: - "Tunisie: Le Départ de Taâlbi", Afrique française, N°8, 33 année, (Aout 1923),p.416.

وقد أعاد مصطفى كريم أسباب خروج الثعالبي من تونس الى الاتهامات التي وجهها له بعض الدستوريين حول استبداده بأموال الحزب ، واعتمد في ذلك على تقرير المقيم العام الفرنسي (60) . ولكن الارجح عندنا هو أن انقسام صفوفه ، والضغوط التي كان يمارسها الباى محمد الحبيب على الدستوريين من جهة والمقيم العام من جهة ثانية ، بالاضافة الى تعطيل جرائد الحزب وفراغ خزينته ، قد تجمعت كلها ، وأثرت على الثعالبي فهاجر .

وجاء في تقرير المقيم العام في جويلية 1922 ، ان الدستوريين وعلى رأسهم الثعالبي قد بذلوا جهودا مضنية للتقرب من الباى الجديد ، وكسب تعاطفه نحوهم على الأقل . وقد اتضح للثعالبي عدم فائدة مساعيه ، ذلك ان الباى محمد الحبيب قد أعطى تعهدات قاطعة للمقيم العام ، وطمأنه من ناحية الدستوريين . وكان لهذا المقيم دور كبير في الايقاع بين الطرفين حيث عمل على قطع العلاقة بينهما نهائيا ، فلم يعد يسمح للدستوريين حتى بمجرد الدخول الى قصر الباى (61) .

و بينما أغلق الباى محمد الحبيب أبواب قصره في وجه الدستوريين ، فانه فتحها في وجه أعدائهم من الذين كانوا يسيرون في ركاب الحماية الفرنسية . ففي بداية 1923 استقبل الباى فرحات بن عياد ، زعيم الحزب الدستوري المستقل ، المنشق عن الحزب الحر الدستوري ، لمدة ساعتين ، شرح له فيها ابن عياد أفكاره الجديدة المعتدلة . فقبلها الباى قبولا وديا لطيفا (62).

وفي هذه السنة اغتنم المقيم العام فرصة خروج الثعالبي من تونس ، وتقدم في 26 جويلية الى الباى يدعوه لزيارة باريس ليبرهن على اخلاصه لفرنسا ورضاه على سلطة الحماية واتفاقه معها ، ولتتأكد فرنسا من قدرة المقيم العام الدبلوماسية ورجاحة عقله ونبوغه السياسي (63) .

وقد بالغ الباى في تعلقه بفرنسا وثقته في المقيم العام ، حتى ان هذا الاخير صرح الى صاحب جريدة (الصباح الصغير) لما استفسره في مارس 1925 عن الاصلاحات ، قائلا :

---

(60) أنظر : - Kraiem, Nat.Synd., p.157 et 237-241.

(61) نفس المصدر ، ص 237 .

(62) أ . و . ا . ٠ م . ت . ق / ح . و . تونس ، رقم 26-5 (فرحات بن عياد) ، جريدة الاتحاد ، عدد 60 الصادرة في 7 فيفري 1923 . وكذلك
- A.M.I./CDN/MN. Tunis, N° B-5-26 (Comment s'est formé..), p.1-3.

(63) أنظر : - Kraiem, Op. cit., p.240-241.

((لا تنس اني أجاهر بالتقدير الى سمو الباى محمد الحبيب ،الجدير اخلاصه بكل احترام ، وهو الذى قال مؤخرا الى أحد سائليه عن الاصلاحات المصممة : كل ما تفعله الحكومة الفرنسية ، يكون عملا متقنا .)) (64) وأكد الباى محمد الحبيب هذا الموقف في رده على خطاب الاستقبال الذى ألقاه الرئيس الفرنسي ، ميليراند ، على شرفه بباريس في جويلية 1923 ، قوله : ((ان الاربعين سنة من الحماية جعلتني أقدر عظمة فرنسا الحضارية التي حظيت بلادي بالاستفادة منها .)) (65)

وهكذا عاش الدستوريون فترة من أحرج فترات تاريخهم في هذه السنوات 1923 — 1925 . فقد كانوا يواجهون الخطر من جميع الجهات . وانقسمت صفوفهم و تمزقت بين اصلاحيين واستقلاليين ، وجرائدهم قد توقفت عن الصدور لأسباب مالية وحزبية ، وزجرية وغيرها . والباى محمد الحبيب قد ناصر المقيم العام وأمضى اصلاحاته ضدهم ، وأغلق أبواب قصره في وجوههم ، ولم يساند مرحتى في أحرج الظروف . ولما احتج الحزب الدستوري ضد المشروع الفرنسي القاضي بتغيير القضاء الاسلامي الى قضاء مختلط سنة 1925 ، وتوجه في وفد يتألف من خمسين عضوا من أعيان البلاد الى قصر المرسى ، رفض الباى استقباله . وصمم الدستوريون على ابلاغه احتجاجهم ، وسلموا عريضتهم الى قائد حرسه ، مؤكدين له فيها على بقاء القضاء الاسلامي مستقلا . وتوجه وفد مماثل الى المقيم العام فلم يستقبله هو أيضا (66) .

وبقي الباى محمد الحبيب طيلة عهده (1922—1929) يعامل الدستوريين نفس المعاملة متأثرا بسياسة المقيم العام لوسيان سان الذى انتهى عهده سنة 1929 أيضا . وقام على السلطة بعدهما احمد باى وفرانسوا منصرون (F.Manceron) (1929 — 1933) ، ومارسيل بيروتون (M. Beyrouton) (1933) ، وعرف الحزب الدستورى في عهدهم القمع والزجر والمتابعة .

وكان احمد باى متزلفا الى ادارة الحماية ، وموافقا على جميع خططها . ففي عهده وتحت

---

(64) أنظر : - A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° E 2-45, Les Réformes Tunisiennes, Interview de M.Lucien Saint, Le Petit Matin, du24/3/1925,p.4

(65) أنظر : - " Tunisie: Le Bey en France", Afrique française, N° 7, 33 année, (Juillet, 1923), P. 334-337.

(66) أنظر : - Kraiem, Nat. Synd., p.175-176

اشرافه عقد المؤتمر الافخارستي بتونس سنة 1930 • وهذا المؤتمر هو نتيجة سياسة فرنسا الاستعمارية المطبقة في بلدان المغرب العربي الثلاثة ، باعتبارها بقاعا لاتينية في نظر فرنسا ، وجزءا لا يتجزأ من فرنسا • ولذلك احتفلت في نفس السنة (1930) بمرور مائة سنة على احتلال الجزائر ، وعقدت المؤتمر الافخارستي (67) العالمي في تونس ، وأصدرت قانون (الظهير البربري) في المغرب الأقصى •

ولانعقاد المؤتمر الافخارستي من 7 الى 11 ماي 1930 بمدينة تونس بالذات ، أكثر من معنى (68) ، فتونس في نظر الفرنسيين أرض فرنسية ، وقرطاج رقعة مسيحية زكاها دم ملك فرنسا (القديس لويس) (69) • ولذلك انعقد هذا المؤتمر تحت اشراف المقيم العام منصرون ، والكاردينال لومستر (Le Maître) بالنسبة للفرنسيين (70) ، وتحت اشراف

---

(67) هو مؤتمر كنائسي عالمي يجمع المسيحيين من مختلف انحاء العالم • وقد سبق لهذا المؤتمر ان انعقد في مدن سيدني (Sydny) وشيكاغو وفيينا وبروكسيل ولندن وروما • أنظر :
- *Ali, Mahjoubi, "Le Congrès eucharistique de Carthage et le Mouvement National Tunisien"*, *Les Cahiers de Tunisie*, *T.XXVI, N° 101-102, 1er et 2ème trimestre, (Tunis, FLSH, 1978), p.109-132*

(68) عن نشاط الاساقفة الفرنسيين التبشيري في المدن التونسية ، وعن السخط الشعبي الرافض لمثل هذه العمليات أنظر مقالات الصحف التونسية العربية وما كانت تنقله عنها الصحف الاسلامية في تلك الفترة ، مثل مقال : محمود الباجي القيرواني ، " مناورات خطيرة يقوم بها المبشرون ودعاتهم " ، مجلة الفتح ، عدد 150 ، السنة 3 ، (القاهرة ، الخميس 28 ذي الحجة 1347هـ/ 6 يونيو 1929) ، ص 789-791 •

(69) احمد خالد ، أضواء من البيئة التونسية على الطاهر الحداد ، ونضال جيل ، ج 2 ، (تونس ، د • ت • ن ، 1979) ، ص 65 •

(70) أنظر :
- *" Tunisie: Autour du Congrès eucharistique de Carthage"*, *Afrique Française*, *N° 6, 40 année, (Juin 1930), p.351.*

الباى احمد ورجال دولته بالنسبة للتونسيين . وذكرت الصحافة الاستعمارية ان شيخ الاسلام حميدة بيرم ، ورئيس الافتاء الطاهر بن عاشور ، قد قبل العضوية الشرفية في المؤتمر . وأصدر الشيخان تكذيبا لهذا النبأ ، أكدا فيه رفضهما دعوة المؤتمر ، لأن غرضه مناف لمنصبهما الديني والاسلامي (71) . وتظهر هنا محاولة استغلال الصحف الاستعمارية لمنصبي الشيخين ونفوذهما الادبي في الأوساط الشعبية ، لكسب رضى المسلمين على انعقاد المؤتمر في بلادهم .

وكان موقف الحزب الدستوري من هذا المؤتمر واضحا منذ البداية . فاعتبره حملة صليبية جديدة على تونس . وكتب احتجاجا وجهه الى الباى احمد ورجال دولته نبههم فيه الى خطورة الموقف ، وقال يخاطب الباى احمد على الخصوص : ((فقد رأينا ان نلفت نظر جنابكم الى ان المؤتمر صار ذا صبغة لا تسمح معها منزلتكم في الاسلام بالاستمرار على المشاركة فيه .)) (72)

ولم يول الباى احمد اعتبارا الى حركة الاحتجاج التي أثارها الحزب الدستوري ، رغم ان الحزب لم ينفرد بهذه الحركة لوحده ، بل شاركته فيها مختلف الأحزاب والمنظمات الفرنسية الشيوعية والاشتراكية والرادكالية والماسونية (73) . بالاضافة الى طلبة جامع الزيتونة ، الذين خرجوا في مظاهرات صاخبة . وقد أضرب العمال عن الشغل في تونس وبنزرت يوم نزول المؤتمرين بمدينتهم في 3 ماى 1930 . وكانت تلك بينة على رفض الشعب

---

(71) مكتب الاخبار التونسية ، ظاهرة مريبة في سياسة الاستعمار الفرنسي ، هل تمثل مأساة الاندلس من جديد في شمال افريقية ، الحملة الصليبية التاسعة في المؤتمر الافخارستي (القاهرة ، عنيت بنشره المطبعة السلفية ومكتبتها ، 1349هـ) ، ص 15-20 . وانظر كذلك :
- *Ali, Mahjoubi, Les Origines du Mouvement National en Tunisie 1904-1934*, (Tunis, PUTFL, 1982), p. 466-478.

(72) أنظر رسالتي احتجاج اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري في : نفس المصدر ، ص 15-18

(73) عملوا كلهم على ابعاد الطابع الرسمي للمؤتمر الافخارستي وتمويله رسميا من طرف الدولة . واحتجوا على الحكومة الفرنسية باسم الحرية الدينية ومبدأ حياد الحكومة فيما يتعلق بالقضايا الدينية . أنظر :
- *Mahjoubi, Op.cit.*, p.127-128.

التونسي لهم . وقد عمّ الاضراب حتى التجار الصغار ، الأمر الذى أجبر شيخ المدينة وأعوانه وأعضاء الغرفة التجارية الى النزول الى المدينة ، واجبار التجار على فتح دكاكينهم ، وألقت السلطة القبض على الرافضين وزجت بهم في السجون . وخرج الطلبة المسلمون من مختلف المدارس في مظاهرات احتجاج وهتفوا بحياة الاسلام والوطن . وبادرت السلطة الى قمعهم بالقوة ، واعتقلت الشرطة عددا كبيرا منهم (74) . ولكن ذلك لم يزد الطلبة الآ تعنتا ، فخرجوا الى المدينة مرة أخرى ، وتكاثر عددهم في الشوارع ، واحتجوا لدى الوزير الاكبر على ايقاف أصحابهم وطالبوا باطلاق سراحهم (75) . وتواصلت المظاهرات الطلابية والسخط الشعبي ، مما أجبر سلطة الحماية ان تطلق سراح بعض الطلبة وابقاء بعضهم الآخر على ذمة التحقيق .

وقد ساند الطلبة في محنتهم كل من فرع الحزب الاشتراكي الفرنسي بتونس ، وفرع الاتحاد النسائي للسلام والحرية . فتوجها في وفد الى المقيم العام وطلبا منه التدخل لصالح الطلبة المسجونين . فأبى وفضل بقاء الأمر بين أيدى العدالة الفرنسية . وقد فتح الحزب الدستورى صندوق الاسعاف الوطني الذى أسسه لمثل هذا الغرض ، أمام الطلبة المنكوبين ، وذلك فضلا عما تقدمه الشبيبة الدستورية من عون لأخوانهم الذين حرمتهم السلطة الاستعمارية من المنح المدرسية (76) .

وزيادة على ما قام به الحزب الدستورى من الأعمال في صالح الطلبة ، فانه تبنى قضيتهم رسميا ، وتطوع أعضاؤه للدفاع عن الطلبة المعتقلين . وكان على رأس المدافعين احمد الصافي ، كاتب الحزب الدستورى العام ، وصالح فرحات ، الاعين العام المساعد . وقد شاركهما في هذا العمل الطاهر صفر ، والحبيب بورقيبة ، وديران انجليفيال (77) .

---

(74) مكتب الاخبار ، ظاهرة مريبة ، ص 22–25 .

(75) طالع نصر البرقية في (ظاهرة مريبة) ، ص 24–25 .

(76) نفس المصدر ، ص 26–28 . وكذلك :
- Mahjoubi, les Origines, p.130-131.

(77) مكتب الاخبار ، ظاهرة مريبة ، ص 27–29 . وكذلك :
- Mahjoubi, Op. cit., p.129-132.

وبالاضافة الى المساندات الداخلية فان الطلبة المتظاهرين كانوا يتلقون مساندات من الطلبة المسلمين في الخارج • فوصلتهم برقيات بتوقيعات الطلبة التونسيين والجزائريين والمغاربة بباريس تشد أزرهم وتحتج على مصابهم (78) .

وقد استغل الحزب الدستوري انعقاد هذا المؤتمر بتونس ليعبر عن سخطه على العلاقة المتينة التي تربط الاستعمار بالكنيسة من أجل القضاء على الدين الاسلامي بالقطر التونسي (79).

وحاول اثارة حمية الباى احمد الاسلامية عن طريق الاحتجاجات التي بعثها اليه ، والمقالات الصحفية والخطب التي كان أعضاء الحزب يلقونها في الأوساط الطلابية • ولكن الباى أصر على البقاء عضوا شرفيا للمؤتمر الافخارستي ، وعبّر عن مساندته المطلقة لمبادئه وأهدافه • (80)

وبعد انتهاء المؤتمر زار الباى احمد فرنسا وبقي بها من 18 الى 30 جويلية 1930 • ومرّ بمدينة ليون وزار كنيسة فورفيار العتيقة ، فقدم له الكردينال موران شكره على الحفاوة وحسن الاستقبال الذى لقيه الرهبان على يده في تونس أثناء المؤتمر (81) • ورد له الرئيس الفرنسي دومارك (Doumergue) الزيارة في شهر افريل 1931 (82) .

كما قام الباى احمد بزيارة ثانية لفرنسا في جويلية 1934 ، وأقيم حفل على شرفه بقصر الايليزى يوم 28 جويلية من نفس السنة (83) .

ودامت احتجاجات الحزب الدستورى ضد قرار تعطيل الصحافة العربية منذ 1922 (84) ،

---

(78) مكتب الاخبار ، ظاهرة مريبة ، ص 32-33 • وكذلك : " Tunisie: Autour du Congrès eucharistique..", Af.fse, p.352.

(79) أنظر : - Mahjoubi, les Origines, p. 121.

(80) أنظر : - "Tunisie:Autour du voyage en France da Bey de Tunis" Afrique française, N°8, 40 année, (Aout 1930),p.456-457.

(81) خالد ، ص 70 •

(82) أنظر : - "Le voyage du Président de la République en Tunisie" Afrique française, N° 4, 41 année,(avril 1931),p.293-297.

(83) أنظر : - "Tunisie ", Afrique française, N°7, 44 année, (Juillet 1934), p. 436-440.

(84) كانت الجرائد التونسية الصادر باللغة العربية ممنوعة من دخول التراب الجزائرى • ولعل السلطة الفرنسية قد أصدرت قرارا يقضي بهذا المنع نظرا للعلاقة التي كانت تربط بعض الجزائريين بالحزب الدستورى من ناحية ، ومن ناحية ثانية نظرا للحصار الذى ضربته فرنسا على اللغة العربية ومنعها من دخول الجزائر • ولذلك كانت الشرطة الفرنسية في الجزائر تفتح ===

وضد سياسة التجنيس وغيرها . وقد قامت أحداث بمدينة تونس في شهر افريل 1933 ، ضد دفن المسلمين المتجنسين في المقابر الاسلامية . وتجدد نشاط الحزب الدستوري وازدادت مواقفه حدة وإنتشر أعضاؤه في جميع انحاء البلاد . وتصدت حكومة الباى وسلطة الحماية لهذه المظاهرات الشعبية لمنع تعميمها . فأصدرت مرسوما في 6 ماى 1933 بالمراقبة الادارية لكل شخص يقوم بأعمال مضادة لحكومة الباى وسلطة الحماية أو يقوم بنشر دعاية تهدد أمن الدولة والأمن العام .

وقد بلغ الامر اصدار أحكام صارمة ضد المتظاهرين الذين وقع القبض عليهم . ولم تكتف السلطة بهذا القرار، بل تعدته الى اصدار قرار وقّعه الباى احمد يوم 31 ماى 1933، قضت فيه بحل الحزب الحر الدستوري ومنع نشاط شعبه في جميع أنحاء البلاد ،والغاء الجرائد التي كانت تمثل رأيه (العمل التونسي) و(صوت الشعب) و(الصوت التونسي) ، الصادرة باللغة الفرنسية . فأتت بهذا القرار على جميع جرائده العربية والفرنسية (85) . وذكر تقرير هيئة الاركان الحربية ان هذه الاجراءات لم يكن لها رد فعل بالغ الاهمية ما عدا بعض المظاهرات قليلة الشأن، التي ترتب عليها غلق موقف للاسواق الشعبية (86) .

وليس هناك في الحقيقة فرق كبير بين سياسة الباى محمد الحبيب وخليفته احمد باى، وسياسة سلطة الحماية في عهد لوسيان سان ،وفرانسوا منصرون ،ومارسيل بيروتون ،تجاه الحزب الدستوري . وقد انتهج الحزب سياسة تجنب المصادمات مع سلطة الحماية ،واتبع سياسة توتر وقلق وهيجان شعبي وغليان سياسي مستمر داخل البلاد ،عن طريق نشاطات شعبه الحزبية ، وصحافته العربية والفرنسية .

=== محضرا لكل جزائري تجده حاملا جريدة عربية ،تسجل فيه مكان صدور الجريدة وبلدها . طالع مقال مراسل جريدة (المنتقد) الجزائرية من مدينة بسكرة ، " بسكرة :فضائح (كذا) البوليس " ، جريدة المنتقد ،الصادرة في 17 سبتمبر 1925 .

(85) أنظر - "Tunisie:.. Un nouveau decret sur la presse...la dissolution du "Destour". Suspension de journaux déstouriens de langue française", <u>Afrique française</u>, N°6, 43 année, (Juin 1933); p.347-351.

(86) أنظر - A.O.M. A.E.P. 27H5 Ministère de la Guerre, Etat-Major de l'Armée, Section d'Etudes Afrique, Orient, Bulletin de Renseignements, questions musulmanes, Paris le 13/6/1933.

2 — مع سلطة الحماية :

خابت آمال التونسيين في وفاء الفرنسيين بانجازهم لوعودهم ، وانزعجوا من مشروع فلاندان الاستعماري ، واغتاضوا من اهانته لمشاعرهم الدينية ، ومس مصالحهم المقدسة . فتجمع الدستوريون مع رجال الزوايا والمحافظين " أصحاب العمائم القديمة " وقدموا احتجاجاتهم وعبروا عن سخط الشعب التونسي التام ورفضه النهائي لهذه السياسة الاستعمارية الجائرة (87) . فتوجه الشيخ الصادق النيفر على رأس وفد تونسي يوم 16 جوان 1920 (88) الى الاقامة العامة ، وقدم عريضة باسم التونسيين الى السيد دي كاستون سان فيكتور ، نائب المقيم العام ، احتج فيها على المس بأملاك الاحباس ، وطالب بمنح الشعب التونسي دستورا يضمن له حرياته العامة ، وشرح معاناة التونسيين من جراء خنق صحافتهم ، واضطهادهم ومنع تجمعاتهم ، واحتكار أراضيهم من طرف كمشة من التجار . وندد بالقوانين التي زورت اقتصادهم ، ففشى بينهم الفقر ، بجميع أنواع أمراضه ومظاهر انحطاطه . وأكد على فشل السياسة المقيتة المتبعة منذ أربعين سنة . واستخلص بأن (الدستور) هو الوسيلة الأجدى نفعا لرفع معنويات التونسيين الفكرية والاخلاقية والمادية ، وازدهارهم في الحاضر والمستقبل ، والضامن لمشاركتهم الفعلية في تسيير شؤون البلاد بصفتهم العناصر الحقيقية والضرورية للتغيير الحاسم (89) .

وفي هذه الاثناء كان المقيم العام فلاندان يبذل جهوده بباريس للحصول على قرض فرنسي لتونس . وقام الشيخ الثعالبي بحملة دعائية في باريس ضد القرض ، وآزره بعض رجال الفكر الحر الفرنسيين . فضعف موقف فلاندان امام رجال البرلمان ، ومع ذلك فقد عرض المشروع على البرلمان الفرنسي في جلسة متأخرة من الليل ، غاب عنها أغلب المناوئين له فتقرر قبوله (90).

---

(87) أنظر: - A.O.M./A.E.P. 27H1 Rap.Etat-Major, du 21/4/1922.

(88) أنظر: - Lejri, T.1, p. 191.

(89) أنظر: - Rodd Balek, "La Tunisie..", Af. fse N°30 (Juillet-aout 1920), p.230.

(90) أ.و.ل.ع.م.ت.ق/ح .و.تونس رقم 13-3 B ، ابن تقصية ، (خلاصة الابرار ...)

ورغم ان الدستوريين قد اتبعوا طريقة تقديم العرائض والمطالبة بالدستور، ولم يستعملوا العنف واثارة الشعور الوطني في الاوساط الشعبية، فان الادارة الفرنسية بتونس قد وجهت لهم عدة تهم منها : تهديد أمن الدولة، واحداث الشغب في أرجاء البلاد ، وسبغت عليهم ألوانا من التهم كالولاء للثورة البولشوفية، والتأثر بالألمانيين ، والانتماء الى أفكار الجامعة الاسلامية .

وأصدر الرئيس الفرنسي، بعد استشارة المقيم العام فلاندان، أوامره الى دي كاستيون والجنرال روبيو (Robillot)، قائد قوات الاحتلال بتونس، بتفتيش منازل رجال الحزب الحر الدستوري بتونس وفرنسا . فامتثلا لأوامره وأصدرا اذنا بذلك يوم 20 جوان 1920 (91) . وكان من أبرز الدستوريين الذين وقع تفتيش منازلهم الشيخ عبد العزيز الثعالبي، وصالح بن يحيى، ومحمد الرياحي، وفرحات بن عباد ، والدكتور قرطبي .وسجلت عليهم تهم أخرى كاثارة البغضاء والتطاحن بين الأجناس المتعايشة بالبلاد التونسية (92) .

ومن الاسباب المباشرة التي تسترت وراءها حكومة باريس وادارتها بتونس لقمع زعماء الدستور وكبح جماح الشعب التونسي، صدور العدد الاول من جريدة (الجامعة) بتاريخ 11 جوان 1920، الذي ندد فيه صاحبه حسن كمال بالاحتلال الانكليزي لاسطانبول، ودعا التونسيين للدفاع عن الخلافة ومواجهة المد الصليبي (93) . وكان الهدف الرئيسي من هذا

---

(91) من الأسباب التي أدت الى أخذ هذا القرار، صدور العدد الاول من (جريدة الجامعة) بتاريخ 11 جوان 1920 . فاصدرت السلطة الفرنسية أوامرها بتوقيف الجريدة ومصادرة نسخها ونفي صاحبها ، وتفتيش منزل كل من كانت له علاقة به . أنظر :

- *A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B 3-13, Rap.Baron, p. 1-4.*

(92) أنظر :

- *A.Q.O./S/T.1917-40, N°319? Lettre Ministre de la Guerre, Cabinet Contencieux à M.Ministre des Affaires Etrangères, DirectionPolitique et Commerciale,Afrique, Paris le 26/5/1921.*
- *Op.cit, N°318,Ministre de la Guerre au Préd, Paris le2/7/1920.*

(93) أنظر :

- *A.Q.O./S.T. 1917-40, N°318, Lettre Délégué Résidence Générale Tunis à M. Président Millérand, Tunis le 11/8/1920,(annexe1, lettre général Robillot au Résident, Tunis le 5/8/1920),p.102-105.*
- *A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B 3-13,Rap. Baron, p. 1-4.*

التفتيش هو البحث عن أدلة مادية توضع حدا لنشاط الدستوريين ، وخاصة منهم الثعالبي ((الذى كانت مواقفه وعلاقاته تسبب تخوفات حادة لسلطة الحماية ، خاصة وقد اشتهر خبر علاقته الوثيقة مع حسن كمال (صاحب جريدة الجامعة) .)) (94)

و تلقى وزير الحربية أوامر الرئيس الفرنسي يوم 21 جوان 1920 عن طريق رسالة رقم 1532 ، فوقع تفتيش منزل الثعالبي يوم 23 جوان 1920 على الساعة الرابعة صباحا ، و تمت نفس العملية بمقر سكنى أصحابه المذكورين بتونس (95) . ومن أهم الأدلة التي عثرت عليها الشرطة الفرنسية ، وكانت سببا في ايقاف الثعالبي ، عثورها أولا على نسخ من كتابه (تونس الشهيدة) ((الذى سبب نشره تخوفا كبيرا لسلطة الحماية)) ، و ثانيا اكتشا فها كمية هائلة من المراسلات التي كانت تجرى بينه و بين أعضاء الحزب الدستورى الآخرين . وقد اعتبرتها السلطة الفرنسية ((برهانا على وجود مؤامرة تهدف في مجملها الى تغيير شكل الحكومة التونسية .)) (96) فكانت هذه المراسلات سببا جديدا لدى قائد قوات الاحتلال بتونس ، فوسع رقعة الاتهامات والتوقيف ، وأصدر أوامره في 28 اكتوبر 1920 بفتح تحقيق لاحق ضد كل من كانت لهم علاقة مراسلة مع الثعالبي ، وأخص بالذكر منهم محمد باش حامبة ، ومحمد الرياحي ، وفرحات بن عياد ، والشيخ صالح بن يحيى (97) . فبلغت الحكومة الفرنسية بعد ذلك هدفها المنشود ، وهو وضع حد لنشاط رجال الحركة الوطنية التونسية .

وقد تحدث الثعالبي عن كيفية تفتيش منزله في رسالة وجهها الى الرئيس الفرنسي بتاريخ 26 جويلية 1920 ، فقال : ((ان أحد محافظي الشرطة كان مرفوقا بستة أفراد من رجاله ، قد اقتحموا بيتي (بباريس) يوم 23 جوان 1920 على الساعة الرابعة صباحا ، وطلبوا مني ... أوراقي ومراسلاتي . ولما كنت حينئذ في سريرى ، فان رجلين بقيا يحرسا ني ، بينما

---

(94) نفى الشيخ الثعالبي هذه العلاقة فقال : ((حسن ... جاسوس استأجره الاحتلال لوضع الاحبولة التي نصبوها لي ... (ثم) افلتوا هذا الشقي (حسن) وأوعزوا له بالسفر فسافر .)) :
— أ . و . ل . ت ، ت . ق / ح . و . تونس رقم 13—3 ، ج 6 (الاستاذ الثعالبي يرد ... أكاذيب ...) ، الشورى ، عدد 161 ، في 22 ديسمبر 1927 .

(95) أنظر : - A.Q.O./S.T. 1917-40, N° 318, Op.cit.

(96) أنظر : - A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B 3-13, Rap. Baron, p.1-4

(97) نفس المصدر .

جعل الآخرون يفتشون بيتي رأسا على عقب ، دون حضوري . وعندما انتهت عملية التفتيش، وجمعوا كل أوراقي ، اقترب مني المحافظ ، واستفسرته عن أسباب هذا التفتيش ، فأخبرني أن تحقيقا قد فتح ضدي بتهمة قيادة حركة انفصالية ، ... ثم خرج ... ومعه ما رآه صالحا ، دون تحرير محضر كما يتطلبه القانون .)) (98)

واحتج الشيخ الثعالبي في نفس الرسالة على هذا التفتيش موضحا للرئيس الفرنسي فساد سياسة سلطة الحماية ، الأمر الذي جعل الشعب التونسي ينستد به للمطالبة بالدستور (99) . ومن المؤكد أن الثعالبي لم يكن يثق في حكومة باريس مما جعله يسعى الى الخروج من فرنسا . ولعل شعوره بمراقبة الشرطة الفرنسية له هو الذي أدى به الى الاستنجاد بالبرلماني الشيوعي الفرنسي ، أندري برتون ، للحصول على جواز سفر من حكومة فرنسا للتوجه الى ايطاليا ((لملاقاة عائلته القادمة من تونس ، وتعهد له بعدم القيام بأي عمل سياسي هناك ، وان يعود الى فرنسا اثر نهاية اقامته بايطاليا .)) (100) .

ويظهر ان الثعالبي قد أحسّ بالخطر فآثر الهجرة والهروب من الضغط الذي كانت تسلطه عليه السلطة الفرنسية . ولعله أراد أن يلبي مطالب محمد باش حامبة ، وأن يلقاه بايطاليا ليناقش معه المسائل السياسية .

ولم تكن الحكومة الفرنسية مطمئنة الى مساعي الثعالبي ، وتفطنت الى خطته مع محمد باش حامبة . ذلك أننا نجدها تقدم الاعتذار الى السيد برتون الذي ألح على منح الثعالبي الجواز المطلوب من جهة ، وتسرع من جهة أخرى الى مراسلة الاقامة العامة في 24 جويلية 1920 ، تطلب موقفها من الثعالبي ، وتستوضحها في مسألة تواطئه مع جماعة اسطانبول وبرلين ، فقالت : ((ان السيد برتون الذي قرأ كتاب (تونس الشهيدة)

---

(98) أنظر: - A.Q.O./S.T.1917-40, N°318, Lettre Taâlbi au Président Paris le 26 juillet 1920.

(99) لما تلقى الرئيس الفرنسي رسالة الثعالبي وجهها الى الاقامة العامة بتونس قائلا : ((لست في حاجة الى تفنيد ادعاءات الثعالبي التي شاعت اخطاؤها كثيرا خاصة فيما يخص علاقته بمحمد باش حامبة .)) أنظر: -A.Q.O./S.T.1917-40, N°318, Lettre Président du Conseil, Ministre des Affaires Etrangères à M.De Castillon Saint-Victor, Délégué Résidence Tunis, Paris le6/8/1920, p.84.

(100) انظر: - A.Q.O./S.T.1917-40,N°318, Lettre du Ministre des Affaires Etrangères au Délégué de la Résidence Générale-Tunis, Paris le 24/7/1920.

ويعرف مؤلفه شخصيا ، يلح بحرارة شديدة على أن يمنح (للثعالبي) جواز السفر المطلوب ، وانه (برتون) لا يستبعد كسب مؤازرة الثعالبي (اذا لبينا طلبه) ، ويؤكد بأن سفره سوف لا ينجم عنه أى ضرر ... فهل لديكم أى اعتراض أكيد على منحه هذا الجواز ، وذلك اذا كانت عمليات التفتيش في باريس لم تثبت تواطؤ الثعالبي مع مشاغبي حركة تركيا الفتاة باسطانبول او في برلين ، تواطؤ تنجم عنه متابعات.)) (101)

وكان رد الاقامة العامة على رسالة الرئيس الفرنسي ، بتاريخ 28 جويلية 1920 في اليوم الذى ألقى فيه القبض على الثعالبي بباريس بأمر من رئيس المجلس الحربي بتونس (102). فسرد المقيم العام الى الرئيس الفرنسي محتويات جميع الرسائل التي كان الثعالبي يتلقاها من محمد باش حامبة ، والتي كان يؤكد عليه فيها على المطالبة بالاستقلال الكامل والغاء نظام الحماية ومصارحة الشعب التونسي بذلك (103).

---

(101) أنظر: A.Q.O./S.T/1917-40,N°318, Op.cit.

(102) هناك اختلاف في تحديد يوم القاء القبض على الثعالبي ، فأرجعه الرئيس الفرنسي والبرلماني اندرى برتون ، محامي الثعالبي الى 23 جوان 1920 ، وأعاده المقيد بارون ، قاضي تلخيص قضية الثعالبي ، الى 28 جويلية 1920 ، وهو تاريخ مذكرة القبض التي أصدرها قائد قوات الاحتلال . والظاهر أن الثعالبي كان في حالة اقامة جبرية منذ 23 جوان 1920 ، ولم تصدر أوامر القبض عليه الا بعد الاطلاع على مراسلاته واثبات التهمة عليه في 28 جويلية 1920 . أنظر:
A.Q.O./S.T.1917-40, N°318, Lettre Ministre de la Guerre au Ministre des Affaires Etrangères -Paris, le 26/5/1921, lannexe2, Note sur l'affaire Taâlbi, Paris, le 9/5/1921).
Op.cit, Lettre Pd, Ministre A.E. à L.Saint, Rd Gl, Paris le4/4/1921.

(103) ذكر المقيم العام في تقريره انه حجز اكثر من اربعين رسالة في بيت الثعالبي تلقاها من محمد باش حامبة ؛ ولخص منها محتوى ست وعشرين رسالة يقع تاريخها بين 15 سبتمبر 1919 و 18 افريل 1920 . أنظر:
Op.cit., N°318, Lettre N° 820 du délégué Résident Général de France à Tunis, au M.Millérand, Pd du Conseil, Ministre des A.E. -Paris, datée à Tunis, le 28 juillet 1920, lannexe 1, 2 et 31, p. 48-56.

وبينما كان قائد قوات الاحتلال بتونس يلح على سلطات باريس أن تحول الثعالبي الى السجن بتونس لاحالته على المحكمة العسكرية، كان السيد برتون، محامي الثعالبي، يكثف اتصالاته بباريس لمنع هذه الاجراءات . فاتصل بالسيد فيليبيني (Philippini)، مدير القضاء العسكري بوزارة الحربية، وتحصل منه على تأجيل سفر الثعالبي الى وقت لاحق، وذلك باعتبار ان الثعالبي كان يسكن باريس منذ سنة، وهو متابع في فرنسا بمقتضى البند 81 من قانون العقوبات التونسي بتهمة الملاحقة الصحفية واهانة حكومة الباي عن طريق الصحافة . وان هذا النص القانوني له طابع تطبيقي محلي صرف، ولا ينطبق على جرم ارتكب في فرنسا . وبالاضافة الى ذلك فقد حذر برتون حكومة باريس من وقوع سخط شعبي في الاوساط الاسلامية بتونس اذا تم تسليم الثعالبي الى حكومة تونس(104) .

وفي برقية للمحامي برتون أيضا، مؤرخة في اوائل شهر آوت، أعلن فيها سخط مسلمي شمال افريقيا على حبس الثعالبي . وكان البرلمانيان : لو بوك(Leboucq)، وهيريو (Herriot)، يشاطران برتون نفس الرأي . وكذلك تصريح حافظ الاختام بوزارة العدلية بعدم قدرته على البت في الامر، والحاح مدير القضاء العسكري بوزارة الحربية على حكومة تونس في توضيح القضية . غير أن هذه كانت تلتزم الصمت وتطلب باستمرار احالة الثعالبي فورا على تونس . وطالب برتون في الأخير باحترام القانون واطلاق سراح الثعالبي كونه مدنيا لا يمكن لمجلس حربي البت في قضيته(105) .

ورغم ان السيد برتون، محامي الثعالبي، كان يرغب في تدخل الرئيس الفرنسي ومنع احالة الثعالبي على حكومة تونس، وقدم له الأدلة القانونية والقناعات الديبلوماسية، فان الرئيس الفرنسي كان يحيل كل ما يتلقاه عن هذه القضية على الاقامة العامة بتونس وقائد قوات الاحتلال . وكان هذا الاخير مصمما على احالة الثعالبي على المحكمة العسكرية بتونس . فقدم

---

(104) أنظر: A.Q.O./S.T.1917-40, N°318, Lettre Ministre des A.E. Paris au. Délégué Résidence Générale Tunis, Paris le 6/8/1920 p.80-81.

(105) أيضا: - Op.cit., Télégramme adressé par M.Berthon, secrétaire (député) Groupe parlementaire Afrique du Nord, daté le 7/8 (sic) 1920, p.85.

تقريرا الى المقيم العام أثبت فيه التهمة على الثعالبي . وأحاله المقيم على الرئيس الفرنسي في 11 آوت 1920، وجاء فيه أن الثعالبي : ((أحد القائمين والمسؤولين على أعمال ذات طابع يهدد الامن العام . وقد ظهرت هذه الأحداث في شكل مظاهرات ، واضرابات ، واعتداءات ضد المعمرين . ولقد راح الثعالبي منذ أن وقع تفتيش منزله، يتآمر للتوجه لايطاليا . ونستنتج أيضا انه يهدف من وراء هذا السفر . . . الى التشاور مع شريكه محمد باش حامبة . وسيحفظه هذا السفر من المتابعات ، ويجعل العدالة خارج الموضوع ويبعدها عن اكتشاف مراسلاته الشخصية ، وشركائه التونسيين .))

((ويظهر لي ان هذه الادلة كافية لاصدار الأوامر بملاحقته وضمان تطبيقها بسرعة . ان عملية التونسيين المحبين للعدالة والمتنورين منهم ، الذين نعتمد على اخلاصهم ، لم يخفوا علينا تخوفهم من افلات الثعالبي وصحبه من العقاب الذين يريدون خلق حركة ثورية في تونس .)) (106)

ولم تتأخر حكومة باريس ، بعد اطلاعها على هذا التقرير ، في تحويل الثعالبي الى تونس . فزجت به حكومة الحماية في سجنها العسكرى يوم 22 آوت 1920 ، وأصدرت ثلاثة أوامر لاحقة في شأن محمد الرياحي ، وفرحات بن عياد ، وصالح بن يحيى ، ووضعتهم تحت تصرف المحكمة العسكرية بتونس (107) .

وكان الحاج قائد قوات الاحتلال بتونس على ضرورة احالة الثعالبي على المحكمةالعسكرية بتونس ، مبنيا أساسا على قرار 2 آوت 1914 الخاص باقرار الحصار والاحكام الزجرية بتونس، وهو القرار الذى لم يرفع الا في 29 مارس 1921 . غير أن السيد برتون ، محامي الثعالبي ، لاحظ أن هذا القرار كان مقتصرا على القطر التونسي فقط ولا يمكنه الامتداد الى فرنسا التي لها قوانينها الخاصة . وعليه عجز المجلس الحربي بتونس على القضاء في مسألة

---

(106) أنظر : A..Q.O./S.T.1917-40, N°318, Lettre Délégué Rce Gle à M.Millerand, Tunis le 11/8/1920, (annexe1, Lettre Gl Robillot, le 5/

(107) ذكر الرئيس الفرنسي في رسالته الى المقيم العام أن الثعالبي قد ألقي عليه القبض يوم 23 جوان 1920 ، وأحيل على تونس يوم 20 آوت من نفس السنة . ورجحنا التاريخ الذى حدده العقيد بارون لكونه مقرر القضية . أنظر : - A.Q.O./S.T.1917-40, n°319, Lettre Pd Conseil au Rd Gl L.Suint, Paris le 4/4/1921.

- A.M.I./CDN.MN.Tunis, N° 3 3-13, Rap.Baron, p.1- 4

الثعالبي واضح وأكيد (108).

وكان المقيم العام شديد القلق من مسألة (سجن الثعالبي) ، ومصدر تخوفه هو السخط الشعبي . فناشد وزير الخارجية بتاريخ 7 جانفي 1921 ، أن يطلب من حافظ الأختام التدخل لدى وكيل عام محكمة التميز، وبين له مدى أهمية الاسراع في أخذ قرار المحكمة في قضية الثعالبي . وذكر أن سبب هذا التأخر هو جمود التحقيق بعد ارسال ملف الثعالبي الى باريس، وعدم امكانية تدخل المقيم العام لدى قائد قوات الاحتلال بتونس، لانهاء التحقيق، قبل صدور اعلان النقض من طرف محكمة التميز (109) . غير أن الرئيس الفرنسي أعاد هذا التأخر الى كثرة اللجان القضائية التي تداولت القضية (110) .

وبقي الثعالبي رهين السجن العسكري بتونس الى أن انتهت قضيته يوم 27 افريل 1921 (111) ، بأمر من الجنرال روبيو ، قائد قوات الاحتلال بتونس، الذى فصل هذه

(108) أنظر: *A.Q.O./S.T.1917-40, N°319, Note du Chef du Cabinet du Président du Conseil au Chef du cabinet du Ministre des A.E. (Affaire Taâlbi), Paris le 30/3/1920(sic)(1921) (Note sur l'affaire Taâlbi remise par M.Berthon), p.73-74.*

(109) أنظر: *- A.Q. O./S.T.1917-40,N°318, Télégramme Résident Général Tunis à Ministre des A.E. Paris, (a/s Affaire Taâlbi), le7/1/1921*

(110) أنظر: *- Op.cit ., N° 319, Lettre Pd Conseil au Rd Gl, du 1/1/1921.*

(111) كان المقيم العام بتونس حريصا على انهاء (قضية الثعالبي) فكتب الى الرئيس الفرنسي بتاريخ 24 نوفمبر 1920 يقول : ((لم انته، منذ أن بدأ التحقيق في قضية الثعالبي ، عن جلب انتباه قائد قوات الاحتلال الى الاهمية المتعلقة بها بصفة عامة ، والعمل على انهاء التحقيق فيها في أقرب وقت ممكن . وان الجنرال يشاطرني الرأى ولكن عدم وجود مترجم يجيد اللغة العربية من جهة وامتلاك المجلس الحربي بتونس مقررا واحدا من جهة أخرى ، جعل عملية تصفية الوثائق المحجوزة بباريس وتونس ، تسير ببطء . ولا تلبي ما نصبو اليه ، وقد زادت كثرتها الأمر تعقيدا . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان عملية تبديل المقرر القديم ، الذى بلغ السن المحدودة للتقاعد ، تزيد في تأخير التحقيق ، فلا بد لخليفته من التعرف على الملف جيدا .)) أنظر :

A.Q.O./S.T. 1917-40, N°318, Lettre Rd Gl à M. Pd Conseil, Ministre des A.E. , Paris, le 24/11/1921.

القضية في تقرير الى وزير الحربية الفرنسي ،جاء فيه : ((لقد سويت قضية التآمر على أمن الدولة التونسية ،بمقتضى قرار، فيما يخص عبد العزيز الثعالبي ،وقد أوقفت متابعة محمد باش حامبة بمقتضى قرار آخر كونه توفي)) ، ثم قدم الجنرال تفسيرات لقرار العفو المأخوذ فقال : ((أثبت التحقيق ان العزم الذى كان معقودا بهدف تغيير شكل حكومة الحماية ، كان قد تم باتفاق أعضاء المجموعة التي تعرف باسم (الحزب الحر التونسي) على رأسهم عبد العزيز الثعالبي ... وقد استقر رأيهم نهائيا قبل اجراء أية متابعة على تقديم العرائض بنية الحصول على دستور لصالح الشعب التونسي ،وذلك رغم اختلاف آراء الاعضاء حول وسائل العمل من جهة والهدف المنشود من جهة أخرى .)) (112)

ولما اتضح أن هذا الاتفاق لم يكن يهدف الى احداث مؤامرة مباشرة ضد أمن الدولة ، ولم يتضمن جريمة التآمر التي ينص عليها القانون (113) ،استنتج الجنرال أن مسألة ايقاف الثعالبي قد انحصرت فقط في قضية نشره كتابه (تونس الشهيدة) المتضمن جريمة اثارة الشغب والاستهانة بالحكومة وادارة الدولة . وانتهى الى أن رفع القضية سيكون اثر مثول شريك الثعالبي السيد احمد السقا (114) .

وكان من أبرز الاسباب التي أدت الى انحصار التهم الموجهة الى الثعالبي في نشر كتابه (تونس الشهيدة) ،هو رفع الحصار على تونس بأمر من الرئيس الفرنسي في 29 مارس

---

(112) أنظر:
- *Op.cit., N°319, Lettre, le Général Robillot, Commandant La Division d'Occupation de Tunisie, à M.Ministre de la Guerre Paris, Tunis le 27 avril 1921,P. 84.*

(113) ينص البند 81 من قانون العقوبات التونسي على معاقبة لمدة خمس سنوات سجنا ،وغرامة مالية قدرها 3000 فرنك ،كل من أحدث الاستهانة بالحكومة وادارة الدولة وتهديد الأمن العام ، إما عن طريق كتاباته المنشورة أو أقوال يدلي بها في التجمعات العامة .للتوسع في تفسير هذه القوانين في (قضية الثعالبي) أنظر:
-Op.cit., N°319,Lettre Ministre de la Guerre à Ministre des A.E., Paris, le 26/5/1921(annexe 1-2).

(114) وجهت سلطة الحماية نفس تهمة الثعالبي الى احمد السقا ،ووقع تفتيش منزله بباريس ، ولم يلق عليه القبض لأنه لم تكن له علاقة بصاحب (جريدة الجامعة) .ولما اتضح للمحكمة انه كان شريكا للثعالبي في اعداد كتاب (تونس الشهيدة) ،استدعته للبحث .ولكن الثعالبي نفى عنه ذلك وأصر على الانفراد بالمسؤولية .فأعفى السقا .طالع تقرير مقرر القضية (العقيد بارون) في :
- *A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° 8 3-13, Rap.Baron, p.1-62.*

1921، دون انتظار نهاية (قضية الثعالبي) التي كانت سلطة الحماية حريصة كل الحرص على أن يتم الفصل فيها قبل رفع الحصار. ويعود الفضل في الوصول الى هذا القرار الى الشيوعيين الفرنسيين، وعلى رأسهم السيد برتون الذى اتخذه الثعالبي محاميا في قضيته. فعبر الشعب التونسي عن ارتياحه لهذا القرار، وتفاءل بقرب ساعة الافراج عن الثعالبي (115).

ولم يتغير موقف الدستوريين من سلطة الحماية رغم حبسها لهم وتقليص نشاطهم. فبقوا على سياسة الاحتجاج وتجنب المصادمة معها. ذلك اننا نجد الثعالبي، أثناء المظاهرات الشعبية التي تلت أزمة تهديد الباى محمد الناصر بالتنازل عن العرش في افريل 1922، ينصح المتظاهرين بالتزام الهدوء والاتحاد وعدم اتباع الشائعات وان لا ينزعجوا من قدوم الفرق العسكرية التي جندتها سلطة الحماية لقمعهم، وأوصاهم بتجنب الضباط العسكريين واحترامهم (116). وقد شرح احمد الصافي في نفس الشهر موقف سلطة الحماية من الدستوريين، وبين ردود فعل حزبه، فقال : ((ألا تلاحظون موقف الحكومة التهديدى ؟ لقد احضرت الفرق العسكرية. هل كانت تظن أننا نريد الحرب، وقد حفرنا لها الخنادق ؟ اننا ننتظر بفارغ الصبر ماذا ستفعل بهذه العساكر، ونشدد الالحاح على التزام الهدوء التام. واذا ضربنا، فتلك حجة جديدة على احتجاجاتنا.)) (117)

وكانت سلطة الحماية محولة على قمع الدستوريين الذين نظموا تلك المظاهرات الصامتة، وعذرها في ذلك حماية الباى وحفظ أمن الدولة. فاخترقت القوات العسكرية صفوف المتظاهرين، وضربتهم بأخمصة البنادق، وجرحت بعضهم، وألقت القبض على

---

(115) أنظر: -A.Q.O./S.T.1917-40, N°319, Lettre Pd.Conseil au Rd Gl, Paris le 4/4/1921.

(116) أنظر: -Kraïem, Nat.Synd, p.221.

(117) أنظر: - Loc.cit.

بعضهم الآخر وسجنتهم [118] . وأشاعت سلطة الحماية في تقاريرها الى حكومة باريس ان تونس تعيش حالة هيجان وثورة، تتطلب استقدام فرق من العساكر الكافية لاطفائها [119] .

ولم يستجب الشعب الى هذا القمع الذى سلطته عليه سلطة الحماية . ويعود الفضل في ذلك الى الخطب التي كان يلقيها الدستوريون الذين احتاطوا بتجمعات المتظاهرين يدعونهم الى التزام الهدوء . وعلقت جريدة الأمة الصادرة في 9 افريل 1922 على عدم رد فعل الشعب على ضربات العساكر الخيالة والمشاة، فقالت انها محاولات قرنت بالخيبة ،أظهر الشعب خلالها رصانة لم يكتسبها الاوروبيون [120] ! غير ان الحقيقة تعبر عن مدى نفوذ سلطة الحزب الدستورى في الأوساط الشعبية من ناحية وتوضح سياسة تجنب الاصطدام التي اتبعها من ناحية اخرى . فتجنب ايقاع الضرر بالشعب لأنه يعلم ان سلطة الحماية لا ولن تتردد في قمعه . وربما يرجع هذا التصرف الى حنكة رجال الحزب وتجربتهم السياسية بأخذهم العبر من أحداث الزلاج التي مرّ ذكرها .

وقد ضيقت سلطة الحماية الخناق على الحزب الدستورى من جميع النواحي وأرادت عزله . فبالاضافة الى الضغوط التي سلطتها على الباى للقضاء على الحزب فاننا نجدها تحاول عزله ماليا عن الشعب وتقطع رزقه منه . وأصدرت في بداية جوان 1922 قرارا يمنع عمليه جمع التبرعات بدون رخصة مسبقة منها . ولم يكن للحزب في هذه الفترة مصدر مالي غيرها ، مما اضطر الشيخ الثعالبي الى الاجتماع بلجنة (الجمعية الخيرية الاسلامية) التي كان جل اعضائها دستوريين مخلصين للقضية التونسية ، ويتفق معهم على جمع الأموال باسم جمعيتهم ، واستغلالها لصالح الحزب الدستورى. ولكن الصحافة الفرنسية الاستعمارية كانت لهم بالمرصاد . ولما كانت تعلم ان السلطة

---

(118) كان من بين الجرحى المسمى محمد الصالح العيارى ومحمد العيد الزهاني الذى كان يحمل العلم التونسي ، فافتكمن يده مدير المحافظة وأخذه الى السجن . أنظر: أ . و . ل ، ت . ق/ح . و . تونس ، رقم 23–4 ، 3 (الامير يؤيد الامة ...) ، جريدة العصر الجديد ، الصادر في 15 افريل 1922 .

(119) نفس المصدر .

(120) أ . و . ل ، ت . ق/ح . و . تونس ، رقم 23–4 ، 8 (اشاعة تنازل الملك ...) ، جريدة الأمة ، عدد 27 ، في 19 افريل 1922 .

لا تستطيع منع التبرعات الخيرية ، طلب منها تشديد الضغط والمراقبة على الجمعية ، وضبط حساباتها حتى لا يفلت منها أى درهم لصالح الدستور ، وأن تستعين على ذلك بأعضاء الجمعية غير الدستوريين (121) .

وقد استجابت سلطة الحماية لطلب الصحافة الاستعمارية ، بما جعل الشيخ الثعالبي يوجه أنظاره الى الجمعيات الاسلامية في الخارج . فراسل (الجمعية الاسلامية بلندن) بتاريخ 25 نوفمبر 1922 ، يطلب منها اعانة مالية للحزب الدستورى التونسي . ولكن سلطة الحماية كانت تتابع جميع خطواته . وطلبت من حكومتها بباريس العمل على ايقاف هذه الاعانة المالية . وكتب الرئيس الفرنسي الى سفيره بلندن السيد دى سان أولار (*De Saint-Aulaire*) بتاريخ 28 ديسمبر 1922 يلح عليه في منع وصول الاعانة من هذه الجمعية الى الحزب الدستورى . وبقي الحزب الدستورى يعاني أزمة مالية فعلية أثرت على نشاطه الصحفي والسياسي (122) .

وكان الخناق مشددا على رجال الدستور في فرنسا وتونس ، فاقتصر نشاطهم على ارسال الوفود الى باريس ، والعمل الصحفي بتونس . وبالاضافة الى ضعف نشاطهم ، فان صفوفهم قد انقسمت بين معتدلين قابلين للاصلاحات الفرنسية ، ومتطرفين رافضين لهذا وذاك ، باعتبار هذه السياسة في نظرهم تهدف الى الحاق تونس بفرنسا (123) .

---

(121) أنظر : - A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° A 5-14, (le Parti Jeune Tunisien), La Tunisie française,,du 10/6/1922.

(122) أنظر : - A.Q.O./S.T.1917-40, N°319, Lettre Pd du Conseil, Ministre des A.E. à M.De Saint-Aulaire, Ambassadeur de France à Londres, Paris le 28/12/1922, (a/s d'un Appel du Cheikh Taâlbi et des Jeunes Tunisiens à la Société Musulmane de Londres)p.224.

(123) مما يدل على تشدد السلطة الفرنسية في مراقبة التونسيين حتى المعتدلين منهم ، طلب الرئيس الفرنسي من وزارة الداخلية مراقبة الشيخ عمر بكوش ، لما سافر في هذا الحين الى باريس من أجل التداوى . وأصبح فيما بعد عضوا في المجلس الكبير . أنظر : - Op;cit., Lettre Ministre de l'Intérieur à M. Pd Conseil, Ministre des A.E., Paris le 4/7/1922, (a/s du né Amor Baccouche), p. 197.

وكان الدستوريون ساخطين على اصلاحات 1922 الفرنسية ،فاضطهدتهم سلطة الحماية وضيقت عليهم ووسعت هوة الشقاق بينهم وبين التيار المعتدل . واضطر الشيخ الثعالبي الى الهجرة الى المشرق في صيف 1923 . ولكن متابعة السلطة الفرنسية له لم تنته عند الحدود التونسية ، بل تعدتها الى كل بلد حل به . فلم يكد يستقر بمصر ، التي وصلها من ايطاليا مرورا بالآستانة (124) ، حتى وضعته السفارة الفرنسية هناك تحت مراقبتها بأمر من وزارة الخارجية الفرنسية . ولما عزم على مغادرة مصر الى سوريا ، كتبت السفارة الى المحافظة الفرنسية العليا ببيروت تعلن لها سفر الثعالبي عن قريب قاصدا بغداد مرورا بسوريا . فأبرق محافظ بيروت السامي (ريفاي Reffye) الى وزير الخارجية الفرنسي ، بتاريخ 19 افريل 1924 ، يستأذنه في نفي الثعالبي ((غير المرغوب فيه)) الى مرسيليا (125) . فرد عليه الوزير بتاريخ 22 افريل 1924 يقول : ((ان وجود الثعالبي بمرسيليا وتونس يحدث لنا اضطرابات اكثر مما هو عليه الأمر في المشرق ، وليس بالامكان ارساله الى مرسيليا . واني لا أعارض سفره الى بغداد وانما يجب اعلام السيد ميجرى (Maigret) ، (ممثل فرنسا في بغداد) . واني آذن لكم بنفي الثعالبي من سوريا اذا كنتم تعارضون وجوده بها .)) (126) وكانت الأوامر التي اتخذت في شأن الثعالبي ، والاخبار التي تجمع عنه ، تبرق كلها فورا الى المقيم العام بتونس (127) .

وكانت الصحافة الاستعمارية تتابع خطواته اينما حل . فكتبت جريدة (الصباح الصغير) بتاريخ 18 جوان 1924 ان الشيخ الثعالبي قد ترك ((كرم التونسيين)) وتوجه الى ايطاليا ولم ينشط بها كثيرا حتى توجه الى الآستانة ، فتكدر عليه الجو بها ، فخرج

---

(124) نلاحظ ان الثعالبي نفي في نفس السنة التي نفي فيها الامير خالد ، وسلك نفس الطريق التي سلكها ، ايطاليا ، مصر ، الشام . أنظر :
- A.M.T./CDN/MN.Tunis, N° A 1-60, (La France et les dif. Tun.), p. 673-675.

(125) أنظر :
- A.Q.O./S.T.1917-40, N° 319, Télégramme Haut Commissaire (français) Beyrouth (M. De Reffye), à Ministre des Affaires Etrangères Paris, Beyrouth le 19/4/1924, (a/s du Tunisien Abdellaziz Taâlbi), p. 242.

(126) أنظر :
- Op. cit., Télégramme Ministre des Affaires Etrangères Paris à Haut Commissaire Beyrouth, Paris le 22/4/1924 (analyse a/s Taâlbi), p. 243.

===

منها الى مصر ولم يستقر بها كثيرا وبارحها الى فلسطين ،حيث اثنت عليه الصحافة العربية هناك وأبرزته شهيد تصرفات الادارة الفرنسية بتونس (128) .

وقد نشط الثعالبي كثيرا في التعريف بمساوىء الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي عموما وفي تونس خصوصا ، في مجالس العلماء والمسلمين الذين اجتمع بهم في مصر والشام والعراق . وذلك بالاضافة الى خطبه في النوادى والمساجد ،ومقالاته الصحفية . وسنتعرض الى بعض هذه الاعمال في فصل آخر .

هذا فيما يخص متابعة السلطة الفرنسية بباريس وتونس لنشاط الثعالبي في الخارج . اما في الداخل فبالاضافة الى الضجة التي أحدثتها اصلاحات جويلية 1922 في الاوساط الشعبية ،وانقسام الحزب الدستورى على نفسه بين مقاطعين للانتخابات ومشاركين فيها ، فان سلطة الحماية وضعت سنة 1923 مشروع قانون التجنيس بالجنسية الفرنسية (129) . فأثارت هذه العملية رجال الحزب الدستورى وأقعدتهم ، ونظموا حملة احتجاجية ضدها في آوت 1923 . وكتب صالح فرحات ، عضو اللجنة التنفيذية للحزب ، تقريرا عن ذلك أرسله الى البرلماني الشيوعي الفرنسي ، السيد فايان كوتوريي (*Vaillant Couturier*) ،وأرفق له احمد الصافي ،أمين الحزب العام ، رسالة طالبه فيها بأخذ القضية بقوة ،ومساندة الحزب الدستورى في البرلمان والصحافة الفرنسية . وعمل الحزب الدستورى على ابعاد التونسيين عن الجنسية الفرنسية ،

---

(127) === *Op.Cit., Lettre Président du Conseil, Ministre des A.E. à L.Saint, Rd.Gl.Tunis, Paris le 25/4/1924 (Analyse a/sTaâlbi)*

(128) أنظر : *A.M.T./CDN/MN.Tunis N° A 5-14, (Le Cheikh Taâlbi opéré en Palestine), Journal le Patit Matin, du 18 juin 1924*

(129) أنظر : *"Il progetto per l'acquisto della nazionalita francese in Tunisia", Oriente Moderno, anno III, N°4, (15 settembre 1923), p.252-254.*
-"La legge francese 20 dicembre 1923 sull'acquisto della nazionalità francese nella Reggenza di Tunisi", OrienteModerno, anno IV, N° 6, (15 Giugno, 1924), p.354-357.

فشن حملة صحفية واسعة ضد هذا المشروع ،واعتبر كل متجنس هو ((جثة قذرة)) لا يجوز دفنه في مقبرة المسلمين ذلك ان التجنس بالجنسية الفرنسية هو خروج من الملة المحمدية (130) .

وفي الحقيقة ان مشروع التجنيس هذا له أكثر من هدف ، فزيادة على أنه خرق للشريعة الاسلامية واخضاع المسلمين الى قوانين وضعية ، وادماجهم في مجتمع كافر، فان الهدف الأسمى هو القضاء على مقوماتهم الشخصية كاللغة والدين والقيم ، واستلابهم الروحي . فيصيرون جثثا هامدة تقودها المادة الحيوانية الى دائرة الالحاد ، ويترتب عن ذلك كله زوال روح المقاومة والشعور الوطني .

واستمرت احتجاجات الدستوريين على مشروع التجنيس من ناحية ، ومها جمتهم للمتجنسين من ناحية أخرى . فكتب احمد الصافي رسالة احتجاج الى الرئيس الفرنسي بتاريخ 2 اكتوبر 1923 ، وبعد ان أوضح له السخط الشعبي العميق على هذا المشروع اثر مصادقة البرلمان الفرنسي عليه ، باعتباره يقضي على دين التونسيين ووطنيتهم ، أكّد له ان المعاهدات المبرمة بين الباي التونسي والحكومة الفرنسية تلتزم باحترام الشخصية القضائية التونسية باعتبار تونس بلدا محميا فقط ، واحترام دينه الاسلامي ، ((وان مشروع التجنيس يهدد الاسلام في هذه البلاد ، وعليه فهو خرق مزدوج للمعاهدات .)) (131)

وكان هذا المشروع سيفا ذا حدين ، موجها أساسا ضد الشعب للقضاء على شخصيته الوطنية والاخلاقية ، وضد الحزب الدستوري لاحداث الشقاق في صفوفه . وجاء مكملا لعملية اغراء المعتدلين المنخرطين في انتخابات المجلس الكبير . وبما أن النخبة التونسية المثقفة كانت اما ذات ثقافة عربية اسلامية خريجة جامع الزيتونة واما ذات ثقافة غربية فرنسية خريجة مدارس ومعاهد باريس ، فان السلطة الفرنسية

---

(130) أنظر: Kraïem, <u>Nat.Synd</u>, p. 258-59 -

(131) <u>نفس المصدر</u> .

قد عملت على امتصاص الفئة الثانية المثقفة ثقافة أوروبية ، والقضاء على الفئة الأولى ذات الثقافة العربية الاسلامية ، وذلك لشل الحركة الوطنية • غير أن النخبة ذات الثقافة الأوروبية لم تكن كلها مسلوبة الشخصية الوطنية ، فمنها من قبل التجنس بالجنسية الفرنسية ومنها من رفض • والسبب في ذلك هو تفاوت حظوظ أعضائها من التعليم العربي الاسلامي بين المتين والمهلهل •

وقد أحدث هذا الاختلاف هجومات عنيفة بين المتجنسين — وجلهم من الموظفين في الادارة الاستعمارية — والدستوريين ، مما أدى بالمتجنسين الى التكتل في شكل جمعية للدفاع عن كيانهم • وعقدوا اجتماعا لهم يوم 16 اكتوبر 1924 ، وقرروا تأسيس (جمعية المسلمين الفرنسيين) هدفها ربط صلة المتجنسين ، ومدّ يد المساعدة المعنوية والمادية للمستحقين منهم ومساعدتهم على اعتناق الجنسية الفرنسية ، والدفاع عن حقوقهم السياسية والاجتماعية ، والعمل على نشر الدعاية في الأوساط الشعبية للاكثار من عدد المنخرطين في الجمعية وتعريفهم بكرم الجمهورية الفرنسية (132) • وقد استقبل المقيم العام أعضاء هذه الجمعية وبارك عملها •

غير ان هذه الدعوة الى التجنس لم تنجح لا من ناحية الحماية ولا من ناحية محبي التفرنس التونسيين • ولعل الفضل في ذلك لا يعود فقط الى الدعاية الواسعة التي قام بها الحزب الدستوري ، وانما ايضا الى تمسك الشعب التونسي بأصالته العربية الاسلامية •

ولم تكن عملية التجنيس هذه هي الفريدة من نوعها لمحاولة القضاء على الشخصية التونسية العربية الاسلامية ، وانما هناك مشروع آخر وضعته سلطة الحماية في صيف 1925

---

(132) منحت رئاسة (جمعية المسلمين الفرنسيين) الشرفية الى المقيم العام ، وكان مقرها بمنزل رئيسها المحامي قبائلي عبد القادر ، ومن اعضائها مصطفى شرباجي ، فرناند مدلجي ، قاسم بن علي ، قاسم آيت ، محمد تركي ، طيب مطهري • انظر: -Kraiem, Nat.Synd., p.269-277.

أرادت من ورائه تغيير القضاء الاسلامي بتونس الى قضاء مختلط بين التونسيين والفرنسيين[133] وتنصيب رئيس فرنسي في دائرة التعقيب من العدلية التونسية . فاعتبره الحزب الدستوري مسا بالشخصية التونسية المكفولة بالمعاهدات[134] . فوجه الحزب نداء الى الشعب التونسي يدعوه الى الاحتجاج على هذا المشروع الجديد الذى يهدف الى القضاء على كيانه والمس بكرامته . واستجاب الشعب للنداء ، وأغلقت أغلب محلات التجارة بمدينة تونس ، و بنزرت ، وصفاقس ، وسوق الخميس . واجتمع الدستوريون بالشعب في المقر المركزى للحزب ، ومقر شعبه ، وأجريت احتجاجات أخرى في بعض مساجد المدينة تم خلالها شرح أهداف القوانين الاستعمارية الهدامة ، وحذر فيها الشعب من عواقبها السيئة على الكيان التونسي و شخصيته الاسلامية . و بعد هذه التجمعات والشروح كوّن الحزب الدستورى وفدا و تقدم بعريضة احتجاج الى المقيم العام بتونس ، ولكن هذا رفض استقبال الوفد[135] ، فاضطرت لجنة الحزب التنفيذية الى توجيه برقية الى كل من رئيس الوزراء الفرنسي ووزير خارجيته ، نشرتها جريدة (لسان الشعب) يوم 15 جوان 1925 . وأكد فيها الحزب على استنكار الشعب التونسي لهذه القوانين واعتبارها مساسا بسلطة الباى المحفوظة بالمعاهدات . وقد اعتبر الحزب هذا المشروع صادرا عن سلطة الحماية بتونس ، ولا علاقة لحكومة باريس به ، ولذلك جاء في البرقية المذكورة انه بالرغم من أن حكومة الجمهورية طمأنت خواطر الشعب التونسي بحفظ العدلية ، فان السلطة المحلية قد أرادت الاستفادة من كون الحكومة مشغولة لتضرب العدلية التونسية وتجعل حكومة باريس والشعب التونسي امام أمر مقضي دون مراعاة ما عساه أن يقع بوسط الشعب التونسي . ثم ختم الحزب برقيته بأن هذا المشروع مضر أيضا بمصالح

---

(133) نفس المصدر ، ص 175—176 .

(134) أ . و . ت ، م . ت . ق / ح . و . تونس ، رقم 60—1 A ، (الحزب الحر الدستورى يحتج ضد مس الذاتية التونسية في القضاء التونسي) ، جريدة لسان الشعب ، الصادرة في 15 جوان 1925 .

(135) أنظر : Kraiem, Nat.Synd., p.176 -

فرنسا — التي تريد صداقة الشعوب الاسلامية والتي كانت قد وعدت التونسيين باحداث اصلاحات حرة — و بمصالح تونس التي تترقب بفارغ الصبر انجاز الاصلاحات المطلوبة (136).

و تصدت سلطة الحماية الى هذه الحملة ، فشددت القمع على الدستوريين ، ونفت بعضهم الى الجنوب التونسي و بعضهم الآخر الى الجزائر كاحمد توفيق المدني ، وعبد الرحمن اليعلاوى ، باعتبارهما جزائريين . وكانت قد أبعدت قبل ذلك الشيخ ابراهيم اطفيش الى القاهرة سنة 1923 (137) . ولم يقتصر الدستوريون في الدفاع عن زملائهم المنفيين ، اذ نجدهم — زيادة على ما كانوا يكتبونه عنهم في صحافتهم (138) — يغتنمون فرصة اجتماعهم بالباى محمد الحبيب في شهر رمضان ، صيف 1925 بجامع الزيتونة ، ويقدمون اليه عريضة و يطالبونه فيها بالافراج عن المبعدين الا أن سلطة الحماية لم يرضها هذا التصرف ، فأبعدت بعض زعماء الحزب الآخرين الى الجنوب التونسي وكان من بينهم محيي الدين القليبي (139) .

واذا كانت سلطة الحماية قد ضيقت على رجال الحزب الدستورى بالنفي والابعاد فانها كانت قد ضيقت أيضا على صحافته العربية . فبعد أن أوقفت جريدة (الصواب) في 5 افريل 1922 لنشرها خبر تنازل الباى محمد الناصر عن العرش ، جاء دور جريدة (العصر الجديد) في 22 فيفرى 1924 اثر محاكمة رئيس تحريرها محيي الدين القليبي ، و جريدة (افريقيا) سنة 1925 وغيرها (140) .

ورغم ان القرار الوزارى الصادر في نوفمبر 1921 الخاص بتعطيل صحافة

---

(136) أ . و . ا . ، م . ت . ق / ح . و . تونس رقم 60—1 A ، نفس المصدر .

(137) الجابرى ، ((تونس في نظر الشعراء الجزائريين)) ، الفكر ، عدد 4 (تونس 1984) ص 57—63 .

(138) أبعد احمد توفيق المدني في بداية جوان 1925 لكونه جزائريا ، وكتب في شأنه محيي الدين القليبي مقالا أنكر فيه على السلطة الفرنسية هذا التصرف ، واعتبره اعتداء على حرية المدني وجنسيته . وطلب منها أن ترد المدني الى بلده وأهله . أنظر :
— أ . و . ا . ، م . ت . ق / ح . و . تونس ، رقم 46—2 B ، (احمد توفيق المدني) ، محيي الدين القليبي ، جريدة الوزير ، عدد 185 ، الصادرة في 30 جوان 1925 .

(139) نفس المصدر ، رقم 77—2 B ، (بعد 16 عاما ...) ، بلعجوزة ، جريدة مرشد الامة ، الصادرة في 14 ديسمبر 1936 .

الحزب الشيوعي العربية (كجريدة حبيب الأمة)، قد طبق أيضا على صحافة الحزب الدستوري، فان الادارة الفرنسية قد تعاونت مع الباى محمد الحبيب، وأصدرت قرارا في 25 جانفي 1926، منعت بمقتضاه صدور صحافة الحزب الدستوري العربية (141).

واضطرمت نار الغضب عند رجال الحزب واحتجوا على ذلك، ولكن سلطة الحماية قابلت هذه الاحتجاجات بالتعنت والتمادى في الحد من نشاط الجرائد الحزبية. وعطلت جريدتي (الوزير) و (النهضة) بمقتضى قرار صدر في صيف 1931 اثر الحملة التي شنتها الجريدتان ضد سلطة الحماية، والتنديد بتصرفات الايطاليين التعسفية ضد الشعب الليبي المسلم. ثم جاء دور جريدة (الصوت التونسي) لصاحبها الشاذلي خير الله، كاتب القلم الفرنسي للحزب الدستوري، وذلك عند كتابته مقالا بعنوان "الربا، واجراءات القرض"، قذف فيه المدرسين المسلمين بتونس. واستدعته المحكمة التأديبية، صحبة مساعده بشير بن ياسين، يوم 8 جوان 1931 لاستجوابهما (142).

وقامت قيامة الحزب الدستوري، وهاجت صحافته احتجاجا على قرار 1926، ووصفته بالغدر والاثم. وثارت ثائرة المسلمين التونسيين وأغلقوا محلات تجارتهم، واحتشدت جماهير غفيرة حول قصر العدالة احتجاجا على هذه التصرفات، وفتحت الاكتتابات وجمعت التبرعات لصالح الصحف المتهمة. وتلقى الشاذلي خير الله برقية تعاطف ومساندة من طرف الطلبة التونسيين بباريس. وكان موقف السلطة الفرنسية كعادتها

---

(140) ابن قفصية، أضواء على تاريخ الصحافة، ص ص 21-30 و122.

(141) عن هذا القرار أنظر:
- " *La législation tunisienne sur la presse et les délits politiques*", *Afrique française,-Renseignements -Coloniaux*, N°2 bis (1926), p.100-103.
- E;Rossi, "*Notizie Varie: III .Tunisia* ", *Oriente Moderno*, N°6; anno VI, (Giugno 1926), p. 329-333.

(142) أنظر:
- A.O.M./A.E.P. 27H4, *Ministre de la Guerre, Etat-Major de l'Armée, Section d'Etudes Afrique, Orient, Colonies; Bulletin des Renseignements des questions Musulmanes, N°1907. 9/11, Paris le 7/8/1931, (les incidents de Tunis)*.

القمع والارهاب • فحشدت قواتها العسكرية وحاصرت المحتجين ولم تقع اى حادثة حسب تقرير هيئة الاركان الحربية الفرنسية (143) .

وذكر نفس التقرير أن الشاذلي خيرالله قد أحيل ،صحبة مساعده ،امام المحكمة وكان من المقرر أن يحضر السيد توريس (*Torrès*) الشيوعي الفرنسي من باريس يوم 20 جوان 1931 للدفاع عن المتهمين ،ولكنه لم يحضر لانشغاله في مهام سياسية ، وجاء بدله الاشتراكيان بارجرى (*Bergerey*) وموتي (*Moutet*) •وبعد المداولة ، أجلت القضية الى 4 جويلية من نفس السنة (144) .

ولم تكن علاقة الحزب الدستورى بالاشتراكيين الفرنسيين جديدة (145) • وقد تجددت هذه العلاقة خاصة بعد سنة 1927 عند ظهور بعض الدستوريين الجدد كالشاذلي خيرالله والحبيب بورقيبة والطاهر صفر• وكتبت دورية الاركان الحربية الاستعلامية في 9 جوان 1932 ان السيد اندرى فيليب (*A.Philipp*) ، الزعيم الاشتراكي ، قد زار تونس وألقى خطبة باسم (الجمعية العالمية للنساء من أجل السلام والحرية) ، واعتبر ان الاستعمار ظاهرة رأسمالية ذات وجهين :واحد حسن والآخر سيء• واستخلص نوعين من المستعمرات : الاولى ذات شعب بدائي يجب أن يخضع الى نهضة تقومه، والثانية ذات شعب متطور يجب أن ينظم ليس على النمط الغربي ، وانما على طريقته الخاصة • وانتهى الى أنه ليس هناك حل لهذا الشعب المتطور الآ التمتع بالاستقلال الذاتي داخل الحياة الدولية (146) .

---

(143) نفس المصدر.

(144) أنظر *A.O.M./A.E.P. 27H4, Op.cit*

(145) تعرضنا الى هذه العلاقة في الفصل الاول في بداية تأسيس الحزب الدستورى ،نظرا لمساندة الاشتراكيين والشيوعيين الفرنسيين له وخاصة عند محاكمة الشيخ الثعالبي ونشر كتابه (تونس الشهيدة) •

(146) أنظر: - *A.O.M./A.E.P. 27H5, Ministre de la Guerre, Etat-Major de l'Armée, Bulletin de Renseignements, Paris, le 9/6/1932, (Visite de M. André Philipp à Tunis).*

وليس هذا المفهوم غريبا لدى الاشتراكيين الفرنسيين ،فهم يرون ان مهمتهم هي تحرير العامل والفلاح التونسي والفرنسي معا • وقد اتبعوا هذا الاسلوب مع الجزائريين ايضا • وجاء تصنيف السيد فيليب مطابقا لما قاله ماركس في حق الشعوب المستعمرة التي عبر عنها (بالهمج) •

وقد ناقش الدستوريون الحاضرون أفكار السيد فيليب • وجاء في تدخل الحبيب بورقيبة ، ((ان الدولة مع الرأسمالية فيما يخص الاستعمار لكي تضطهد التونسيين وتطردهم • وهكذا يجب أن نفرق بين فرنسا المدرسة ،والأدب ، والتاريخ ، وبين الحكومة الفرنسية التي هي نصيرة الرأسمالية وحاميتها ، وتفرض علينا نحن الاجراءات الاستغلالية المملاة من طرف الشركات الكبرى •)) وندد الطاهر صفر بالاستعمار المتباهي بتعاليه العرقي ومحدث الظلم والطغيان ،وهو ما يجب على الاشتراكية أن تفهمه للشعوب (147) • وفرق الشاذلي خيرالله بين الاشتراكية الفرنسية والاشتراكية التونسية ، اذ تستمد الاولى مبادئها من المذهب الماركسي ، أما الثانية فما هي — في نظر أبرز الزعماء — الآ تسوية بين الوطنية والاشتراكية • ذلك ان الاشتراكية التونسية ما هي الا رد فعل شعب اغتصبت حريته وسيادته الوطنية • وعلى ذلك فان المسألة التي تفصل بين الاشتراكيتين تنحصر في اختلاف فهم مستقبل البلاد التونسية التي يراها الدستوريون (بلادا حرة) ،وتراها الشعبة الاشتراكية الفرنسية (ولاية فرنسية) (148) .

ونلاحظ ان الحبيب بورقيبة قد اتفق مع الطاهر صفر في أبراز سياسة التعاون مع الفرنسيين ،واعتبار الاستغلال الاستعماري هو العدو الوحيد • ولعل هذه هي بداية تفكير بورقيبة في الانفصال عن الحزب الدستوري ،واستقلاله بفكرة التعاون وتخليه عن المطالبة بالاستقلال الكامل ،الذى عبر عنه " بالفكر العقيم " •

---

(147) نفس المصدر •

(148) أنظر: - A.O.M./A.E.P. 27H5, Op.cit.

وفي 11 آيت 1933 تقلد السيد بيروتون مهمة مقيم عام بتونس (149) . ففتح عهده بعدة اصلاحات منها ارتقاء التونسيين الى الوظائف العامة ، و تطبيق قانون ثماني ساعات عمل ، وانشاء مقبرة في تونس خاصة بالمسلمين الفرنسيين (150) . و ثارت ثائرة الشعب التونسي ضد هذه المقبرة بتحريض من الحزب الدستوري . وقامت مظاهرات كبيرة تزعمها الطلبة التونسيون كان أخطرها تلك التي وقعت يوم 7 آيت 1933 في مدينة المنستير ، حين دفن ابن أحد المتجنسين في مقبرة المسلمين . واشتد الهيجان الشعبي وازداد عنفا خاصة عند تدخل القوات العسكرية بالسلاح لقمع المتظاهرين وانتهت الأحداث بقمعهم واصدار عدة قرارات منها عزل قائد مدينة المنستير ، السيد حسن السقا ، من مهامه . كما اتخذت اجراءات اصلاحية كانت كلها في صالح المعمرين و تنمية زراعتهم . فشرع في انشاء صندوق للقرض العقاري والقروض الخاصة بالمزارع توزع على الفلاحين الذين سددوا قروضهم المادية (151) .

هكذا كانت سياسة الحزب الدستوري قائمة على التعاطف مع حكومة الباى ، وعلى احترام العائلة الحسينية حتى لما ناصبته هذه العداء . فقد ساند الباى محمد الناصر القضية الدستورية و تبناها بصراحة حتى كادت تكلفه عرشه . ولعل المكائد التي وضعتها سلطة الحماية للباى هي التي أودت بحياته في ظروف كان الحزب في أشد الحاجة فيها الى أمثاله .

و بينما كان محمد الحبيب منتسبا للحزب صراحة قبل توليه العرش نجده قد ناصب الحزب العداء مباشرة غداة توليه مما أدى الى تشتيت جهود الحزب وهجرة زعيمه الثعالبي . ومع ذلك فان الحزب بقي متمسكا بوفائه للعرش الحسيني باعتباره رمز الوحدة الوطنية .

---

(149) كان السيد *Beyrouton* يشغل منصب كاتب عام لحكومة الجزائر العامة ، ثم عين مقيما عاما بتونس بمقتضى قرار صدر في 29 جويلية 1933 . أنظر :
A.O.M./A.E.P. 27H5, Ministre de la Guerre, Etat-Major, Bulletin de Renseignements , questions Musulmanes, Paris, le 14/10/1933 (Tunisi

(150) نفس المصدر .

(151) نفس المصدر .

ومن ناحية أخرى واجه الحزب سلطة الحمـاية ووقف منها موقـفا معاديا أحيانا وحـذرا أحيانا أخرى ، وحاول تغيـير نظامها والتقليل من تعسفها . وقد اعـتبرها نـظاما جائرا ظالما ،لذلك كان يفرق بينها وبين حكومـة باريس التي ركز أنظاره نحوها ، واستعان بالبرلمانيين الفرنسيين ،خاصة ذوي الاتجـاه الانساني . وسيأتـي الحديث عن نشاط الحزب الخارجي في فصل لاحـق .

الفصــــل الرابــع

سياسة الحزب الداخلية : الأحزاب والجمعيات

١- مع الحزب الاصلاحي
٢- مع الحزب الحر المستقل
3- مع الحزب الدستوري الجديد
٤- مع جمعية عموم العملة التونسيين.
5- تأسيس الجمعيات.
٦- مع الطائفة اليهودية.

نودّ أن نتعرض في هذا الفصل الى سياسة الحزب الدستوري مع الأحزاب والجمعيات التونسية، وموقفه من الطائفة اليهودية. فلقد خرج عليه الحزب الاصلاحي سنة 1921 بزعامة حسن قلاتي، واستقل عليه الحزب الحر المستقل سنة 1922 بزعامة فرحات بن عياد، وانشق عليه الحزب الحر الدستوري الجديد سنة 1934 بزعامة جماعة جريدة (العمل التونسي) وعلى رأسهم الحبيب بورقيبة. واذا كان الحزب الدستوري قد لقي صعابا كثيرة كادت أن تقضي عليه من جراء انشقاق هذه الاحزاب ، ترى ماذا كانت علاقته بجمعية عموم العملة التونسيين والجمعيات الأخرى التي بعثها هو نفسه الى الوجود أو ساهم في ايجادها مع بعض الهيئات الأخرى ؟. ذلك ما سيتضمنه هذا الفصل.

1- مع الحزب الاصلاحي :

لقد بدأت بوادر الانشقاق داخل الحزب الدستوري تبرز ابتداء من شهر مارس 1921، وذلك حين ظهر حسن قلاتي على رأس جماعة منشقة، عرفت فيما بعد (بالحزب الاصلاحي) . وانضم اليه كل من كان لا ينسجم مع أفكار الدستوريين، ولم يكن يؤمن بما جاء في كتاب (تونس الشهيدة) [1] كونه يرغم الفرنسيين على التجنس بالجنسية التونسية قبل الانضمام الى المجالس المحلية [2] .

---

(1) كان من بين أعضاء هذه الجماعة محمد نعمان، وعكاشة، والصادق الزمرلي، ومحمد بن عروس واحمد بن محمد بورقيبة، وعلالة جمعة، والحاج محمد سيالة، وآخرون من عائلة حسونة وغيرهم. وكانوا كلهم محامين، ووكلاء ومِلاكا، وموظفين. أنظر :

Kraïen, <u>Nati. Synd.</u>, p.312-315.

(2) أنظر : A.O.M./A.E.P. 27H1, Op.cit.

وكانت هذه الجماعة تهدف الى فتح أبواب العمل للتونسيين ،وتحقيق السلام ،و شرعية امتلاك تونس – في يوم ما – مؤسسات بلد حر ومستقل يتمتع ببرلمان تشريعي يتكون من تونسيين وفرنسيين منتخبين ،وحكم تنفيذي يعين بموافقة الشعب ومسؤول امام الرأى العام ،و تحقيق حكم ذاتي فرنسي تونسي يجعل تونس من أغنى الدول المرتبطة بالجمهورية الفرنسية . وأكدت هذه الجماعة ان هذه السياسة لا يمكن لها أن تتحقق الآ في اطار المراحل التدريجية المتعاقبة والمتسعة . واعتبرت برنامج الدستور غير واقعي لا يتناسب مع الظروف الحالية لتونس (3) .

ولعل هذه الجماعة قد اغتنمت رد المقيم العام لوسيان سان على مطالب الحزب الدستورى في جانفي 1921 ،اذ قال انها معارضة لنظام الحماية . فاعتبرت هذه الجماعة برنامج الحزب عقبة في وجه كل تفاهم مع السلطة ،ودافعا لتشددها ورفضها مطالب التونسيين . وهذا ما جعل قلاتي يتنازل عن مبادئ الحزب الرئيسية وينادى بتكوين مجلس استشارى يتكون من أعضاء تونسيين وفرنسيين على السواء ،وركز في برنامجه على المسائل الاقتصادية والتعاون مع الفرنسيين (4)

وقد وجهت هذه الجماعة ضرباتها الى الحزب الدستورى وطعنت في برنامجه وشخصياته وتمادت في ذلك خاصة لما خرج الشيخ الثعالبي من سجنه في ماى 1921 . فهاجمته في فصول ساخرة في جريدة (المضحك) (5) و(الزهرة) . ولكن الشعب التونسي بقي ملتفا حول الحزب الدستورى ولم ينخدع لما كانت تنشره جماعة حسن قلاتي واعتبرها لعبة في يد سلطة الحماية تدعو الى الهزيمة ،و تعتمد على مبادئ وخطط مزيلة وضعتها سلطة الحماية لايجاد الخصومة واحداث الشقاق في صفوف الحزب الدستورى (6) .

---

(3) أنظر: *Kraïen, Op.cit.*

(4) أنظر: *A.O.M./A.E.P. 27H1,Op;cit.*
Mahjoubi, Les Origines, p.276-280

(5) أنظر: *A.O.M./A.E.P. 27H1,Op.cit.*

(6) درمونة ،ص 14–15 .

وكانت لهذه الأوصاف صبغة صحيحة، لأن المقيم العام قد كاتب وزارة الخارجية في نفس السنة يقول : انه من المفيد أن نستغل اتجاه هؤلاء المستورين لكي نخلق انقساما وانشقاقا في صفوف الحزب، وإن ذلك لا يخدم سوى مصلحة السياسة الفرنسية (7) .

والواقع ان سلطة الحماية قد استغلت هذا الشقاق فعلا وحولت الصراع بين التونسيين أنفسهم وأراحت نفسها . غير أن الحزب الدستوري كان مستفطنا الى هذه العملية، فعمل على توحيد الصف، واجتمع اعضاؤه في جلستهم بتاريخ 17 آوت 1921، واتفقوا على ايفاد الشيخ الصادق النيفر وعبد الرحمن الكعاك لاستدعاء جماعة قلاتي لحضور مجلس الدستور ومناقشة قضية الخلاف معهم دون المساس بمبادئ الحزب . ولكن حسن قلاتي أكد للوفد موافقته على مبادئ الحزب التسعة ، وامتنع عن الاجتماع مع بعض رجال الحزب الدستوري لاتهامهم له بالتردد على الاقامة العامة (8) .

ورغم ان الحزب الدستوري كان قد بذل جهودا مضنية خلال اجتماعاته في صيف 1921 من أجل جمع الكلمة ، فان جماعة قلاتي قد انتصرت في ضم فئة كبيرة من المستورين الى صفها . ولحسن الحظ لم يكن لها أنصار من الطبقات الشعبية . وقد أسس حسن قلاتي جريدة تنطق بلسان حزبه سماها (البرهان) (9) ، شن فيها حملات واسعة ضد سياسة الحزب الدستوري (10) ، ووصفه بالتطرف والتنازل عن مبادئه الاولى (11) .

وتحول الصراع فعلا الى صفوف التونسيين، خاصة لما ظهرت جماعة قلاتي تحت اسم

---

(7) أنظر Kraïen, *Op.cit*, p.312-315.

(8) المدني ، ص 205—207 .

(9) قال ابوكنانة ان جماعة قلاتي لما لم يقبل احد على جريدتها (البرهان) رغم ما بذلته في بيعها حتى بواسطة باعة الدخان وتوزيعها بالمجان، لجأت الى الاستكتاب بالصحف باقلام اتخذت القذف وسيلة ضد الحزب الدستوري ورجاله . أنظر :
— ابوكنانة ، ص 91—92 .

(10) استغل قلاتي جريدة (تونس الاشتراكية) لرد تهجمات الحزب الدستوري . أنظر :
A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° 8 4-4, (la question tunisienne),
H.Guellaty, *Tunis socialiste*, le 25/9/1925.

(الحزب الاصلاحي) في نفس السنة ،فاشتدّ النزاع بين الاعتدال والاصلاحات وبقاء سلطة الحماية من ناحية والتطرف والهيجان الشعبي من ناحية أخرى . وبينما ركز الحزب الاصلاحي على المسائل الاقتصادية بقي الحزب الدستوري محافظا على مبادئه واعتبر الاصلاحيين خونة صنيعة الاقامة العامة من أجل اضعاف الحركة الوطنية (12) .

وبقي الحزب الاصلاحي مهجورا من القاعدة الشعبية رغم ما بذله من جهد في كسبها . ولعل من أهم العراقيل التي وقفت في وجهه هو نشاط الشعب الدستورية في مدينة تونس وغيرها (13) . فأصبح الحزب الاصلاحي عبارة عن (هيئة أركان بدون عساكر) كما وصفه تقرير هيئة الاركان الحربية التي أعادت أسباب فشله الى تفضيله الجانب الاقتصادي على الجانب السياسي (14) .

واشتد الصراع بين الحزب الاصلاحي والدستوريين ،خاصة لما أسس قلاتي جريدة أخرى سماها (النهضة) سلك فيها نفس مسلك (البرهان) ،ووافق على اصلاحات 1922 التي اعتبرها الحزب الدستوري تقود تونس الى السقوط في هاوية الالتحاق بفرنسا . وادى الأمر كذلك الى انهزام حسن قلاتي ،زعيم الحزب الاصلاحي ، في انتخابات المجلس الكبير سنة 1926 . ولما فشل هذا الحزب في ضم الانصار اليه من القاعدة الشعبية رغم الجولات الدعائية التي قام بها أعضاؤه ، انحل وانضم اعضاؤه الى الحزب الشيوعي وكونوا قسما تونسيا به (15) .

وقد علقت الصحافة الاستعمارية على هذا النزاع واعتبرته نزاعا عائليا (16) .ذلك أنها تعتبر الحزبين الدستوري والاصلاحي يهددان مصالحها . فوقفت منهما نفس

=== (11) المدني ،ص 121—222 . وكذلك : A.O.M./A.E.P. 27H1, *Op.cit.*

(12) أنظر: *Kraïen*, <u>*Nat.Synd*</u>, p. 312-15.

(13) الفاسي ،ص 57—58 .

(14) أنظر : A.O.M./A.E.P. 27H1, *Op.cit.*

(15) المدني ،ص 121—222 .وكذلك : *Kraïen*, <u>*Nat.Synd.*</u>, p. 319-321.

(16) أنظر: A.M.I./CDN/MN. TUNIS, N° B 1-6, (*Querelles de Ménage*); <u>*la Tunisie française*</u>, du 17 mai 1922.

الموقف الذى اتخذته الصحافة الاستعمارية من النخبة الجزائرية الاندماجية وحركة الامير خالد الاصلاحية في الفترة نفسها (1919—1923) .

2— مع الحزب الحر المستقل :

وهناك جماعة أخرى انشقت هي أيضا عن الحزب الدستوري وأسست حزبا في 13 نوفمبر 1922 سمته (الحزب الحر الدستوري التونسي المستقل) بزعامة فرحات بن عياد . وتعود بدايته الى مطلع سنة 1922 حين كان ابن عياد، ممثل الحزب الدستوري بباريس، على صلة وثيقة بديوان الرئيس الفرنسي، ويقدم له تقارير حول نشاط رجال الحزب وعلى رأسهم أمينه العام احمد الصافي (17) . وقد جاء في تقرير السيد بومارشي (Beaumarchais)، نائب مدير الشؤون الافريقية، الى الرئيس الفرنسي، في 27 ماي 1922، ان فرحات بن عياد أخبره ان احمد الصافي قد اتصل بالسيد طايتنجر، وألح عليه في الرجوع على تصريحه للصحافة ضد اقامة دستور في تونس، وان طايتنجر سيكاتب الصافي ينصحه بضرورة ابداء الدستوريين تعاطفهم واخلاصهم واحترامهم للمقيم العام الفرنسي بتونس . وأضاف ان فرحات بن عياد كان يتذمر من الدور الجديد الذى دفعه الدستوريون الى القيام به، وأكد انه لم تعد تربطه بهم أية صلة مشتركة، وهو ينتظر قدوم المقيم العام، لوسيان سان، الى باريس بفارغ الصبر ليعبر له

---

(17) أشار نائب الاقامة العامة بتونس انه تلقى رسالة من الرئيس الفرنسي تحت رقم 614 مؤرخة في 12 ماى 1922، تحمل في طياتها اتصال فرحات بن عياد بالسلطة الفرنسية بباريس، وعدوله عن آرائه السابقة، وتبرؤه من المبادئ الدستورية . وهذا ما ينفي ما استقرعليه مصطفى كريم من ان ابن عياد قد تغيرت سيرته غداة لقائه مع المقيم العام بباريس في ربيع 1922 . أنظر :
A.Q.O./S.T. 1917-40, N°319, Lettre, le Délégué de la Résidence Générale de France à Tunis à M.Président du Conseil, Raymond Poincaré, Ministre des Affaires Etrangères Paris, Tunis le 17 juin 1922, (Destouriens et Communistes a/s Ferhat Ben Ayed), p. 196.

شخصيا عن تعاطفه الصادق واستقامته مع فرنسا (18) .

وقد سافر المقيم العام فعلا الى باريس سنة 1922 ووقع الاتفاق ظاهريا بينه وبين ابن عياد على عدم منح تونس قرضا ماليا • وقد اغتر الدستوريون بقدرة فرحات بن عياد على اقناع المقيم العام والتفاهم معه على إلغاء هذا القرض • وكان الدستوريون على علم بتصرفات ابن عياد وعدوله عن المبادئ الدستورية • فوقف الثعالبي منه موقفا معاديا خاصة لما اخبره النائب الشيوعي برتون ان ابن عياد لم يعد يميل الى التعامل مع الشيوعيين الفرنسيين • فأثر الثعالبي بموقفه على اللجنة التنفيذية ، وكتبت لابن عياد تطلب التوضيحات اللازمة حول مسألة القرض وما انتهى اليه اجتماع البرلمان الفرنسي • وكان ابن عياد على علم بما قام به النائب برتون ، فامتنع عن الرد على رسائل اللجنة التنفيذية • فأرسلت له مبعوثها الطيب بن عيسى ، وتظاهر له ابن عياد باهمال الحزب له في بلد غريب بدون اعانة مالية (19) • ولما عرف الدستوريون حجج ابن عياد امروه بالرجوع الى تونس فرفض وكتب الى الطيب بن عيسى ، صاحب جريدة (الوزير) والشاذلي المورالي ، صاحب جريدة (المنير) ، يشكو لهما اهمال الحزب له وتركه يتخبط في مشاكل مادية في ديار الغربة • وثار الرجلان ضد رجال اللجنة التنفيذية للحزب ، وأبرزا الشقاق الواقع في صفوفه ، وجندا كل طاقتهما ضده ، واتهما بعض رجاله باختلاس أمواله ، وعلى رأسهم الثعالبي • وتصدت جرائد الحزب (الاتحاد) و(الأمة) و(المشير) الى

---

(18) أنظر:
Kraiem, <u>Nat.Synd</u>., p. 238-239;
A.Q.O./S.T. 1917-40, N° 319, Lettre Président du Conseil, Ministre des Affaires Etrangères à L.Saint, Résident Général Tunis, Paris le30/5/1922, (Analyse N°748 a/sF.Ben Ayed, annexe).

(19) أنظر:
A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B 2-38, "Comment s'est formé le Parti Déstourien Libre", p. 1-3.
A.Q.O./S.T.1917-40, N°319, Lettre de la Résidence Générale de France à Tunis à M.Raymond Poincaré, Président du Conseil, Ministre des Affaires Etrangères Paris, Tunis le 17/6/1922 (Déstouriens et Communistes a/s F.Ben Ayed), p.196 .

هذه الاتهامات ، وهاجمت (الوزير) و(المنير) (20) .

وفي اجتماع الحزب الدستوري بتاريخ 29 أكتوبر 1922 ، تراجع الطيب بن عيسى عن مضادة الحزب ، واعتذر عن اتهاماته لرجال اللجنة التنفيذية باسمه وباسم صاحبيه ، وبرر مواقفه بما قدمه له ابن عياد من حجج . ولكن الدستوريين صادقوا بالاجماع على خلعه وصاحبيه من عضوية اللجنة التنفيذية للحزب لكونهم أشهروا الحرب ضد الحزب وأعضاء لجنته (21) . فلجأ هؤلاء حينئذ ، بعد رجوع ابن عياد الى تونس ، الى تأسيس حزبهم المستقل (22) يوم 10 نوفمبر 1922 ، ونشرت خبره جريدة (الوزير) بتاريخ 13 نوفمبر من نفس السنة وبينت أهدافه ومبادئه بقولها :((ليلة الجمعة تأسس حزب جديد تحت عنوان (الحزب المستقل) وهو حزب مستقل عن الحزب الدستوري الاخير غير ان مبدأه لا يخالف مبدأ الاول بل هو أوسع في العمل لاعلاء شأن الوطن ... ارتكز على قواعد الحزب الثماني مع بذل الوسع لترقية الشعب اقتصاديا وعلميا بنوع خاص ، وشعار الحزب الصدق والعدل والانسانية ، ونائبه الرسمي بباريس السيد فرحات بن عياد ...)) (23)

وكانت مطالب الحزب المستقل تتركز خاصة على المساواة في العمل الى جانب الفرنسيين . وقد باركت سلطة الحماية هدفه ، ونوهت به جريدة (الصحافة الاستعمارية الباريسية) بتاريخ 10 جانفي 1923 ، فقالت : ((مهما يكن من أمر فانه ليس هناك فرنسي واحد يشك في صدق جدارة السيد فرحات بن عياد . ان كل تصريحاته أثناء

---

(20) أنظر: A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B 2-38, Op. cit.

(21) أنظر: A.Q.O./ S.T. 1917-40, N°319, Op. cit.

(22) تأسس هذا الحزب تحت رئاسة فرحات بن عياد وبعضوية الطيب بن عيسى ، والشاذلي المورالي ، والصادق الرزقي ، ومحسن بن عياد . أنظر A.M.I./CDN/MN.Tunis, Op.cit.
A.Q.O./S.T. 1917-40, Op.cit.
Mahjoubi, <u>les Origines</u>, pp. 304-308.

(23) أ.و.إ.ن.م ، ت.ق/ج.و. / تونس ، رقم B 2-38 ، (الحزب الحر الدستوري المستقل) ، <u>الوزير</u> ، عدد 121 ، في 1922/11/13 .

اقامته بباريس كانت عبارة عن واجب قام به رجل يعبر عن أكبر صدق وأعمق اخلاص وارتباط وتعلق بفرنسا ·)) [24] والمقصود بالتصريحات هي تلك التي تنازل فيها ابن عياد عن معارضة منح القرض المالي لتونس، وتعهد فيها بذلك المقيم العام لوسيان سان حين اجتماعه به بباريس سنة 1922 ·

وكانت أول حركة قام بها المستقلون هي السير في وفد يرأسه ابن عياد الى مقر الاقامة العامة الفرنسية بتونس في أول ديسمبر 1922 حيث استقبلهم المقيم العام لوسيان سان · وقدم له الوفد برنامج الحزب الذى ركز فيه خاصة على ضرورة مشاركة التونسيين الفعلية في ادارة شؤون البلاد حسب ما تتطلبه طريقة التدرج والارتقاء الى الاستقلال الذاتي تحت ظل العائلة الحسينية والسلطة الفرنسية · وأكد المستقلون على حرية الصحافة الملتزمة، وطالبوا بفتح أبواب التعليم والعمل للتونسيين، واعطائهم ضمانات اجتماعية ·، ووعدهم المقيم العام بتلبية رغائبهم تدريجيا في ظل ((الاتحاد الذى لا ينفصم بين تونس وفرنسا ·)) [25]

ورغم ان الحزب المستقل لم يكن له مقر خاص ولم يطبع بطاقات اشتراك [26]، فانه اعتبر نفسه الممثل الشرعي للشعب التونسي، واعتبر الحزب الدستورى حزبا منحلا · ولذلك عمل على فك النفوذ منه · فقد كتب ابن عياد رسالة الى حمودة المنستيرى، أمين مال الحزب الدستورى، بتاريخ 8 ديسمبر 1922، طلب منه فيها موافاته بالمبلغ المالي الذى جمعه الحزب الدستورى البالغ 65185،80 فرنك · ورد عليه

---

(24) نفس المصدر، رقم 26—5 A (فرحات بن عياد) جريدة الاتحاد، عدد 60، في 1923/2/7 · أنظر كذلك :
A.M.I./CDN/MN.Tunis, N°B 2-38, Op. cit.

(25) نفس المصدر، رقم 28—2 ، (المسألة التونسية في دور الاجراء بواسطة الحزب الدستورى المستقل الذى قابل المقيم (العام) وتلقى منه اهم التصريحات) ، جريدة الوزير، عدد 124، في 4 ديسمبر 1922، ص 1—3 · انظر أيضا :

A.M.I./CDN/MN.Tunis, N°B 2-38, (la question Tunisienne en cours d'exécution par l'intermédiaire du "Parti Déstourien Indépendant qui rencontra le Résident et reçut de lui les plus importantes déclarations), p.1-4.

(26) انظر : A.M.I./CDN/MN.Tunis, N°B 2-38, (Comment s'est formé...).

المنستيري بأن هذا الأمر من علائق الحزب الدستوري ((وتعد خيانة مني لحزبي اذا أنا أفشيت له سرا أو أذعت له حسابا)) ، ثم فسر المنستيري هذا التصرف من ابن عياد بأنه يريد مشاغبة الحزب الدستوري ويكيد له المكائد (27) .

وانفتحت عندئذ أبواب المهاترات الصحفية وتذف الشخصيات الحزبية ، مثل تلك التي كانت قائمة بين الحزب الدستوري والحزب الاصلاحي . وأصبح الدستوريون يواجهون عدة تيارات ويتلقون الضربات من عدة جهات . فكتبت جريدة (الوزير) بتاريخ أول جانفي 1923 مقالا بعنوان (ما بالطبع لا يتخلف) وصفت فيه الثعالبي بالهذيان والمجازفة بسخائف الاقوال ، وتضليل الافهام ، والعمل في (خدمة الاطيان) لا في خدمة الأوطان (28) . وهذا أسلوب بعيد عن السياسة نزل فيه صاحبه الى السب والشتم .

وبقي الحزب المستقل مهجورا من طرف الشعب ، ولم ينخرط فيه أحد لتعامله الصريح مع سلطة الحماية ، زيادة على أن الحزب الدستوري قد سد في وجهه كل المنافذ . ومع ذلك فقد اجتمعت اللجنة المركزية للحزب المستقل ووجهت بلاغا الى الشعب بتاريخ 8 جانفي 1923 هاجمت فيه الحزب الدستوري واعتبرته منحلا ، ووصفت أصحابه بالانتفاعية واختلاق الشقاق والغايات الدنيئة . وجاء هذا البلاغ في ثماني نقاط ، وجهت ضد الدستوريين ، ونورد أهمها للدلالة على حدة الصراع بين الطرفين (حسب ترتيبها الأصلي) :

— رفض طلبات كل من ثبت لدى اللجنة المركزية . . . انه لعب دورا فعليا مع

(27) أ . و . ل . ، م . ت . ق / ح . و . / تونس ، رقم 26—5 A ، (بدون تعليق : كتاب السيد فرحات بن عياد الى امين مال الحزب المنحل — جواب المنستيري السفسطائي) ، جريدة المنير ، المؤرخة في 1922/12/29 .

(28) نفس المصدر ، رقم 14—5 A (ما بالطبع لا يتخلف) ، جريدة الوزير ، عدد 128 ، المؤرخة في 1 جانفي 1923 .

الانتفاعيين وأرباب المطامع الشخصية والغايات الدنيئة من الذين شوهوا سمعة الحزب الأول بتونس وباريس، وكانوا الطامة الكبرى عليه والسبب الأعظم في انحلاله.

– الابتعاد الكلي عن قبول الاشخاص الذين يريدون اتخاذ العمل السياسي ذريعة للارتزاق والتمعش او للتطاول على ذوي الاقدار وتضليل الفكر العام بالتزييف والاختلاق مما يدعو للشقاق والانقسام ويعود بوخامة العواقب على العباد والبلاد.

– اعتبار كل دستوري بالعاصمة وخارجها منا والينا ما لم يبادر جزافا مشروعنا في انقاذ رغائب الامة من هفوات بعض اعضاء لجنة الحزب المنحل.

– رفض المشاركة في أي عمل يحاوله رهط الثعالبي على الاطلاق (29).

والظاهر ان هذا الذم الموجه ضد الدستوريين في صورة بلاغ عام، قد باء بالفشل الذريع في الأوساط الشعبية، وأتى اكله في اتجاه معاكس، فلم تمر سنة بعد ذلك حتى انعكست الآية على المستقلين، واتضح ان رئيسهم، فرحات بن عياد، هو الذي كان يهدف الى تضليل الرأي العام والتمعش على حسابه. ووجه رسالة الى الرئيس الفرنسي بتاريخ 21 جانفي 1924 ذكره فيها بمجد عائلة ابن عياد وعلاقتها العامة والخاصة بفرنسا منذ اكثر من قرن. وكشف له عن هويته وهدف حزبه، فقال :

((ان التربية الفرنسية وذوق حضارتكم الخلاب قد ربوا في كل طموحات وطنيتي التونسية، وجميع واجبات الاخلاص نحو الأمة العظيمة ... لقد أخلصت في عملي منذ رجوعي من باريس الى تونس، لخلق تفاهم كامل ونهائي بين مختلف العناصر التونسية والفرنسية.)) (30)

---

(29) أ.و.ل.م.، ت.ق/ح. وتونس، رقم 38–2 B3، (بلاغ من الحزب الدستوري المستقل الى الامة)، جريدة المنير، المؤرخة في 15 فيفري 1923، وجريدة الوزير، عدد 129، المؤرخة في 8 جانفي 1923.

(30) أنظر: *A.Q.O./S.T.1917-40, N°319, Lettre Ben Ayed Ferhat à: Son Excellence M.LE Président Raymond Poincaré, Président du Conseil Paris, datée a Paris le 21/01/1924, p.233-234.*

ولم يكتف ابن عياد بالتعبير عن اخلاصه لفرنسا ، بل تعداه الى ابداء قناعته المتزايدة بضرورة مشاركة كل العناصر الاسلامية الحية في تسيير السياسة الفرنسية . وانتهى الى وضع كل مجد عائلته القديم وجميع ما يملك هو من طاقة وذكاء ، بين أيدي الرئيس الفرنسي . وكشف في الأخير عن هدفه البعيد ، فطالب بمنحه منصبا يخول له خدمة فرنسا و تونس معا ، والمشاركة في بناء سياسة فرنسا وعظمتها من أجل السلام العالمي في ظل ممثل فرنسا (اللامع) ، المقيم العام ، وذلك تبعا للطريق الذى سطره له (ابن عياد) أجداده ، من قبل (31) .

وقد استغلت السلطة الفرنسية فعلا هذا الظرف السياسي ، ولبت طلب فرحات بن عياد ومنحته منصب نائب حافظ الاختام في الحكومة التونسية (32) . وكانت تلك هي نهاية مطاف (الحزب الحر الدستورى المستقل) . وحتى نكون على بينة من سياسة ابن عياد نحو فرنسا نختم الكلام عن حزبه بمحتوى الرسالة التي وجهها الى الرئيس الفرنسي يوم 29 جانفي 1924 ، وشكره فيها على حسن الاستقبال الذى خصه به من قبل . وكان ابن عياد قد أعرب له أثناء هذه المقابلة ، باسم جميع أنصاره المخلصين عن عادات المحبة العريقة لفرنسا ، و تمنياتهم واحترامهم الحار لها ، وهم كلهم حماس وحمية روحية وقلبية لسياسة فرنسا المجيدة ومصيرها الخالد .

وقد اغتنم ابن عياد في هذه الرسالة فرصة وجوده بباريس ، وطلب من الرئيس استقباله ليعود الى أهله يتمطى مرة ثانية ((لآخذ آيات التشجيع ، وأوزعها على أصحابي الذين لا يخفون اخلاصهم لوطنهم و تعلقهم بفرنسا الحضارية التي تتجسد في شخصكم الحي اللامع — واني ادعو لكم ولمصيركم البركة الخالدة — من خادمكم المطيع فرحات بن عياد .)) (33)

---

(31) كان ابن عياد من الرعايا الانكليز منذ ان طلبت عائلته الحماية الدبلوماسية من انكلترا في القرن الماضي . ثم أصبح بعد سنة 1921 من الرعايا التونسيين المخلصين لفرنسا . انظر :
A.Q.O./S.T. 1917-40, N°319, Op.cit.

(32) انظر :
A.M.I./CDN/MN.Tunis, N°B 2-38, (Comment s'est formé...).

(33) انظر :
A.Q.O./S.T.1917-40, N°319, Lettre Ben Ayed au Pd du Conseil, Paris le 29 /01/1924, p.136-137.

3ـ مع الحزب الدستوري الجديد :

وبعد الحزبين الاصلاحي والمستقل هناك الحزب الدستوري الجديد الذي انشق هو الآخر عن الحزب الدستوري سنة 1934 · ولكن جذور الانشقاق تعود الى قبل هذا التاريخ · لقد عقد الحزب الدستوري مؤتمر نهج الجبل في 12 و13 ماي 1933 (34) وانتخب جماعة جريدة (العمل التونسي) التي ظهرت سنة 1932 تحت قيادة الحبيب بورقيبة ، أعضاء في لجنته التنفيذية · غير ان التباين الثقافي والانتماء الفكري بين الفريقين سرعان ما أديا الى تقسيم الحزب · فقد كانت هذه الجماعة غربية الثقافة ويسارية المنهج ، فلم تتفق مع أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب الذين كانوا في أغلبهم من ذوي الثقافة الاسلامية والفكر الشرقي المتدين · فلم تمر أربعة اشهر على عضوية جماعة (العمل التونسي) في اللجنة التنفيذية حتى بدأت روح الشقاق تبرز في صفوف الحزب الدستوري · وسنرى بعد قليل تدعيم سلطة الحماية جماعة (العمل التونسي) ·

وكان أول سبب مباشر لذلك هو أن وفدا جاء من مدينة المنستير لمقابلة الباي اثر حوادث التجنيس ، ليشكره على عزل عامل المنستير والعفو عن المساجين · وترأس الحبيب بورقيبة الوفد لصلته بابناء بلدته المنستير ، وقابل الباي دون استشارة اللجنة التنفيذية للحزب · فوجهت له هذه لوما على تصرفه الانفرادي ، فاغتنمها بورقيبة فرصة للانفصال وقدم استقالته الى اللجنة التنفيذية في يوم 7 سبتمبر 1933 (35) ، وأنكر التهمة

---

(34) أكد المؤتمر على تحرير الشعب التونسي والعدول عن سياسة التعاون مع نظام الحماية ، واعطاء البلاد نظاما دستوريا يحقق سيادة الشعب بواسطة مجلس تونسي منتخب انتخابا عاما ، وحكومة مسؤولة امام هذا المجلس ، والفصل بين السلطات ومنح المواطنين الحريات والتعليم الاجباري وحماية الحياة الاقتصادية للبلاد · انظر :

ـ الفاسي ، ص 62ـ63 · وطالع نص برنامج الحزب الذي اقره المؤتمر في :

—A.O.M. A.E.P. 27H6 Ministère de la Guerre, Gouvernement Général d'Algérie, Bulletin de Renseignements mensuel, Paris, le 11/06/1934.

(35) أ·و·ل·ت·م·ت·ق·/ح·و· تونس ، رقم 3ـ2 A (منشور الاخوان المنشقين عن اللجنة التنفيذية للشعب) ·

الموجهة اليه مبررا ذلك بعدم امتلاك الحزب قانونا داخليا يحدد مهامه ، وبين في نص استقالته رغبته في تكوين حزب مستقل لتنفيذ برنامجه قائلا : ((اني لا انفك عن الجهاد في سبيل تحقيق غايتنا العليا بوسائلي الخاصة وبمعاضدة جميع الذين يضعون مصالح الوطن وحقوقه فوق المسائل الشخصية .)) (36)

ووجه احمد الصافي ، كاتب الحزب العام ، منشورا للشعب الدستورية أخبرهم فيه باستقالة بورقيبة من اللجنة التنفيذية وموافقة هذه اللجنة على استقالته بأغلبية الاصوات . وبين لهم أسباب ذلك بانه ((لم يعد له حق في الاطلاع على أعمال اللجنة الآ كعضو بسيط في الحزب .)) (37)

ولم يقبل الحبيب بورقيبة عضوية الحزب البسيطة ، وعلل موقفه بان اللجنة التنفيذية يحكمها في الحقيقة أفراد مستبدون بسائر أعمالها ، ولا يستشيرون البقية الآ فيما يرضيهم ، ويخفون عنهم ما يريدون اخفاءه حتى الامور الهامة كجمع الأموال وصرفها ومكاتبة الشعب والمخابرة سريا مع رجال الدولة في فرنسا (38) .

وبعد ذلك بقليل وقعت مقابلة بين أفراد اللجنة التنفيذية للحزب والمقيم العام بتونس . وأكد المقيم العام للدستوريين عزمه على التسفير من المرتبات والغرامات وعدد الموظفين الاشتراكيين وطلب منهم كتمان هذا السر حتى يتجنب العراقيل المتوقعة .

---

(36) طالع نص استقالة الحبيب بورقيبة من اللجنة التنفيذية يوم 1933/9/7 في : المؤتمر العام للحزب الحر الدستوري المنعقد بمدينة قصر هلال يوم الجمعة 17 ذى القعدة عام 1352هـ/1934/3/2م ، مطبعة الاتحاد . واعيد طبعه بكتابة الدولة للدفاع الوطني ، تونس (بلا تاريخ) ، ص 14–15 .

(37) أ . و . ط . م ، ت . ق / ح . و . تونس ، رقم 3–A2 ، (نسخة المنشور الذى بعثت به اللجنة التنفيذية للشعب) . وانظر ايضا : المؤتمر العام للحزب الحر الدستوري التونسي المنعقد في 1934/3/2 ، ص 7–8 .

(38) أ . و . ط . م ، ت . ق / ح . و . تونس ، 3–2 A ، (منشور الاخوان المنشقين ...)

وكان البحري قيقة من بين أعضاء الوفد ،فلم يخف شيئا على أعضاء الحزب حتى المستقيلين منهم كالحبيب بورقيبة (39) . وتسبب بهذا التصرف في ايجاد الاعداء للحزب وتأليب الحاقدين عليه (40) . وبعد أربعة أشهر أحس الحزب بالخطر من جراء تصرف قيقة — خاصة لما شهد عليه بعض أعضاء اللجنة التنفيذية — فاضطر الحزب الى محاكمة قيقة أمام مجلس تأديب اللجنة التنفيذية بتهمة الاضرار بمصالح الحزب والامة واحداث الشقاق وسطها ومحاولة ايجاد حزب آخر الى جانب الحزب الموجود (41) .

واعترف البحري قيقة بكل ما نسب اليه من تهم ، فحكمت عليه اللجنة بالطرد ، بعد المداولة وسماع أقوال الشهود ودفاع المتهم . وبذلك لم تعد له صفة دستورية تخوله الحضور بمراكز الحزب او الاتصال سياسيا باعضائه ،ولم يعد لأى دستوري الحق في الاطلاع على مقررات الحزب ولا أوراقه (42) .

وقد اغتاض لطرد البحري قيقة كل من الطاهر صفر ومحمد بورقيبة ، بعد أن فشلا الاثنان في مناصرته اثناء محاكمته ،وعوضا ان يطالبا بعقد مؤتمر للحزب للنظر في دعواهم ضد اللجنة التنفيذية ،فقد راحا يجولان في انحاء البلاد وأعلنا الحرب على اللجنة التنفيذية مثل ما فعل الحبيب بورقيبة . وقدما استقالتهما من

---

(39) نفس المصدر .

(40) تاريخ الحركة الوطنية ،وثائق 4 ،الدستور الجديد والجبهة الشعبية بفرنسا — 2 — القطيعة ، 1936 — 1938 ،دار العمل للنشر والتوزيع والصحافة ،تونس ، 1981 ،ص 62 .

(41) أ . و . ل . ع . م . ت . ق / ح . و . تونس ،رقم 3. 2 A ،(نسخة المنشور الذى بعثت به اللجنة التنفيذية للشعب) .

(42) نفس المصدر .

الحزب فاقالهما . وانضم اليهما محمود الماطري الذي اعتبر نفسه دستوريا مستقيلا أيضا . ولم يكن في حياته دستوريا ولم يحلف يمين الاخلاص للحزب اطلاقا كما يؤكد ذلك محيي الدين القليبي (43) .

واعتبر المنشقون أنفسهم غير خارجين عن الحزب بل متمسكين بمبادئه عاملين في داخله منتصرين له . ولكنهم رفضوا العمل مع اعضاء اللجنة التنفيذية المستبدين في نظرهم . ووجهوا منشورا الى الشعب الدستورية يطلبون منها اشعار اللجنة التنفيذية بعدم موافقتها على استقالة الحبيب بورقيبة وصحبه، وطرد البحري قيقة، وان تعلن (الشعب) للجنة عن رغبتها في جمع مؤتمر نظامي في أقرب وقت لفصل هذه الخلافات وذلك بتشكيل لجنة مالية، ولجنة اقتصادية، ولجنة سياسية، تنظر كل واحدة في مواضيعها، وتتكون من مجموعها اللجنة التنفيذية (44) .

ويبدو من خلال هذا التصرف ان المنشقين كانوا ينوون الانفصال عن الحزب قبل هذا التاريخ وانما كانت تعوزهم الفرصة المواتية لذلك . وقد وجدوها الآن . والا كيف نفسر تقديم بورقيبة استقالته من اللجنة ثم بعد ذلك يكاتب الشعب الدستورية يطلب منها ان ترفض قبول استقالته . هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نلاحظ ان الطاهر صفر قد قدم استقالته وتعهد بالبقاء على الحياد، ولكنه لم يلبث ان خرج في الناس يطعن في سمعة اللجنة التنفيذية .

وفي نهاية شهر جانفي 1934 وقع اجتماع دستوري لبعض الشعب بتونس العاصمة استدعى اليه الاعضاء المنشقون عن اللجنة التنفيذية . وابتدأ الطاهر صفر الاجتماع بخطاب بين فيه ان أعضاء اللجنة التنفيذية لا يريدون السير بالحزب في المنهاج الذي

---

(43) المؤتمر العام للحزب الدستوري، 2 مارس 1934، (جواب القليبي عن مكتوب شعبة منزل تميم)، ص 24-25 .

(44) ا.و.ط.، م.ت.ق./ج.و. تونس، رقم 3-2 A، (منشور الاخوان المنشقين ...)

اختارته له الامة في مؤتمر نهج الجبل (سنة 1933) . ثم تلاه الحبيب بورقيبة وشرح للمجتمعين سبب تقديم استقالته وبين تعاطف المنشقين مع الشعب وتلبية ارادة الأمة قوله: ((كانوا يشاركون الأمة في المظاهرات يصادمهم البوليس ... وكانوا ينظرون مع الشعب الى تلك الدبابات... تمر امام أعينهم .)) [45] بينما كانت الجماعة القديمة منزوية في بيوتها . فتحمس الحاضرون الى هذه العبارات [46] ، وهتفوا بحياة (أولاد بورقيبة ، والماطري ، وصفر ، وقيقة) وبسقوط (الخونة الدجالين) [47] .

واطمأن المنشقون الى هذه الشعبية التي اكتسبوها في هذا الاجتماع ، وكونوا لجنة وقتية حررت استدعاء أمضاه كاتبها الوقتي الحبيب بورقيبة ، ووجهته لكافة الشعب الدستورية بالمملكة . وادعت فيه ان أغلبية الشعب ترغب في عقد مؤتمر فوق العادة لحسم الخلاف الذى حدث داخل اللجنة التنفيذية في شأن تطبيق البرنامج السياسي الذى قرره مؤتمر نهج الجبل . وأكدت اللجنة الوقتية ان هذا المؤتمر فوق العادة سينعقد بمدينة قصر هلال يوم الجمعة 2 مارس 1934 [48] .

---

(45) نفس المصدر ، (اجتماع دستوري في تونس) ، جريدة النهضة ، الصادرة في 31 جانفي و1و2 فيفري 1934 .

(46) من بين أسباب هذا التحمس ما كان ينشره المنشقون في (جريدة الزهرة) ضد اللجنة التنفيذية واتهام أصحابها بالاستبداد على رغبة الشعب الحزبية . وكتب الطاهر صفر قوله : ((فانتم (القدماء) اذن ترون لانفسكم الحق في تبديل برامج المؤتمرات قبل جمعها ... ولما نطلب منكم جمع مؤتمر استعجالي في حين لزوم ذلك ترفضون الامر بتاتا وتتعاصون على رغبة اغلبية الشعب كان الحزب ملك لكم ... وكأن الشعب (الدستورية) ليست لها في الحقيقة الكلمة الاخيرة .))

ـ أ . و . ل . ، م . ت . ق / ج . و . تونس ، رقم 3ـ 2 A ، الطاهر صفر (جواب عن رد) ، جريدة الزهرة ، الصادرة في 24 فيفري 193 .

(47) نفس المصدر ، (اجتماع دستوري في تونس) ، جريدة النهضة ، الصادرة في 31 جانفي ، و1و2 فيفري 1934 .

(48) نفس المصدر ، (مؤتمر قصر هلال 2 مارس 1934 ، صورة الاستدعاء لحضور المؤتمر الموجه لكافة الشعب بالمملكة) . وانظر ايضا : المؤتمر العام للحزب الحر الدستوري ، 2 مارس 1934 ، ص 28

وهكذا أسس المنشقون حزبا جديدا سموه (الحزب الحر الدستوري الجديد) وذلك أثناء المؤتمر الذى عقدوه في مدينة قصر هلال في 2 مارس 1934 ، وكونوا لجنة حزبهم من محمود الماطرى والحبيب بورقيبة والطاهر صفر والبحرى قيقة (49) . وألقى الحبيب بورقيبة خطابا في هذا المؤتمر هاجم فيه سياسة اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري ، واتهم اعضاءها بالتكتم على الشعب التونسي ((الذى كان يجهل تمام الجهل أمورهم ومقرراتهم ونتائج أعمالهم فاستحالت عليه مراقبتهم .)) ولم يخف على المؤتمرين ان اعضاء الحزب الجديد سيطبقون في تونس طرق المقاومة الاوروبية التي تعلموها في كليات فرنسا وفطرت عليها نفوسهم ، وليست لهم غاية يسعون الى تحقيقها الا الصالح العام التونسي (50) . فكيف تتحقق رغائب الامة وأمانيها بغير وسائلها وطرقها وسلاحها ؟

كما بين بورقيبة سياسة الحزب الدستوري الجديد ومثلها في المطالبة بالحقوق والحريات العامة ، ونظام سياسي واقتصادى قوامه المساواة والعدالة ، على أن هذا النظام — طال الزمن أم قصر — سيزيد فرنسا قوة ومتانة بقدر ما يكون الشعب التونسي قوا مرتبطا بالامة الفرنسية عن طيب خاطر لما بينه وبينها من التضامن الذى لا ينكره أحد . وأكد في الأخير على ان الشعب التونسي لا يكّن لفرنسا أى احساس عدواني (51) .

وقد تم انتخاب الديوان السياسي للحزب الجديد اثناء هذا المؤتمر . وكان يتكون من محمود الماطرى رئيسا ، والحبيب بورقيبة كاتبا عاما ، والطاهر صفر مساعدا له ، ومحمد بورقيبة أمين المال ، والبحرى قيقة مساعدا له . كما انتخب المجلس

---

(49) أنظر : A.O.M./A.E.P. 27H6, Op.cit.

(50) أ . و . إ . ، ت . ق / ح . و . تونس ، رقم 3—2 A (خطاب المجاهد في مؤتمر قصر هلال ، 2 مارس 1934) .

(51) نفس المصدر ، وكذلك : Mahjoubi, <u>les origines</u>, p.514-524.

الذى كان يتكون من عشرين عضوا من بينهم محمد الجعايبي ،صاحب جريدة الصواب ، و يوسف الرويسي ،ومحمد بو زويتة وغيرهم من رؤساء الشعب الدستورية المشاركة في مؤتمر قصر هلال . وقد قرر المؤتمر حل اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري ،ووجه كاتب الديوان السياسي العام مكتوبا الى احمد الصافي ،كاتب اللجنة التنفيذية العام ،أبلغه فيه طرده مع جميع أعضاء اللجنة من الحزب ((لسوء صنيعكم بالحركة الدستورية وعدم قيامكم بواجبكم نحو الامة والطعن في رجالها العاملين .)) وطلب منه تمكينه من أوراق الحزب والأثاث الراجعة اليه (52) .

وعلقت جريدة (الارادة) ،لسان حال اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري ،الصادرة في 12 مارس 1934 ،على أعمال الحزب الجديد ،فقالت : ((ان المنشقين ـ لما أسسوا مهزلتهم ـ يقومون بشد الحبل في الألاعيب والدسائس والمكائد لهذه الأمة المسكينة التي مسها الضر من حملة الدكتورا لا من العوام او الجاهلين .)) ووصفت أعمالهم بالمساعي الخبيثة والدسائس الأثيمة ، ومواقف اتباعهم المتذبذبة والمشاغبة . وانهم جميعا كانوا من الكائدين أولا لتشتيت شمل الأمة الذى عجز عنه الاستعمار ، وثانيا اشغال قادة الشعب برد أكاذيبهم ومفترياتهم بدل الدفاع عن مصالح البلاد ، وما يدسه الخصوم للحزب وزعمائه (53) .

والحقيقة ان هذا التعليق يحمل في طياته شيئا كثيرا من الصحة ،ذلك ان المنشقين لم يتمكنوا ـ وهم داخل اللجنة التنفيذية ـ من تنفيذ برنامجهم الداعي الى التعاون مع حكومة الحماية واتباع سياسة (خذ وطالب) . والسبب في ذلك ان أعضاء اللجنة التنفيذية قد يئسوا في هذه الفترة من سياسة التفاهم مع حكومة فرنسا ،وأحسوا بالضغوط من جراء تعسف ادارة الحماية معهم ،فانتهوا الى اتباع سياسة انفصالية ،وأخذوا موقفا

---

(52) المؤتمر العام للحزب الحر الدستوري التونسي ، 2 مارس 1934 ،ص 49ـ50 .

(53) ا.و.ا.م.، ت.ق / ج.و.، تونس ،رقم A 2ـ3 (اعمال المنشقين) جريدة الارادة ، الصادرة في 1934/3/12 .

معاديا من الاستعمار الفرنسي وعدم التعاون معه في شيء .

ولما تبين لاعضاء اللجنة التنفيذية استقلال المنشقين عنهم بحزب جديد واتجاه جديد ، عقدوا موءتمرا عاما للحزب الحر الدستوري بتونس بتاريخ 26 افريل 1934 ، وانتخبوا أعضاء جددا في اللجنة التنفيذية مكان المنشقين . وهم احمد توفيق المدني ، والشيخ الطيب رضوان ، ومحمد بن ميلاد ، والهادي بن فرج ، والهادي الزبيدي . وأذاع الحزب تصريحا بين فيه انه لم يتنازل عن أي مطلب من مطالبه وأكد على السير بالبلاد نحو الاستقلال ، وهو الهدف الاسمى للحزب . وركز على البرنامج السياسي الذي سطره موءتمر الحزب الاخير بنهج الجبل ، وتمسك بجميع الاصلاحات التي من شأنها ان تنقذ البلاد من الحالة السيئة التي انغمست فيها ، ويضمن لهما مكانتها بين الأمم الحرة المتطورة (54) .

وقد سر المقيم العام الفرنسي ، السيد بيروتون ، بالسياسة الجديدة التي اتبعها الحزب الدستوري الجديد . فقام في بداية شهر ماي 1934 بزيارة مدينة المنستير والساحل التونسي . واستدعى الحبيب بورقيبة وجماعته وأخبرهم ان الاقامة العامة قد رخصت لهم في اخراج جريدتين بالعربية والفرنسية ، للتعبير على لسان حزبهم ونشر مبادئه . وتحمل الجريدة العربية اسم (العمل) ، والجريدة الفرنسية (العمل الحر) . وقد تمكن الحزب الجديد بفضل ذلك من بث أفكاره وآرائه ، وكانت تلك هدية من المقيم العام لنشر أفكار الحزب وسياسته الرامية الى ربط تونس بفرنسا . ولم تكن الصحافة هي الوسيلة الوحيدة التي نشر بها الحزب الجديد دعايته بل نشرها ايضا عن طريق التجولات التي كان يقوم بها أفراده لمقاومة أعمال اللجنة التنفيذية ورمي سياسة أصحابها بالتدجيل والفساد (55) .

---

(54) أنظر : A.O.M./A.E.P. 27H6. Op.cit.

(55) ا . و . ط . ، م . ت . ق / ح . و . تونس رقم 3—2 A سخف وطيش) جريدة الارادة ، الصادرة في 9 ماي 1934 (منشور بقلم الحبيب بورقيبة بتاريخ 5 ماي 1934) .

وعوضا ان يسدد الدستوريون الجدد والقدامى سهامهم الى صدر الاستعمار الفرنسي ، رموا بها بعضهم البعض وطعنوا الشعب التونسي في وحدته وانتقلت الحرب الى صفوف ابنائه . وقد علقت جريدة الارادة بتاريخ 3 جويلية 1934 متأسفة على الشقاق الواقع بين الدستوريين ، والذى أصبح الشعب التونسي من جرائه فريسة للنزاع المستجدد بلا هوادة . وأرجعت أسباب هذا الحدث الاليم الى أن الحركة الوطنية التونسية قد عانت من فتور طويل يعود الى غياب رائدها الشيخ الثعالبي والى الازمة الاقتصادية العالمية التي مست الفلاح التونسي بشدة ، والى قساوة سياسة المقيم العام بتونس ، السيد منصرون (56) .

وكان الصراع قائما على قدم وساق بين الحزب الدستوري القديم والحزب الجديد . وفي هذه الاثناء عزم الشيخ الثعالبي على الرجوع الى تونس (57) . فراسله أعضاء الديوان السياسي ، وأوعزوا لبعض الصحف ـ حسب قول القليبي ـ ان تأخذ منه تصريحات يفيد انضمامه اليهم . ولما فشلوا في ذلك ، نظموا اتصالات مع الاقامة العامة بتونس وطلبوا منها أن تمنع الشيخ الثعالبي من الرجوع الى تونس بدعوى انه يثير الهرج في البلاد . فأذنت وزارة الخارجية الفرنسية الى سفارتها بمصر ، بعدم السماح للثعالبي بالرجوع الى تونس . فاضطر الشيخ الثعالبي الى الرجوع الى القدس بدل عودته الى بلاده (58) .

وكان أعضاء اللجنة التنفيذية مقتنعين بأن حكومة الحماية هي التي أحدثت

---

(56) أنظر: A.O.M./A.E.P. 26H2, *Secrétariat Général du Gouvernement Tunisien, Service de la Presse Musulmane et de l'Interprétariat, Revue Mensuelle, Mois: juillet-aout-septembre 1934*, p. 39-41.

(57) ذكر الثعالبي انه لم يتصل بأخبار انشقاق الحزب الا في فيفري 1934 وهو في طريقه من مدينة برمة الى الصين . وكانت رسائل التونسيين تلاحقه تطالبه بالعودة لاصلاح ذات البين وانقاذ الموقف . ولما وصل الى مصر وهو في طريقه الى تونس ، صدته السلطة الفرنسية عن العودة الى تونس . أنظر: تاريخ الحركة الوطنية ، وثائق 4 ، ص 59-60 .

(58) أ . و . ا . م . ت . ق / ح . و . تونس رقم 24-2 ، محيي الدين القليبي (كلمة صريحة الى جناب المقيم) ، جريدة الارادة ، الصادرة في 30 آوت 1934 .

الديوان السياسي لاثارة الشقاق وسط الحزب الدستوري ،فاحتج محي الدين القليبي على هذا التصرف واعتبره عملا ضد الحزب الدستوري للقضاء عليه وإراحة (جلادي هذه الامة) التونسية من صوت المعارضة ،ووجه منشورا الى المقيم العام بتاريخ 30 آوت 1934 تحت عنوان (كلمة صريحة الى جناب المقيم) أنكر فيها رمي السلطة للحزب الدستوري بالديوان السياسي الذى أصبح ينشر دعوته المعادية بين المشائخ والعمال وغيرهم ،كما رمته من قبل بالحزب الاصلاحي ،والحزب الحر المستقل ،والمجلس الكبير (59) .

وبينما اتبع الحزب الدستوري الجديد سياسة تعاون فرنسية — تونسية ،وبرنامجا سياسيا معتدلا ، فان الحزب الحر الدستوري ،الذى أصبح يعرف بالقديم ، قد اتبع سياسة انفصالية تهدف الى الاستقلال الكامل (60) . وقد بين الحبيب بورقيبة الفرق بين سياسة حزبه وسياسة الحزب الدستوري القديم في مقال له نشرته جريدة (الزهرة) في 13 فيفرى 1935، قائلا ، بعد أن أكد على سياسة المراحل ، : ((انني لا أنكر اعتبار المراحل الموصلة لغايات الحزب ،خلافا لسياسة الحزب الدستوري القديم ، الذى يعتقد أن المسألة التونسية مسألة حجة وبرهان .)) وبني سياسته على ((مغالطة الشعب والحكومة معا .)) ولو أدى ذلك الى دفع الشعب التونسي الى ظلمات الاوهام الباطلة — ويعني الاستقلال النهائي ، واعتبره عودة بالشعب مراحل شاسعة الى الوراء (61) .

ونلاحظ هنا انحياز بورقيبة لحزبه ومهاجمة الحزب الدستوري القديم ،واعتبار سياسة المراحل واشراك الفرنسيين في الحكم أنجع بكثير من سياسة مقاطعة الفرنسيين واعتبارهم أجانب لا يمكن التعاون معهم، ولا غرابة في ذلك ، لأن الاختلاف جوهرى والفرق شاسع بين المفاهيم . فالاستقلال الذى يريده بورقيبة هو استقلال تونس الذاتي

---

(59) <u>نفس المصدر</u> .

(60) أنظر: *A.O.M./A.E.P. 26H3 , Résidence Générale de France à Tunis, Analyse de la Presse Tunisienne, octobre 1936 (activité du Parti Libéral Constitutionnel Tunisien(Vieux Destour).*

(61) ا.و.إ.ح.م.ت.ق/ج.و. تونس ،رقم 3—2 ،8 ،الحبيب بورقيبة (من الديوان السياسي لكافة الدستوريين) ،<u>جريدة الزهرة</u> ،الصادرة في 13 فيفرى 1935 .

تستمد فيه فلسفتها ومبادئها الحضارية من الجمهورية الفرنسية • اما الاستقلال الذي يريده الحزب الدستوري القديم فهو استقلال كامل في معانيه الحضارية الشاملة • وقد بين لنا ذلك محيي الدين القليبي ، مدير الحزب القديم ، بقوله : ((وقع انقسام بين أعضاء الحزب (1934) أساسه الثقافة • فأعضاء الحزب المؤسسين من ذوي الثقافات الاسلامية ومن خريجي جامع الزيتونة وعلى رأسهم الاستاذ الثعالبي يريدون أن ينهضوا بالبلاد نهضة اسلامية وأن يربطوا حركتهم بنهضة الشرق و نضال الشرق المرير في وجه الاستعمار ، أما أعضاؤه الجدد من الشباب الذين درسوا في فرنسا و تثقفوا بالثقافة الغربية فهم يرون أن ترتبط عجلة تونس بعجلة الغرب وأن يشتركوا في الحكم مع الفرنسيين ، على أن يطالبوا الحكام باصلاحات داخلية ومنح تونس شيئا من الحكم الذاتي • وكان الشباب يفضلون المفاوضة مع الفرنسيين ، ولكن رجال الحزب عارضوا في ذلك وقالوا لا مفاوضة قبل الجلاء وان الحكم للوطنيين وحدهم (62) .

ودام الصراع بين الطرفين وأظهر فيه كل فريق وجهه الصحيح • فالحزب الدستوري الجديد ظهر مزدوج الشخصية ، فهو غربي ديمقراطي امام الغربيين ، وهو إسلامي كاره للاجانب امام العرب والمسلمين • وان كان يحدث الشعب التونسي باللغة التي يفهمها وبالعبارات التي تدغدغ مشاعره ، فانه في الحقيقة كان مخلصا لافكاره الغربية •

اما الحزب الدستوري القديم فانه لم يكن يجيد الا لغة واحدة وهي كراهية الاستعمار وعدم الثقة في الغرب ، والتطلع الى ربط تونس بالوحدة العربية الاسلامية ومنها الخلافة الاسلامية (63) .

---

(62) ا • و • أ • ، م • ت • ق / ج • و • تونس ، رقم 24—4 A ، (القليبي رئيس الحزب الدستوري يتحدث عن المغرب العربي) ، جريدة الحاضرة ، الصادرة بدمشق في 17 جويلية 1954 •

(63) درمونة ، ص 79 •

4— مع جمعية عموم العملة التونسيين :

وبالاضافة الى الحزب الاصلاحي ، والحزب المستقل ، والحزب الدستورى الجديد ، هناك (جمعية عموم العملة التونسيين) (64) التي أسسها محمد على الحامي (65) في خريف 1924 . وكانت تهتم بشؤون العمال التونسيين والأجانب وتحثهم على المطالبة بحقوقهم العمالية مما أحدث اضراب العمال التونسيين وأجبروا العمال الفرنسيين على مقاطعة العمل .

وقد وقف الاشتراكيون الفرنسيون موقفا عدائيا من هذه الجمعية ، واعتبروها خطرا شيوعيا عليهم في تونس ووصفوها بالتعصب الديني والجنسي ، وأنها قومية اسلامية تعادى الأجانب (66) . اما الحزب الدستورى والحزب الشيوعي الفرنسي فقد ساندها مساندة استراتيجية اقتضتها مصلحة كل منهما (67) . فقد ساندها الشيوعيون باعتبارها وسيلة لتحرير العامل التونسي من الاستغلال البرجوازى الفرنسي والتونسي معا . وآزروها في جريدتهم (المستقبل الاجتماعي) وغيرها . ولعلهم اتبعوا معها نفس الطريقة التي اتبعوها

(64) ظهرت في بدايتها تحت اسم (جمعية التعاون الاقتصادى) في جوان 1924 . وقد عرف العمال التونسيون العمل النقابي منذ ان تأسست (الاتحادية العامة للعمال) بتونس سنة 1919 كفرع للحزب الاشتراكي الفرنسي . انظر : خالد ، ص 172—182 .

(65) (1893—1928) درس العربية بقابس وتونس ، وارتقى في مراحل حياته من عامل بسيط الى سائق سيارة القائد التركي انور باشا . ثم عاد الى تونس بعد غربة طويلة مزودا بثقافة جامعية في الاقتصاد السياسي ، وقاد العمل النقابي بتونس ، فحبسته فرنسا ونفته . فزار اوروبا والمشرق العربي ، واستقر بالحجاز الى أن وافاه الاجل في حادث مرور في 10 ماى 1928 بضواحي مدينة جدة . أنظر :

— خالد ، ص 159—170 و 195—196 .

(66) جوليان ، افريقيا الشمالية ، ص 97—98 ، وكذلك : خالد ، ص 180—182 .

(67) ساهم بعض الدستوريين والشيوعيين في نشاط هذه الجمعية . فمن الدستوريين كان احمد توفيق المدني ، والطاهر الحداد ، والطاهر صفر ، واحمد الدرعي . ومن الشيوعيين كان احمد بن ميلاد ، والمختار العيارى ، والطيب دياب . أنظر :

— خالد ، ص 181 .

مع الحزب الدستوري اذ كانوا يعتبرون نشاطه بمثابة اليقظة الشعبية لاستنهاض (الكادح التونسي) • ولذلك دعموه في مواقفهم السياسية ،ومقالاتهم الصحفية من أجل تقوية المد الوطني التحريري من التسلط الاستعماري • ولم تكن مساندة الشيوعيين للدستور في تحقيق مطالبه الا طريقة ومنهجا في العمل التحريري من الاستعمار الى بلوغ الهدف الاقصى وهو التحرر أيضا من البرجوازية الوطنية (68) .

وكان الحزب الدستوري حذرا من الشيوعيين ،رغم مساندتهم له • فقد احتج بشدة في مطلع سنة 1925 على اتهام السلطة الفرنسية له بالتعاون مع الشيوعيين بسبب تعامله مع (جمعية عموم العملة التونسيين) باعتبارها مكملة لهدفه من الناحية الاقتصادية (69) . وكان الحزب الدستوري في هذه الاثناء ينوي التكتل مع (الحزب الاصلاحي ،واتحاد عموم العملة الفرنسيين ،وأعضاء المجلس الكبير) ، للمطالبة بالاصلاحات من حكومة هيريو اليسارية • وكان السيد دوريل (*Durel*) ،الامين العام لاتحادية عموم العملة الفرنسيين قد أدلى بتصريح الى جريدة (الصباح الصغير) نشرته جريدة (تونس الاشتراكية) أكد فيه ان الحزب الدستوري قد تنازل عن مطالبه وعوضها باخرى ، وتعهد بحل (جمعية عموم العملة التونسيين) • فوجه الحزب الدستوري حينئذ بيانا الى الدستوريين بتاريخ 22 فيفري 1925 ،امضاه احمد الصافي ،وضح فيه القصد من هذا التكتل ،وعدم التعرض الى تغيير مبادئه ،وبين موقفه من (جمعية عموم العملة التونسيين) ،فقال : ((في هذا الاجتماع لم ترد مسألة (جمعية عموم العملة التونسيين) ولم يطرح موضوع حلها ،ذلك انه ليس لها اية علاقة بالحزب الدستوري خاصة واننا نكون حزبا سياسيا ،وان هذه الجمعية هي منظمة اقتصادية •)) وزيادة على ذلك فقد تقابل الدستوريون مع السيد دوريل ،

---

(68) أنظر: Mustapha, Kraïem, "Aux Origines du Parti Communiste Tunisien 1919-1929", Revue d'Histoire Maghrébine, N°2, (Tunis, Juillet 1974), p.116-137.

(69) أنظر: Béchir, Tlili," Des Rapports entre le Parti Libéral Constitutionnaliste et la Confédération Générale Tunisienne du Travail (1924-1925)", Les Cahiers de Tunisie, T.XXVIII, N° 113-114, 3ème et 4ème trimestre, (Tunis, F.L.S.H.,1980),p.116-16

وأكد لهم ان الذي جاء في تصريحه هو خطأ وقع فيه محرر الجريدة (70) . ولكن يظهر أن السيد دوريل قد تلاعب بالالفاظ ، وتعمد هذه الخطة التي تهدف الى القضاء على الولد العاق (جمعية عموم العملة التونسيين) ، أو ادماجه ضمن العمل الجماعي الذى تقوم به اتحادية النقابة الفرنسية .

ويعود موقف الحزب الدستورى من جمعية عموم العملة التونسيين ، واعتبارها منظمة اقتصادية واخفاء علاقته بها ، الى سببين/ رئيسيين الاول هو أنه كان يريد تقديم مطالبه الى الرئيس هيريو ويأمل قبولها . والثاني هو أن هيريو نفسه كان قد صرح في ديسمبر 1924 ان حركة محمد علي الحامي تهدد الوجود الفرنسي في شمال افريقيا . ودعم رأيه كل من ليون جوهو (L. Jouhaux) ، الكاتب العام لاتحادية العمال بفرنسا ، وجواشيم دوريل (J. Durel) ، الكاتب العام لاتحادية العمال بتونس ، ولوسيان سان ، المقيم العام بتونس ((الذين اعتزموا الاطاحة (بجمعية عموم العملة التونسيين) ، واتهموا قادتها بالتواطؤ مع الشيوعيين والتآمر على أمن الدولة ، وادعوا ان محمد علي كان صنيعة الدعاية التركية والالمانية .)) (71)

ويمكن ان نحسم جوهر الخلاف بين النقابيين الفرنسيين والنقابيين التونسيين في نقطة واحدة ، وهي ان الفرنسيين كانوا يستمدون أوامرهم وتوجيهاتهم من المنظمة العالمية للشغل بامستردام ، وعالميتها الثانية ، وكان التونسيون غير تابعين لهم . فتخوف الفرنسيون من احتمال انتمائهم الى العالمية الثالثة بموسكو ، خاصة لما أصدرت لجنة النقابيين التونسيين بيانا في جريدة افريقيا يوم 20 نوفمبر 1924 ، فقالت فيه : ((ان نقابتنا ستكون مستقلة الا أنها ستنخرط في عالمية العملة ، وان ابوابها مفتوحة لكل عامل بقطع النظر عن جنسيته وديانته .)) (72)

---

(70) أنظر: A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B 2-45, La Politique Tunisienne, l'Union pour les Réformes-Manifeste du Parti Libéral Constitutionnel au Peuple", le Petit Matin, du 22/2/1925, p.1-2

تعهد السيد دوريل للدستوريين باصدار تصحيح لأقواله في نفس الجريدة الصادرة في 22 فيفري 1925 .

(71) خالد ، ص 187 . (72) نفس المصدر ، ص 180-182 .

ورغم ان التباين بين أهداف الحزب الدستورى ، والحزب الاصلاحي ، والمجلس الكبير، واتحاد عموم العملة الفرنسيين ،كان واضحا ، فانهم اغتنموا وجود هيريو على رأس السلطة الفرنسية ، واتحدوا في جبهة ائتلافية (73) في نهاية فيفرى 1925 ، وضموا اليهم بعض أعيان البلاد (74) . واتفق الجميع على تكوين جبهة موحدة مع احترام حق كل حزب في الاحتفاظ بمبادئه الخاصة . ووقع هذا التجمع للوقوف امام الخطر الذى كان يهدد المسألة التونسية ، ومواجهة حملات الصحافة الاستعمارية (75) والرأسمالية ضدها ، والرد على الاتهامات الباطلة الموجهة ضد التونسيين لمنعهم من تحقيق مطالبهم العادلة . وتمحورت أهداف هذه الجبهة حول وضع برنامج اصلاحي من أجل تنمية حالة تونس العامة وتغيير الاوضاع الراهنة بها ، وابطال تهمة التعامل مع الشيوعيين (76) .

وذكر جوليان ان هذه الجبهة قد التفت حول مطالب الحزب الاشتراكي الفرنسي العاجلة . وقد أوضح السيد دوريل مطالبه فعلا ، وركز على العواقب السيئة التي يمكن أن تنتج عن وجود (جمعية عموم العملة التونسيين) الى جانب (اتحاد عموم العملة العالمية) ، وعرض الامتيازات التي يمكن أن يتحصل عليها التونسيون لو اتحدوا . وقد

---

(73) ذكر جوليان ، (افريقيا الشمالية تسير، ص98) ان هذه الجبهة تكونت اثر تصريح النائب البرلماني الشيوعي الفرنسي ، اندرى برتون ، بأن لفرنسا ((حقا واحدا بتونس هو الجلاء))

(74) نشرت هذه الجبهة بيانا في جريدة (الصباح الصغير) في 23 فيفرى 1925 ، أمضاه أعضاء الحزب الدستورى ، والحزب الاصلاحي ، والمجلس الكبير التونسيون . وكان دوريل من بين واضعي البيان . أنظر: A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B 2-45,Pol.Tun. (Manifeste de l'accord des Partis), Le Petit Matin, du23/2/1925 p.4-5

(75) كون المعمرون الفرنسيون (جمعية المعمرين الفرنسيين بتونس) في بداية ماى 1924 ، وكانت لهذه الجمعية جريدة ناطقة باسمها هي (العمل الاستعمارى) هاجمت الحزب الدستورى بشدة واعتبرته متعاونا مع (جمعية عموم العملة التونسيين) للقضاء على المعمرين بتونس . أنظر: Tlili, "Des Rapports...", p.116-164.

(76) أنظر: A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B 2-45, Op.cit, Le Petit Matin, du 22/2/1925 et du 23/2/1925, p.1-4.

قصد بذلك ادماج النقابة التونسية في النقابة الفرنسية (77) .

ولم توافق بقية أعضاء الجبهة على هذا المطلب ،وأعلنت بالاجماع بعدم امتلاكها اية سلطة مباشرة على العمال ،ولكنها ستبذل ما في وسعها لاستعمال قوتها وتأثيرها عن طريق الدعاية الصحفية والخطب ،لكي تنصح العمال التونسيين بالاتحاد مع النقابة الفرنسية ،لاتمام التعاون في الميدان العملي (78) .

ويظهر ان الحزب الدستوري كان حذرا جدا من هذا التجمع . فبالاضافة الى البيان الذى وجهه الى الدستوريين في 22 فيفرى 1925 ، وأكد لهم فيه أن هذا التجمع كان هدفه فقط الدفاع عن مصالح التونسيين العامة دون المساس بمبادئ الحزب التسعة ، فانه أكد من جديد اثناء مناقشات الجبهة لمسألة (جمعية عموم العملة التونسيين) انه (الحزب الدستورى) بما انه سياسي محض ،ليست له اية سلطة على العمال الذين يكون تجمعهم (تعاونية اقتصادية) . وهذا الموقف يبين ان الموافقة على العمل والدعاية من أجل اقناع النقابيين التونسيين بضم جهودهم الى النقابيين الفرنسيين ،لم تكن من رأى الدستوريين وانما كانت تمثل رأى الاصلاحيين والاعيان والمجلس الذين وقفوا موقفا وسطا بين دوريل والدستوريين ((فحبذوا بان من واجبهم الاخلاقي توجيه العمال الى الطريق التي يرونها صالحة الى العمل الجماعي .)) (79)

ولعل سياسة الهروب هذه التي اتبعها الحزب الدستورى كان لها هدفان ،أولهما : الحفاظ على بقاء (جمعية عموم العملة التونسيين) تخدم مصالح الشعب وتدعم مطالب الحزب وتشد أزره . وثانيهما : ارضاء الجبهة التونسية باقناعها بوضع برنامج اصلاحي

---

(77) جوليان ،نفس المصدر ،ص 98–99 . وكذلك : A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B 2-45,Pol.Tun.,*le Petit Matin*, du 23/2/1925,p.4-5.

(78) أنظر : A.M.I./CDN/MN.Tunis N° B 2-45, Op.cit.,p. 4

(79) نفس المصدر .

من جهة وإيضاء الجبهة الائتلافية الفرنسية وإقناعها بالموافقة عليه من جهة أخرى · فكانت النتيجة هي الخضوع الى آراء د وريل ، وانفراد السلطة الفرنسية (بالجمعية) والقضاء عليها في صيف 1925 (80) .

وقد استغل بعض الدستوريين العاملين في صفوف جمعية عموم العملة التونسيين ، كالطاهر الحداد ، هذا الموقف وكشفوا عن ميولهم العدائية وتذرعوا تحت أغطية كثيرة ، ووصفوا الحزب بالجمود والخيانة · واشتد الصراع بين الطرفين خاصة لما أصدر الحداد كتابه (امرأتنا في الشريعة والمجتمع) دعا فيه الى رفع الحجاب عن المرأة المسلمة والى الاختلاط والخروج عن التقاليد والعادات الاسلامية · فاعتبره الحزب ملحدا وخارجا عن الشريعة الاسلامية ، · ووصف كتابه باسم (امرأتنا في الشارع والاجتماع) · ثم ان الحزب نشر بلاغا في جريدة (النديم) يوم 11 جوان 1932 بيّن فيه أسباب عداوة الحداد وصحبه له · وأعاد ذلك الى ان الحزب منذ نشأته يحرص على سلامة عقيدة الشعب من الخيانة والالحاد ، وأنكر ذلك على بعض التونسيين ، فتجمعوا وأخذوا يسيئون الى الحزب ويطعنون في كرامة رجاله (81) .

وكونت (الجبهة التونسية) وفدا من أعضاء المجلس الكبير سافر الى باريس ، ليعرض على الرئيس هيريو ، البرنامج الاصلاحي الذى احترم نظام الحماية ولم يخرج عن المطالبة بالتساوى بين النواب الفرنسيين والتونسيين بالمجلس الكبير ، وحقه الكامل في مراقبة المالية التونسية ، وتمكين التونسيين من جميع الوظائف العمومية ، وحرية الصحافة

---

(80) أوقفت سلطة الحماية محمد علي وحكمت عليه بالنفي في 28 نوفمبر 1925 ، فانتهت جمعيته معه · أنظر :
— خالد ، ص 195—196 ·

(81) طالع (خالد ، أضواء) ، ص 388 ، نقلا عن (النديم) و (الوزير) المؤرخة في 13 نوفمبر 1930 ·

والتجمع (82) . وفي نفس الوقت سافر احمد الصافي على رأس وفد دستوري الى باريس وطالب بانجاز مطالب حزبه التسعة . وقدم لها شروحا ضافية سنتناولها في فصل لاحق . وأظهر هيريو رغبته في الاهتمام بمطالب الجبهة ، فكون لجنة خاصة لدراسة أوضاع تونس ، ومنح رئاستها الى المقيم العام لوسيان سان . وتركزت مهمتها على دراسة بعض الاصلاحات التي يمكن احداثها بناء على اصلاحات 1922 ، وامكانية تطوير القانون التونسي . وقد حلت هذه اللجنة بتونس يوم 23 ماي 1925 وتوصلت الى تحديد بعض الاقتراحات لتقدمها الى الرئيس الفرنسي ، اذ لم تكن لها اية سلطة على أخذ القرار . ونتجت عن أعمالها في الاخير بعض الاقتراحات الادارية لم تغير من الامر شيئا (83) .

ومن المؤكد ان لوسيان سان كان له اثر على أعمال اللجنة واهتماماتها . وهو الذى انكر على الصحف الباريسية قولها ان التونسيين لم يكونوا ممثلين في مجالس النواحي سوى بثلث الاصوات الاستشارية . وقال انهم ممثلون بثلثين وانهم سائرون في طريق التحسن وان حكومته مهتمة بتطبيق الاصلاحات الضرورة تدريجيا (84) .

هذه هي بعض مواقف الحزب الدستوري من الاحزاب والجمعيات الوطنية . ولربما كان ائتلافه معها ومع الاشتراكيين الفرنسيين ، هدفا استراتيجيا ، يضمن من ورائه تلبية حكومة هيريو اليسارية لمطالبه . ولما غضت هذه الطرف عن ذلك ، وركنت لاقتراحات المقيم العام ، عاد الحزب الدستوري الى عمله المعتاد والتركيز على حقوق التونسيين وانجاز مطالبه التسعة .

وقد بقيت الشقة واسعة بين الحزب الدستوري والحزب الاصلاحي الذى انحل من

---

(82) للاطلاع على هذه المطالب انظر برقية الحزب الاصلاحي في :
A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B 2-45, *Pol.Tun. Un.Réf. Télégramme du Parti Réformiste à M. Lucien Saint, Le Petit Matin, du* 23/2/1925, p.37-38.

(83) أنظر : *Op. cit., Interview de Lucien Saint,* p.46-47.

(84) نفس المصدر .

تلقاء نفسه سنة 1926، وبقيت جريدة (النهضة) تسير في نفس الخط . وبينما كانت في ايامها الاولى توجه انتقاداتها الى الحزب الدستوري فقط ، فانها فتحت جبهة أخرى على المجلس الكبير . وجاء في جريدة (لسان الشعب) المؤرخة في جانفي 1929 ، انه بينما أدى انشقاق الحزب الاصلاحي عن الدستور الى تأخر انجاز الاصلاحات الحقيقية بعدة سنوات ، فهاهم أصحابه ، اليوم يفرقون صفوف أعضاء المجلس الكبير التونسيين الى أقلية وأكثرية . ويمثل الاقلية المنابي واللزام والطاهر بن عمار ، ينفذون ايعازات زعيمهم حسن قلاتي ، وانضم اليهم آخرون كاليهوديين شارل كوهين وأوجسين بسيس . ويمثل الاكثرية شنيق ، والتوكابري ، وابن عطية . ويعود سرّ مهاجمة (الاكثرية) الى انهم كانوا دستوريين فيما قبل . وقد فسرت جريدة النهضة ذلك بأن الحزب الدستوري لم يرشح أحدا للمجلس الكبير وانما ترك مكانه لاصحاب الاكثرية (85).

ومع ان هذا التفسير لا يخلو من أغراض حزبية ، فانه كان يحمل في طياته معاني أخرى كتعاطف الحزب الدستوري مع شنيق وابن عطية والتوكابري ، لانهم لم يكونوا حزبا مضادا له ، مثل ما فعل حسن قلاتي وصحبه . اما فيما يخص ترك مكانه (لاصحاب الاكثرية) فاننا نستبعد ذلك ، لأن الحزب الدستوري كان يتجنب العمل تحت قبضة الفرنسيين ، وهؤلاء أيضا لا يريدون ذلك الا بشروط قاسية أقلها حل الحزب والتنازل عن مطالبه الدستورية .

واستمرت جريدة النهضة تهاجم الحزب الدستوري وتطعن في شخصية رجاله وتمس كرامتهم وتسفلت في مخاصمتهم . واكتفى الدستوريون بوصف أصحابها بالمفسدين والمشاغبين والكاذبين ، وأصحاب الدس والتحريض ، والتفرقة والشقاق . يبقي حسن قلاتي مؤمنا باستحالة استمرار حياة تونس منفصلة عن فرنسا ، فضمن بهذا الموقف مساعدة الحزب الاشتراكي الفرنسي له (86) .

---

(85) أ.و.ل.م.، ت.ق./ح.و. تونس ، رقم 60-A 1 (حوادث محلية : ملحوظات الاقلية والاكثرية : ميتر نعمان والحزب الاصلاحي ــ الصغير بن ناصر ــ النهضة تدس وتوشي) ، جريدة لسان الشعب ، الصادرة في 2 جانفي 1929 .

(86) أنظر : A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° A 1-60, (France dif.Tun.), p.675-676

5– تأسيس الجمعيات :

لم نتوصل الى معرفة أشياء كثيرة من اهتمام الحزب الحر الدستوري التونسي بتأسيس الجمعيات بتونس . وكل ما توصلنا الى معرفته عن هذا الموضوع كلام يكاد يكون مبتورا ، عن محاولات لتأسيس (جمعية الطلبة التونسيين) و (جمعية الشبان التونسيين) و (جمعية الشبان المسلمين) .

وقد أشارت دورية (افريقيا الفرنسية) الصادرة في نوفمبر 1925 ان بعض التونسيين وعلى رأسهم حسن قلاتي (زعيم الحزب الاصلاحي) ، كانوا يعملون على جمع كلمة الطلبة التونسيين (87) . وقد اجتمعوا لأول مرة في اكتوبر 1925 بالمدرسة الخلدونية للبحث في تنظيم (جمعية الطلبة التونسيين) . وكان هدف هذه الجمعية العمل على مساعدة الطلبة التونسيين ماليا لانهاء تعليمهم واتمام دراساتهم و تكوينهم في فرنسا وخارجها . و يبدو ان سلطة الحماية كانت تعارض هذه الفكرة ، فلم ترد على الطلب الذى وجهه لها التونسيون في شأن تأسيس هذه الجمعية (88) .

وعلى الرغم من هذا الموقف غير المشجع فان الجمعية قد تأسست ، وأعطيت رئاستها الى الاستاذ نيونجلاوسكي (*Niewenglowski*) ، أستاذ الرياضيات بثانوية كارنو . وأعلنت جريدة النهضة الصادرة في 21 اكتوبر 1925 : ان جمعية الطلبة التونسيين تهدف فقط الى تنظيم قافلة لزيارة فرنسا . وقد اجتمع رأى الجمعية على تكوين رأس مال من التبرعات لمساعدة الطلبة المحتاجين الى التكوين في المعاهد الفرنسية . ونددت جريدة (النهضة) أيضا بالحملة التي شنتها جريدة (تونس الفرنسية) واتهامها جمعية الطلبة

---

(87) علقت جريدة (تونس الفرنسية) الصادرة في 17 اكتوبر 1925 على تكوين هذه الجمعية فقالت ان حسن قلاتي هو أحد الداعين لها ، ويساعده على ذلك بعض مترجمي وزارة العدل .

(88) أنظر : "*La situation de la Tunisie*", *Afrique française*, N°11, 35 année, (Novembre, 1925), p.576-578.

بالتدخل في الأمور السياسية ، مما أدى بالتونسيين الى الهروب منها والابتعاد عنها ٠ وأنكرت جريدة (النهضة) هذا الأمر على الجمعية وأكدت طابعها العلمي موضحة أنه من شروط هذه الجمعية أن لا تخوض في المسائل السياسية بحال ٠فهي شبيهة بالجمعيات الاوروبية والفرنسبة (89) .

وتكونت هذه الجمعية برئاسة عمر بكوش ، وبعضوية حسن قلاتي ، ومصطفى صفر ، الموظف بمديرية الداخلية ، وبشير العنابي ،عضو المجلس الكبير سابقا ، والتلاتلي ، والدكتور قرطبي ، ومحمد بوهاشم ، ملاك ، ومصطفى الكماك ، محامي ، وعبد الرحمن الكماك ، وكيل ، ومحمد بورقيبة ، نائب رئيس مكتب المحاسبة في وزارة الداخلية ، والعربي مامي ٠ أما أعضاؤها الدستوريون فهم احمد الصافي ،الكاتب العام للحزب الدستورى ، وصالح فرحات ، نائب الكاتب العام للحزب الدستورى ، والدستورى القديم علي كاهية ، والشاذلي خير الله بن مصطفى ، المحرر في جريدة (الحر) الدستورية ، والشاذلي الخلادى ، أمين مديرية المصالح العدلية والمحرر بجريدة (الحـــــر) الدستورية (90) .

ودعت دورية (افريقيا الفرنسية) حكومة الحماية الى مراقبة (جمعية الطلبة التونسيين) التي ليست الآ تجمعا سياسيا — حسب الدورية — ونبهت السلطة الى خطورة الأمر وان تكون يقظة امام مقولات الصحف الدستورية التي تعتبر هذه الجمعية (جمعية علمية) (91). ولئن كانت هذه الجمعية علمية كما أكد ذلك أصحابها ، فانها لا تخلو من الهدف السياسي الذى حذرت منه الدورية حكومتها الاستعمارية ، والذى يتمثل في تربية الطلبة التونسيين تربية وطنية تدفعهم في المستقبل الى شد أزر الحركة الوطنية على اختلاف اتجاهاتها ٠

(89) أنظر دورية (افريقيا الفرنسية) نفس المصدر ، نقلا عن جريدة (النهضة) ، الصادرة في 21 أكتوبر 1925 ٠

(90) أنظر : "*La situation...*", *Afrique française*, N°11, (Nov.1925) p.576-578.

(91) نفس المصدر ٠

ولنا في النخبة التونسية كالحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف وغيرهما أصدق دليل على ذلك.

ولم تكن (جمعية الطلبة التونسيين) دستورية بحتة، ذلك ان الحزب الدستوري لم يهتم على ما يظهر بتأسيس الجمعيات الا في مؤتمره المنعقد في ديسمبر 1927، اذ قرر تكوين جمعية للشبان التونسيين تعمل على نشر الروح الوطنية في أوساط الشباب التونسي مثلما هو الأمر في البلدان الأخرى (92).

واذا كانت (جمعية الطلبة التونسيين) قد جمعت في صفوفها الاصلاحيين والدستوريين والموظفين، فان (جمعية الشبان التونسيين) قد خصصت فقط للطلبة المسلمين التونسيين وتقع تحت اشراف الحزب الدستوري وحده. وقد بدأت تظهر الى الوجود في شهر مارس 1928 خلال الاجتماع الذى ترأسه محيي الدين القليبي، مدير مكتب ديوان الحزب الدستوري، بنادى الحزب، والذى دعا فيه الحاضرين الى المساهمة في تأسيس هذه الجمعية (93).

وقد وجد القليبي معارضة من طرف بعض الدستوريين في كيفية تأسيس هذه الجمعية. فرأى بعضهم انه يجب أن تضم جميع العناصر من طلبة وعمال وفلاحين وجنود دون تمييز ديني. وان يكون لها هدف واحد وهو العمل على الغاء النظام الاستعمارى والمطالبة بالاستقلال (94). وحصرها القليبي في الطلبة المسلمين التونسيين الذين يجب أن يعملوا على مساعدة الطلبة الفقراء، وان لا يخوضوا في مجال السياسة (95).

والواضح ان القليبي كان يرى في هذه الجمعية مدرسة لتكوين الشباب وتدريبهم على أساليب الكفاح لخوض المعارك السياسية في المستقبل. اما معارضوه — وكان على

(92) أنظر: "Tunisie: La propagande communiste...le communiste Chadly Khairallah", Afrique française, N°4, 38 année, (avril, 1928), p.147-148.

(93) أنظر: "Tunisie: La propagande communiste en Tunisie", Afrique française, N°3, 38 année, (mars 1928), p.107-109.

(94) نفس المصدر، ص 109.

(95) نفس المصدر، وكذلك "Tunisie:..", Af.fse, N°4(avril 1928), p.148.

رأسهم الشاذلي خير الله — فكانوا يرون فيها جمعية اصلاحية اجتماعية تهدف الى حرية الفرد في التعلم والفكر والعمل على الطريقة الشيوعية .

ويبدو أن الحزب الدستوري قد وضع قانونا أساسيا لهذه الجمعية وعرضه على سلطة الحماية فرفضته ، الأمر الذي أدى بالحزب الى تقديم احتجاجه لدى جمعية مقاومة الاستعمار الاممية موضحا لها : ((ان الجمعيات والمؤسسات لا يرخص في ايجادها في تونس حتى لو كانت علمية او أدبية أو رياضية . والنقابات يجب أن تكون تابعة لمؤسسات فرنسية لا يديرها الا فرنسيون ، والا منعت من التكون .)) (96)

وبالاضافة الى هاتين الجمعيتين هناك جمعية أخرى عرفت تحت اسم (جمعية الشبان المسلمين) . ويظهر ان طابعها يختلف عن الجمعيتين الاولتين . فهذه الجمعية تعتبر فرعا من فروع جمعية الشبان المسلمين بمصر . وذلك ما يشير اليه صاحب جريدة (الوزير) التونسية في اكتوبر 1928 بقوله : ((ان جمعية مثل التي أسست بمصر يجب تأسيس فرع لها بتونس .)) (97)

وقد بدأ العمل بتونس على تأسيس هذه الجمعية في اكتوبر 1928 ، وتكونت لها هيئة وقتية سهرت على وضع أركانها . ولعل من أبرز اعضائها محيي الدين القليبي والطيب بن عيسى ، صاحب جريدة (الوزير) . وكانت تهدف الى الاصلاح الاجتماعي والديني والنهوض بالمسلمين التونسيين وحملهم على اتباع كتاب الله وسنة رسوله ، وبعث فيهم الروح التربوية القومية الحقة والوحدة الاسلامية (98) . ومن دون شك انها كانت نواة لجمعية الاخوان المسلمين بتونس خاصة واننا نعلم ان محيي الدين القليبي قد أصبح في الثلاثينات والاربعينات من أبرز أعضاء جمعية الاخوان المسلمين في مصر والشام ؟ فلعل

---

(96) "الجمعيات في تونس" ، مجلة الفتح ، عدد 119 ، السنة 3 ، (11 جمادى الاولى 1347هـ / 25 اكتوبر 1928) ، ص 300 .

(97) "في تونس ... جمعية الشبان المسلمين" ، مجلة الفتح ، عدد 122 (8 جمادى الآخرة 1347هـ / 20 نوفمبر 1928م) ، ص 345–346 .

(98) نفس المصدر .

بداية اتصاله بهم كانت سنة 1928 ، وما كانت (جمعية الشبان المسلمين) بتونس الا بوحي منهم على يد القليبي ومن آمن بفكرته .

وحتى شهر ماي 1929 كانت نداءات بعض المصلحين التونسيين متواصلة لتكوين هذه الجمعية . ويظهر أنها انحصرت في اهتمام المصلحين الدينيين والاجتماعيين . وكانت الوسيلة التي اتبعها هؤلاء الدعاة لترويج فكرتهم ، هي الصحف العربية ، مثل جريدة (النهضة) التونسية ، التي نشر فيها أحد التونسيين ، وهو محمد الحليوي ، مقالا دعا فيه الشبان التونسيين الى المساهمة في تكوين جمعية لهم . وكان لدعوته صدى كبير في الأوساط التونسية ، مما جعل المسمى احمد كركر ينشر مقالا في جريدة (لسان الشعب) التونسية ، أيد فيه رأى الحليوى ، وبين الأسباب التي تجبر المسلمين على تكوين مثل هذه الجمعية . وهي ((نشاط أعمال المبشرين المسيحيين من جهة واضطراب فكرة التجديد وانطوائها أحيانا على روح عدائية للاسلام من جهة أخرى . كل ذلك مما يوجب على طالبي النهوض الحقيقي من شبان الاسلام أن يبادروا الى تأسيس جمعية للشبان المسلمين تنظم جهود التقدم النافع وتسيره على برنامج واضح للاصلاح القائم على أساس الوفاء للاسلام .)) (99)

وقد انتهى المصلحون التونسيون في نهاية شهر ماي 1929 من وضع مشروع نظام (لجمعية الشبان المسلمين) ، وعزموا على تقديمه الى الحكومة التونسية للمصادقة عليه (100) .

فهل يا ترى كتب لهذه الجمعية أن تبنى أركانها وتنفذ مشروعها ؟ هذا ما لا نستطيع الاجابة عليه الآن . وما دامت المصادر تعوزنا لمعرفة تفاصيل أكثر عن أحوال هذه الجمعيات ، فان الاجدى بنا الوقوف عند هذا الحد والاكتفاء بما ذكرناه .

---

(99) "تونس وفكرة جمعية الشبان المسلمين" ، مجلة الفتح ، عدد 147 ، السنة 3 ، (القاهرة ، الخميس 29 ذى القعدة 1347هـ/ 9 مايو 1929) ، ص 787 .

(100) "جمعية الشبان المسلمين في تونس" ، مجلة الفتح ، عدد 149 ، السنة 3 ، (القاهرة ، الخميس 21 ذى الحجة 1347هـ/ 30 مايو 1929) ، ص 773 .

6– مع الطائفة اليهودية :

تعود علاقة الحزب الدستوري بالطائفة اليهودية التونسية الى نهاية 1919، حينما كان الثعالبي بباريس يتلقى نصائح من محمد باش حامبة بالتعاطف مع اليهود التونسيين وافهامهم ان المعمرين هم الذين غرسوا روح الكراهية بين المسلمين واليهود، وهم الذين منعوهم من ارتقاء الوظائف، بينما طالب المسلمون بتسلمهم اياها حتى القضائية منها. وأكد محمد باش حامبة على الثعالبي ضرورة الاستعانة باليهود في ادارة الجرائد وتمويلها (101).

ولعل محمد باش حامبة كان يهدف الى جمع كلمة التونسيين واليهود حول حزب واحد لمواجهة استبداد سلطة الحماية، ولعله كان – أيضا – يفرق بين يهود الخلافة العثمانية من أهل الذمة، واليهود الصهاينة. وقد اتفق مع الثعالبي في هاتين النقطتين الاستراتيجيتين، بالاضافة الى أنهما كانا يرميان الى ابعاد استراتيجية أخرى على المستوى الوطني تمثلت خاصة في ابعاد يهود تونس عن الحركة الصهيونية والتأثير الفرنسي من ناحية والاعتماد على نفوذهم المادى والدعائي من ناحية أخرى لتدعيم حزبهم الوطني. ويظهر لنا ذلك من قول باش حامبة الى الثعالبي : ((لقد سمعت ان الشاب الاسرائيلي حبابو، سينهي امتحاناته في الطب في شهر مارس المقبل. وهو قريب اليهودى الذى التقيته أنت بمرسيليا. يجب أن تثق بالشباب اليهود لنشر دعوتنا في أوساط مواطنينا اليهود. ويكون مهما جدا لو أن شبابنا المسلمين يعاملونهم كاخوتهم.)) واستخلص نائب الاقامة العامة من رسائل باش حامبة المذكورة ان هذا قد التقى بالطبيب اليهودى بجنيف واستعان به في بث الأفكار الوطنية بين يهود تونس (102).

وكان باش حامبة سعيدا بما كان يبديه له الثعالبي حول تقبل الشباب اليهود

---

(101) أنظر : *A.Q.O./S.T.1917-40, N°319, Lettre Délégué Résident Général Tunis au Président du Conseil, (Lettres Bach Hamba à Taâlbi, le23/9 et 2/11 1919).*

(102) أنظر : *Op.cit., (Lettre Bach Hamba à Taâlbi, du 8/1/1920)*

لفكرته . مما حمله على القول : ((يجب اقناعهم ان الاتحاد هو أحسن لنا ولوطننا . وبما أننا (المسلمين) نشكل الاغلبية فمن واجبنا ان نمد لهم يدا عادلة وصادقة . عليك بنشر المقالات تبين فيها أعفاء اليهود من الخدمة العسكرية ، وفتح أبواب التوظيف أمامهم حتى القضائية منها وقيادة النواحي .)) (103)

وقد عمل الثعالبي بنصائح باش حامبة ، ونصح النخبة التونسية بالتعاطف مع اليهود التونسيين والاعتماد عليهم . فكتب له الشاذلي القسطلي في 23 آوت 1919 يخبره أن التقارب قد تم بين النخبة والمواطنين المسلمين واليهود (104) .

وقد لاحظنا اهتمام التونسيين بموضوع اليهود منذ بداية تأسيس الحزب الدستوري ، وذكرنا منحهم مسؤوليات هامة في ادارته ، ونيتهم في تأسيس جريدة تنطق بلسان الحزب باللغة العبرية . غير أن اليهود التونسيين لم يشاركوا في ادارة الحزب ولم يحضروا اجتماعاته ويظهر أن رفضهم لذلك كان سببه اختلاف طريقة العمل والهدف المقصود . وربما كان تطرف الدستوريين من الاسباب التي جعلت اليهود يبتعدون عنهم ويميلون الى ذوى الاتجاه المعتدل وعلى رأسهم حسن قلاتي . فقد أشار تقرير الشرطة الخاصة بمراقبة الأهالي بتاريخ 9 جويلية 1920 ، الى تكوين لجنة برئاسة السيد فابر (Fabre) ، مدير جريدة (صيحة المساء) ، وحسن قلاتي ، واحمد السقا ، وراضي بن الشاذلي بن فرحات ، واليهود بسموت (Bismut) وشماعة (Samama) وسماجة (Smadja) ، وبعض الشخصيات الاخرى يهودية ومسلمة (105) . وكان هدف هذه اللجنة هو تكوين كتلة من

---

(103) أنظر : A.Q.O./S.T.1917-40, N°319, Op.cit, (Bach Hamba à Taâlbi, le 17/1/1920)

(104) أنظر : A.M.I./CDN/MN.Tunis, N°B 3-13, Rap.Baron, p.29.

(105) أنظر : A.Term.T. /S/MN., C.2, Note, Police Spéciale, (Surveillance indigène), Tunis, le 9/7/1920.
A.Q.O./S.T.1917-40, N°318, Lettre Délégué de la Résidence de France à Tunis à M.Millerand, Président du Conseil, Ministre des Affaires Etrangères, Tunis le 11/8/1920 (A/s Parti Jeune Tunisien), p. 91-93.

النخبتين اليهودية والمسلمة للحصول على دستور لتونس. ولاحظ نفس التقرير ان المسلمين كانوا يأملون من وراء تكتلهم مع اليهود ،استغلال نفوذ هؤلاء بفرنسا لتسهيل تلبية رغائبهم . وقد انتشر خبر هذه اللجنة في الاوساط الاسلامية واليهودية فتلقتها بصدر رحب وجمعت لها التبرعات المالية . وذكر التقرير أن الوفد الدستوري الذي كان حينئذ بباريس قد طلب الاعانة المالية من هذه اللجنة . فوضع حسن قلاتي تحت تصرفه صكا بمبلغ 15000 فرنك من أموال اللجنة ،وذلك في انتظار جمع أموال أخرى (106) .

وأصبحت هذه اللجنة في بداية اكتوبر 1920 تعرف باسم (الاتحاد اليهودي — الاسلامي) حسب ما جاء في تقرير الشرطة الخاصة الذي حدد أعضاء الاتحاد بعشرين فردا ،نصفهم مسلمون والنصف الاخر يهود . وكان من بينهم ،بالاضافة الى الاعضاء السابقين ، محمد التليلي ،وصالح بن يحيى ،والمدعو بلخوجة (صديق الثعالبي) ،ومحمد الجعايبي (صاحب جريدة الصواب) . وكان لهذا الاتحاد جريدة تنطق باسمه وتدافع عن حقوقه بتونس تسمى (تونس الجديدة) . وقد صدر أول عدد لها يوم الاحد 3 اكتوبر 1920 . وسجل نفس التقرير ان هذا الاتحاد كان يتعاطف مع الثعالبي ،وكان ينوى ارسال وفد لباريس للمطالبة (بالدستور) والافراج عن الثعالبي . ولعل الفضل في ذلك يعود الى الدستوريين أعضاء الاتحاد الذين كان هدفهم جمع كلمة التونسيين (مسلمين و يهود) في صف واحد (107) .

والواضح ان مفهوم (الدستور) كان له معنى آخر في نفوس اليهود ،اذ ذكر تقرير الشرطة الخاصة ،بتاريخ 22 اكتوبر 1920 ،ان (الاتحاد اليهودي — الاسلامي) يفكر في ارسال وفد مشترك الى باريس لاعادة المطالبة بالدستور و بسط أمر الاتحاد مع صهاينة باريس ،والرابطة الاسرائيلية العالمية هناك . ولعل هذه الفكرة هي أساس حل هذا الاتحاد (108) .

---

(106) أنظر: A.Ier.M.T. /S/MN. C.2, Note Police, le9/7/1920

(107) أنظر: op. cit. le9/10/1920

(108) أنظر: Op.cit., le 22/10/1920

غير أن هناك سببا آخر اكثر وضوحا ربما كان مبررا مباشرا لاحتجاج أعضاء الاتحاد المسلمين واستقالتهم منه • فقد وقع اجتماع الحزب الاشتراكي الفرنسي بأعضاء الاتحاد مساء يوم 21 اكتوبر 1920 بمقهى فرنسا بتونس، حضره دوريل، وانطونيني (Antonini)، العامل بالبريد، والجيلالي بن مزالي، الموظف بالحكومة التونسية، وموريس ميمون، ونحوم مدير ومحرر جريدة (تونس الجديدة)، والمحامي شالم، وأثيرت فيه قضية هذا الاتحاد (109).

ومن دون شك ان الاشتراكيين الفرنسيين، وعلى رأسهم دوريل، قد أثروا في أعضاء الاتحاد اليهود فغيروا مفاهيمهم نحو الدستوريين أو بالاحرى وضحوا لهم مقاصدهم الحقيقية ومفهومهم المعتدل (للدستور) الذى سيتطور عندهم بعد حين الى مفهوم ادماجي كما سنبين ذلك بعد قليل • وقد أحدثت هذه المفاهيم عاصفة اجتاحت (الاتحاد اليهودى ـ الاسلامي) في نهاية نوفمبر 1920، فقدم ستة أعضاء مسلمين استقالتهم من عضويته • وأدى ذلك الى ضعف الاتحاد رغم ما بذله قادته من جهد للمحافظة على قوته، وعلى رأسهم اليهوديان سماجة، وبسيس، وحسن قلاتي، وابن رمضان (110).

وقد بدأت الامور تتضح منذئذ وكشف اليهود عن نواياهم الحقيقية • وفاتح البير بسيس اثناء اقامته بباريس في شهر نوفمبر 1920، الرابطة الاسرائيلية العالمية وعددا كثيرا من البرلمانيين اليهود، في قضية (الاتحاد اليهودى ـ الاسلامي)، فرفضت الرابطة تدعيمها له رفضا مطلقا (111).

واذا كان الدستوريون قد عملوا على جمع كلمة المسلمين واليهود التونسيين معا، وتوحيد الصف ضد العدو الفرنسي، فان الشعب التونسي المسلم رفض هذا الاتحاد من أساسه، وذلك رغم ما بذله الاتحاد من جهود، وتأسيسه الخلايا بمختلف المدن وما وزعه من مناشير باللغة العربية داعيا فيها الناس الى الانخراط فيه • ومن الطبيعي أن

---

(109) نفس المصدر.

(110) أنظر: A.Ter M.T. /S/MN. C.2, Note Police, le27/11/1920

(111) أنظر: Op . cit. , le 30 /11/1920

يقع الاختلاف في وجهة النظر بين السياسيين وبين الناس العاديين . وان رفض الشعب لهذا الاتحاد لم تكن وراءه مفاهيم حضارية ولا ابعاد سياسية، وانما انطلق من واقع الحياة اليومية التي طغت فيها الحيل اليهودية وسادت فيها دسائسهم وخياناتهم للمسلمين ونهب أموالهم وانتهاك حرماتهم . فقد قابل الشعب دعاية لجان (الاتحاد) الدعائية بسوسة، وصفاقس، وسوق الاربعاء، وتوزر، وقفصة، بالرفض العام . وبينما نال هذا الاتحاد بعض الأنصار في مدن الشمال — صوتان في سوسة، وخمسة أصوات في صفاقس — فاننا نراه يقابل بالرفض التام في مدن الجنوب، وخاصة مدينة قفصة التي أرسلت خليتها (الدستورية) مبعوثا الى تونس كلفته بالقيام بحملة صحفية ضد هذا الاتحاد (112).

ولعل ذلك يعود الى الطابع الريفي الذى كان عليه الشعب في هذه المناطق وتمسكه بالاسلام من جهة والى ما كان يقوم به اليهود هناك من أعمال دنيئة من جهة ثانية . وهناك أيضا نظرة المسلمين الدنيا لليهود عبر التاريخ .

ومع ان العمل لم يسبق مشتركا بين اليهود والدستوريين، فان التعاطف بقي سائرا بين الطرفين ذلك اننا نجد الاتحاد يحافظ على اسمه (الاتحاد اليهودي — الاسلامي)، ويشترك مع الحزب الاشتراكي الفرنسي في ديسمبر 1920، في تنظيم احتفال بمناسبة اطلاق سراح الشيخين صالح بن يحيى ومحمد الرياحي . ورغم ان هذا الاحتفال لم يقع في التاريخ المحدد بسبب موت والد الاشتراكي الفرنسي "اندرى انجليفيال"، فانه كان تعبيرا على انسانية منظميه وحنكتهم السياسية في كسب عطف الجميع (113).

ولعل ما كان يمنع اليهود من التعاون مع الدستوريين تعاونا كاملا هو مصالحهم مع فرنسا والكولون، ولذلك ظل هذا الاتحاد يربطهم مع بعض المسلمين المعتدلين وعلى رأسهم حسن قلاتي، ومحمد نعمان، والطاهر بن عمار، والجيلاني بن رمضان . وجميعهم كانوا يميلون الى التعاون مع سلطة الحماية وقبول الاصلاحات الفرنسية

---

(112) نفس المصدر .

(113) أنظر : A.1er M.T. /S/MN. C.2, Note Police, le17/12/1920

التدريجية ولعل هذا هو المفهوم الحقيقي للدستور الذى طالب به (الاتحاد اليهودى ــ الاسلامي) منذ بدايته • وعمل جميعهم على تدعيم هذا الاتحاد • وذكر تقرير الشرطة الخاصة المؤرخ في 17 فيفري 1921، ان اعضاء الاتحاد اجتمعوا في مكتب الجيلاني بن رمضان بنهج انكلترا بتونس ، ودرسوا موضوع انشاء بنك يهودى ــ اسلامي ، والاستعانة بأحد الاغنياء الامريكيين من معارف الجيلاني بن رمضان ممن كانت تربطهم به علاقة تجارية (114) .

وبدأ هذا (الاتحاد اليهودى ــ الاسلامي) يتلاشى منذ منتصف سنة 1921 ، وبقيت مشاريعه خيالية لم تدخل طور الانجاز • ففي هذا الحين كون أعضاء الاتحاد المسلمين حزبا لهم سموه (الحزب الاصلاحي) الذى تعرضنا اليه قبل قليل ، ومال اليهود الى المطالبة بالتجنس الجماعي ، على غرار يهود الجزائر • ومع ذلك فان العلاقة بين اليهود والمسلمين ظلت متينة على المستوى الشخصي خاصة بين كبار القوم ، ودام هذا التعاطف الى آخر ايام الحزب الحر الدستورى الذى أصبح يعرف (بالقديم)(115) .

ومع ان اليهود كانوا يميلون الى التفرنس منذ بداية الاحتلال ، فانهم بعد الحرب العالمية الاولى أصبحوا ، بحكم ثقافتهم وانسلاخهم من تقاليدهم ، أكثر قابلية للتجنس بالجنسية الفرنسية • وراحوا يطالبون بذلك منذ سنة 1923 ودعمهم بعض البرلمانيين الفرنسيين ومن بينهم سيمون رينو (Simon Reynaud) الذى نادى سنة 1925

---

(114) أنظر : A.Ier M.T. /S/MN. C.2, Note Police, le17/2/1921

(115) ذكر محمد الحبيب شلبي ، عضو الحزب الدستورى القديم اثناء محاكمته سنة 1952 بتهمة النيل من شرف الجيش الفرنسي والتسبب في التباغض بين الاجناس ان المحاميين اليهوديين : جاك شمامة وراؤول بن عطار قد تطوعا للدفاع عنه • وكان حمزة الزعار ، الدستورى القديم ، هو الذى طلب منهما ذلك نظرا للعلاقة التي كانت تربطه باليهود منذ السنوات الاولى لانبعاث الحزب الدستورى • أنظر :
ــ شلبي ، " لجنة التحقيق • • • " ، ص 111 ــ 124 •

بمنح الجنسية الفرنسية الى أغلبية الطائفة اليهودية . واذا كان لهذه الحماية مبرر ، فأولها هو مزاحمة الجاليات الاخرى الايطالية والمالطية في الميدان الاستيطاني ، والضغط على المسلمين للذوبان في الحضارة الاوروبية (116) .

وقد صرح المحامي اليهودى سليمان تيبي (*Salomon Tibi*) في نهاية مارس 1925 ، الى لجنة دراسة الاصلاحات التونسية : ((ان اليهود يريدون المحاكم الفرنسية لكي يتخلوا عن القضاء الحاخامى .)) وانقسم لذلك يهود تونس على أنفسهم بين مؤيد ومعارض لقول المحامي تيبي . فأرسل المعارضون ، وعلى رأسهم البير شملا (*A.Chemla*) (117) برقية احتجاج بتاريخ 28 مارس 1925 الى المقيم العام لوسيان سان ، رئيس اللجنة ، عبروا فيها عن عدم رضاهم على تصريح المحامي تيبي الذى تخلى للجنة عن مطامح يهود تونس الحقيقية ، وعبروا عن ثقتهم بسعة اطلاع لجنة الاصلاحات ، وطلبوا منها تحقيق المطالب الخمسة التالية التي تمثل ارادة يهود تونس :

1 — المساواة المطلقة والحقيقية بين المسلمين واليهود التونسيين في الميادين الادارية والقضائية ، وتعيينهم في الوظائف العامة ، وارتقاؤهم في المناصب القضائية التونسية ، ومن ثم الخدمة العسكرية في الجيش التونسي .

2 — امكانية اختيار القضاء الفرنسي لليهود الراغبين في ذلك .

3 — الحفاظ المطلق على المحاكم الحاخامية من أجل تكذيب ادعاء المحامي

---

(116) أنظر : *Kraiem, Nat.Synd., p. 259-260*

(117) احتج هؤلاء اليهود في مدينة صفاقس ، وكان من بينهم فكتور كوهن ، الشهير بعلوم التلمود ، وفيليكس عكوش ، مدير جريدة (اليقظة اليهودية) . أنظر : *A.M.I./CDN/MN.Tunis, N°3 2-45, La Politique Tunisienne à Sfax, le Petit Matin, du 29 mars 1925, p. 48 .*

تيبي من أن اليهود يبحثون عن المحاكم الفرنسية لكي يتخلوا عن القضاء الحاخامي .

4 — حق الانتخاب بالتصويت العام في جميع المجالس .

5 — توسيع التجنيس امام اليهود التونسيين الراغبين في ذلك والمعبرين عن حبهم لفرنسا (118) .

ومع رغبة اليهود في التجنيس والدخول في السلك الوظيفي الفرنسي وتدعيم بعض البرلمانيين الفرنسيين لهم ، فان هذه الرغائب لم تتحقق كلها جماعيا لعدة أسباب ، منها معارضة الاقامة نفسها ، وعلى رأسها لوسيان سان ، الذى اعتبر تجنيس اليهود خطرا على الفرنسيين لأن بأيديهم أموال التجارة والصناعة والمهن الحرة ، فلو أصبحوا كلهم يتمتعون بالجنسية الفرنسية لاستغلوا جميع الوظائف الهامة كالمحاماة والطب لصالحهم (119) .

وقد عارض الحزب الدستورى عملية تجنيس اليهود بشدة واعتبرها اعتداء على السيادة التونسية . وكون لجنة سنة 1926 للدفاع عن هذه القضية والدعاية ضد تجنيس اليهود التونسيين . وسخر جرائده لنشر هذا الشعور بين المسلمين واليهود التونسيين . واستمر هذا العمل سائرا خاصة بين سنوات 1926و1929 (120) . وبالاضافة الى ذلك فان اليهود أنفسهم كانوا نافرين من التجنس الجماعي ، وبقوا متمسكين بالشريعة اليهودية ، ولعبت بينهم الحركة الصهيونية دورها في ايقاظ الشعور القومي اليهودى (121) .

وحتى نهاية سنة 1932 ، كان اليهود منقسمين بين متجنسين بالجنسية الفرنسية ويهود تونسيين ، ولم يتغير موقف سلطة الحماية ، والحزب الدستورى منهم . وقد

---

(118) نفس المصدر ، ص 48—49 .

(119) أنظر : (كريم ، الحركة الوطنية والنقابية ، ص 260—261) ، نقلا عن رسالة المقيم العام لوسيان سان ، الى وزارة الخارجية ، بتاريخ 24 جانفي 1925 .

(120) أنظر : *"La situation de la Tunisie", Afrique Française, N° 6, 35 année, (Juin 1925), p. 274-280.*

(121) أنظر : *Kraïem, Nat.Synd., p.260-261.*

اتبعت سلطة الحماية معهم أسلوب التجنيس التدريجي ، واستمر الحزب الدستوري في الدفاع عن سيادتهم التونسية . اما عامة المسلمين واليهود فكانت حياتهم عادية ، يسودها الحذر من جانب المسلمين ، والاحتيال و تعاطي الربا من جانب اليهود مما كان يؤدي من حين الى آخر الى بعض الاحداث المزعجة . وقد أشار تقرير الاقامة العامة الشهري في سبتمبر 1932 الى وقوع أحداث بين اليهود والمسلمين بمدينتي تونس وصفاقس لعبت فيها الصحافة العربية دور المهيج حسب الاقامة العامة . ومع أنها اتخذت عدة تفاسير دينية وغيرها في الاوساط الشعبية ، فانها لم تود الى قطع العلاقات بين الطرفين (المسلمين واليهود) . وكان سببها اتهام المسلمين اليهود بتعاطي الربا والكسب على حسابهم (122) .

ونستنتج ان هذه الاتجاهات لم تكن جديدة على الحزب بل وجدت معه ، وشاركت في تأسيسه أول مرة . ولذلك ما جعلنا نبرزها في هذا الفصل وفي الفصل الذى سبقه . وعلى الرغم من أن الثعالبي كان واقعيا ، وجمع بين مختلف هذه الاتجاهات ، وكوّن وحدة وطنية بين النخبة التونسية تمثلت في الحزب الدستوري ، الا أن المعتدلين والاصلاحيين سرعان ما كشفوا عن نواياهم ، واستقلوا عن الحزب الدستوري بحزبيهم (الاصلاحي) و (المستقل) ، فطالب الحزب الاول بالاصلاحات التدريجية في اطار الحماية ، وأراد الحزب الثاني السير في ظل سياسة الحماية بصفة مطلقة .

اما الحزب الدستوري الجديد فتعود أصوله الى تكوين أصحابه في المدارس التبشيرية (مثل ثانوية كارنو التي كان من أبرز خريجيها الحبيب بورقيبة) ، والمعاهد الفرنسية العليا . ولكنهم أصبحوا دستوريين ، وأسسوا جرائد فرنسية عبروا فيها عن آرائهم التي قد لا تكون هي آراء الحزب . ولم تحل سنة 1933 حتى صار هؤلاء من أبرز أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب . ونظرا للخلاف الايديولوجي المتباين بين

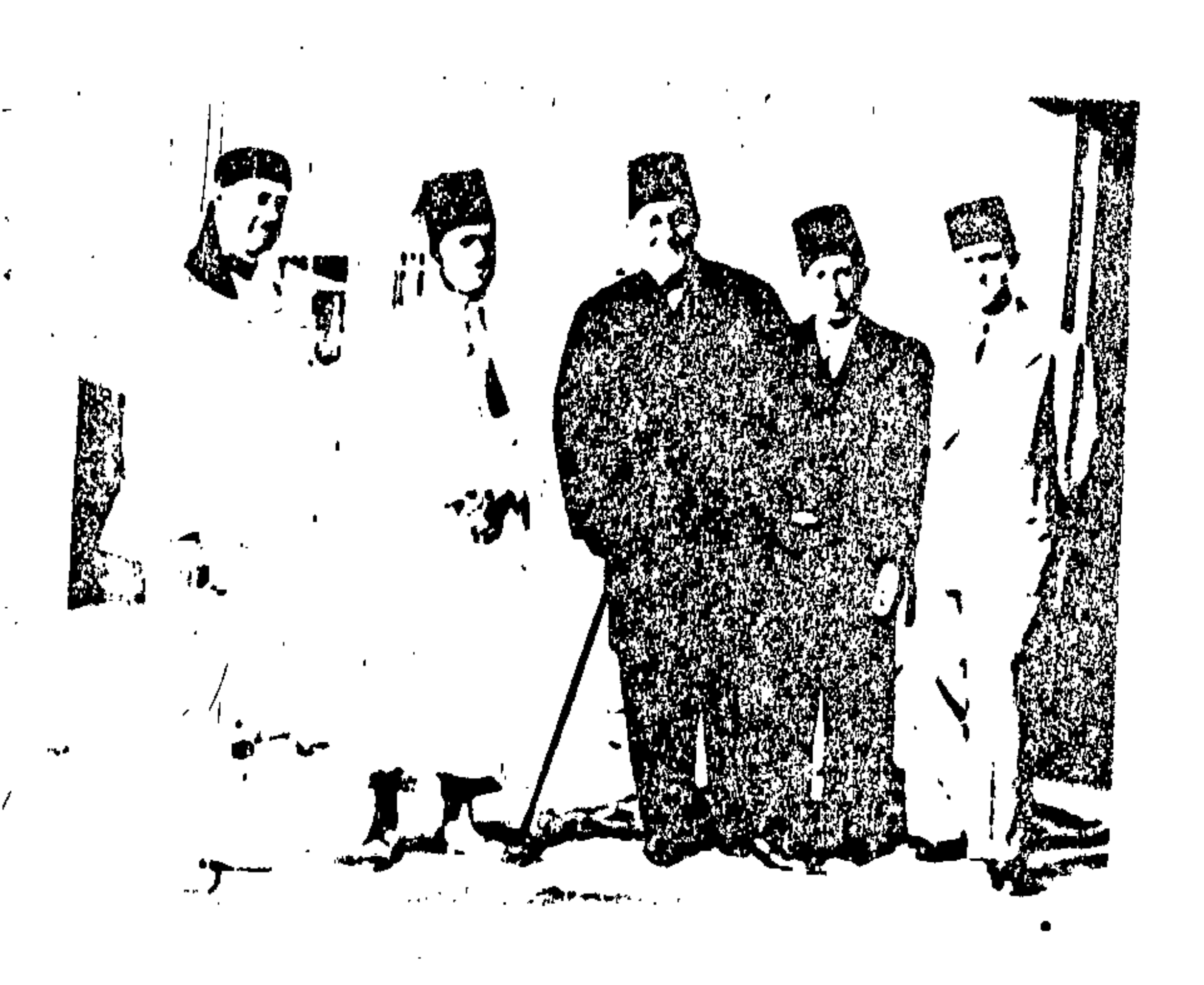
---

(122) أنظر :
A.O.M./A.E.P. 26H17, Résidence Générale à Tunis, Service des Affaires Indigènes, Rapport Mensuel sur la situation Politique et économique des territoires du Sud Tunisien, Mois de septembre 1932.

انتماء الدستوريين ، فان الحزب أصبح منذئذ يتألف من شقين ، واحد اسلامي سلفي يمثله فيما بعد الحزب الدستورى القديم ، وآخر غربي علماني يمثله الحزب الدستورى الجديد .

وكان موقف الحزب الدستورى من جمعية عموم العملة التونسيين قبل 1934 قائما على استراتيجية مزدوجة وهي المحافظة على بقاء هذه الجمعية لتشد أزره من ناحية ، والظهور امام حكومة هيريو اليسارية بمظهر الحياد بينهما من ناحية أخرى . وبعد حل هذه الجمعية شرع الحزب سنة 1927 في تأسيس جمعيات تونسية (طلابية واسلامية) ذات طابع سياسي . وبالاضافة الى ذلك فقد كانت للحزب استراتيجية واضحة مع الطائفة اليهودية التونسية . وقد بذل جهودا مضنية لضمها الى صفه والاستفادة منها ماديا واعلاميا . ولكن مصلحة اليهود مع سلطة الحماية تركتهم لا يتعاملون مع الدستوريين الا عند ما تقتضي المصلحة المشتركة ذلك ، أو في بعض المواقف العامة .

صورة الشيخ عبد العزيز الثعالبي بعد عودته من منفاه سنة 1937،
ويظهر على يمينه الحبيب بورقيبة • اخذت لهما هذه الصورة في نفس السنة
اثر خروجهما من زيارة الباى •



ـ المصدر :

Ahmed, Khaled, Documents Secrets du 2ème bureau Tunisie - Maghreb dans la conjoncture de prè-guerre, 1937-1940, (Tunis, S.D.T., 1983), pp.184.

الفصـــل الخامس :

نشاط الحزب الخارجي :

١. في أوروبا (خاصة فرنسا)
٢. في العالم العربي الإسلامي
٣. قضايا العالم العربي والإسلامي

ارتكز نشاط الحزب الدستوري خارج تونس على ارسال الوفود الى باريس ، والاتصالات التي كان يقوم بها ممثلوه هناك مع مختلف الاحزاب والهيئات الفرنسية وبعض البلدان الغربية الاخرى ، وذلك بالاضافة الى نشاط الثعالبي في العالم العربي والاسلامي منذ سنة 1923 .

لقد سافر الوفد الدستوري الاول سنة 1920 يحمل عريضة الشعب التونسي الى الشعب الفرنسي مطالبا فيها اياه بمنحه دستورا يضمن له حرياته . واستقبل الوفد من طرف رئيس ديوان الرئيس الفرنسي ، وتحصل منه على وعود مرضية في تلبية مطالبه . ثم سافر الوفد الثاني سنة 1921 ليطرح مطالب الحزب الدستوري ويشرح برنامجه الى الحكومة الفرنسية ويطالب باطلاق سراح الشيخ الثعالبي . وقد عاد هو الآخر مكللا بالوعود بتحسين أوضاع التونسيين ومنحهم الحريات العامة مكافأة لهم على مشاركتهم في الحرب الى جانب فرنسا . ثم سافر الوفد الثالث والأخير سنة 1924 وهو كله أمل في الحكومة اليسارية الجديدة في تلبية مطالبه المتواضعة . ولكنه مع ذلك عاد يجر أذيال الخيبة نظرا لعدم استقبال الرئيس هيريو له .

وبما أن باريس كانت في نظر الحزب هي مركز السلطة التي بيدها الحل والعقد في القضية التونسية ، فان الحزب الدستوري قد لجأ مرة ثانية الى تعيين ممثل له بها لنشر دعوته وتنظيم علاقاته مع رجال السياسة ولايجاد حلول لقضيته وتلبية مطالبه . وسنتعرض في آخر هذا الفصل الى دعاية الحزب وموقف الشعب التونسي من الاستعمار في البلاد العربية والاسلامية .

1- **في أوروبا (خاصة فرنسا) :**

تعود بداية النشاط السياسي للثعالبي في فرنسا الى مطلع سنة 1919،أى قبل تأسيس الحزب . وقد سبق أن ذكرنا اعتماد الشيخ الثعالبي على الاشتراكيين الفرنسيين في الدفاع عن القضية التونسية ونشر كتابه " تونس الشهيدة "، ورغم ان الحزب الاشتراكي الفرنسي قد تشاءم من مطالب التونسيين سنة 1919،واتهم الثعالبي وصحبه بانهم يريدون الرجوع بتونس الى الحكم المطلق الذى أزالته فرنسا منها ،فان الثعالبي كان يميل الى الاعتماد على الاشتراكيين الفرنسيين،وعمل جاهدا على ربط علاقة حزبه بهم (1) . ولعله في ذلك كان متأثرا باقتراحات محمد باش حامبة الاستراتيجية، اذ كتب له في نهاية سنة 1919 يقول : ((ليس لي أدنى ثقة في المقيم العام الجديد (لوسيان سان) ولا في أى رجل سياسي فرنسي . ان المستقبل في جميع البلدان هو للاشتراكية . فعلينا أن نعمل بصدق مع الاشتراكيين . ان الحزب الاشتراكي الفرنسي ليس له أى نفوذ حاليا .)) (2) و((ان مجلس النواب الحالي يتكون من كتلة كليمنصو ولكنه سوف لا يدوم ،لأن حالة فرنسا الاقتصادية ذاهبة الى التدهور . والاشتراكيون الفرنسيون أناس ليست لهم مبادئ ،وليس لهم قائد ذو أثر،ولكن ذلك لا يمنعنا من التعاون معهم .)) (3)

اما بعد تأسيس الحزب الدستورى ،فقد بدأت هذه العلاقة بسفر الوفد الدستورى الأول في 6 جوان 1920 برئاسة احمد الصافي وعضوية بشير عكاشة ،والبشير

---

(1) أنظر: - *A.M.I./CDN.MN.Tunis, N° B 3-13, Rap.Baron, p.49-50.*

(2) أنظر: -*A.Q.O./S.T.1917-40,N°313,Lettre Délégué Rd Gl Tunis à M.Millirand Pd Conseil, Ministre des A.E.Paris, le 28/7/1920, (Cor.Bach Hamba à Taâlbi, le 1er /12/1919).*

(3) أنظر: - *Op.cit, (Cor. Bach Hamba à Taâlbi, le 23/12/1919*

البكرى ،ومصطفى الباهي (4) ،وصالح بالعجوزة . ولما حل الوفد بباريس انضم اليه الشيخ الثعالبي وأصبح رئيسا له . واستقبلته اللجنة المركزية لجمعية حقوق الانسان . وعرض احمد الصافي امامها القضية التونسية . ثم قدم الوفد اثر ذلك عريضة بمطالب الحزب الثمانية الى كل من الرئيس الفرنسي ولجنة الجزائر والمستعمرات وبلدان الحماية (5) .

وفي 13 جويلية 1920 تقدم الوفد بعريضة (6) الى الرئيس الفرنسي ذكره فيها بموافقة الباي على مطالب الحزب . اما سلطة الحماية فقد تأثرت بضغط الحملة الصحفية الاستعمارية الرافضة لمطالب الشعب التونسي ،واتخذت ضد الشعب التونسي اجراءات غيرعادلة ،مما أحدث جوا عكرا في صفوف التونسيين جعلهم يعتقدون ان الحكومة التونسية ترمي الى خنق طموحاتهم الشرعية عن طريق حملة ضغط مستبدة ليس لها ما يبررها . وكانت سلطة الحماية قد اعتبرت التونسيين مخالفين للقوانين بسبب تقديمهم عريضة بمطالبهم للباى محمد الناصر . وقد هدفت من وراء ذلك الى تغيير موقف الباى من الدستوريين .

وحاول الوفد اثبات شرعية مطالبه للرئيس الفرنسي ،وأبرز له مواقف بعض فرنسيي تونس المخلصين لوطنيتهم والذين أكدوا لعامة التونسيين عدم شرعية وعدالة الاجراءات المتخذة ضدهم . واكتفت العريضة في الاخير بالتنديد بهذه الحالة المأساوية التي كان

---

(4) كان البشير البكرى شيخا للطريقة البكرية ،ومصطفى الباهي شيخا للطريقة الباهية . ولم يكونا دستوريين وانما انضما للوفد للدفاع عن أراضي الاحباس . وقبلهما الحزب ضمن وفده لكسب قطاع من الشعب التونسي الى جانبه من ناحية وليظهر للاقامة العامة تضامن جميع طبقات الشعب ورفضها مشروع ضم املاك الاحباس الخاصة والعامة الى الاراضي الاستعمارية من ناحية ثانية .

– أنظر: المدني ،جـ 1 ،ص 174–177 ،وكذلك : -Kraïem, Nat. Synd., p.191-193

(5) أنظر: -Kraïem, Op.cit, p.193.

(6) بعث الوفد الدستورى هذه العريضة الى الرئيس الفرنسي ،وهي نفسها التي أرسلت الى المقيم العام بتاريخ 13 جويلية 1920 . وقال المدني (حياة ،جـ1 ،ص177–178) ان المحامي حسونة العياشي كان عضوا في الوفد الاول ،ولكن لم يأت ذكره ضمن القائمة الممضاة من الوفد الى الرئيس الفرنسي بتاريخ 13 جويلية 1920 . أنظر:
- A Q.O./S.T.1917-40, N8318, Délégation Tunisienne àM.PdConseil Ministre des A.E., Paris, le 13/7/1920.

يعيشها الشعب التونسي ،وحاولت استعطاف الرئيس الفرنسي ،باسم المشاعر النبيلة والمواقف الحرة العادلة التي يتسم بها الرئيس ،لأن يدعو حكومة تونس الى الاعتدال مع التونسيين والرفق بهم ،وان ترفع تلك الاجراءات لتطمئن قلوبهم و تعيد الهدوء لنفوسهم و تبعث الثقة في أعماقهم . وختم الوفد عريضته بقوله انه خدم بعمله هذا مصالح فرنسا و تونس معا بكل اخلاص(7) .

وفي انتظار رد الرئيس الفرنسي على عريضة الوفد ،قام رئيسه احمد الصافي بشرح مطالب حزبه الثمانية للجنة بلاد الحماية بمجلس النواب الفرنسي ،وركز على اضطهاد سلطة الحماية للدستوريين ،و بين المضار التي يمكن أن تلحق بمصالح التونسيين الاقتصادية والدينية من جراء مشروع قرض فلاندان وحل املاك الاحباس .

وقد وجد الوفد التونسي في شخص الشيخ الثعالبي أحسن معين وأصدق موجه . فهو الذى فتح له أبواب جمعية حقوق الانسان ،وجمعية التعليم . و بذلك نالت مطالبه اهتمام هاتين الجمعيتين (8) . واستقبل الوفد بحفاوة من طرف رئيس غرفة النواب والحزب الاشتراكي . وقد بذل الوفد الدستورى ما في وسعه للتعريف بقضيته ،وعمل على تحقيق مطالبه وصرف مبلغ 150 000 فرنك في الدعاية الصحفية والندوات العامة وفي الاتصال برجال الفكر الانسانيين على وجه الخصوص . ولكن هذه الدعاية لم تكسبه شيئا مفمولا الا بعض وعود الاشتراكيين و تعاطف رجال المعارضة في البرلمان الفرنسي(9) . وقد بين ذلك احد أعضاء الوفد ،وهو صالح بالعجوزة ، بقوله : ((لكن الجو السياسي والتفرق الاستعمارى كان متغلبا على الاحساسات الحرة والعادلة . بسبب ذلك وجد

---

(7) انظر :

- A.Q.O./S.T.1917-40, N° 318, Lettre Délégation Tunisienne (Ahmed Safi) à M. Le Président du Conseil, Ministre des Affaires Etrangères à Paris, Paris le 13/7/1920, (annexe 1, à Monsieur le Ministre Résident Général de la République Française à Tunis, p. 25-26.

(8) انظر :

- R.Balek, "Tunisie..", Af.Fse, N°30, (Juillet-Aout, 1920)p.229.
- A.O.M./A.E.P. 27H1, Rap.Etat-Major, du 21/4/1922

(9) أنظر :

-A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° A 1-60, (Fce Dif.Tun.), p. 674-676.

الوفد معارضة بالرغم على التحريرات التي حررها لرجال فرنسا ... ولم يجد أذنا صاغية لمطالب تونس سوى بعض وعود شفاهية من رجال الحزب الراديكالي والحزب الاشتراكي الذين كانوا من قسم المعارضة بالمجلس.)) (10)

ولعل نشاط الوفد قد تقلص وضعفت أهميته ولم يعد يميل الى التطرف ، واكتفى بالتركيز على مطالبه الثمانية بسبب محاصرة الحكومة الفرنسية للشيخ الثعالبي والحد من نشاطه واتصالاته ، وذلك هو ما جعل السيد بول سيلفبر يعلق على اعمال الوفد بقوله : ((من المؤكد أن الدستوريين كانوا دائما يحلمون بالوصول الى الغاء معاهدة باردو ، ولكنهم فضلوا في هذه الظروف الحذر النسبي على تعاطي الفوضى واحداث الضوضاء . ان الوفد نادم على ربط عقيدته جذريا برسالة مجانية شجاعة لرجل أصبح منذئذ مشبوها ومتهما . ان الوفد يفضل الآن المطالبة بالدستور فقط .)) (11) وكان يقصد بذلك كتاب (تونس الشهيدة) ، وضغط الحكومة الفرنسية على الثعالبي والقاء القبض عليه . ولخص العقيد بارون مطالب الوفد في الدستور ، والمساواة في جميع الحقوق بالنسبة لمختلف عناصر السكان ، وضمان الشخصية التونسية مع تحديد هذه المطالب في النقاط الثمانية الممثلة لبرنامج الحزب الرسمي (12) .

واستقبل الوفد الدستوري يوم 31 جويلية من طرف السيد بومرشي ، نائب مدير افريقيا في ديوان الرئيس الفرنسي (13) . فقدم له الوفد العريضة المذكورة وأضاف اليها

---

(10) أ . و . ل . ، م . ت . ق / ح . و . تونس ، رقم 77—2 ع ، (بعد 16 عاما ...) ، بالعجوزة ، مرشد الامة ، 12 نوفمبر و 14 ديسمبر 1936 .

(11) أنظر : - A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° A 1-60, Op.cit.

(12) أنظر : - Op. cit., N° B 3-13, Rap. Baron, p. 50-51

(13) قال السيد بول سيلفير (فرنسا والمشاكل التونسية) ان الرئيس ميليران رفض استقبال الوفد الدستوري . والظاهر ان الرئيس كلف السيد بومرشي بذلك ، لانشغالاته الكثيرة ، وكانت المقابلة على الساعة الحادية عشر صباحا .

لائحة بعنوان (المسألة التونسية) . وكانت العريضة موجهة من الشعب التونسي الى الشعب الفرنسي ، يذكر له فيها حرمانه من جميع حرياته وحقوقه المشروعة ، واضطهاد حكومة تونس لطموحاته . وقد أدت به هذه الحالة الى المطالبة بالحقوق التي برهن على استحقاقه لها على أكثر من مستوى ، وهو لا يظن ان الديمقراطية الفرنسية الصديقة والحليفة تقف في وجه ما شجعته فرنسا واوروبا كافة سنة 1859 (14) . وانه شديد الايمان بوفاء الشعب الفرنسي بعهوده والتزاماته في نشر تقاليده الشريفة المتمثلة في الحرية والعدالة عن طريق ممثليه بتونس لضمان تطبيقها بها . وقد بقي الشعب التونسي منذ ثمان وثلاثين سنة محروما من جميع حقوقه وحرياته التي تعهدت فرنسا بمنحه اياها . وعلى ذلك فمساعدة الشعب الفرنسي للشعب التونسي ليست فرضا عليه فحسب ولكنها أيضا تمثل القيام بواجبه المقدس والاعتراف بمزايا التونسيين الذين لبوا نداء فرنسا حينما كانت مهددة بالخطر أثناء الحرب . وقد قام 65000 من المحاربين التونسيين من القوى الحية للشعب ، بجانب الفرنسيين وفقدوا 45000 بين قتيل وجريح . وكانت مساعدة التونسيين الاقتصادية لفرنسا مضاهية لضحاياهم البشرية ، ونالت بطولات ابنائهم اعجاب العالم كله ، ((وان الشعب الفرنسي لا يسمح بابعاد شعب ضحى في ميدان الشرف ، ومنعه من قطف ثمار نصره ، وتركها توزع على الذين حاربوا في صفوف العدو . فلقد علمنا التاريخ ان الشعب الفرنسي كان دائما مؤديا لديونه الشرفية ، وانه سوف لا يقال بأن ايطاليا الفتاة قد سبقت فرنسا العريقة في اعلان حقوق الانسان وفتح أبواب الازدهار للشعوب الضعيفة . فيذهب التونسي ليعيش تحت سماء ليبيا او مصر ويترك أرضه وهي تحت حماية الديمقراطية الفرنسية .)) (15)

---

(14) المقصود هو تشجيع فرنسا وانكلترا للتونسيين على اقامة دستور (عهد الامان) .

(15) أنظر: - A.Q.O./S.T.1917-40, N° 318, Lettre Pd Conseil au Rd Gl L. Saint, Paris, le 4/8/1920, (Annexe 2, Pétition adréssée au Parlement français par le peuple Tunisien demandant l'octroi d'une constitution. Le Peuple Tunisien au Peuple Français), p.69-72.
- Op. cit., Lettre Taâlbi au Pd Conseil, Paris le 26/7/1920, p.34-37.

ولكن هذا الاسلوب اللين الذى ركز فيه التونسيون على المبادئ الانسانية الفرنسية ، رغم ما ناله من تعاطف الاشتراكيين والجمعيات الانسانية ، لم يحظ باستجابة صادقة من طرف الحكومة الفرنسية .

وبالاضافة الى هذه العريضة ، حرر الوفد لائحة ثانية بعنوان (المسألة التونسية) قدمها الى نائب مدير شؤون افريقيا في الحكومة الفرنسية ، بين له فيها ان الشعب التونسي لم يخطر بباله تقديم مطالبه الى حزب معين ، ولكنه يتقدم بها الى فرنسا وفرنسا الكريمة العادلة وحدها ـ حسب قوله ـ وان ثقته فيها كبيرة للحصول على ضمانات دستورية لا تتنافى وروح الحماية الفرنسية بتونس وهي معززة بوجود المقيم العام كوزير للخارجية الفرنسية لدى الباى ، ويحفظها مقام الجنرال قائد قوات الاحتلال ، وشخص الاميرال قائد القوات البحرية ، ((وتدخل تونس بمقتضى هذه الضمانات ، في جو ازدهار اقتصادى واجتماعي ويمكنها أن تكون لفرنسا خزانا لا ينفد من المنتوجات بجميع أنواعها فلو تقلع فرنسا عن سياسة الابعاد ، وتعمل على ربط الفلاح بالارض ، واعطائه الوسائل لزرعها ، ولو تنمي فرنسا التعليم العام والمهني والفلاحي ، وتشرك الشعب في تسيير الحكم ، مع منحه (سلطة) المراقبة المالية ، فان تونس ستصبح أكثر بلدان شمال افريقيا ازدهارا ، وان تونس تلتفت الى فرنسا مربية الشعوب ، وتطلب منها نظاما يتلاءم مع الكرامة الانسانية والحضارة المعاصرة ، والمبادئ العليا التي صرح بها رجال ثورة 1789)) الفرنسية (16) .

والظاهر ان الوفد قد وجه مطالبه الى الشعب الفرنسي ، ونفى علاقته بالأحزاب الفرنسية بتوجيه من الثعالبي الذى كان يعلم مدى ضعف الاحزاب المتعاطفة مع قضيته . وكانت تلك سياسة منه ليتجنب استغلال الحكومة الفرنسية هذا الانتماء ضده ، واتهامه بالتطرف ، ومساندة أحزاب المعارضة . والواقع ان الوفد كان قد طرح مسألته بعد ما تم

---

(16) أنظر: *Op.cit.*, (*Annexe 3, La question Tunisienne*), p. 73-74. (*Lettre PdConseil au RdGl, le 4/8/1920.*

استقباله من طرف السيد بيمرشي ،على كل من الحزب الاشتراكي الفرنسي ، وجمعية فرنسيي — ومسلمي شمال افريقيا ، وجمعية فرنسا الشرق ، وغيرهما (17) .

وبينما نال الوفد عطف الانسانيين الفرنسيين بسبب تفخيمه مبادىء الثورة الفرنسية واظهار اعجابه بانسانيتها وحضارتها فان السيد بيمرشي قد تجنب الاجابة الصريحة على عريضة الوفد . وذلك لأن التونسيين لم يكونوا في قرارة أنفسهم يؤمنون فعلا بالحضارة والانسانية الفرنسية ولكنهم كانوا يريدون التخلص من تسلط/سلطة الحماية . ولم يكن الاشتراكيون الفرنسيون يجهلون ذلك وانما كانوا يتعاطفون مع التونسيين من أجل تحقيق مآربهم في الانتخابات وكسب الرأي العام الفرنسي باسم الدفاع عن المبادىء الفرنسية العادلة ، للوصول الى الحكم . وهذه الأسباب هي التي جعلت بيمرشي يتخذ هذا الموقف من الوفد التونسي ، وينتهج معه سياسة الهروب الى الامام ، فنصح أعضاء الوفد بأن يقدموا عريضتهم أولا الى الحكومة التونسية ، فاذا لم تستجب لمطالبهم ، فلينتقلوا بعد ذلك الى وزارة الخارجية باعتبار الحكومة التونسية تابعة لها . ولم يكن بيمرشي يجهل ان التونسيين قد اتبعوا نفس الطريقة مع حكومة الباى وسلطة الحماية ولما يئسوا توجهوا الى وزارة الخارجية . ولكنه تعمد عدم الاهتمام بنشر العريضة لانها جاءت مخالفة لما تطمح اليه الحكومة الفرنسية من اصلاحات في تونس وفق ارادة المقيم العام فلاندان . ونجده يركز في اجابته على النقاط التي تدعم هذه السياسة . وصرح في رده على أعضاء الوفد أن الحكومة الفرنسية مصرة على استقرار النظام القائم في تونس، وان أماني التونسيين ستعالج بالحسنى والرفق المألوف من طرف وزارة الخارجية بالاتفاق مع حكومة الباى . وذلك شريطة المراعاة المطلقة أن لا تحدث في تونس أية مظاهرة (مضادة) . ثم أوضح لهم اهتمام دائرته واهتمام الحكومة التونسية معا بمكافأة العائلات التونسية التي منحت فرنسا محاربين أثناء الحرب . وختم لهم وعوده بأن الحكومة الفرنسية لم تدخر أى جهد في اتخاذ الاجراءات اللازمة لتلبية رغبات التونسيين المشروعة . من ذلك ان مجلس

---

(17) انظر: - Kraïem, Nati.Synd., p. 195-196.

النواب قد صادق على مشروع قانون منح تونس قرضا ماليا لبعث الاشغال العمومية ودفعها الى الامام بقوة، وتنمية أعمال الاسعاف بالبلاد التونسية (18).

وكان الوفد التونسي قد جاء باريس ليمنع منح تونس هذا القرض، ولما فوجئ بهذا الرد، لم يبق له حينئذ أي أمل في بلوغ مراميه من الفرنسيين خاصة لما تم اعتقال الشيخ الثعالبي قبل هذا الاستقبال بيومين (28 جويلية 1920) (19). فعاد أعضاء الوفد الدستوري الى تونس فرادى. وكانت حكومة الحماية تترصد اخبارهم، وتنسق أعمالها مع حكومة باريس. فكتب المقيم العام الى الرئيس الفرنسي بتاريخ 11 آوت 1920 يخبره ان احمد الصافي، رئيس الوفد الدستوري، قد وصل الى بنزرت عن طريق البحر على متن الباخرة مواز (Moise)، ومنها الى تونس عن طريق البر. وقد أخفى اعضاء الوفد الآخرين تاريخ عودتهم. وكتبت الشرطة السياسية في تقرير لها – حسب قول الاقامة العامة – ان أعضاء الوفد سيصلون الى تونس يوم 10 آوت 1920 رفقة الثعالبي على متن الباخرة الدوق دومال (Le Duc D'Aumale). ولكن نائب المقيم العام أثبت للرئيس الفرنسي ان هذه الباخرة قد وصلت في التاريخ المحدد، ولم يكن على متنها اي شخص من أعضاء الوفد (20).

وفي حين اعتقال الثعالبي ورجوع الوفد الدستوري الى تونس، تكونت لجنة تونسية بباريس من باقي الدستوريين وعلى رأسهم احمد السقا (21). وكانت رئاسة هذه اللجنة

(18) أنظر: A.Q.O./S.T.1917-40, N°318, Lettre Pd Conseil au Rd Gl Tunis, Paris, le 4/8/1920 (annexe 1, Lettre Ministre des A.E., Paris, le 31/7/1920, a/s Visite de la Délégation Tunisienne), p. 66-68.

(19) أنظر: Kraïem, Nat. Synd., p. 96.

(20) انظر: A.Q.O./S.T.1917-40, N°318, Lettre Délégué de la Résidence Générale Tunis à M. Millirand, Pd Conseil, Ministre des A.E., Paris, le 11/8/1920, (a/s Délégation Tunisienne. Arrestation de Taâlbi), p. 97-98.

(21) جاء في تقرير الشرطة ان احمد السقا كان كاتبا للثعالبي مقابل مبلغ مالي قدره 2000 ف شهريا. وكان يشغل منصب رئيس هذه اللجنة كواسطة بين اعضائها والشيخ الثعالبي. وكان مقر اللجنة يقع في 43 ش. المدارس بمقر سكنى (حامبة؟) التونسي. انظر:
- Op. cit., N°319, Rapport Sureté Générale Division d'Occupation de Tunisie, Tunis, le 12/1/1921, (Renseignement de Suisse a/s de l'existence d'un Comité Tunisien à Paris), p. 8.

الفعلية بيد الثعالبي . وكان اعضاءها يكاتبونه بأخبارها بدون انقطاع . وذكر تقرير الشرطة الفرنسية بتونس بتاريخ 12 جانفي 1921 ان هذه اللجنة كانت تتكون من الدكتور حجوج ، صديق الثعالبي ، والدكتور قرطبي (22) ، وحمزة توفيق (23) ، الذى كان همزة وصل بين هذه اللجنة ولجنة الجامعة الاسلامية ببرلين عن طريق الشيخين والي وجاويش المعروفين بعدائهما للاستعمار الفرنسي . ومن اعضاء هذه اللجنة ايضا نذكر السيد بن بلوى وصبيح اللذين كانا قد رافقا الثعالبي على رأس الوفد التونسي في ربيع 1919 (24) . وأخبر التقرير ان السيدين قرطبي ، وحامد البصيل (25) كانت تربطهما علاقة متينة بالشيوعيين الفرنسيين ، كاشين فروسار (*Cachin Frossard*) ، ورابوبور (*Rappoport*) ، والشيوعي التونسي منشفي (*Menchavy*) . ولست أدرى اذا كان هذا الاخير تونسي الأصل أو هو احد اعضاء الحزب الشيوعي الفرنسي بتونس ؟ .

وكان هدف هذه اللجنة التونسية هو الدعاية ضد الاستعمار الفرنسي في شمال افريقيا . وكان عملها يسير بالتنسيق مع لجنتي الجامعة الاسلامية واللجنة التونسية ببرلين ، والحزب الدستورى بتونس . وقد جاء في التقرير ان الحزب الدستورى كان يعمل على استقلال

---

(22) ذكر نفس التقرير ان الدكتور قرطبي ((كان من أنصار النظريات البلشفية ويشارك في احتفالات الشيوعيين . وكان مراسلا باريسيا للجرائد التونسية (الصواب والوزير) بما تكتبه الصحافة الشيوعية الفرنسية عن الحركة الثورية في المشرق . وكانت له علاقة بالشيوعيين المشارقة المقيمين بباريس منهم : حامد البصيل ، وكان مقيما بنزل (*Claridge-Hôtel*) غرفة 65 بباريس ، وكان البصيل يتجنب استقبال كل شخص اجنبي متذرعا بمرضه . وكان دائما مرفوقا بالشيوعيين المصريين عبد الفتاح وعبد اللطيف برى ، اللذين جاءا باريس في طريقهما الى ستوكهولم وموسكو لتوقيع اتفاقية بين البلشفيين المصريين والسوفياتيين .)) ويجب الانتباه الى ان كلمة (الشيوعيين) كان يطلقها الاستعمار على كل حركة ذات صبغة وطنية مناهضة له .

(23) كان حمزة توفيق تونسيا يتاجر في الزيت ، وساكنا في (*Select-Hôtel*) ساحة السوربون بباريس .

(24) نفس المصدر .

(25) كان حامد البصيل نائبا لسعد زغلول في رئاسة (حزب الوفد) المصرى . وكان يتعاطف مع السنوسيين في مصر ، ويساند الوطنيين التونسيين في جريدة حزب الوفد (كوكب الشرق) . أنظر :
= *Martino, Mario Morêno, "La situation interna dell' egitto dall' uccisione del sidar ad aggi", <u>Oriente Moderno</u>, N°5, anno V, (Maggio 1925), p. 225-234.*

بلاده ((وهو يرى ان ذلك لا يتأتى الا بمساندة البلشوقيين العسكرية، ومساعدة الالمانيين المالية من أجل خلق جو ثوري في بلدان شمال افريقيا .)) (26) وهذه مبالغة واضحة في اتهام الحزب الدستوري بالتعامل مع الشيوعيين . ولعل المقصود هو اللجنة التونسية ببرلين ـ خاصة ان المعلومات جاءت من سويسرة ـ التي كانت تعتمد فعلا على المساعدة الالمانية لاثارة شعوب المغرب العربي ضد الاستعمار الفرنسي ـ وربما تعاطفت مع الشيوعيين بآرائهم الانسانية . اما اعتمادها عليهم عسكريا فهو ادعاء باطل في نظرنا اذ ان المسلمين عموما كانوا حذرين من الخطر الشيوعي على الاسلام .

هذا عن نشاط الحزب في فرنسا و برلين، اما عن نشاطه في تونس فامام الفشل الذريع الذي انتاب الوفد الدستوري الاول من جراء سياسة الحكومة الفرنسية المتصلبة ضده . تكون وفد دستوري ثان في نهاية شهر نوفمبر 1920 للسفر الى باريس لطرح القضية التونسية من جديد على أسس اكثر ليونة من تلك التي نادى بها الوفد الاول . و يظهر هنا الضعف الذي أصاب صفوف الحزب الدستوري اثر اعتقال الشيخ الثعالبي ومحمد الرياحي ، وصالح بن يحيى (27).

وكان هدف الحزب الدستوري من ارسال هذا الوفد الثاني مزدوجا . فهو من جهة يدافع عن المعتقلين و يعرض القضية التونسية على الحكومة الفرنسية من جديد ، ومن جهة أخرى يقدم تحية الحزب الى المقيم العام الجديد لوسيان سان ، ويشرح له مطالب التونسيين قبل ان ينخدع بدعاية مشوهي سمعة التونسيين (28) . وسافر الوفد الى باريس

---

(26) نفس المصدر .

(27) جاء في تقرير نيابة الاقامة العامة ان الوفد الدستوري كان قد تكوّن في شهر نوفمبر 1920 . انظر :
- *A.Q.O./S.T.1917640, N° 318, Lettre Délégué Résidence Générale à M. Pd Conseil, Paris le 24/11/1920, (a/s Délégation Tunisienne en France), p. 192-194.*

(28) أنظر :
- *Kraïem, Nat. Synd. , p. 196- 197.*
- *Lejri, T. 1, p. 194.*

في 24 ديسمبر 1920 ، برئاسة الطاهر بن عمار (29) ، وعضوية بوهاشم ، ولزام ، نائب مدينة بنزرت في الموءتمر الاستشاري ، والمحاميان حسن قلاتي بتونس ، وحسونة المياشي بسوسة ومطوبي الحرب بوحجبة ، وسلامي ، والمحامي الاسرائيلي ايليا زيراه ، والسيد اندري ديران انجليفيال ، المحامي بتونس والنائب الفرنسي بالموءتمر الاستشاري ، ومراسل جريدة (الزمن) الفرنسية (30) . ونلاحظ ان كل اعضاء هذا الوفد كانوا من ذوى الاتجاه المعتدل وهو ما يفسر سيطرة هذا الاتجاه على مطالب الحزب المتطرفة التي جاءت في كتاب (تونس الشهيدة) .

وقام الوفد بتقديم العرائض بباريس الى مختلف الجمعيات السياسية ، ولجان المستعمرات وبلدان الحماية بمجلس النواب ، التي كان يرأسها ادوارد هيريو . واستقبل الوفد بحفاوة من طرف الرئيس الفرنسي جورج ليج . وذكرت نيابة الاقامة العامة ان نص العريضة التي حملها الوفد الى الرئيس كانت تحتوى على المطالبة باطلاق سراح المسجونين ومنح الشعب التونسي دستورا يضمن له حرياته . وجاء في نص العريضة التي ترجمتها الاقامة العامة عن العربية ما يلي : ((اننا نحتج بشدة على اعتقال الشيخ الثعالبي ، ومحمد الرياحي ، والشيخ صالح بن يحيى ، المتهمين بتدبير موءامرة ضد أمن الدولة ، وهو ما نستبعده .)) ((واذا كانت الحكومة تريد ارهاب الشعب التونسي بهذا الاجراء وتجعله يتراجع عن مطالبه ، فان الشعب التونسي مصر على مطالبه الدستورية ، ويصرح بأوضح العبارات انه يقاسم معتقليه المسوءولية التي ألقيت على عاتقهم على اثر ما قاموا به من أجل تأييد مطالبنا .))

---

(29) ولد الطاهر بن عمار في تونس سنة 1889 ، درس بالمدرسة العليا وثانوية كارنو . كان رئيسا لغرفة الفلاحة التونسية ، وعضوا في المجلس الكبير ، منذ تأسيسهما . وترأس لعدة مرات القسم التونسي بالمجلس الكبير . ثم شغل منصب رئيس مجلس الحكومة التونسية من آوت 1954 الى افريل 1956 . أنظر :
- *A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B 2-63, (Tahar Benamar).*

(30) ذكر (*Lejri* ، ج 1 ، ص 193) ان هذا الوفد كان يضم ايضا حمودة المنستيري وفرحات بن عياد . ولكن هذا الاخير كان موجودا بباريس من قبل . ولم يقع عليه القبض مع الثعالبي لكونه من الرعايا الانكليز .

((اننا نطلب من الحكومة منحنا حريتنا التي لا يضمنها الا الدستور، وان تطلق سراح معتقلينا الذين عبروا بأعمالهم عن رغائب الشعب التونسي بأكمله . وان رجاءنا لكبير في حكومة الجمهورية بأن تقبل مطالبنا الثمانية التي تضمنتها العريضة التي أرسلناها في شهر جوان الفارط مع الوفد التونسي .)) (31)

ووعد الرئيس الفرنسي الوفد التونسي الثاني بتلبية مطالبه عن طريق المقيم العام الجديد لوسيان سان، الذى كلفه الرئيس بدراسة وضع تونس والعمل على التعاون مع التونسيين على اقامة الاصلاحات الضرورية . وأدلى الرئيس بنفس التصريح الى وفد لجنة فرنسيين — و مسلمي شمال افريقيا، التي طرحت عليه، برئاسة كاتبها العام، لافنــــارد (Lavenarde)، و بعضوية ديران — انجليفيال، عضو الوفد الدستورى، ضرورة اقامة اصلاحات بتونس (32) .

كما استقبل الوفد أيضا من طرف المقيم العام الجديد لوسيان سان قبل التحاقه بتونس . والظاهر ان طاهر بن عمار كان معتدلا كثيرا في طرحه مطالب التونسيين على المقيم العام الجديد، وهو ما أدى بالسيد بول سيلفير أن يعلق علــى هذه المقابلة بقوله ان الدستوريين يفضلون المطالبة بمنح التونسيين دستورا لا غير ((وان الثعالبي ليس حاضرا لتهييج هؤلاء المبعوثين، فانخفضت بغيابه تلك اللهجة القاسية .)) (33)

وذكر صالح بالعجوزة ان حسونة العياشي، الكاتب العام للوفد، هو الذى حرر رسالة شرح فيها المطالب الدستورية وحللها بصفة قانونية و بين أنها لا تمس بجوهــر الحماية، وان المقصود منها النهضة بالشعب التونسي واعطائه حقوقه المادية والأدبية

---

(31) أنظر: - A.Q. O./S.T.1917-40, N°318, Op. cit.

(32) أنظر: - Lejri, T.1, p.194-195

(33) أنظر: - A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° A 1-60, P.Sylvère, (Fce Déf.Tun.), P. 674-676.

مع هيئة تشريعية تكون له ضمانا في سن قوانين البلاد (34).

وقد تقابل الوفد مع المقيم العام لوسيان سان، وبعض رجال السياسة الفرنسيين . وأظهروا له كلهم استعداد فرنسا لتلبية مطالبه ، على ان يجرى التفاهم مع لوسيان سان حينما يستلم منصبه بتونس . وعلق اعضاء الوفد املا كبيرا على هذه الوعود ، وراحوا يدلون بآرائهم حول سياسة فرنسا الجديدة ويعتقدون في عدالتها ، وعبروا عن ثقتهم في الحكومة التونسية . وجاء في عرض الطاهر بن عمار ، الى جريدة (الزمن) الباريسية ، الصادرة في 30 جانفي 1921 ، تحت عنوان (الحقيقة حول المطالب التونسية) : ((ان ثقة التونسيين بحكومة باريس هي التي جعلتنا نصبر على احتمال نظام صار الآن لا يوافق تقاليدنا . وان فجوات الادارة وعيوبها لم تنجح يوما في جعلنا نيأس من فرنسا .)) (35) اما السيد ديران ـ انجيلينال فقد فضل ان تلطف فرنسا من سياستها مع التونسيين وتشركهم فيها لكي تتفادى أخذ حركتهم طابعا وطنيا مضادا لفرنسا . ويظهر ان الحكومة الفرنسية قد اتبعت ذلك فعلا ، وأخذت بنصيحته ، وعمدت الى رفع الحصار على تونس ، وأقامت اصلاحات بها باحداث وزارة للعدل . غير ان سلطة الحماية كانت ترى في الدستوريين ((وطنيين متعصبين ، هدفهم تهديم النفوذ الفرنسي بتونس .)) وهذا الموقف هو الذى جعل اعضاء الوفد الدستورى ينفون هذه الاتهامات ، ويؤكدون ((ان حزبهم ليس حركة نخبوية وانما هو حركة شعبية تهدف الى تطوير التونسيين سياسيا واقتصاديا واجتماعيا . وليست مضادة لفرنسا في شيء .)) (36)

وبينما كان الوفد بباريس يعيش على وعود الحكومة الفرنسية ، ويستلذ باعترافها له بضرورة ادخال بعض التحسينات على نظام الحماية مع تفويض طابع واتساع هذه

---

(34) أ . و . ل . ، م . ت . ق / ح . و . تونس ، رقم 77ـ2 B ، (16 اما . . .) بالعجوزة ، مرشد الامة ، 12 نوفمبر ، و14 ديسمبر 1936 .

(35) أنظر - A.O.M./A.E.P. 27H1, Rap.Etat-Major, le 21/4/1922
- Lejri, T.1, p. 195 et -Kraïem, Nat.Synd., p.196-197.

(36) نفس المصدر ، ص.197ـ198 .

الاصلاحات الى المقيم العام [37] ،كان هذا الاخير قد صرح الى احمد الصافي — الذى استقبله بتونس على رأس وفد تونسي ، شرح له مطالب حزبه — في 21 جانفي 1921 ، قائلا : ((يجب الحذر من ان كلمة دستور تستدعي جملة اجراءات ادارية واجتماعية ونظام سياسي بأكمله تتعارض عناصره تعارضا مطلقا مع مبدأ الحماية ومع روح المعاهدات المبرمة بين تونس وفرنسا ٠ انكم سوف لا تندهشون من قدسية هذا الأمر في نظرى ومن اني لا اتكلم هنا عن مجلس منتخب وحكومة مسؤولة ٠)) [38]

وكان المقيم العام يقصد استحالة تطبيق المطلبين الاولين من برنامج الحزب الدستورى ، وهما المجلس التشريعي والحكومة المسؤولة أمامه ٠ وبرر موقفه هذا في جعل البت في هذين المطلبين من مهام وزارة الخارجية ٠ ولكي يوهم التونسيين بصدق نيته في اقامة الاصلاحات ، قام برفع حالة الحصار على تونس في 29 مارس 1921 ، ودشن غرفتي الفلاحة والتجارة الاهلية ٠ ثم انشأ في 24 افريل من نفس السنة وزارة العدل [39] .

وكان الوفد التونسي الثاني عند عودته من باريس قد ترك السيد فرحات بن عياد ممثلا للحزب الدستورى بباريس ٠ ويرجع له الفضل في ان أصدر ثلاثة من رجال القانون الفرنسيين في جويلية 1921 عدة فتاوى قانونية قضت بشرعية منح التونسيين دستورا ، وبرهنت على انه لا يتنافى مع روح الحماية [40] ٠ وفي 2 فيفرى 1922 ، وضع خمسة وعشرون برلمانيا فرنسيا — بمبادرة من البرلماني بول تابتنجر — اقتراح قبول دستور

---

(37) نفس المصدر ، ص 198٠

(38) أنظر : - *A.O.M./A.E.P. 27H1, Rap. Etat-Major, le 21/4/1922*

(39) أنظر : - *Lejri, T.1, P. 196*

(40) كان الثلاثة اساتذة بجامعة الحقوق بباريس ، وهم جوزيف بارتلمي ، استاذ القانون الدستورى ، وهو الذى أهدى له الثعالبي كتابه (الروح الحرة في القرآن) ، فقدم له وبارك توزيعه ٠ واندرى وايس (*A.WEISS*) ، استاذ القانون الدولي العام ، ونائب رئيس محكمة لاهاى الدولية ، وادوارد كليني (*E.Clunet*) ٠ أنظر :
- *Lejri, T.1, p. 196.*

لتونس ، دعوا فيه الحكومة الفرنسية الى التفاهم مع الباى لتدعيم قرار القرض التونسي الصادر في 31 جويلية 1920 ، بمنح الشعب التونسي دستورا يقوم على فصل السلطات الثلاث ، ومجلس تفاوضي منتخب انتخابا عاما ، له التصرف المطلق في الميزانية ، وتكون الحكومة مسوءلة امامه (41) . وقد أحدث هذا المشروع رعبا حقيقيا في وسط الاغلبية الفرنسية بداخل سلطة الحماية ، فضغطوا على أصحابه مما أدى في الاخير بالسيد تايتنجر الى أن يسحب مشروعه ويدلي بتصريح للعامة يندد فيه بالدستور التونسي (42) .

وعرف نشاط الحزب الدستورى التونسي خيبة كبيرة في الخارج ابتداء من سنة 1922 حيث تخلى عنه ممثله فرحات بن عياد ، ومال الى جانب الفرنسيين وساند سياسة المقيم العام لوسيان سان ضد الحزب الدستورى ، واستقل عنه (بالحزب المستقل) (43) .

ولما نجحت الكتلة اليسارية في انتخاب 11 ماى 1924 ، وصعد السيد ادوارد هيريو على رأس الحكومة الفرنسية ، استبشر الدستوريون خيرا ، واتسعت آمالهم في تحقيق مطالبهم ، وأسرعوا الى ارسال صالح فرحات يحمل تهاني الحزب الى الحكومة الجديدة

---

(41) كان من بين هوءلاء البرلمانيين مجموعة كليمنصو ، ومجموعة العمل الجمهورى والاجتماعي (*Henri Pate*) وغيره ، ومجموعة اليسار الجمهورى والديمقراطي (*Barthon*) وغيره ، ومجموعة برياند (*Briand*) الجمهورى الاشتراكي ، ومجموعة جمهورى اليسار (*Geroges Leygues*) ، والحزب الاشتراكي الاصلاحي (*Olivier De Guise*) والحزب الراديكالي والراديكالي الاشتراكي الذى كان رئيسه اندرى رونار (*André Renard*) والحزب الراديكالي ، الذى كان يمثله العقيد جيرو (*Colonel Girod*) وغيره ، والحزب الاستقلالي ، الذى كان يمثله الامير جواشيم مورات (*Joachim Murat*) وآخرون . طالع قائمة بقية الاعضاء في : *Kraïem, Nat.Synd., p.203-204, et Lejri, T.1, p.197.*

(42) أنظر : *- Kraïem, Op.cit, p.204*

(43) أنظر :

- Ali, MaHjoubi, "Le Cartel des gauches en France et le Mouvement National Tunisien", Les Cahiers de Tunisie, T. XXIV, N° 95-96, 3è et 4è trimestre (Tunis, F.L.S.H., 1976) p. 190.

وعلى رأسها ادوارد هيريو. وقد رجع صالح فرحات الى تونس كله أملا في الحكومة الجديدة، وتأثر في ذلك بما ابداه له بعض النواب اليساريين وبعض الصحفيين والمحامين من تجاوب مع مطالب الحزب الدستوري، ووعده بالتدخل لصالحه لدى حكومة هيريو (44).
وزيادة على ذلك فقد سافر الوفد الدستوري الثالث برئاسة احمد الصافي الى باريس في ديسمبر 1924، وعمل على اقناع الحكومة الفرنسية الجديدة ومجلس النواب الفرنسي والاحزاب السياسية بضرورة تحقيق مطالب الشعب التونسي التسعة (45). غير أن الوفد الدستوري لم يجد أذنا صاغية من الرئيس الفرنسي الذى رفض استقباله. ومع ذلك فقد تمكن الوفد من تقديم مذكرته للرئيس تحت عنوان (المسألة التونسية) نشرتها جريدة (الحر) الدستورية، عرض له فيها مطالبه وشرحها شرحا وافيا، ونقد اصلاحات جويلية 1922 بشدة لانها لم تلب اى مطلب من المطالب الدستورية. واحتج ضد تكوين لجنة فرنسية لتحضير مشروع اصلاحات جديدة لأنها لم تضم أى ممثل رئيسي لمصالح الشعب التونسي الحقيقية. ودحض الوفد اتهامات السياسيين الاوروبيين للحزب الدستوري بالشيوعية واثارة البغضاء وتهييج الشعب ضد السلطة الفرنسية وقال: ((اننا لا نستطيع ... أن نكون حلفاء للشيوعيين، لأنه ليست لنا أية مصلحة في ذلك... وان الحزب الشيوعي ليس له بتونس الا حوالي عشرين عضوا، مما يجعله لا يكون قوة يمكننا الاعتماد عليها. وحتى في فرنسا، فليس له الا ستة وعشرون صوتا، فلا يمكنه أن يفيد التونسيين في شيء.. بالعكس ان التونسيين ليست لهم اية علاقة مع الشيوعيين، ولا حتى مجرد التعاطف معهم، لأن مذاهب هؤلاء هي مضادة تماما للمبادئ الاسلامية... ماذا نطلب من فرنسا بالضبط ؟ اننا نطلب اصلاحات داخلية مبنية على مبدأ التعاون

---

(44) نفس المصدر، ص 189.
(45) ذكر جوليان، وبول سيلفيرا ان الوفد الدستوري الثالث سافر في شهر نوفمبر 1924 ورجحنا التاريخ الذى اكده محمد الصالح لجرى (تطور الحركة، ج 1، ص 214—216).
أنظر: -A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° A 1-60, (Fce dif.tun.),p.674-76
وكذلك جوليان، افريقيا الشمالية تسير، ص 98.

الجدى والاخوى بين الفرنسيين والتونسيين ،تكون منسجمة مع نظام الحماية ومصالح فرنسا في تونس ...)) (46)

وكان الوفد الدستورى يريد ابعاد التهم التي وجهت ضده بسبب تعاطفه مع (جمعية عموم العملة التونسيين) ودفاعه عنها . وقد حاربها الاشتراكيون الفرنسيون بأراد يا حلها وضمها الى نقابتهم بتونس . اما عن تركيز الوفد على المطالب الدستورية وضرورة التعاون مع الفرنسيين في تحقيقها ،فقد أراد نفي تهم الفرنسيين له باحداث الشغب في الاوساط الشعبية والمشاركة في المظاهرات الجماهيرية في صيف وخريف وشتاء 1924 . وكانت الحكومة الفرنسية قد وجهت له هذه التهم عن قصد لأنها كانت واقعة تحت ضغط النقابة الفرنسية بتونس ،وهدفها من ذلك هو ضرب الحركتين معا ، الحزب الدستورى وجمعية عموم العملة التونسيين .

ورغم ان مطالب الحزب الدستورى أصبحت معتدلة كثيرا ،وأسلوبه في العمل صار لينا ،فان الحكومة الفرنسية اليسارية قد أفقدته الأمل من جديد في تحقيق أهدافه . ولم تفد فيها برقيات التأييد التي أوفدها الشعب التونسي الى وزارة الخارجية الفرنسية لتدعيم مطالب حزبه (47) .

ورجع الوفد الدستورى الثالث ايضا يجر أذيال الخيبة ولم يحقق مآربه حتى في ظل حكومة اليسار الفرنسية التي سانده رئيسها هيريو سنة 1922 حينما وضع مشروع منح التونسيين دستورا .

وبعد فشل الوفد الدستورى الثالث وخيبة أمله في الحكومة اليسارية الفرنسية

---

(46) طالع ملخص العريضة في - Lejri, T.1, p.214-216

(47) حدد مصطفى كريم عدد هذه البرقيات بثلا ثمائة وثلاث ممضاة من طرف التجار والصناع ،والحرفيين ،والفلاحين والعمال ،والموظفين ،وطلبة جامع الزيتونة الأعظم . أنظر :
- -Kraiëm, " Vieux Destour...", p.268.

عاد الحزب الى تعيين نواب عنه بباريس ،ووقع اختياره هذه المرة على الشاذلي خير الله بن مصطفى ،عضو اللجنة التنفيذية . ولكن يظهر ان خير الله لم يكن يؤمن ايمانا قويا بمبادئ الحزب . فقد أنابه الحزب عنه بباريس ليرعى مصالحه وينفذ خططه وينظم اتصالاته مع الاطراف المعنية والعمل على كسب الانصار . وهذا العمل يجب أن يكون منسقا مع المدير السياسي للحزب الدستوري ،وهو محيي الدين القليبي . غير أن خير الله لم يتبع هذه الخطة ،بل كان يعمل ما تمليه عليه ميوله وعلاقاته الخاصة ولا يستشير ادارة الحزب في شيء . ومن ذلك تعامله مع الشيوعيين الفرنسيين ومساهمته في تأسيس (جمعية نجم شمال افريقيا) سنة 1926 ، وقد كتب اليه محيي الدين القليبي رسالة ينكر عليه هذا الفعل بقوله : ((ان لك صفة سياسية يجب أن لا تخرج عنها ... وان تعمل في دائرتها وباسمها ... فالحزب وراءك والأمة معك ،ويجب عليك أن تعلم ان مسؤولية ما تقوم به من الاعمال ... هي محمولة على كاهل الامة ومحسوبة على مستقبلها ... ودع عنك الخيالات يمكنك أن تشارك كل حزب وكل جمعية في أعمالها لفائدة بلادك ولكن الأمر الذي يجب عليك أن تحتفظ به هو شخصيتك السياسية ... اما اذا انخرطت في جمعية أو حزب من الاحزاب فقد أضعت شخصيتك .)) (48)

وكان القليبي متفطنا الى الفكرة الشيوعية التي يحملها خير الله من ناحية وحريصا على اسرار الحزب الدستوري من تأثير الشيوعيين من ناحية ثانية ،اذ لا يمكن لخير الله أن يحافظ على أسرار الحزب الدستوري وهو ينتمي الى حزب آخر يخالفه في كل شيء ،في البرنامج السياسي والعقائدي والبعد الاستراتيجي والحضاري . وقد أنكر القليبي على خير الله انتماءه الى جمعية نجم شمال افريقيا بقوله : ((اما اذا انخرطت في جمعية أو حزب من الاحزاب فقد أضعت شخصيتك وأصبحت لك شخصية أخرى وفكرة أخرى ولم يبق من مبرر لارتباطك مع حزب تحمله تبعة أعمالك بصفتك عضوا أو رئيسا لجمعية أخرى لها فكرة وبرنامج غير فكرة وبرنامج الحزب.)) (49) . والظاهر أن

(48) ا.و.ا.٠.م ،ت.ق/ح.و. تونس ،رقم 24—4 م (رسالة خطية من محيي الدين القليبي الى الشاذلي بن مصطفى ،بتاريخ 8 أفريل 1927 .)

(49) نفس المصدر .

القليبي كان مطلعا على برنامج (جمعية نجم شمال افريقيا) الذى كان يهدف قبل سنة 1927 الى تحسين وضع عمال شمال افريقيا المهاجرين بفرنسا الاقتصادى والاجتماعي . ويبدو أن القليبي لم يكن يعارض فكرة (نجم شمال افريقيا) وانما كان يقصد تجنب الاصطدام مع الحكومة الفرنسية ، واتهام الحزب الدستورى بالتعامل مع الشيوعيين عن طريق ممثله بباريس كما سبق وان اتهمه سنة 1924 حينما ساند (جمعية عموم العملة التونسيين) . وهذا الرأى يدعمه قول القليبي ايضا الى خيرالله في نفس الرسالة : ((أنا لو كنت مكانك لذهبت الى بروكسيل ولخطبت في جمعية النجم الافريقي وكتبت في صحف الشيوعيين والفوضويين ولكني لا انخرط في سلك اى هيئة منها ... أنظر الينا ونحن في توتر هل في امكاننا الاعتراف ببعض أعمالك وخطبك التي تعلم مقدار تأثيرها أم هل من المصلحة انكارها والتبرى منك ومنها ...)) (50)

واذا كان محيى الدين القليبي حذرا من (جمعية نجم شمال افريقيا) كونها ولدت في أحضان الحزب الشيوعي الفرنسي ، وكون برنامجها لا يتفق مع برنامج حزب الدستور ، فان الظاهر أن أصحاب النجم كانوا ينتقدون أيضا حزب الدستور التونسي بشدة . وذلك ما جعل القليبي يقول في نفس الرسالة الى خيرالله : ((اطلعت على كتاب من كاتب جمعية النجم الحاج مصالي وجهه الى احد الاحرار وجاء فيه كلام عن الحزب لا يتفق مع الحقيقة وسأكتب اليه بيانا وردا .)) (51) وفي حين يظهر الاختلاف في وجهة النظر بين الفكرة التي كان يحملها مصالي ويريد أن يسير عليها جمعية النجم (ولعلها المطالبة بالاستقلال الصريح) فان المؤكد ان خيرالله لم يكن يؤمن بأفكار الحزب الدستورى وكان يتفق مع مصالي والشيوعيين الفرنسيين على ذلك .

ويبدو أن احساس خيرالله بعدم القيام بالواجب والانسلاخ من مبادئ الحزب الدستورى هو الذى جعله يبعث برسالة الى صالح فرحات ، الكاتب العام المساعد للحزب

---

(50) نفس المصدر .
(51) نفس المصدر .

الدستوري ، يستفسره فيما اذا كان الحزب قد غير موقفه منه نظرا لانتمائه الى أحزاب أخرى مخالفة لمبادئه . وقد أولى الحزب اهتماما خاصا لهذه الرسالة وناقشها في مجلس اللجنة التنفيذية للحزب المنعقد في 7 اكتوبر 1927 ، واستقر رأي اعضائها على ابقاء خير الله عضوا بها وممثلا للحزب بباريس شريطة أن يطلب رأي اللجنة التنفيذية في كل أمر يريد البت فيه . وله الحق في القيام بفضح المظالم الواقعة بالبلاد التونسية (52) .

والظاهر ان خير الله لم ينجح في أداء مهمته كنائب للحزب مما تسبب في جمود علاقاته مع الفرنسيين . ونستنتج من بعض مراسلات القليبي مع خير الله ان هذا الاخير كان متهاونا كثيرا في القيام بمهمته ، وفرغ نفسه لجمعية النجم والعمل على نشر دعايتها وشرح برنامجها و تكثيف اتصالاته بالشيوعيين الفرنسيين ، ومما يؤكد ذلك ان خير الله لم يجهد نفسه حتى في ايجاد طريقة للعمل و تنظيم الاتصالات مع الشخصيات السياسية الفرنسية لنشر مبادئ الحزب الدستوري . فكان القليبي يراسله و يوضح له كل السبل التي يجب اتباعها في تنظيم أعماله و يؤكد له على المطالبة بحرية الصحافة والاجتماعات . وكان يحثه ايضا على اغتنام فرصة اجتماع البرلمان الفرنسي و تقديم لائحة الى رئيس مجلس النواب بصفته ممثلا للحزب بباريس (53) . وان يركز اهتمامه على النواب غير الشيوعيين . فلم ينفذ خير الله شيئا من ذلك ولم يهتم بغير تمتين علاقته مع الشيوعيين (54) .

و يتضح تقصير خير الله في أداء مهمته كنائب للدستور بباريس ، خاصة في عدم ابلاغ حزبه بتاريخ انعقاد مؤتمر الشعوب المهضومة بباريس في شهر ديسمبر 1927 ، حتى أن القليبي احتج على ذلك بشدة و تأسف على فوات الفرصة على حزبه في طرح قضيته أمام الشعوب .

---

(52) أ ٠ و ٠ ل ٠ ٥ ، ت ٠ ق / ح ٠ و ٠ . تونس ، رقم 24-4 A (رسالة خطية من محيي الدين القليبي الى الشاذلي بن مصطفى (خير الله) مؤرخة بتونس في 2 ديسمبر 1927) .

(53) نفس المصدر . وكذلك : ا ٠ و ٠ ل ٠ ٥ ، ت ٠ ق / ح ٠ و ٠ تونس ، رقم 24-4 A (رسالة خطية من محيي الدين القليبي الى الشاذلي بن مصطفى (خير الله) ، مؤرخة بتونس في 12/1/1928)

(54) نفس المصدر .

وقد شارك خيرالله في مؤتمر بروكسيل في فيفرى 1927 المناهض لمكافحة الاستعمار، باسم الشعب التونسي ولم يستشر الحزب في ذلك الامر الذى أثار استغراب الدستوريين على لسان محيي الدين القليبي بصفته مديرا لمكتب الديوان السياسي للحزب . وكتب الى خير الله يلومه لعدم استشارة الحزب لكونه الممثل (الوحيد لرأى التونسيين) ، وعلى القيام بتمثيل الشعب التونسي دون علم منه . واستاء القليبي ان يحضر خيرالله المؤتمر غير مزود بالمعلومات الكافية والقضايا اللازم شرحها في مثل هذا المؤتمر حتى يؤدى الوفد مهمته عن حالة تونس بعلم واحصائيات لا أن يلقي خطابا ملوءه الحماس والعواطف الجميلة . وهو ((غير كاف في الجهاد السياسي والحملات الانتقادية على اعمال الظلمة المستبدين .)) (55)

ومع ان خيرالله لم يأخذ برأى الحزب في المشاركة في مؤتمر بروكسيل ، فانه قرأ امام المؤتمرين رسالة اعتذار زعم ان احمد الصافي ، كاتب حزب الدستور العام ، قد وجهها الى المؤتمر (56) . وقد اعتبرت دورية (افريقية الفرنسية) تلك خدعة من احمد الصافي اذ أرسل من ناحية خيرالله للمشاركة في المؤتمر باسم الدستور، وأرسل معه تلك الرسالة ليتجنب الضغوط الفرنسية على حزبه (57) . ولكن الدارس لرسائل القليبي المذكورة الى الشاذلي بن مصطفى خيرالله يتأكد ان الحزب الدستورى لم يتلق دعوة من المؤتمر للمشاركة في أعماله .أضف الى ذلك ان المتعمق في مطالب خيرالله وخطبته في مؤتمر بروكسيل يجد انه اقتصر فقط على تمثيل برنامج (جمعية نجم شمال افريقيا) ، ويظهر ان علاقة خيرالله بالشيوعيين هي التي سهلت انتخابه عضوا في لجنة المؤتمر الدائمة وهي أيضا التي أنسته ارتباطه بالحزب الدستورى التونسي ولجنته التنفيذية ووجهت اهتمامه الى القضايا الانسانية .

---

(55) <u>نفس المصدر</u> (رسالة محيي الدين القليبي الى الشاذلي بن مصطفى (خيرالله) ، مؤرخة بتونس في 12/1/1928 .

(56) أنظر : - "*Le Congrès anticolonial de Bruxelles et les revendications Nord Africaine*", *Afrique française*, 37 année, N° 6 (Juin 1927), p. 226-227.

(57) أنظر : - " *Le Destour et la Conférence communiste de Bruxelles*", *Afrique française*, 37 année, N° 3, (Mars 1927)p.114.

وبينما تعاونت حكومة باريس مع سلطة الحماية في القضاء على الحزب الدستوري ، بقيت الجمعيات الانسانية تتعاطف معه وتساند بعض قضاياه ،خاصة مع أعضاء الدستور ذوي الثقافة الاوروبية البحتة . وكان الحزب الدستوري يغتنم كل فرصة ليعبر عن طموحاته ويفضح مساوئ نظام الحماية .

وفي صيف 1931 عقدت جمعية حقوق الانسان والمواطن مؤتمرا بمدينة فيشي (*Vichy*) . وان كان الحزب الدستوري لم يرسل وفدا رسميا باسمه يمثله في هذا المؤتمر، فان أعضاء جريدة (صوت التونسي) الدستوريين شاركوا في هذا المؤتمر بوفد يتكون من الطاهر صفر، عضو لجنة الحزب الدستوري التنفيذية ، والحبيب بورقيبة ، والبحري قيقة . وأدلوا بتصريح ركزوا فيه على ان مشكل الاستعمار يدخل ضمن اختصاص جمعية حقوق الانسان، ذلك ان هذه الجمعية تدافع أولا عن حقوق جميع الناس في جميع المناطق دون تمييز . ولا يمكنها أن تخون مهمتها ، وهي لا تبالي بتجزئة الانسانية في المستعمرات التي تنتهك فيها حقوق الانسان يوميا . وثانيا فهذه الجمعية تعتبر المثل الاعلى في التنظيم الجذري للسلام ، ويجب عليها أن تفهم بأنه لا يمكن أن يكون هناك سلام حقيقي ودائم ما دام هناك مجموعات من الناس يواصلون اضطهاد مجموعات انسانية أضعف منهم ، لتلبية مصالحهم الانسانية ، وتجريدهم من كامل حرياتهم وحقوقهم ، واخضاعهم لقوانين اهلية . وان تونس بلد يعيش فيه شعب مسلم له لغته ، ومؤسساته ، وتقاليده ، ودينه ، وتاريخه ، يئن منذ نصف قرن تحت ثقل نظام قائم على التباين والتعسف الاداري ، ومخصص الى التخلص من مشكل التزايد الديمغرافي الرهيب للتونسيين والتحضير لليوم الذي يصبح فيه العنصر الاوروبي يمثل الاغلبية ، فتضمن لفرنسا امتلاك البلاد النهائي (58) .

ونشرت جريدة (صوت التونسي)المؤرخة في 27 نوفمبر 1931 مذكرة عن جمعية حقوق الانسان ، نددت فيها بالنظام الاستعماري الامبريالي وطالبت باستبداله بنظام يكون هدفه تعويد الشعوب المستعمرة على حكم نفسها بنفسها . ووضحت الجريدة

---

(58) أنظر: A.O.M./A.E.P. 27H4,Rap.Etat-Major, du7/8/1931

الطريقة المثلى التي يمكن أن تتبع في ذلك ، فقالت : ان الاسلام قد انتشر في البلدان الاسلامية و رسخت عقيدته فيها بالقلم والكلمة والفكرة ضد القوة ، وواجه الغرب بالحجة والبرهان الغربي . وكان هدفه ابعاد الامم الاوروبية سياسيا واقتصاديا ، بدون ثورة ولا سلاح ، على غرار ما كان واقعا في الهند ومصر ، وأوجد و نما في شعوبها وطنية قوية متينة بسند مشترك بين جميع اخوانهم في الدين (59) .

ولم تقتصر سياسة الحزب الدستوري على فرنسا في التعريف بقضيته والدفاع عن مطالبه . وانما تعدتها الى الاوساط الدولية ، وقام فيها الحزب بشرح مطالبه وفضح نظام الحماية الفرنسية . وليس معنى ذلك ان هذه القضية لم تكن معروفة من قبل في الخارج ، وانما المقصود هو ما قام به الحزب الدستوري في التعريف بها و نشر خبرها . فقد عرف بها المهاجرون المغاربة في اوروبا وآسيا ، وعلى رأسهم محمد باش حامبة في مجلة (المغرب) . غير أن ذلك كان في اطار المغرب العربي في أسلوب متطرف مخالف للاسلوب اللين الذى قامت عليه شروح الحزب الدستوري في الداخل والخارج .

وفي مقابل عدم وفاء الحكومة الفرنسية بوعودها ، و تعاونها مع سلطة الحماية ضد الحزب الدستوري ، عمل هذا الاخير على شرح قضيته للدول الاوروبية العظمى لعلها تضغط على فرنسا لتلبية مطالبه . وكان فرحات بن عياد ، ممثل الحزب بباريس منذ نهاية 1920 ، ينظم اتصالاته مع سفارة المملكة المتحدة بباريس ، وعرض عليها القضية التونسية مبينا ان سلطة الحماية هي التي تدفع الشعب التونسي الى عدم التنظيم . ولاحظ ابن عياد ضعف موقف فرنسا في شمال افريقيا امام سياسة انكلترا في مصر التي امتازت بمنح المصريين حكما ذاتيا بمقتضى تصريح 28 فيفرى 1922 . و يظهر ان انكلترا قد أوعزت لقنصلها في تونس السيد ساريل (*Sarell*) ، بتحريض الباى محمد الناصر على المطالبة بالحكم الذاتي ، وذلك ما أدى بالمقيم العام أن يكشف الى وزارة خارجيته في 12 افريل 1922 تدخل القنصل الانكليزى و تأثيره على الباى ،

---

(59) نفس المصدر .

وقال : ((لم تعد لي اية ثقة في السيد ساريل الذى أصبحت مواقفه المعادية لفرنسا واضحة .)) (60)

ولعل نشاط الحزب الخارجي لم يكن منحصرا في انكلترا ،بل تعداه الى الدول الاوروبية الاخرى مما جعل هيئة أركان الحربية الفرنسية تعلق على ذلك في تقريرها المؤرخ في 4 ماى 1922 بقولها : ((ان الاشاعات تدور ان الحزب الدستورى ينوى رفع شكوى لدى الدول الاجنبية العظمى كانكلترا ،والولايات المتحدة الامريكية ،وايطاليا ، وقد حظي ببعض ثقتهم .)) وربطت هذا النشاط بانتشار فكرة الجامعة الاسلامية في ليبيا (61).

وقام الشيخ الثعالبي في صيف 1923 بمهمة نشر دعوة الدستور في البلاد الاجنبية ،حيث نشرت له جريدة (الشرق الحديث) الايطالية ،التي كان يديرها المستشرق الايطالي روسي (E. ROSSI) ،تصريحا تناول فيه الحركة الوطنية التونسية منذ نشأتها حتى عام 1923 ،مرورا بحركة علي باش حامبة ،وبداية تأسيس الحزب الدستورى . وشرح برنامج حزبه ووفوده الى باريس ، وأحداث تنازل الباى محمد الناصر عن العرش وانهاه بالحديث عن زيارة الباى محمد الحبيب الى فرنسا (62) . وكان لهذا التصريح صدى كبير في الأندية الايطالية والفرنسية . وقام الثعالبي بنفس الدور في الآستانة (63) . وتباحث أوضاع العالم الاسلامي مع الخليفة العثماني عبد المجيد .

---

(60) -Kraïem, Nat.Synd., p.222

(61) أنظر: - A.O.M. A.E.P. 29H35, Rap.Etat-Major du 4/5/1922

(62) أنظر: - Ettore, Rossi, "Il Moviemento Ababo in Tunisia Dapola guerra", Oriente Moderno, anno III, N°4, (15 settembre 1923), p. 197-208;

(63) أ . و . ط . ، م . ت . ق / ح . و . تونس ،رقم 13-3 B ،ابن تفصية ، (خلاصة ترجمة زعيم الاحرار . . .) ، ص 6 .

2 — في العالم العربي والاسلامي :

ربط الحزب الدستوري مصير تونس بالخلافة الاسلامية بالآستانة واعتبرها جزءا لا يتجزأ منها ، وكان يتابع أخبارها عن قرب، وكانت المراسلات تجري بينه وبينها عن طريق لجنة الخلافة التي أسسها التونسيون سنة 1923 بتونس، تحت رئاسة احمد توفيق المدني ،كاتب القلم العربي لدى لجنة الحزب الدستوري التنفيذية . وقد رد الخليفة عبد المجيد على رسالة التأييد التي بعثها له المدني في نوفمبر 1923 نشرت نصه جريدة (العصر الجديد) ،بتاريخ 8 ديسمبر 1923، جاء فيه ،عن لسان الخليفة بقلم كاتب ديوان الخلافة نوري ((رئيس لجنة الخلافة السيد احمد توفيق المدني لقد عرضت على مقام حضرة الخليفة برقيتكم رقيمة 21 نوفمبر المتضمنة تهاني التونسيين لحضرته العلية بمناسبة مرور سنة على انتخاب جلالته لتولي مقام الخلافة الاسلامية المعلى ، فنالت أكبر حظوة في نظر جلالته وابتهل بأحر الدعوات)) لرفاهية العالم الاسلامي وسعادته (64)

وكان الحزب الدستوري مهتما كثيرا بنشر دعوته في اوروبا والعالم العربي الاسلامي ،فكتب محيي الدين القليبي في بداية سنة 1924 مقالا في هذا الصدد نشرته جريدة (لسان الشعب) في 9 جانفي 1924 بين فيه ضرورة نشر الدعوة الدستورية في اوروبا والشرق ((لنجد في سياسة هذان الثقلان وصحفهم وعيثاتهم مناصرا لنا وعونا على نيل حقوقنا . وأقل ما يفيدنا في عملنا هذا ان قضيتنا العادلة يفهمها الناس على حقيقتها ولا يقبلون فيها طعن الطاعنين ،ولا دسائس المغرضين .)) (65)

وبناء على هذا التوجيه كان الحزب الدستوري يطرح قضاياه على العلماء المسلمين في العالم . ومن ذلك طلبه الذي وجهه اليهم سنوات 1923—1924 عن

---

(64) أ . و . ل . ، م . ت . ق . / ح . و . تونس ،رقم 46—2 ،(رسالة بين تونس وجلالة الخليفة الاعظم) ، جريدة العصر الجديد ،المؤرخة في 8 ديسمبر 1923 .

(65) حمادي الساحلي ،((رسالة من المرحوم محيي الدين القليبي حول الوضع بتونس غداة الحرب العالمية الثانية)) ،المجلة التاريخية المغربية ،عدد 35—36 (تونس ، ديسمبر 1984) ،ص 103—109 .

طريق الصحافة العربية في شأن احداث فتوى تمنع على المسلمين التونسيين التجنس بالجنسية الفرنسية . وقد لبى المسلمون الهنود والفرس النداء ، فاستجابت صحافتهم لطلب الحزب الدستورى . ومن هذه الصحافة جريدة (الخلافة) الصادرة بمدينة بومباى الهندية . وأنكروا فيها على المسلمين التونسيين التجنس بجنسية أجنبية . كما استجاب أيضا رشيد رضا في مجلته (المنار) الصادرة في جانفي 1925 ، الى نداء الحزب الدستورى ، وأصدر فتوى دعا فيها العلماء المسلمين الى الاستجابة لنداء المسلمين التونسيين ، وأفتى بأن التجنس يعتبر (ردة ضد الشرع وخروج من الملة الاسلامية) (66) .

وقد قام الشيخ الثعالبي منذ 1923 بدور نشر المسألة التونسية في المشرق العربي في مصر وفلسطين ، والحجاز ، واليمن ، والكويت ، والعراق ، بين علمائها وأدبائها ، ورجال السياسة فيها . وكانت دعوته وان غلب عليها الطابع الاصلاحي الاسلامي العام ، لا تخلو من تقديم شروح حول القضية التونسية ووضع المسلمين بتونس . وكانت الصحف العربية تنشر أخباره وتعرف بأعماله . وكان الثعالبي يقرن في خطبه وندواته بين المسألة التونسية والمسألة الفلسطينية . فأدى ذلك بالحكومة الفرنسية الى منعه من زيارة سوريا لكي لا يثير الشعب السورى ضدها (67) .

ولم يكن الشيخ الثعالبي مبعوثا رسميا للحزب الدستورى الى فلسطين ، وانما أخذ عبء مسؤولية الدعوة لقضية حزبه من تلقاء نفسه كونه رئيسا له وهو المسؤول الأول على نشر دعايته ، وكان يشعر أنه أيضا مسؤول على تحرير شعبه من الاستعمار . ومع ذلك فانه كان يشعر بالغربة ويتأسى من نسيان التونسيين له وهو ((المقصي عن وطنه غير الشعور

---

(66) أنظر : - " *Riassunto della cronoca tunisia dall'agosto 1923 all'aggosto 1924*", Oriente Moderno, *anno IV, N°9, (15 settembre 1924), p. 569-573.*

(67) أ . و . ل . ، ت . ق / ح . و . تونس ، رقم 13—3 B ، ابن قفصية (خلاصة الابرار) ، ص 6 .

الهلالى ، " الشيخ الثعالبي ... " ، المورد ، ص 464—465 . وكذلك :
" *Riassunto...*", Oriente Moderno, *N°9, (1924), p.569-573.*

بالاخلاص والحب من أصدقائي ... ومواطني ...)) (68)

وسار خبر القضية التونسية مع الثعالبي وسافر معه الى أقصى ارجاء الهند وكل الأماكن التي زارها في مارس 1925، بطلب من جمعية العلماء الهندية (69) للطواف في بلاد هم وبعث الأمل في نفوس مسلميها لارجاع مجد الاسلام، وحث الهنود المسلمين على المثابرة على العمل والاجتهاد للنهوض به (70).

وكان الثعالبي حينما استقر أستاذا بجامعة آل البيت ببغداد يعرف بالقضية التونسية. غير أن عمله الوطني منذ هجرته سنة 1923 اختلط بالاصلاح الاجتماعي والسياسي في اطار فكرة الجامعة الاسلامية. وكان شأنه في ذلك شأن الامير خالد الجزائري، ومع ان هناك بعض أوجه المقارنة بين الرجلين فان هناك فروقا ثقافية وسياسية ميزت عمل كل منهما عن الآخر (71).

وقد لقيت القضية التونسية صدى كبيرا على يد الثعالبي في العراق، ومثلها أدباؤه وأعيانه وكبار رجال السياسة فيه، في شخص الثعالبي واحتفلوا به في منتصف

---

(68) نفس المصدر، رقم 14–5 A، رسالة خطية من الثعالبي الى عمر بن قفصية، مؤرخة في مدينة حيفا (فلسطين) في 6 جوان 1924.

(69) كانت الهند بعد الحرب العالمية الاولى قد قامت بثورة جامعة ضد الانكليز، وكان الاخوان شوكت علي وشوكت محمد علي، هما الجائلين في ميدانها. — أنظر :

— نويهض، "الثعالبي ..."، الاديب، ص 3.

(70) أ.و.ل.، م.ت.ق./ج.و. تونس، رقم 14–5 A، (الاستاذ الثعالبي)، جريدة لسان الشعب، المؤرخة في 25 مارس 1925.

(71) لقد تميز الامير خالد عن الثعالبي بمتانة ثقافته الفرنسية، وماضي عائلته التاريخي ومحاربته في صفوف الفرنسيين اثناء الحرب الاولى، ومشاركته في الانتخابات البلدية بالجزائر. كما تميز عنه الثعالبي في ثقافته الزيتونية الشرقية وتشبعه بفكرة الجامعة الاسلامية ونشر دعوتها في العالم الاسلامي والعمل على اعادة بناء الخلافة. غير ان الرجلين قد التقيا في المطالبة بحق تقرير المصير لبلديهما سنة 1919، ونادى الاثنان بعد اخفاق مبادىء الرئيس ويلسون، فطالب الثعالبي بمنح الشعب التونسي دستورا، وطالب الامير خالد بتطبيق القانون العام الفرنسي على الجزائريين مع احترام شخصيتهم الاسلامية.

شهر آوت 1925 ،وذكروا بتاريخ حياته و بلاده ،وأنشدوا القصائد الشعرية في القضيـــة التونسية . وعبروا عن موقفهم نحو الشيخ الثعالبي ونشاطه في سبيل تحرير بلده (72) .

وقد قام الشيخ الثعالبي بنفس الدور في الكويت التي زارها سنة 1925 أيضا . والقى بها الخطب ،وعقد المجالس مع الكويتيين في المعاهد العلمية والادبية . ولقيت القضية التونسية في الكويت نفس الصدى الذى لقيته في العراق ،اذ احتفل الكويتيو ن : سياسيون وأدباء ،بالداعية التونسي وأنشدوا فيه وفي بلده تونس القصائد الشعرية (73).

وفي نفس السنة (1925) استدعي الثعالبي الى المؤتمر الخلافة بالقاهرة (الذى انعقد في ماى 1926) (74) من لدن اللجنة التنفيذية العليا للمؤتمر الاسلامي . ومع ان اللجنة استدعته ليقدم لها شروحا وافية عن أحوال المسلمين كونه ساح في أغلـــب البلدان الاسلامية ،فان الثعالبي كان بالاضافة الى ذلك داعية للمسألة التونسية و تعريف المسلمين بها (75) .

ومنذ هذا التاريخ بقي الثعالبي داعية تونسيا في جميع البلدان العربيـــة والاسلامية التي حل بها ،يشرح مساوىء الاستعمار الفرنسي وما كان يعانيه الشعـب التونسي من اضطهاد وظلم وقمع و تجهيل . و ربط قضية بلاده بالدعوة الاسلاميـة العامة . ولعل ذلك يعود الى احتكاكه المتزايد برجال النهضة العربية الاسلامية . ومع ذلك فان خطبه في المؤتمرات والندوات والجمعيات كانت تتمحو ر كلها حول تونس .

---

(72) الهلالى ،"الشيخ عبد العزيز الثعالبي ..." ،المورد ،ص 465–477.

(73) عبد العزيز الرشيد ،تاريخ الكويت ، (بيروت ،دار مكتبة الحياة ،بدون تاريخ) ، ص 285–286 و 310–311 و 331–332.

(74) عن مشاركة الثعالبي في مؤتمر القاهرة ،طالع :

- *Ettore, Rossi,* " *Notizie Varie: III-Tunisia*", *Oriente Moderno*, *anno VIII, N°8, (Agosto 1927), p. 383-389.*

(75) أنظر :

- " *Le Congrès islamique du Caire pour le Khalifat*", *Afrique française, 35 année, N° 3, (mars 1925), p. 133-135.*

فكان يستمد أمثلته من المظالم المسلطة على الشعب التونسي خاصة وشعب المغرب العربي عامة . ويظهر من خلال مراسلاته انه كان يعاني من مرارة الغربة ويتألم لبعده عن بلاده وانقطاعه عنها . وكتب الى عمر بن قفصية من بغداد في 23 مارس 1929 يشكره على رسالته وغيرته الوطنية واهتمامه بارسال التهنئة له . وكان الثعالبي ، رغم ما قام به في سبيل تونس ، يشعر بالخيبة في تحقيق استقلالها . فهو يعجب لمواطف ابن قفصية نحوه :

((فيتمثل لي فيها روح الشباب والصداقة اللذين كنت أعاني استنهاضهما لانقاذ بلادي من عثارتها مدة ثلاثين حولا وان أخذلت في النهاية ، غير اني لست بالرجل الاسي على الماضي اذا كان فيه لقومنا عبرة ... تحياتي للاخوان المخلصين للفكرة الدستورية وللجهاد القومي ...)) (76)

وقد لعب الثعالبي دورا سياسيا كبيرا لصالح القضية التونسية وفضح أساليب الاستعمار الفرنسي في العالم العربي والاسلامي . وأدى ذلك الى أن اعتبرته السلطة الفرنسية عنصرا مشاغبا ، واتهمته بالتعامل مع الانكليز ونشر الدعاية لهم في الشرق الأدنى . وفي الحقيقة ان نشاط الثعالبي كان قد تركز على نشر الدعوة الاسلامية . وكانت له علاقة وطيدة برجال الحركة الاسلامية في اوروبا والمشرق ، وخاصة منها ((جمعية الدعاية الاسلامية ببرلين)) التي كان يحظى بتقدير رجالها وعلى رأسهم شكيب أرسلان ، باعتباره زعيما للحركة التونسية وضحية مظالم الاستعمار الفرنسي . وأكد تقرير شرطة الجزائر ، بتاريخ 20 ديسمبر 1929 ، ان اتصالات الثعالبي كانت وثيقة مع الحزب الدستوري بتونس . ولعل الاصح ان علاقته به كانت ضئيلة ولم تعد لجنة الحزب الدستوري التنفيذية تستشيره في شؤونها ، مما جعله يشكو غربته ونسيان التونسيين اياه (77). ومع ذلك فعلاقته

---

(76) أ . و . ل . ، م . ت . ق / ع . و . ، تونس ، رقم 14—5 A ، رسالة خطية من الثعالبي الى عمر بن قفصية ، مؤرخة في بغداد ، يوم السبت 23 مارس 1929 .

(77) جاء في مذكرات الرويسي قوله : ((والثعالبي كانت له سمعة كبيرة في تونس وفي المشرق ، وكان رمز الحركة الوطنية . وكنا نسمع عن اتصالاته بالجماعة بالرغم من انها قليلة ، وتصلنا أخباره من الصحف الشرقية .)) أنظر :
— الرويسي ، " مذكرات ... " ، ص 199 .

بالدستوريين كانت مستمرة عن طريق جريدة (الشورى) المصرية خاصة ابتداء من سنة 1930 حينما كان مراقبا لبعثة الايقاف العراقية في مصر (78) بعدما قررت حكومة العراق غلق جامعة آل البيت (79) .

وفي نهاية 1931 انعقد المؤتمر الاسلامي بالقدس الشريف · وكان الثعالبي مستقيما آنئذ في فلسطين فساعد الشيخ الامين الحسيني ، مفتي فلسطين ، على الاعداد للمؤتمر · واثناء انعقاده ركز الثعالبي في تدخلاته على ضرورة ارسال بعثات من العلماء المسلمين الى البلدان الاسلامية يقومون بالدعوة الى الاسلام ، يبعثون روح الايمان بجامعاتها (80) .

---

(78) قررت حكومة العراق الغاء جامعة آل البيت سنة 1930 ، ورأت ((الاستعاضة عن ذلك بايفاد بعثة مؤلفة من ثمانية عشر طالبا من طلبة العلوم الدينية الى مصر ، لاكمال تحصيلهم فيها ، على أن يرافق هذه البعثة الدراسية ، مراقب خاص للاشراف على شؤون الطلاب المختلفة في القاهرة · · · وتلقت الحكومة اشعارا من البلاط الملكي يفهم منه : ان جلالة الملك فيصل الاول ، يرغب في أن يكون مراقب هذه البعثة الاستاذ عبد العزيز الثعالبي ·)) — انظر : الهلالي ، "عبد العزيز الثعالبي · · · " ، الاديب ، ص 17—19 ·

(79) الهلالي ، "الشيخ عبد العزيز الثعالبي · · · " ، المورد ، ص 477—478 · وكذلك :

- *A.O.M./A.E.P. 29H35 , Rapport Policier (Renseignements) à Gouvernement Général d'Algérie, Alger le 20/12/ 1929; (Action politique de Abd El-Aziz Taâlbi).*

(80) انعقد المؤتمر الاسلامي في القدس في بداية ديسمبر 1931 ، وتناول قضايا العالم الاسلامي الراهنة ، وركز على تأسيس الجامعات الاسلامية ، ونشر الدعوة الاسلامية ، ومحاربة الامبريالية · وصادق في الاخير على قانون المؤتمر الدستوري في 17 فقرة ، تحددت أهمها في انشاء منظمة اسلامية عالمية تتألف من هيئة تنفيذية دائمة من خمسة وعشرين عضوا ، منحت رئاستها الى الحاج الامين الحسيني ، وكتابتها العامة الى محمد علي باشا · وجاء الطبطبائي وشوكت علي ، والثعالبي ومحمد اقبال ، على رأس القائمة · — أنظر :

- *A.O.M./A.E.P. 29H35, Ropport, Ministre des A.E. à M. Garde, Gouverneur Général d'Algérie, Paris le 3/12/1931, (a/s Rapport sur le Congrès Islamique de Jérusalem").*

وشارك الحزب الدستوري في نشاط الجمعيات الاسلامية التي أنشأها المؤتمر الاسلامي ، ونظم علاقته مع الوفد السوري- الفلسطيني ، وأرسل البحري قيقة (81) للقيام بمهمة تعريف الامة العربية الاسلامية والشخصيات الشرقية باحداث البلاد التونسية (82).

3 - قضايا العالم العربي والاسلامي :

كان للشعب التونسي موقفا واضحا من الاستعمار الفرنسي والانكليزي والايطالي في العالم العربي والاسلامي . فالى جانب رفضه الاحتلال الايطالي لليبيا مثلا ، نجده ينظم مظاهرة كبيرة في 10 مارس 1920 تزعمها تلامذة جامع الزيتونة الأعظم احتجاجا على الاحتلال الانكليزي لعاصمة الخلافة العثمانية - الآستانة - وقد توقفت الحركة الاقتصادية في تونس، وأغلقت الاسواق وعطلت التجارة ، وتوجه المتظاهرون الى مقر الاقامة العامة في مجموعات متتابعة ، يتقدمهم وفد من عشرة أنفار برئاسة الشاذلي المورلي ، واستقبل من طرف المقيم العام . ولكن الوفد لم يقتنع برد المقيم ، فأرسل برقية احتجاج الى وزارة الخارجية الفرنسية (83).

وقام الحزب الدستوري بنشر الدعاية لصالح الخلافة الاسلامية في ماي 1922 ، واثارة

---

(81) حضر المؤتمر الاسلامي ابراهيم اطفيش من الجزائر ، وعبد الخالق الطريس من المغرب الاقصى . ويبقى السؤال مطروحا لماذا لم يحضره الامير خالد الجزائري ، رغم انه كان موجودا بالشام ؟

(82) أنظر :
- A.O.M./A.E.P. 29H35, *Ministre de la Guerre, Etat Major de l'Armée, Bulletin de Renseignement des questions musulmanes, Section Afrique et Orient, le 13/11/1933.*

(83) أنظر :
- *Kraïem, Nat. Synd.* , p. 173-74.
- *A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° B 3-13, Rap. Baron, p*

السخط الشعبي في الشمال والجنوب. وأنكر تدخل فرنسا وانكلترا في شؤون الخلافة العثمانية . والواضح أن سلطة الحماية كانت قد عملت على اخماد سخط التونسيين على سياسة فرنسا تجاه الخلافة الاسلامية ومنعهم من الاستجابة الى نداء الحزب الدستوري ، والتفاعل مع آرائه والتعاطف مع الخلافة العثمانية . وحكمت نظامها العسكري في قبائل الجنوب المعروفة بشعورها الديني الملتهب . وذلك هو مفهوم ما ذهبت اليه الاقامة العامة من أنها عملت على تهدئة الوضع ، وافهام الشعب التونسي في الجنوب بأن تدخل فرنسا في شؤون الخلافة ما هو الا مساعدة لحمايتها فقط . وليس هناك شك ان زعم سلطة الحماية من أن الأفكار الدستورية لم تنجح في الجنوب التونسي ، كان زعما كاذبا ، يفسره قمعها للشعب في هذه المناطق العسكرية ، وعزله عن الأحداث الخارجية والداخلية ومنعه من الاطلاع على الصحف العربية خاصة (84) .

ويظهر أن الجنوب التونسي قد بقي في عزلة تامة عن الاحداث حتى نهاية 1923 ومنع نشاط الدستوريين به ، ولم تصله جرائد الحزب . وحرصت الاقامة العامة على حفظ الأمن في هذه المناطق تحسبا منها لنشوب الثورات التي اعتادتها قبائل الريف التونسي . وهذا ما أدى بالاقامة العامة الى القول ان الدستوريين لم يكن لآرائهم أي أثر في وسط قبائل الجنوب التونسي (85) .

هذا من جهة ومن جهة أخرى يجب الملاحظة ان التونسيين في الجنوب كانوا يمتازون بالتقية شأنهم شأن سكان الجنوب الجزائري ، وكلاهما كان واقعا تحت حكم المكاتب العربية . وكان أغلبهم يلجأ — في الاخير — الى المقاومة السلبية . فكان بعضهم

---

(84) أنظر: - *A.O.M./A/E.P. 26H16, Résidence Génrale de France à Tunis, Service des Affaires Indigènes, Rapport Territoire Sud, moés de Mai 1922.*

(85) أنظر: - *Op. cit., Résidence Génrale de France à Tunis, Service des Affaires indigènes, Rapport mensuel, Novembre - Décembre 1923.*

يهاجر الى المشرق العربي للانزواء او للجهاد بالكلمة المكتوبة والمسموعة . وكان بعضهم الآخر يفر الى القطر الليبي وينضم الى صفوف المجاهدين ضد فرنسا وايطاليا ، أو ينظم حرب عصابات ضد فرنسا في القطر التونسي . وكان هؤلاء الثوار كثيرا ما يتعرضون الى المتابعة والمحاكمة غيابيا .

ورغم العزلة القاتلة التي فرضها النظام العسكري على جنوب البلاد ، فان الشعب التونسي في هذه المناطق كان يتابع الأحداث التي تجرى في العالم العربي والاسلامي ، وخاصة منها ثورة الريف المغربي التي ازداد اهتمامه بها في صيف 1925 . وكان المثقفون التونسيون أكثر الناس اهتماما بأحداثها ومتابعة سيرها عن كثب (86) .

وكان صدى هذه الثورة يتردد في الاوساط الشعبية والحزبية . وتغنى التونسيون بأبطالها وأمجاد المسلمين في القديم والحديث . وذكر علال الفاسي ان الحزب الدستوري نظم لذلك ((عدة روايات وحفلات ، ولكن السلطة (الفرنسية) كانت واقفة بالمرصاد ، فمنعت تمثيل (رواية فتح الاندلس) لمصطفى كامل ، وجمع التونسيون مبالغ من المال لاسعاف جرحى الريف ، فاستولت الادارة الفرنسية على هذه المبالغ ...)) (87)

ولم تكن ثورة الريف المغربي هي الوحيدة التي كانت تشغل اهتمام الحزب الدستوري التونسي ، بل كان يتابع كل ما كان يجرى في العالم العربي والاسلامي . فكتب الشاذلي خير الله مقالا سنة 1926 بعنوان " دمشق المدينة الشهيدة " نشرته جريدة (الحر) الدستورية . كشف فيه مظالم الاستعمار الفرنسي ، واضطهاده للمسلمين السوريين (88) . وفي خريف 1927 ، أسرع الحزب الدستوري ، اثر وفاة نجيب بك شقيره الكاتب العام للجنة التنفيذية السورية في القاهرة ، الى ارسال برقية تعزية الى الجالية السورية في مصر .

---

(86) أنظر : - *Op. cit.*, Résidence Générale de France Tunis, *Service Affaires Indigènes, Rapport Mensuel, Juin 1925.*

(87) الفاسي ، ص 58 .

(88) أنظر : - *A.O.M./A.E.P. 27H4, Rapport Etat-Major, du7/8/ 1931.*

وقد تليت هذه البرقية اثناء حفلة التأبين التي قام بها احرار السوريين على قبر الفقيد في قرافة الامام الليث بن سعد بالقاهرة (89).

وكان للصحافة التونسية اثر كبير في توجيه الرأي العام التونسي بين سنوات 1925 و1929، خاصة في شمال البلاد . وكان التونسيون يتابعون من خلالها أحداث العالم الاسلامي من جهة ويتعرفون اكثر على نشاط الحزب الدستوري السياسي وصراعه مع الاحزاب الوطنية الاخرى . ومن خلال الصحافة علم الشعب التونسي سنة 1929 بأن انكلترا رابطت سفنها في موانئ الاسكندرية، وما كان يدلي به ملك الحجاز ابن سعود من أن الاسلام هو طريق خلاص البشرية في المستقبل . وكانت الصحافة العربية التونسية تنقل أخبار مختلف الهيئات الاسلامية التي كانت تهدف الى استنهاض الشعوب الاسلامية وتنويرها . ولاحظ بول سيلفيران التونسيين كانوا يتجنبون التعاليق حول هذه الاحداث التي ينقلونها عن الصحف العربية لكي يتجنبوا متابعة الادارة الفرنسية لهم (90).

وكان الشباب التونسي المثقف عارفا بالتاريخ الاسلامي، ويتغنى ببطولاته ويتأثر لها، وينظم القصائد الشعرية لذلك، وقد أثارت وفاة سعد زغلول سنة 1929 قريحة الشعراء التونسيين، واستاؤوا لذلك كثيرا وأصابهم حزن عميق ونظموا (لرجل مصر العظيم) أكاليل من الشعر وألقوا فيه الخطب، جاءت مناسبة لمقام مصر في نفوس التونسيين (91).

وكان العالم الاسلامي هو الآخر يتابع احداث تونس ويتأثر لها . ففي صيف 1931،

---

(89) ((شذور من العالم الاسلامي))، مجلة الفتح، عدد 61، السنة الثانية، (الخميس 12 ربيع الاول 1346هـ/8 ديسمبر 1927)، ص 3 .

(90) أنظر: - *A.M.I./CDN/MN.Tunis, N° A 1-60, P.Sylvère, (Fce dif.Tun.), p. 668-669.*

(91) نفس المصدر .

اثر احتجاج الحزب الدستوري على القمع الذي سلطته فرنسا على الصحافة العربية التونسية واضطهادها للجماهير الشعبية ، التي خرجت في مظاهرات ، وقعت عدة مظاهرات في العالم الاسلامي ساند فيها المسلمون اخوانهم التونسيين في محنتهم . وقام شكيب أرسلان ، وغيره من زعماء الرأى المسلمين في اوروبا ، بالقاء خطبة في مدينة لوزان بسويسرة ، بين فيها للمسلمين الطرق التي يجب أن تتبع ، والوسائل التي يجب أن تستعمل لتحرير الدين الاسلامي من النفوذ الاوروبي . وقد لقي هذا النداء صدى في أوساط الشباب المسلمين ، والصحافة الاسلامية . اما في الحجاز ، فكان التونسيون مهتمين بهذه الآراء ، ويتابعون توجيهات الملك ابن سعود للمسلمين اثناء ادائهم فريضة الحج (92) .

ومن ناحية أخرى نظم المسلمون في القاهرة احتجاجا ضد سياسة فرنسا في المغرب العربي وخاصة منها الظهير البربري الذي أرادت به طعن الشريعة الاسلامية في المغرب الاقصى في صميمها . وقد ظهر نفس الاحتجاج ضد قانون (الظهير البربري) في نهاية 1930 في الصحف الجزائرية (كالبلاغ) ، والصحف الدستورية التونسية (كالصواب) ، و(لسان الشعب) و(صوت الشعب) والصحف الحرة (كالنديم) و(الهلال) (93) . وفي 16 ماى 1931 وقع اجتماع بعض الشخصيات الاسلامية من المغرب الاقصى والجزائر وتونس ، ومصر ، ونجد ، والحجاز ، وسوريا ، والعراق ، وفلسطين ، وليبيا ، بمقر جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة . وكان من بينهم الشيخ الثعالبي والدكتور شهبندر من سوريا . واحتجوا ضد سياسة ايطاليا وفرنسا في المغرب العربي ، وسياسة انكلترا في فلسطين . ودعوا المسلمين لتكثيف جهودهم وتنظيم وسائلهم الدعائية لمواجهة القمع الاستعماري ، والدفاع عن الحرية الدينية والسياسية والاجتماعية . واتفقوا في الاخير على تبليغ قراراتهم الى الاوساط السياسية الاوروبية ونشرها في العالم المتمدن عن طريق الصحافة العربية

---

(92) أنظر: - A.O.M./A.E.P. 27H4, Rapport Etat-Major, du7/8/1931.

(93) أنظر:
- " Cronoca Tunisia del secondo semestre 1930", Oriente Moderno, anno XI, N°1, (Gennaio, 1931), p. 36-44.

والأجنبية (94) .

وقد نالت هذه البادرة اهتمام جمعية الطلبة العرب في مدينة تولوز بفرنسا ، التي كانت تهدف خاصة الى بعث روح الاخوة الاخلاقية وربط صف الجامعيين العرب ، وتناولت جريدة (صوت التونسي) هذا الموضوع ، وقالت ان الجمعية اتفقت على ارسال وفد عنها كل سنة للبلدان العربية والاسلامية ، لربط الصلة والاتصال بين الشباب المسلمين في البلدان العربية ، وقد وقع اختيارها هذه السنة على مصر وسوريا .

ونادى شكيب ارسلان بمقاطعة فرنسا اقتصاديا لارغامها على الغاء الظهير البربري في المغرب الاقصى . وطلب من المسلمين تكوين منظمات سرية أو علنية تعمل كلها على تدعيم الوطنيين العرب واعادة بناء الخلافة الاسلامية يتمركز حولها جميع المسلمين . ومنذئذ لم يعد الكلام يدور الا حول الوحدة العربية والتجمعات الاسلامية في مصر ، والقدس ، وعمان . وانتشرت هذه الفكرة في البلدان الاسلامية الاخرى ، ووقعت اتصالات بين مسلمي الهند من حيدرآباد ومسلمي مصر وفلسطين وسوريا وعملوا جميعهم على نهضة الاسلام والمسلمين . وتأثر هؤلاء كثيرا بنداءات ابن سعود التي كان يوجهها لكافة المسلمين خلال مواسم الحج من كل سنة . وقد اتفق في آرائه مع شكيب أرسلان حول التضامن والعودة الى الدين الصحيح والاستفادة من أوروبا في الميدان الاقتصادي والصناعي والتجاري .

ونستخلص من هذا الفصل ان الحزب الدستوري قد توصل في نشاطه الخارجي الى بث فكرته في بلدان اوروبا وبلدان العالم العربي والاسلامي . واذا كان قد بذل جهودا مضنية في تحقيق هذه الرغبة في اوروبا ، وأرسل لذلك الوفود والبرقيات والممثلين لكسب الانصار والحلفاء ، فانه لم يبذل نفس الجهود لنشر نفس الفكرة في العالم العربي والاسلامي ، ولم يتحالف مع زعمائه ومفكريه وقادة الرأي فيه ، ومع ذلك فقد انتشرت فكرته في ربوع هذا العالم أكثر من غيره بذلك الجهد الضئيل . ولعل السبب في ذلك يعود الى كون العالم العربي الاسلامي هو الحليف الطبيعي والحقيقي لتونس .

---

(94) أنظر: - A.O.M./A.E.P. 27H4, Rapport Etat-Major, du 7/8/1931.

الفصل السادس :

ايديولوجية الحزب :

1. الاتجاه الإصلاحي
2. الاتجاه الإسلامي (فكرة الجامعة الإسلامية)
3. حركة الشباب التونسي
4. النخبة

أ- الوحدة الوطنية

ب- الوحدة العربية الاسلامية .

ليس هناك — على ما نعلم — دراسة محددة لايديولوجية الحزب الدستوري التونسي • وكل ما كتب حول هذا الموضوع عبارة عن دراسات عامة أو جزئية ، أهمها دراسة البشير التليلي (اشكالية تطورات تكوين الاعمال الوطنية والايديولوجية الوطنية في العالم الاسلامي في حوض البحر الابيض المتوسط بين الحربين 1919 — 1930 ، دراسة مركزة على تونس)[1] • وقد ركز فيها صاحبها على العوامل الخارجية الاوروبية والاسلامية التي حددت ايديولوجية الحركة الوطنية في هذه البلدان • وقد وفق كثيرا في هذه الدراسة حتى بداية العشرينات غير أنه حين تناول ايديولوجية الحزب الدستوري (القديم) اكتفى فقط بسرد أحداثه التاريخية •

اما دراسة كارمان ساموت (تعابير الرموز الوطنية المعتمدة من طرف الوطنيين التونسيين الاوائل في المفهوم الاستعماري الفرنسي)[2] ، فهي دراسة من وجهة نظر مادية أبرز فيها صاحبها العناصر الاساسية التي قامت عليها ايديولوجية الحركة الوطنية التونسية بين سنوات 1881 — 1920 ، وحددها في عنصر اللغة العربية ، وحكومة الباى ، والدين الاسلامي ، والقطر التونسي ، والعرق (او الجنس العربي) ، والخلافة الاسلامية • وقد وفق كثيرا في اظهار تمسك التونسيين بلغتهم ، وبحكومة الباى ، ووطنهم وجنسهم ، ولكنه بالنسبة للعنصر الديني أعطى للاسلام وجهة نظر ماركسية ، فالاسلام في نظره لم يخدم الا ((الطبقة البرجوازية ••• وانه لم يكن سوى ايديولوجية في خدمة مصالح الطبقات الاجتماعية المميزة عن بقية الشعب •))[3]

---

(1) أنظر: - Bachir, Tlili, " Problématiques des processus de formation des faits nationaux et des idiologies nationalistes dans le monde islamo-méditerranéen de l'entre deux guerre (1919-1930). L'Exemple de la Tunisie", Les Cahiers de Tunisie, t.XXI, N° 81-82, 1er et 2ème trimestre, (Tunis, F.L.S.H. 1973), p. 183-221.

(2) أنظر: - Carmel, Sammut, "l'expression des symboles nationalistes par les premiers nationalistes Tunisiens dans le Contexte Colonial français", Revue d'Histoire Maghrébine, N° 7-8, (Tunis, Janvier 1977), p. 201-220.

(3) نفس المصدر.

ومع اننا نتفق مع الدارسين لايديولوجية الحركة الوطنية التونسية في بعض العناصر، الا أننا نخالفهم في تفسيرها ومفهومها . وسنحاول في هذا الفصل استخراج ايديولوجية للحزب الدستورى بين سنوات 1919 و1934، مبينين أصول هذه الايديولوجية . وقد اعتمدنا اساسا على ما درسناه في الفصول السابقة من تطور تاريخي لهذا الحزب، ولذلك فاننا سوف لانعيد ذكر المصادر التي اعتمدنا عليها الا عند الضرورة .

لم تكن للحركة الوطنية التونسية، على ما نعلم، ايديولوجية محددة بين سنوات 1881 ـ 1920 . ولكن هناك اتجاهات مختلفة مثلت فلسفة الحركة الوطنية في هذه الفترة . وأول اتجاه هو الاتجاه الاصلاحي الثقافي والاجتماعي على الخصوص . وقد استمد هذا الاتجاه جذوره من الحركة الاصلاحية قبل الوجود الفرنسي في تونس، ونما الشعور به خاصة بعد الاحتلال وذلك حين وقع اصطدام الحضارة الاوروبية الغالبة ولغتها الفرنسية المتطورة بالحضارة الاسلامية المغلوبة ولغتها العربية المتخلفة .

وقد شعر المصلحون التونسيون بالخطر يهدد انتماء تونس الى الخلافة الاسلامية منذ أن دق طبول الاستعمار الفرنسي في الجزائر سنة 1830 . وقاموا بعدة اصلاحات أهمها دستور عهد الامان سنة 1857 ـ 1861 من أجل ربط تونس بالخلافة الاسلامية في الآستانة وحفظها من تسلط الحكام واغراءات الاستعماريين . وهناك ايضا تأسيس المدارس العصرية كالصادقية لنشر العلوم العصرية، وارسال خريجيها الى المعاهد العليا باوروبا . وهذه النخبة المستنيرة هي التي ستعود الى تونس لتقود الاتجاه الذى اطلقنا عليه (الاتجاه الاصلاحي)، ومثلته جريدة الحاضرة، والمدرسة الخلدونية، بزعامة البشير صفر، وعلي بوشوشة، ومحمد الاصرم وغيرهم .

اما الاتجاه الثاني فهو (الاتجاه الاسلامي) الذى كان زعماؤه من خريجي جامع الزيتونة ومن المتشبعين بأفكار الجامعة الاسلامية التي كان يبعثها في العالم الاسلامي الامامان جمال الدين الافغاني ومحمد عبده . وتمثلت أفكاره في عرائض الاحتجاج الاولى ضد تسلط سلطة الحماية ومسها بمقومات الشخصية التونسية من جهة، وفي جريدة (سبيل الرشاد) للثعالبي من جهة أخرى . وعمل هذا الاتجاه على اصلاح أمر الخلافة الاسلامية وربط تونس بها . ومن أبرز زعمائه العربي زروق، واحمد الورتتاني ومحمد السنوسي والمكى

ابن عزوز وعبد العزيز الثعالبي .

وبينما بقي الاتجاه الاصلاحي يسير في اطار الحماية ، فان الاتجاه الاسلامي التقى مع اتجاه آخر جمع بين الاصلاح المستنير والتمسك بفكرة الجامعة الاسلامية ، وعرف تحت اسم حركة الشباب التونسي . وظهرت الى الوجود سنة 1907 بظهور جريدة (التونسي) بزعامة علي باش حامبة وانضم اليه الثعالبي الذى انشأ نشرية (الاتحاد الاسلامي) . وقد اصبح منذئذ يعرف بحركة الشباب التونسي ، بزعامة علي باش حامبة وعبد العزيز الثعالبي .

1 — <u>الاتجـاه الاصلاحـي</u> :

عندما عاد أفراد النخبة المستنيرة من المعاهد العليا الاوروبية حاملين فكرة الاصلاح الثقافي والاجتماعي ، اصطدموا بقوة شكيمة سلطة الحماية في تونس . وعلى الرغم من ذلك وجهوا جهودهم نحو بلوغ غرضهم الاصلاحي . وأول مظهر من مظاهر هـذا الاصلاح ، كان تأسيس جريدة (الحاضرة) سنة 1888 التي اهتمت بنشر الفكر الاسلامـي والدعوة الى العمل بالدستور . وتمثل ثاني مظهر في المدرسة الخلدونية التي تأسست سنة 1896 ، وكان لها نفس الغرض مع تزويد المسلمين بالعلوم العصرية الاوروبية . ولـم يقتصر عمل هذه النخبة على الاصلاح الثقافي فقط وانما تعداه الى الاصلاح الاجتماعـي والاقتصادى . وكان هدفها الوصول بالتونسيين الى المنزلة الثقافية التي كان عليها الاوروبيون ولذلك بقيت تسير على نمط الاصلاح القديم الذى وضع ركائزه الاولى الوزير خير الدين قبل الاحتلال الفرنسي لتونس . والفرق بين عمل النخبة وعمل خير الدين هو أن هذا الأخير كان يريد الاصلاح داخل دولة اسلامية تديرها سلطة الباى ، والنخبة كانت تريد اصلاحات تحت رعاية الحماية الفرنسية . ولذلك كانت كلما تقدمت في البناء الثقافي والاصلاح الاجتماعي كلما تقدمت سلطة الحماية ايضا في اتجاه معاكس في تهديم أسس الحضارة الاسلامية ومحوها من القطر التونسي .

وقد مثل هذا الاتجاه (الاصلاحي) البشير صفر ومحمد الاصرم ومن لف لفهم .

وبرزت آراؤهما بوضوح أكثر خاصة عند انعقاد المؤتمر الاستعماري سنة 1906، اذ ركز فيه الاثنان على الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي والثقافي وطالبا ببث روح التفاهم بين الفرنسيين والتونسيين، ونشر مظاهر الحضارة الاوروبية بين التونسيين، وتأسيس جرائد عربية تكون وسائل لذلك، ووضع قانون للتونسيين يسوي بينهم وبين الفرنسيين مع احترام شخصيتهم.

2 ـ الاتجاه الاسلامي (فكرة الجامعة الاسلامية) :

لعل أول من تأثر بفكرة الجامعة الاسلامية في تونس بعد الاحتلال، هو محمد السنوسي (4)، الذي كان عضوا في جمعية العروة الوثقى. ولا شك ان هناك من اتبع سبيله خاصة بعد زيارة الشيخ محمد عبده الى تونس سنة 1884. فقد عمل معه على

(4) (1850—1900) أديب وصحافي ومؤرخ تونسي. درس بجامع الزيتونة على الشيخ سالم بوحاجب وغيره من العلماء، وامتهن التدريس، ومن تلاميذه محمد الناصر باي. عمل بالمطبعة الرسمية الى جانب محمد بيرم الخامس، وشارك في اصلاحات خير الدين، وتولى كتابة جمعية الاوقاف الى أن وقع احتلال تونس سنة 1881. وفي سنة 1882 سافر السنوسي الى ايطاليا، ومنها الى الآستانة، وأقام بجانب خير الدين ومحمد بيرم الخامس، وأدى في نفس السنة فريضة الحج. وعاد الى تونس سنة 1883، وتقلد وظيفته القديمة ككاتب لجمعية الاوقاف. وقد تأثر بافكار الافغاني وعبده. وكان من المؤسسين للجمعية السرية للعروة الوثقى بتونس. وفي سنة 1884—1885 كان السنوسي من المتأثرين بزيارة عبده لتونس، ومن المحتجين على سياسة الحماية، فنفي الى الجنوب التونسي ولكنه سرعان ما قدم اعتذاره للسلطة الفرنسية. فعفت عنه سنة 1885 وأصبح من أعوانها، ونصبته كاتبا بالمجلس المختلط العقاري، فحاكما نائبا به. ومن أهم أعمال السنوسي (الاستطلاعات الباريزية) الذي الفه بعد زيارته لباريس سنة 1889 وأظهر فيه اعجابه بالحضارة الحديثة ورضاه عن السياسة الفرنسية وبرر مواقفها في تونس. — انظر:

— محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، (بيروت، دار الغرب الاسلامي، 1984)، ج 3، ص 73 — 83.

الحفاظ على الشخصية الاسلامية في تونس والدفاع عن مقوماتها • ويظهر نشاط السنوسي واحمد الورتتاني وغيرهما على الخصوص في احتجاجهم (1884) على المس بالمقدسات الاسلامية ،والمطالبة بفصل الدين عن الدولة لما شعروا بانتقال الحكم من بد الباى الى سلطة الحماية • ولكن هذا النشاط انتهى بموت الورتتاني سنة 1885 ،وابتعاد السنوسي عن العمل السياسي في نفس السنة •

وقد ظهرت فكرة الجامعة الاسلامية بوضوح اكثر في شخص الشيخ عبد العزيز الثعالبي • وأصبحت ناضجة لديه منذ التسعينات حين كان يراسل الجرائد المصرية وعمل بها على ابراز أعراض المجتمع الاسلامي وأسرار حياته العقلية والاجتماعية وتوضيحها لاولياء أمر المسلمين لانقاذ الخلافة من التدهور الذى أحاط بها ، شأنه شأن كل مسلم في تلك الفترة • وقد تأثر الثعالبي في ذلك بأفكار الافغاني وعبده ،وأسس جريدة بتونس سنة 1895 ، سماها (سبيل الرشاد) عبر فيها عن تلك الافكار •

ولم يكن جامع الزيتونة وفكرة الجامعة الاسلامية هما الوحيدين اللذين ربيا في الثعالبي هذه الروح ،وانما هنالك أيضا رحلاته الى البلدان الاسلامية واطلاعه على أحوال المسلمين بها • فقد زار الجزائر وطرابلس الغرب سنة 1895 عندما أوقفت سلطة الحماية جريدته عن الصدور، وسافر الى جزيرة كريت والآستانة • وتمت الفكرة الاصلاحية عنده بواسطة احتكاكه بالمصلحين العرب والمسلمين في هذه البلدان ،ودعاهم حوالى سنة 1897 الى عقد مؤتمر اسلامي لبحث مستقبل العالم الاسلامي ودراسة ومعالجة شؤون المسلمين الاخلاقية والمادية والسياسية •

وقد رسخت فكرة الجامعة الاسلامية عند الثعالبي خاصة في فترة سنوات 1895—1902 حين اختلط بعلماء المسلمين وعلى رأسهم محمد عبده ،ورشيد رضا ،وعبد الرحمن الكواكبي ،ومحمد فريد ،وعلي يوسف وغيرهم • وعاد الى تونس سنة 1902 داعية الى الاصلاح الديني والاجتماعي ،والى التطور والحرية وفهم أسرار الدين الاسلامي • ولعل ذلك هو الدواء الناجع الذى كان يملكه الثعالبي عندئذ لانقاذ المسلمين من الانحطاط ، ومحاربة المفاسد الاخلاقية والاجتماعية التي كان يسيرها الطرقيون تدعمهم سلطة الحماية •

فكان نشاطه في تونس أول مظهر لتمييز حركته عن الحركة الاصلاحية الثقافية ، واقامة الفوارق بين مناهج تفكير الحركتين ٠

والى جانب نشاط الثعالبي في هذا الاطار هناك نشاط شيوخ الزيتونة ومجهودات تلاميذهم الذين أسسوا سنة 1906 (جمعية تلامذة جامع الزيتونة) واهتموا فيها باصلاح التعليم الزيتوني على الطريقة الازهرية ٠ وذلك بالاضافة الى تضافر مجهودات الخواص في مضاعفة عدد الكتاتيب لتحفيظ القرآن للاطفال وتعليمهم اللغة العربية وأصول الدين مما أدى الى انقلاب في الميدان الثقافي انعكست آثاره على الحياة الاجتماعية والسياسية ٠

ويبدو أن (جمعية تلامذة جامع الزيتونة) قد تأسست على غرار (جمعية قدماء تلامذة الصادقية) التي ظهرت سنة 1903 وعملت على نشر النهضة الفكرية والرقي الاجتماعي والتعريف بالنهضة الاوروبية الحديثة ٠ وقد اهتمت بمفهوم الحرية والعدالة في الاسلام ودراسة التاريخ الاسلامي ٠ وقد سبق ذكر أبرز نشاطات هذه الجمعيات في الفصل المدخلي ٠

ومما لا شك فيه ان الجمعيتين قد تأثرتا بزيارة الشيخ محمد عبده لتونس سنة 1903 ، وبما كان ينشره الشيخ رشيد رضا في مجلة المنار من أفكار اصلاحية اسلامية ٠

3 — حركة الشباب التونسي :

جمعت حركة الشباب التونسي بين عناصر زيتونية تؤمن بأن الاسلام عامل نهضة و تقدم ولم يكن أبدا حضارة جمود و تخلف ، وبين نخبة متعلمة في المدارس الفرنسية التي أصبحت تؤمن بأنها استفادت بما فيه الكفاية من الحضارة الاوروبية لتسيّر شؤون بلادها بنفسها .

وكان على رأس هذه الحركة علي باش حامبة الذى أسس جريدة (التونسي) سنة 1907 باللغة الفرنسية طالب فيها بتمثيل التونسيين في المجلس الاستشارى والدفاع عن مصالح التونسيين الاقتصادية والثقافية والادارية . وانضم اليه الشيخ الثعالبي سنة 1909 وأخرج نشريته العربية (الاتحاد الاسلامي) وأشهر فيها حملة عنيفة على الادارة الاستعمارية وطالب باصلاح امر التونسيين وحارب المفاسد الاجتماعية والاخلاقية . واذا كان علي باش حامبة قد تأثر في تأسيس حركة الشباب التونسي بحركة تركيا الفتاة والشباب الايراني ، فانه لا يستبعد أن الثعالبي قد أطلق اسم الاتحاد الاسلامي على نشريته متأثرا بتنازل السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش و تخوفه من سقوط الخلافة الاسلامية . وذلك ما دفعه الى الدعوة الى اتحاد المسلمين .

كان علي باش حامبة صريحا في انتمائه الى الخلافة العثمانية و تبنيه فكرة الجامعة الاسلامية . وقد ذهب الى أبعد من ذلك فاعتبر أن كل مسلم هو منتم بالضرورة الى الجامعة الاسلامية ولا يحتاج انتماؤه الى تفسير، ذلك ان هذه الفكرة هي شعور أخوى واسع وليست منظمة سرية لارهاب اوروبا كما يعتقد البعض . وان الانتماء الى الخلافة هو نتيجة حتمية لأن التماسك الديني الشديد بين المسلمين يشدهم جميعا الى الخلافة رافعة لواء الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) [5] ، وان الآستانة ما هي في نظر المسلمين الا مركز للاسلام كما هي روما بالنسبة للكاثوليكيين .

وأكد باش حامبة ان التونسيين ينتمون الى الجامعة الاسلامية كما ينتمون في نفس

---

(5) أنظر :

- *Khairallah*, Le Mouvement, p. 46-47.

الوقت الى الخلافة ، وانه لا يخطر على بال أحدهم أمر زوال السيادة العثمانية من هذه البلاد التونسية ، وذلك لأن التونسيين يحتفظون بتعاطف كبير تجاه اخوانهم في جميع البلدان الاسلامية ، كما أن هؤلاء في تركيا ومصر يبادلونهم نفس الشعور الذى يبادلهم اياه جيرانهم مسلمو الجزائر ، وهو نفس الشعور الذى تبادلهم اياه أيضا شعوب آسيا البعيدة (6) .

ويؤكد ايمان علي باش حامبة والثعالبي بالخلافة الاسلامية وقوفهما معا ضد الاعتداءات الايطالية على طرابلس الغرب آخر معقل للخلافة العثمانية في المغرب العربي . وقد تصدى الاثنان أيضا الى التعدى الاستعمارى على الحرمات الاسلامية في مقبرة الزلاج سنة 1911 ، ومساندتهما للمتظاهرين ، وعملهما على اثارة الائمة وشيوخ الزوايا ضد مس المقدسات الاسلامية ، واهانة مشاعر المسلمين ، ومساندتهما للمتظاهرين في أحداث

---

(6) كان الخليفة العثماني في نظر المسلمين التونسيين ، هو أمير المؤمنين بدون منازع . وكانت صلاة الجمعة في تونس تؤدى باسمه ، وتدعو له ولجيشه بالنصر . وكان الاعتقاد سائدا ، خاصة عند المفتي سالم بوحاجب ، ان السلطان سيأتي لانقاذ التونسيين من الاستعمار الفرنسي وتحريرهم من الاجانب . وسالم بوحاجب (1828—1924) مصلح اسلامي تونسي . حفظ القرآن والتحق بجامع الزيتونة وأخذ عن علمائه كابراهيم الرياحي ، ودرس به أكثر من ستين سنة . ومن تلاميذه اسماعيل الصفائحي ، وعبد العزيز الثعالبي . وعمل محررا لتقارير اللجنة الادارية المشتركة الخاصة بمراقبة المالية سنة 1860 ، الى جانب خير الدين باشا . سافر الى الآستانة وايطاليا وفرنسا ، فوسعت هذه الرحلات افق تفكيره ومعرفته بالحضارة الاوروبية . دعا الى الاصلاح وادخال النظم والآراء التي لا يعارضها الاسلام . وأبرز تحمسا لادخال العلوم الرياضية والطبيعية في برنامج التعليم بجامع الزيتونة . وكانت له صلة وثيقة بالامام عبده ابتداء من زيارته لتونس سنة 1884 . وكان الزعيم الموجه للحركات الادبية والسياسية والصحفية أواخر القرن التاسع عشر وبداية العشرين . ومن أشهر مؤلفاته تقارير على صحيح البخارى ، وديوان خطب جمع فيه خطبه المنبرية . — أنظر : - *Goldstein, p.138*

— محمد محفوظ ، تراجم المؤلفين التونسيين ، (بيروت ، دار الغرب الاسلامي ، 1982) ، الجزء 2 ، ص 77—81 .

مقاطعة عربات الترام سنة 1912 · وكانت النتيجة نفيهما وابعادهما كما فصلنا ذلك في الفصل المدخلي ·

وعلى اية حال فان حركة الشباب التونسي بدأت بطابع سياسي وهو المطالبة بمشاركة التونسيين للفرنسيين في الحكم ، وهو رأى النخبة المتعلمة في المدارس الفرنسية ، وانتهت بحركة مضادة للفرنسيين وهو رأى حاملي أفكار الجامعة الاسلامية ·

ونستنتج من مواقف رجال حركة الشباب التونسي - خاصة علي باش حامبة والثعالبي - العناصر المكونة لايديولوجية هذه الحركة ، وهي الدفاع عن اللغة العربية وتعليمها واحيائها وتعليم العلوم الاسلامية والتاريخ الاسلامي · وقد اشتركت الحركة في هذه العناصر مع الاتجاه الاصلاحي الثقافي · واختلفت معه في اعتبار تونس جزءا لا يتجزأ من الخلافة الاسلامية (7) ، وفي ربط السيادة التونسية بالاسرة الحسينية التي تعتبر النقطة التي تميز تونس عن فرنسا في أسلوب الحكم ، وذلك زيادة على ان الشعور بالانتماء الى العالم الاسلامي عند حركة الشباب يسبق الشعور بالانتماء الى الوطن الاصلي (8) · وكذلك بروز عنصر التمسك بالتقاليد والعادات العربية الاسلامية ·

واذا كان علي باش حامبة يشعر بأن الشعب التونسي يختلف عن الشعب الفرنسي في هذه الميزات المذكورة ، فانه لم يشترك - على ما يظهر - مع الثعالبي في اعتبار انتشار اللغة الفرنسية في تونس ، عملا يهدد الكيان التونسي ويهدف الى القضاء على اللغة العربية التي هي أساس الثقافة العربية الاسلامية · ومع ذلك فالرجلان يتفقان حول حافز ايديولوجي واحد وهو أولا التمسك بالارض التونسية أرض الاجداد التي تربطهم بها

---

(7) حدد المقيم العام العناصر التي قامت عليها ايديولوجية حركة الشباب التونسي في الاطار الجغرافي ، والثقافي ، والديني ، والسياسي · - أنظر :

- C.N.U.D.S.T., WATHA'IQ, N° 3, Rapport Rd Gl 1937, p.154.

(8) أنظر :

- Hichem, Djaït, La personnalité et le devenir arabo-islamiques, (Paris, éd. seuil, 1974), p. 51-53;

الأصول العربية والانتماء الحضاري، وثانيا الدفاع عن أرض تونس المغتصبة المستغلة من طرف الفرنسيين، ومن ثم فانهما اقتنعا بوجوب احترام الفرنسيين للتونسيين الذين يختلفون عنهم في الدين واللغة، وجميع المقومات الحضارية . وسواء كان هذا الاقتناع كعامل ديني عند البعض أو استراتيجية عمل عند البعض الآخر،فهو في كلا الأمرين ناتج عن اليقظة الاسلامية التي كان يغذيها في شخصية علي باش حامبة والثعالبي على الخصوص،اتجاههما نحو المشرق الاسلامي وارتباطهما به . (9)

وكان التمسك بالخلافة الاسلامية عند حركة الشباب من الميزات التي اعتمدها رجالها للتعبير عن السيادة التونسية الاسلامية . وقد تأثروا على ما يبدو بآراء محمد عبده الذى كانت أمنيته اعادة بناء الخلافة الاسلامية تحت رعاية العثمانيين،وجمع كلمة المسلمين للتصدى بقوة الى الزحف الاستعمارى الاوروبي (10) .

وكان العالم الاسلامي ممثلا في الخلافة العثمانية،وكان السلطان عبد الحميد الثاني يحاول الوقوف على قدميه امام التحديات الغربية والاطماع الاستعمارية . غير أن سقوطه عن العرش سنة 1909 أحدث انقلابا قويا في المفاهيم لدى الشعوب الاسلامية ، خاصة لما صرح القوميون الاتراك الذين استولوا على الحكم ،بعدم الاعتراف بحقوق مساوية بين العنصر التركي والعناصر الأخرى،وأعلنوا ان الدستور العثماني لا يمكنه أن يكون في شكله النهائي سوى دستور تركي (11) . فكانت هذه التصريحات سببا في تحطيم كيان الجامعة الاسلامية ،واثارة الشعور القومي والعرقي لدى بعض القوميات العنصرية

---

(9) أنظر: *Djaït, p. 53-54.*

(10) أنظر: *Sammut, p.201-220*

(11) علال الهاشمي الخياري، الاسلام وايديولوجيات الفكر المعاصر، (تونس،الدار التونسية للنشر،1981)، ص 238—249 .

الاخرى ،خاصة عند عرب المشرق . وقد وقفت حركة الشباب التونسي مع الحركة السلفيـــة التي ظهرت هي الاخرى بعد سقوط السلطان عبد الحميـد الثاني ، بزعامة رشيد رضـا ، خليفة محمد عبده . وساندتها في موقفها الدفاعي عن الوحدة العربية الاسلامية التي قوامها الدين الاسلامي .

4 ـ النخبـة :

لعل أبرز العناصر التي حددت ايديولوجية النخبة التونسية هي تصريحـــات الفرنسيين اثناء الحرب الاولى ، وعودهم بتحسين أوضاع التونسيين السياسية ،واعـــلان الرئيس ويلسون عن مبادئه الاربعة عشر ، وتيار العاطفة الاسلامية الذى كان يجتـــاح المسلمين بعد الحرب ،والدعاية الشيوعية في روسيا .

وبالاضافة الى ثقة التونسيين في هذه التصريحات ،فانهم اعتمدوا على مشاركتهم في الحرب الى جانب فرنسا ،لطرح قضيتهم أمام الفرنسيين . وكانت فلسفتهم في ذلك اما وفاء الفرنسيين بوعودهم ومنح تونس حق تقرير المصير ، واما التعريف بالقضية التونسية في الخارج وابلاغ صوتها الى الدول في العالم .

وقد اعتمدت النخبة على تقديم العرائض التي تعتبر من وحي الثعالبي ودعمه محمد باش حامبة الذى كان يلح على المطالبة بالاستقلال الكامل . وقد ارتكزت فلسفة النخبة على العودة الى العمل بالدستور وربط السلطة الفرنسية بنصوص المعاهدات الفرنسيـة التونسية (باردو سنة 1881) ،ذلك ان الهدف الاساسي للحماية هو الوصول بالشعب التونسي الى مستوى الوعي بحقوقه وادارة شؤونه بنفسه .

وأكدت النخبة على ضرورة مشاركة اليهود التونسيين في العمل الوطني للحصول على الاستقلال ،وحاولت استنهاض شعور الشعب الفرنسي باسم مبادئه الانسانية العليا لاعادة العمل بالدستور . كما حاولت كشف مساوئ نظام الحماية وضرورة تغييره . وقـد استند الوفد التونسي سنة 1919 برئاسة السقا والثعالبي ،على رجال السياسة والفكــر

الفرنسيين خاصة ذوي الاتجاه الانساني والشيوعيين ، وعلى الجمعيات الانسانية والعلمية الفرنسية . واذا كانت ايديولوجية الثعالبي تعتمد على الفكر الانساني لتدويل قضيته وكسب الانصار لها ، فانه في نفس الوقت أراد أن يهيء لها قاعدة شعبية تحميها و تضمن لهما الاستمرارية . ومن ذلك تأسيسه سنة 1919 (جمعية الطلبة التونسيين) وقد نصحه محمد باش حامبة بضم جهود اليهود التونسيين الى هذه الجمعية .

وقد اتجه الثعالبي ومحمد باش حامبة الى ربط القضية التونسية بالعالم العربي الاسلامي للتعريف بها ، واستنهاض الرأي العام العالمي ضد فرنسا . ومع ذلك فقد بقي الاثنان متمسكان بعلاقتهما مع الحزب الاشتراكي الفرنسي حتى بعد انهزامه في انتخابات اكتوبر 1919 .

وبعد اخفاق مبادىء الرئيس ويلسون ، ارتكزت ايديولوجية النخبة التونسية على المطالبة بالدستور والعدول عن فكرة الاستقلال وتقرير المصير ، وأكدت على التمسك بمبادىء روح معاهدة باردو التي تكتفي فيها سلطة الحماية بادارة الشؤون الخارجية التونسية . وقد وقع الثعالبي هنا بين تطرف محمد باش حامبة وإلحاحه على المطالبة بالاستقلال الكامل ، وبين اعتدال حسن قلاتي ومن اتبعه — خاصة اليهود التونسيين — و تمسكه بالسير في ركاب الحماية . فتغيرت ايديولوجية الثعالبي من المطالبة بحق تقرير المصير وهو الاستقلال ، الى الواقعية ووقف موقفا وسطا بين الاعتدال والتطرف . فجمع بموقفه هذا بين الاطراف التونسية المتنازعة .

وقد اتضحت ايديولوجية الحزب بعد تأسيسه سنة 1920 ، بناء على هذه النزاعات غير أنها اصطبغت بروح الثعالبي العربية الاسلامية ، ولذلك هدفت في مجملها الى العودة الى العمل بالدستور والغاء نظام الحماية صراحة . والرجوع بتونس الى عهد ما قبل الحماية وضمان الحكم بيد الشعب وربطه بالخلافة الاسلامية . وأهم العناصر التي انبنت عليها هذه الايديولوجية هي :

1 — استنكار تطبيق القوانين الفرنسية على شعب لا يمت لها بصلة . هذه القوانين التي أهانت الشعب التونسي صاحب الأرض والمال والحق والوطن ، وأعزت الاوروبيين

الأجانب الاستعماريين المستغلين للخيرات والمستبدين بالارض والمستمتعين بجميع الحريات والحقوق الشخصية المدنية والسياسية .

2 — الدفاع عن مصالح الشعب التونسي الادارية وضرورة ادارتها من طرف تونسيين يحسنون لغة الشعب وأسلوب المعاملة معه ، وحفظ كرامته ، و نشر الثقافة والنهضة الفكرية والعلمية الحديثة ، والمحافظة على صلابة اللغة العربية في نفوس التونسيين لكونها رمز الشخصية التونسية و نشر التعليم بها .

3 — الدفاع عن القضاء الاسلامي وضرورة استقلاله ، والحفاظ على القيم الاخلاقية التي هي أساس بناء الفرد ، ومحاربة الأمراض الاجتماعية .

4 — الدفاع عن ممتلكات التونسيين الاقتصادية بأرضهم الخصبة ، والصناعات المحلية ، وفرض نظام اقتصادي اسلامي يقوم على الزكاة والعشر ، واحترام أملاك الأحباس التي تعتبر حقا شرعيا للمسلمين .

وكان هدف الثعالبي هو تكوين حكومة تونسية بحتة تقوم على دستور قوي البنية يصبح الفرنسيون بمقتضاه أجانب كغيرهم . و بناء دولة اسلامية حرة تحترم فيها حقوق الأجانب و ترعى مصالح اليهود التونسيين الاقتصادية والاجتماعية والقضائية .

وكانت نقطة تمركز السلطة في يد الاسرة الحسينية كرمز لوحدة الوطن والاخلاص له جزءا من العناصر التي ميزت فلسفة الحزب الدستوري الوطنية ، فحافظ عليها من أجل الاستقرار السياسي ووحدة الشعب . وكانت ايديولوجية الحزب هذه تهدف في أبعادها الى بناء نظام اسلامي حر يقوم على الشورى في مجلس اسلامي منتخب . ولهذا السبب كان يعمل في اطار الخلافة الاسلامية . ففكرة الخلافة الاسلامية ربما هي التي جعلت بعض الجزائريين المهاجرين بتونس يقبلون عضوية الحزب و يعملون في صفوفه و يجمعون له الأموال من الجزائر و يعانون في سبيله السجن والنفي .

وهذه الفكرة أيضا هي التي جعلت الحزب يربط علاقاته بالمسلمين في الخارج وينظم

اتصالاته (بلجنة الجامعة الاسلامية) ببرلين ، ويعمل معها على الدعاية ضد الاستعمار الفرنسي في شمال افريقيا .

غير أن العالم بعد الحرب الاولى قد عرف تغييرات جذرية جغرافيا و سياسيا وايديولوجيا انعكست أحداثها على القطر التونسي كما انعكست على غيره من البلدان في العالم بدرجات متفاوتة . ذلك أن العالم الاسلامي قد تأثر بصفة خاصة بهذه التغييرات نظرا للسياسة الاستعمارية التي انتهجتها كل من انكلترا وفرنسا ضد الخلافة العثمانية في الآستانة وبلاد الشام والجزيرة العربية . فبالاضافة الى الاعتراف (بوطن يهودي) في بلاد فلسطين العربية ، هناك طعنة كمال اتاتورك للمسلمين ، اذ قام بين سنوات 1922 — 1924 بالغاء منصب الخلافة الاسلامية ، وغير عاصمتها من الآستانة الى أنقرة وأحدث دولة تركيا ، وأصدر اصلاحات قضى فيها بالغاء منصب شيخ الاسلام ، وغلق المدارس القرآنية ومنع العمل بالشريعة الاسلامية [12] .

وقد اكترث المسلمون التونسيون ، كغيرهم من المسلمين في العالم ، لهذه النكبة . وثارت ثائرتهم ، وتضاعفت المظاهرات والاحتجاجات [13] . وقامت صحافة الحزب الدستوري بنشر الدعاية للخلافة الاسلامية ، وعملت على استنهاض المسلمين ضد السياسة الانكليزية والفرنسية الموالية لأتاتورك . وكون الحزب سنة 1923 (لجنة الخلافة) التي ساند فيها الخلافة الاسلامية في محنتها ، وأكد ارتباط تونس بها . ثم شارك الشيخ الثعالبي في مؤتمر الخلافة بالقاهرة سنة 1926 وساهم بفكره وقلمه في اعادة بنائها .

ولعل هذه " النكبة " التي قضت على الخلافة الاسلامية هي التي ستكون سببا في بروز عناصر جديدة تقوم عليها ايديولوجية العالم العربي الاسلامي بصفة عامة ، والحزب الدستوري التونسي بصفة خاصة . فبينما كان عمل هذا الحزب يرتكز أساسا على اعادة بناء

---

(12) أنظر : - *Tlili, "Op.cit", p. 199.*

(13) نفس المصدر ، ص 201 .

الخلافة الاسلامية اعتمادا على فكرة الجامعة الاسلامية ، فان اهتمامه بعد سنة 1924 أصبح يعتمد كلية على اعادة تكوين الوحدة الاسلامية بناء على الوحدتين الوطنية والعربية . وهذه الركائز أو الدعائم الثلاث هي التى ستقوم عليها ايديولوجية الحزب الدستورى التونسي ابتداء من هذا التاريخ .

وتجدر الملاحظة انه بالاضافة الى تأثر الدستوريين بالمبادئ الديمقراطية التي جاء بها الرئيس ويلسون ، وأفكار الجامعة الاسلامية ، فانهم تأثروا ايضا بالافكار الانسانية الشيوعية الدولية بما ساعدهم على تدعيم مطالبهم الاصلاحية كحرية الفكر والتجمع ، والتعليم ، والصحافة ، وتأسيس الجمعيات ، ومشاركة التونسيين في شراء أسهم الاراضي الزراعية . وقد تعاطف معهم الشيوعيون والاشتراكيون الفرنسيون واهتموا بالدعاية لقضيتهم في صحفهم مثل جريدة (لومانيتي) ، وشجعوا الثعالبي على القاء المحاضرات باسم حزبه في نواديهم وفتحوا امامه عضوية جمعياتهم الانسانية والعلمية [14] . وكان الشيوعيون ينظرون الى الحزب الدستورى على انه وسيلة لايقاظ شعور (الكادح التونسي) .

وعلى الرغم من ذلك فان الدستوريين كانوا يتعاملون مع الشيوعية الدولية والتونسية استراتيجيا فقط ، ذلك أنهم كانوا يخشون على عقيدتهم من خطر الشيوعية التي كانت تعتبر فكرة الجامعة الاسلامية فكرة هدامة تدعو الى التناحر الجنسي والعرقي . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية كان الدستوريون يهابون ضغط الحكومة الفرنسية واتهامها لهم بالتطرف [15] . ويظهر ذلك خاصة في موقف الحزب من (جمعية عموم العملة التونسيين) ، ويتجلى في رسائل محيي الدين القليبي الى خير الله ، ممثل الحزب بباريس سنة 1927 — 1928 ، حين انضم الى (جمعية نجم شمال افريقيا) التي ولدت في أحضان الحزب

---

(14) طالع الفصل الاول خاصة ما يتعلق بتصريحات الشيوعيين اثناء الحرب الاولى .

(15) أنظر الفصل الرابع خاصة ما يتعلق باتحاد الحزب الدستورى مع الحزب الاصلاحي ، والمجلس الكبير ، والحزب الاشتراكي الفرنسي سنة 1924 من أجل المطالبة بالاصلاحات من حكومة هيريو اليسارية .

الشيوعي الفرنسي . فقد أنكر عليه القليبي انضمامه اليها وحذره من خطر ضياع شخصيته السياسة (16) ، التي هي في الواقع شخصية الحزب .

- الوحدة الوطنية :

عمل الدستوريون منذ بداية أمرهم على احترام الاسرة الحسينية ، وتعاونوا مع الباى محمد الناصر على تحقيق مطالبهم ، وساندوه في محنته سنة 1922 حين تنازل عن العرش حتى أن برنامجه الذى قدمه سنة 1922 الى المقيم العام ، جاء مطابقا في مجمله لبرنامج الحزب الدستورى . وقد اعتبر محمد الحبيب ، ولي العهد ، الحزب الدستورى حزبه ، وساهم فيه ودعمه ماديا وأدبيا ، وانضم اليه أيضا بعض أفراد الاسرة الحسينية الآخرين . غير أن محمد الحبيب لما صار بايا نقض عهده مع الدستوريين ووقف ضدهم واتبعه خليفته احمد باى . ومع ذلك فان الدستوريين لم يقطعوا صلتهم بالاسرة الحسينية ، بل بقيت في نظرهم رمزا للوحدة الوطنية التونسية .

وفي حين اعتبر الدستوريون الاسرة الحسينية سلطة شرعية في تونس تخدم مصلحة الشعب وتحافظ على وحدته ، فانهم كانوا ينظرون الى حكومة الحماية نظرة عداء وسخط ، واعتبروها مصدر تمزيق وحدة هذا الشعب . وعمل الحزب على إلغاء الحماية نهائيا . وقد ساهمت السياسة الاستعمارية التي اتبعتها فرنسا في تونس ، في اذكاء الشعور الوطني للتونسيين ، فعارض الحزب الدستورى اصلاحاتها كمشروع فلاندان لمنح تونس قرضا ماليا ، والاصلاحات الفرنسية بتونس سنة 1922 ، واعتبرها تسوق التونسيين الى هاوية الالتحاق بفرنسا .

وتصدى الحزب الدستورى بقوة لعملية تجنيس التونسيين سنة 1923 وحاول المحافظة على الشخصية التونسية الاسلامية . ذلك ان كل ما هو مضاد للشخصية الدينية مضاد

---

(16) أنظر الفصل الخامس .

في نفس الوقت للشخصية الوطنية [17] . وقد اعتبر الحزب كل متجنس بالجنسية الفرنسية " جثة قذرة " لا يجوز دفنها في مقبرة المسلمين، ذلك ان التجنس خروج عن الملة المحمدية، وقضاء على الدين واللغة والوطن . وبالاضافة الى أنه خرق للمعاهدات المبرمة بين تونس وفرنسا ، فهو امتصاص للنخبة التونسية المثقفة والعمل على شل حركة الحزب الدستوري .

ورد صالح فرحات في ديسمبر 1925 على مقولة الدكتور كاتان (Cattan) : ((ان التجنس لا يمس الدين الاسلامي في شيء)) ، فقال : ((ان الدين والجنسية شيء واحد بالنسبة للمسلمين، لأن المسلم، في أى بلد كان، والى أى بلد توجه، فهو في وطنه وبلده على أرض اسلامية، وان القرآن ليس فقط كتابا مقدسا ، وانما هو أيضا قانون مدني ينظم العلاقات بين المسلمين ، وقانون دولي ينظم علاقات المسلمين مع الأجانب .)) [18]

ولم تكن معارضة الحزب الدستورى لعملية تجنيس التونسيين مقتصرة على المسلمين بل شملت أيضا الدفاع عن الشخصية التونسية لليهود التونسيين . وقد فتحت فرنسا أمامهم التجنيس الجماعي سنة 1926 [19] . وسخر الحزب جرائده لنشر الشعور الاخوى بين المسلمين واليهود التونسيين . وصرح على لسان صالح فرحات ، كاتب الحزب المساعد ، : ((اننا نعتبرهم (اليهود التونسيين) منا والينا ، وان نوحد جهودنا معهم ، وانهم يعاملون عند المسلمين أحسن بكثير من عند غيرهم .)) [20]

---

(17) أنظر :
- *Djaït, p. 51-54.*
- *"Notizie Varie: La legge per la cittadinanza francese in Tunisia e l'islamismo", Oriente Moderno, anno IV, N° 6, (15 Giugno, 1924), p. 357-362.*

(18) نفس المصدر .

(19) عبر اليهود التونسيون في مؤتمر مرسيليا سنة 1906 عن عدم رضاهم على القضاء التونسي وطالبوا الارتباط بالقضاء الفرنسي ، وأعادوا نفس الطلب سنة 1909 ، ولكن السخط الشعبي التونسي منعهم من بلوغ هذه الامنية ، وتمكنوا من تحقيقها بعد سنة 1926 .
- أنظر :
-"Notizie...", p. 357-362.

(20) نفس المصدر .

وقد انعكست هذه السياسة الاستعمارية على سياسة الحزب الدستوري، فوجه جهوده لاثارة الشعور الديني والوطني في نفوس الشعب، وبعث فيه روح كراهية الاستعمار ودعاه الى العمل داخل صفوفه للتخلص من نير المعمرين • وقد تأثر الشعب لذلك وثار في عدة مناسبات وتجمع في مظاهرات حول العلم التونسي كرمز للوحدة الوطنية، ورفع شعارات مكتوبة بحروف عربية بارزة نادى فيها باستقلال تونس وسقوط فرنسا •

وكان الحزب متفطنا الى ضرورة استمرارية الكفاح الوطني ضد السياسة الاستعمارية الهادفة الى القضاء على الكيان التونسي، ولذلك أسس سنة 1928 (جمعية الشباب التونسيين) للعمل على بعث الروح الوطنية في أوساط الشباب واعدادهم للكفاح الوطني في المستقبل •

وقد شملت عناية الحزب الدستوري جميع مقومات الشخصية الوطنية التونسية المهددة بالزوال • فعارض سنة 1925 المشروع الفرنسي القاضي بتغيير القضاء الاسلامي الى قضاء مختلط بين الفرنسيين والتونسيين، وأكد على ابقاء القضاء الاسلامي مستقلا • واعتبر هذا المشروع خرقا لنصوص المعاهدات • ولم ينحصر موقف الحزب في الاحتجاج لدى الأوساط الحكومية في تونس وباريس، وانما اتسع الى الأوساط الشعبية، وخاطب الشعب في المساجد والمراكز الروحية للمسلمين، وشرح له أهداف الاستعمار، وحذره من مغبة عواقب السياسة السيئة وخطورتها على الشخصية التونسية العربية الاسلامية • ولم يكن الحزب يرى في قضية تغيير القضاء الاسلامي مسألة بين التونسيين والفرنسيين فحسب بل كان ينظر اليها أنها قضية بين فرنسا والشعوب الاسلامية كلها •

ان غيرة الحزب الدستوري على المبادئ الوطنية والدينية ليست وليدة ظرف تاريخي كهذا، وانما كانت كامنة في نفوس رجاله قبل تأسيس الحزب بكثير، وطبقوها منذ بداية ميلاد الحزب سنة 1920، اذ نجد الحزب يقف ضد مشروع ضم أملاك الاحباس الى الاراضي الاستعمارية سنة 1920، واحتج لدى السلطات الفرنسية والتونسية • كما نجده أيضا يحتاط من النشاطات الثقافية والسياسية الايطالية بين سنوات 1923—1925

التي كان هدفها اعادة تونس الى عهد الرومنة • فتصدى الحزب لذلك وأظهر شعارات كثيرة أبرزها (تونس للتونسيين) ،ميز فيها تونس عن الفرنسيين والايطاليين بالعلم التونسي [21] • ووقف الحزب كذلك معارضا سنة 1930 لانعقاد المؤتمر الافخارستي بتونس واعتبره حملة صليبية جديدة على بلد اسلامي •

ولم يكن الحزب الدستوري يواجه الخطر الملم بالشخصية الاسلامية بتونس من ناحية سلطة الحماية فقط ،بل كان أيضا يواجهه من جهة بعض المواطنين التونسيين • ولعل أخطر رجل تونسي واجهه الحزب في العشرينات هو الطاهر الحداد صاحب كتاب (امرأتنا في الشريعة والمجتمع) الذى دعا فيه المرأة المسلمة الى التخلي عن التقاليد الاسلامية • وواجهه الحزب بعنف ووصف فكرته بالكفر والالحاد •

- الوحدة العربية الاسلامية :

ان الدين الاسلامي واللغة العربية هما أساس بناء الوحدة العربية الاسلامية ،كما يعتبران أيضا أساس بناء الوحدة الوطنية في الأقطار العربية الاسلامية • وقد اقترنت اللغة العربية بالاسلام ولازمته في جميع الاقطار التي حل بها ، حتى أن بعض الدول الاسلامية غير العربية اتخذتها لغة رسمية في بلادها • ولعل المسلمين قد تأثروا بما جناه كمال أتاتورك على لغة القرآن ،فازداد تقديسهم لها حتى أصبحت لديهم دينا ولغة في نفس الوقت لا يكاد يذكر الاسلام الا بها ولا تكاد تذكر الا به •

ومن هنا فان الدفاع عن الدين الاسلامي ولغته العربية أصبح قضية جميع المسلمين • ولذلك كان الحزب الدستوري يستعين بالشعوب الاسلامية في التصدى الى السياسة الاستعمارية التي قصدت أساسا الشخصية الاسلامية والدين الاسلامي • فقد وجه الحزب نداء الى جميع المسلمين ،وطلب منهم اصدار فتوى تحرم على المسلمين التونسيين التجنس

---

(21) أنظر : - *Tlili, "Op.cit", p.210*

بالجنسية الفرنسية • واستجابت لندائه الصحف الهندية ،وأنكرت ذلك على السلمين •وأفتى الشيخ رشيد رضا في مجلة المنار سنة 1925 ان التجنس ردة،ودعا جميع المسلمين الى تلبية نداء اخوانهم التونسيين •

ولم يكن الحزب الدستوري يتصدى للسياسة الاستعمارية في تونس فحسب بل كان مهتما أيضا بالدفاع عن القضايا العربية والاسلامية في البلدان الاسلامية الاخرى •ووقف بين سنوات 1921—1926 موقفا مضادا لسياسة فرنسا التعسفية في المغرب الأقصى ضد الثوار الريفيين • وكانت الثورة الريفية تمثل امل التونسيين في تحقيق استقلال بلدان المغرب العربي ،و تصوروا محمد بن عبد الكريم زعيما للحرية والاستقلال (22) ،ولذلك كان محيي الدين القليبي يؤكد في اجتماع الحزب الدستوري في شهر ماى 1925 على امتناع التونسيين عن العمل في صفوف الجيش الفرنسي في المغرب الاقصى • وصرح بأنه من الاجرام والكبائر أن يحارب التونسيون اخوانهم (الريفيين) في الدم والدين • وقد أحدث ذلك تمرد العسكريين التونسيين عن الجيش الفرنسي (23) .

وكما كان التونسيون يتغنون ببطولات العالم الاسلامي ،فانهم كانوا أيضا يتألمون لآلامه و يساندونه في محنه • وقد احتج الحزب الدستوري سنة 1925 على الحصار الذى ضربته انكلترا على مدينة الاسكندرية ،وعلى ضرب فرنسا لمدينة دمشق سنة 1926 •وحزن الحزب أيضا على وفاة نجيب شقير،كاتب اللجنة السورية بالقاهرة سنة 1927، و رثى سعد زغلول سنة 1929، ووقف موقف سخط واحتجاج ضد تعسف السياسة الايطالية في ليبيا سنة 1931 (24) .

و بالاضافة الى ذلك فقد أسس رجال الحزب ،وعلى رأسهم محيي الدين القليبي (جمعية للشبان المسلمين) سنة 1927— 1928، للعمل على الاصلاح الاجتماعي والديني و بعث الروح الوحدوية الوطنية العربية الاسلامية في نفوس الناشئة،و تدعيم أواصر الأخوة الاسلامية الحقة بينها •

---

(22) أنظر: Mahjoubi, *Origines*, p. 398-99 - (23) نفس المصدر،ص 399—401

(24) طالع الفصل الخامس •

وكان الدستوريون يتابعون أحداث العالم الاسلامي ، ويتأثرون بآراء المفكرين المسلمين وزعماء الرأي منهم ، كتأثرهم بأفكار الملك ابن سعود والأمير شكيب أرسلان . وكان المسلمون في العالم أيضا يتابعون أحداث المغرب العربي ، ويتألمون لآلامه ، فقد نظمت مظاهرات في القاهرة ضد تطبيق قانون (الظهير البربري) في المغرب الأقصى ، واجتمعت شخصيات اسلامية من بلدان المغرب والمشرق العربيين ، وكان من بينهم الشيخ الثعالبي . ووقفوا ضد السياسة الايطالية والفرنسية في المغرب العربي وسياسة انكلترا في المشرق ، ودعوا المسلمين الى تكثيف جهودهم للتصدى لسياسة الاستعمار . ولم يعد الكلام يدور بين المسلمين الآ حول الوحدة العربية الاسلامية (25) .

واذا كان اعضاء الحزب الاخرين كالقليبي وصالح فرحات وغيرهما ، قد ركزوا جهودهم على خدمة ايديولوجية الحزب من داخل تونس ، فان الثعالبي قد خدمهـا خارجها منذ 1923 . وقد ربط القضية التونسية بالقضايا العربية الاسلامية ، وفضح مساوىء الاستعمار الفرنسي أمام مجالس العلماء المسلمين في مصر والشام والعراق والهند . وتمحور فكر الثعالبي حول جمع شتات المسلمين ، توعيتهم وعمل على تدعيم اليقظة العربية . وقد التقى في ذلك مع الامير شكيب أرسلان الذى كانت تربطه به علاقة وطيدة عن طريق (جمعية الدعاية الاسلامية) ببرلين .

وكان الثعالبي يحمل في نفسه مبدأ وجوب نشر الدعوة الاسلامية في العالم الاسلامي ، والعمل على اعادة نهضته ، والسهر على حفظ روح الايمان في هذه البلدان . ودعا الى تدعيمها في المؤتمر الاسلامي بالقدس سنة 1931 . وقد سادت فكرة الجامعة الاسلامية فكر الثعالبي فربط فكرة بناء الوحدة العربية بالوحدة الاسلامية ارتباطا وثيقا ، وبرزت فلسفته تلك في محاضراته في مدينة دمشق وحيفا والقدس ، تلك المحاضرات التي أبرز فيها صلابة مدنية الشرق التي هي مدنية اخاء أساسا ، زادتها الحضارة الاسلامية عمقا فصارت مدنية البشرية كلها . كما تظهر فلسفة الثعالبي العربية الاسلامية أيضا من خلال

---

(25) نفس المصدر .

دروسه بجامعة آل البيت ببغداد ، اذ دافع عن الجنس العربي قبل الاسلام ، ونفى عنه صفات التفسخ والانحلال والتدهور التي أراد المغرضون أن يلصقوها به ، باعتبار أن الامة التي تصل الى هذه الدرجة من الانحطاط لا يمكنها النهوض باعباء التعاليم السماوية . وقد قام العرب باعباء الرسالة المحمدية و نشروها في بقاع الدنيا القريبة والبعيدة . ولخص الثعالبي فلسفته الرامية الى النهضة العربية الاسلامية و تدعيم وحدة العالم العربي الاسلامي في ضرورة احياء التراث والتجديد العلمي عن طريق تأسيس جامعات تقتبس الجديد من الغرب وتحتفظ من تاريخ المسلمين بالدين والاخلاق (26) .

وحتى سنة 1933 كانت ايديولوجية الحزب الدستوري العربية الاسلامية تسير على نفس النهج الذى اتبعته منذ سقوط الخلافة العثمانية . وكان عمل الحزب الوطني مرتبطا بعمله العربي الاسلامي ، وذلك لكونه يعتقد في وثوق العلائق بين المملين . وكان رجال الحزب مقتنعين بأن العالم العربي الاسلامي ما هو الا الاسرة الحقيقية والطبيعية التي يعيش ضمنها القطر التونسي ، وهم كلهم امل بأن هذا العالم ستكون له الغلبة في مستقبل التاريخ المعاصر (27) .

اما فيما يخص ايديولوجية الحزب الدستوري الوطنية فقد أصبحت منذ سنة 1933 أكثر تصلبا ضد الاستعمار . فبينما اعتمدت سياسته فيما سبق على التعاون مع سلطة الحماية على أحداث دستور يحفظ الحكم بيد الشعب ، فاننا نجد الحزب بعد انعقاد مؤتمر نهج الجبل في ماى 1933 ، يركز على منح الشعب دستورا ليتحكم في مصيره بواسطة برلمان تونسي محض منتخب بالاقتراع العام له الصلاحيات الكاملة في الميدان التشريعي وتكون الحكومة مسؤولة أمامه (28) .

و يتضح من خلال ذلك ان الحزب الدستوري كان حزبا وطنيا وعربيا اسلاميا في

---

(26) أنظر الفصل الثاني .

(27) طالع افتتاحية جريدة (صوت الشعب) الصادرة في 11 مارس 1933 في :

-"Tunisie: Un nouveau journal destourien de langue française", Afrique française, année 43, N°3, (Mars 1933), p. 180-181.

(28) أنظر :

- Tlili, "Op.cit", p. 219-220.

نفس الوقت ،عمل على استقلال تونس، والغاء نظام الحماية وربطه بنصوص معاهدة باردو، ووثق علاقة حركته بالنهضة العربية الاسلامية • غير أن بعض العناصر التونسية ذات الثقافة الغربية ، وعلى رأسها بورقيبة ،دخلت في صفوف الحزب منذ سنة 1933 ،وعملت على تطبيق ايديولوجية غربية يسارية تفصل تونس عن العالم الاسلامي و تربطها بالعالم الغربي الاوروبي • وجاءت سياسة تلك العناصر مخالفة لسياسة الحزب ،اذ اتبعت سياسة المراحل وبنت كفاحها على الشرعية القانونية والعمل على اقناع السلطات الفرنسية باحترام تعهداتها ومنح التونسيين استقلالا ذاتيا (29) .

ووقع الصراع داخل صفوف الحزب الدستوري بين التيارين ،مما أدى الى انفصامه الى قسمين ،الحزب الدستوري القديم ،تقوده جماعة الثعالبي والقليبي وصالح فرحات ، ذات الثقافة الاسلامية والفكر الشرقي المتدين ،والحزب الدستوري الجديد ،تقوده جماعة بورقيبة والطاهر صفر، والبحري قيقة ومحمود الماطري، ذات الثقافة الغربية والمنهج الليبرالي والعلماني •

ولعل أحسن ما نختم به هذا الفصل في تحديد منهج الدستوريين : القديم والجديد ،قول الفيلسوف الجزائري مالك بن نبي : ((ان الجهات العليا بباريس كانت لا تريد خيرا للجميع ،ولكننا اذا تبصرنا نحن في الأمر بامعان ،نرى أن الاستعمار، لو خير في تلك اللحظة ،لفضل الجناح الجديد ،كما ستؤكد ذلك الايام ، ••• بعد عشرين سنة • ولكن اذا احتمل (الاستعمار) بعد كل ضغط وكل قمع ،أن يتحقق الاستقلال ، ترى، لمن تسلم ،على الافضل مفاتيح القلعة ؟ أمن الأليق ••• أن تسلمها الى **بورقيبة** ، أم الى الشيخ الثعالبي ؟ ••• فمن الواضح ••• ان الثعالبي سيرفع على القلعة (تونس) راية الاسلام ،أو ما يشبهها • بينما الآخر(بورقيبة) سيجعل منها ••• قلعة علمانية ••• اذا لم يبق أي تردد في الأمر لدى الجهات الباريسية تجاه احتمال الاستقلال ، يجب أن تسلم المفاتيح الى الحزب العلماني ••• اذا آن الأوان • ولعل الانشقاق الذي حدث

---

(29) أنظر : - Pierre, Rossi, <u>La Tunisie de Bourguiba</u>, (Tunis Kahia, 1967), p. 29-31.

في تلك الحقبة ، انما هو نتيجة مسبقة تمهيدا لاحتمال قد تصيره الأيام واقعا تاريخيا .)) (30)

ترى هل كان مالك بن نبي صادقا فيما ذهب اليه ، أم ان الحزب الدستوري الجديد كان أحق بتسلم راية (القلعة) من خصمه الحزب الدستوري القديم ؟ . هذا ما نطمح لدراسته في المستقبل ان شاء الله اذا واتتنا الظروف لتسجيل رسالة الدكتوراه التي قد يكون عنوانها : (الحزب الحر الدستوري التونسي القديم 1934 - 1955) .

---

(30) مالك بن نبي ، مذكرات شاهد القرن : الطالب ، ترجمة بقلم المؤلف ، (بيروت ، دار الفكر ، بلا تاريخ) ، ص 188-189 .

اتخذ التونسيون منذ سنة 1881 اسلوبين للمقاومة تمثل الاول في تقديم العرائض، والثاني في تأسيس الجمعيات والجرائد خدموا بها الفكر الاسلامي والاصلاح الديني والنهضة العلمية الحديثة، ومارسوا النشاط السياسي في بعض الاحيان . وكانوا يضمون اتجاهين الاول بزعامة خريجي المعاهد الاوروبية، والثاني بقيادة خريجي الزيتونة . ولذلك جاءت هذه الحركة الثقافية ذات صبغتين الاولى اوروبية والثانية اسلامية . ولكن الجميع كانوا ، حتى بداية العشرينات يميلون الى التعاون مع نظام الحماية، ولذلك طالبوا بالمساواة السياسية في الحقوق بين التونسيين والاوروبيين . غير ان اليأس بدأ ينتابهم من سلطة الحماية نظرا لظهور عناصر جديدة في الحركة سيطرت عليها فكرة الجامعة الاسلامية وخاصة بعد زيارة الشيخ محمد عبده لتونس سنة 1903، واصبحت مقتنعة بان بلادها استفادت بما فيه الكفاية من نظام الحماية وصارت قادرة على تسيير شؤونها بنفسها .

ولهذا السبب جاءت حركة الشباب التونسي (1907) باسلوب مغاير لما سبق من اساليب وهو الصراع المباشر مع الحماية والمطالبة بحقوق التونسيين السياسية والادارية والثقافية، وبروز اصحابها على رأس احداث وطنية واسلامية (الزلاج، وطرابلس الغرب (1911)، ومقاطعة عربات الترام (1912)) مما عرض حركتهم الى هزات عنيفة ادت الى ابعادهم .

ونستنتج ان افكار الجامعة الاسلامية، وانشطة النهضة التونسية وضغوط الحماية الفرنسية ومرارة الحرب الاولى — كلها عناصر ساهمت في ظهور حركة وطنية تونسية سنة 1920 — كانت اشد تطرفا ووضوحا في مطالبها .

ولم تكن الحركة الوطنية التونسية بمعزل عن الحركة الاسلامية التي كانت تعمل على فك العالم الاسلامي من مخالب الاستعمار وسيطرته في افريقيا وآسيا والهند . ولم تكن بمعزل ايضا عما كان يجري في العالم الاوروبي من احداث وتقلبات فكرية وسياسية . وقد عزمت النخبة التونسية منذ نهاية الحرب الاولى على تغيير نظام الحماية نهائيا ومنح التونسيين حريتهم . غير ان صفوفها انقسمت سنة 1919

بين المطالبة بحكم دبمقراطي دستوري يتحقق فيه الاستقلال الذاتي ،وبين الحصول على الاصلاحات التدريجية • وقد مالت الطائفة اليهودية مع الفئة المسلمة المعتدلـــة • وكان السبب الرئيسي في ذلك : اولا اخفاق مبادىء الرئيس ويلسون وثانيا انهـــزام الحزب الاشتراكي الفرنسي في انتخابات 1919 وهما العنصران اللذان علقت عليهما النخبة التونسية آمالـهـا •

وعلى الرغم من هذا الانقسام ،فان قدرة الشيخ الثعالبي على الجمع بين مختلـف الاتجاهات ،ادت الى توحيد الصف• وبينما كان الحزب استقلاليا اصبح اصلاحيـا ، وذلك نظرا للاسباب التي ذكرناها •ولذلك جاء برنامجه قسمين الاول عاجل (الاصلاحات) والثاني آجل (الاستقلال) •

ولهذا يمكن ان نقول ان النخبة التونسية بين 1919 و 1920 كانت تتكون من اربعة اتجاهات هـــي :

1 — الاتجـاه الشـورى : وعلى رأسه محمد باشحامبة ،وقد طالب بالاستقـلال الكامل ومعاداة الفرنسيين •

2 — الاتجـاه الاصلاحي :وعلى رأسه حسن قلاتي ،وقد كان يؤمن بسياسـة التعاون مع الفرنسيين وادخال اصلاحات على نظام الحماية ،وتحقيق المساواة بيـن الفرنسيين والتونسيين •

3 — الاتجـاه المعتدل : وعلى رأسه فرحات بن عياد ،وقد نادى بمشاركـة التونسيين في ادارة شؤون البلاد والنهوض بهم في ظل سلطة الحماية •

4 — الا تجـاه الواقعـي : بزعامة الثعالبي ،وكان استقلاليا في اول الامـر ثم اصبحت مطالبه قدرا مشتركا مع الاصلاحيين والمعتدلين ،وقد نتجت عن ذلـك اهداف برنامج الحزب السياسي القريب (الاصلاحات) والبعيد (الاستقلال) التـي اشـرنـا اليـهـا •

وعلى الرغم من ان الثعالبي كان واقعيا وحاول ان يجمع بين مختلف هذه الاتجاهات، وكون وحدة وطنية بين النخبة التونسية، تمثلت في (الحـــزب الدستورى) ، الا ان الاصلاحيين والمعتدلين سرعان ما كشفوا عن نواياهم ، واستقلوا عن الحزب الدستـــورى بتأسيسهم لحزبين منفصلين عنه وعما الحزب (الاصلاحي) و (المستقل) • فطالـــب الاول بالاصلاحات التدريجية ولكن في اطار الحماية ، وسار الثاني في ركاب الحمايـة بصفة مطلقة •

امـــا الحزب الدستورى فقد انتهج سياسة تعاون مع حكومة الباى وعمل على كسب العائلة المالكـــة باعتبارها رمـــز الوحدة الوطنية • ووقف من سلطة الحماية موقفـــــا معاديا مكشوفا احيانا وحذرا احيانا اخرى ، ولذلك كان الحزب الدستورى هو الممثـــل الوحيد والفعلي عندئذ للطبقات الشعبية وللرأى العام التونســـي وطموحات الشعـــب التونســي الحقـــيـــقـــيـــــة •

ونذكر هنا ابرز النقاط التي ميزت سيـــاســـة الحزب الدستـــــورى :

1 — <u>فـــي تـــونــــس</u> :

— كان موقفه من (جمعية عموم العملة التونسيين) قائما على استراتيجيـــة مزدوجة وهي المحافظة على بقاء هذه الجمعية لتشـــد ازره من ناحية ، والظهور امام حكومة هيريو اليسارية بمظهـــر الحياد بينها وبين الجمعية من ناحية اخرى •

— كانت للحزب استراتيجية واضحة مع الطائفة اليهودية التونسية • وقـــد بذل جهودا مضنية لضمها الى صفه والاستفادة منها ماديا واعلاميا • ولكن مصلحـــة اليهود مع سلطة الحماية تركتهم لا يتعاملون مع الدستوريين الا عندما تقتضــــــــي **المصلحة** المشتركة ذلك اوفي بعض المواقف العامة •

2 — في المغرب العربي :

— استغل الحزب جهود الجزائريين المقيمين بتونس ،مما جعل هؤلاء يشاركون في ادارة الحزب ويتبنون مبادئه ،ويعتبرونه حزبهم . فقد ساهموا في الدعاية له ،واسسوا (جمعية دينية بالجزائر ؟) ساهمت في تمويله من مدن الغرب والشرق والوسط والجنوب الجزائري . وقد احتج الجزائريون بشدة على سجن الفرنسيين للثعالبي سنة 1920 .

— كان الحزب الدستوري مهتما كثيرا باحداث المغرب العربي والعالم الاسلامي (الثورة الريفية 1921—1926 ،واحداث دمشق 1926 ،والاسكندرية 1929 ...) . وكان يتابع تصريحات المفكرين والملوك العرب والمسلمين في استنهاض الشعوب الاسلامية وتنويرها .

3 — في فرنسا :

— اعتمد الحزب على الشيوعيين الفرنسيين والجمعيات الانسانية والعلمية للتعريف بالقضية التونسية . وعمل على الحصول على تفسير قانوني من ابرز رجال القانون الفرنسيين البرلمانيين يقضي بان منح التونسيين الدستور المطلوب لا يتنافى مع روح الحماية .

— سعى الى اطلاع الرأي العام الفرنسي على الوضع العام التونسي ، وتعيين ممثلين له بباريس لنشر دعايته في الصحف ومعالجة الامور عن قرب .

— ودعا التونسيين لاستقبال الرئيس الفرنسي ،ميليران سنة 1922 ليفهم الفرنسيين عدم معاداته لهم ،وليظهر لهم ظلم وفساد نظام الحماية .

4 — في العالم الاسلامي والاوروبي :

— كان الحزب يعمل منذ بداية تأسيسه في دائرة التعاون العربي الاسلامي مع لجنة (المغاربة والمشارقة) والمنظمات الاسلامية (الجامعة الاسلامية) .

- قام بتعريف العالم العربي والاسلامي وبلدان اوروبا وأمريكا بمساوئ النظام الاستعماري في المغرب العربي عموما وتونس خصوصا .(وقام بهذا الدور الثعالبي منذ نفيه سنة 1923 على الخصوص) . ولهذا كان نشاط الحـــزب منتشرا في انجلترا والولايات المتحدة الامريكية ،وايطاليا ،والمانيا ،وسويسرة ، والآستانة ،ومصر ،وفلسطين ،والحجاز ،واليمن ،والكويت ،والعراق ،وسوريا ، واقصى بلاد الهند ،بين علمائها ورجال السياسة والهيئات الدبلوماسية والعلمية .

ولنا في النهاية ان نبين الخلاف بين الحزب الدستوري ،الذي اصبح يعرف منذ 1934 (بالقديم) ،والحزب الدستوري الجديد .

ان الحزب الدستوري الجديد تعود اصوله الى تكوين اصحابه في المدارس التبشيرية والمعاهد الفرنسية العليا . ولكنهم اصبحوا دستوريين ،واسسوا جرائد فرنسية اللغة عبروا فيها عن آرائهم التي لم تكن بالضرورة هي آراء الحزب. ولم تحل سنة 1933 حتى صار هؤلاء من ابرز اعضاء اللجنة التنفيذية للحـــزب. ونظرا للخلاف الايديولوجي المتباين بين انتماء الاعضاء ،فان الحزب اصبح منذئذ (1934) يتألف من شقين ،واحد اسلامي سلفي يمثله الحزب الحر الدستوري الذي اصبح ينعت بالقديم ،وآخر غربي علماني يمثله الحزب الدستوري الجديد .

الملاحق

الملحق الاول

رسالة الشيخ عبد العزيز الثعالبي الى الرئيس الفرنسي الاسكندر ميليران

هذه رسالة الشيخ عبد العزيز الثعالبي باللغة الفرنسية الى الرئيس الفرنسي الاسكندر ميليران ، بعثها له اثر تفتيش بيته في صيف 1920 بعد صدور كتابه (تونس الشهيدة) . والرسالة مضروبة على الآلة الراقنة ، وكتب الثعالبي في نهايتها اسمه الكامل بالعربية بقلم حبر ازرق سائل ، واعاده بالفرنسية مع عنوانه بباريس . وهذا القلم هو الذي سطر به الثعالبي بعض الكلمات داخل النص .

وقد حاول الثعالبي في هذه الرسالة انكار علاقته السياسية مع محمد باش حامبة . ولكن المراسلات التي عثرت عليها الشرطة وادرجت في تقرير العقيد بارون ، مقرر قضية الثعالبي ، تثبت عكس ذلك . فكانت تلك سياسة من الثعالبي اراد بها ابعاد التهمة عنه وتخفيف الضرر على التونسيين ، ولعله كان خائفا على موت الحزب الدستوري في مهده .

ولمعرفة مواقف الثعالبي السياسية بعد سنة 1919 وعلاقته مع محمد باش حامبة ، واسباب انقطاع هذه العلاقة ، ارجع الى الفصل الاول (تأسيس الحزب الحر الدستوري التونسي) .

باريس في 26 جويلية 1920

الى السيد رئيس المجلس و وزير الخارجية - باريس .

سيدي الرئيس ،

يشرفني ان اعرض على سيادتكم الواقائع الآتية :

في 23 جوان 1920 ، على الساعة الرابعة صباحا ، دخل بيتي الواقع برقم 13 شارع سنطاي بباريس ، محافظ من مصالح الامن العام ، صحبة ستة رجال من معاونيه . وقد

طلبوا مني اوراقي ومراسلاتي دون تقديم اية شروح لذلك • ولما كنت حينئذ في فراشـــي، فان معارنين بقيا يحرسانني ، بينما شرع الآخرون في تفتيش شقتي رأسا على عقب دون حضوري •

ولما تم التفتيش وجمعت جميع اوراقي ، جاء المحافظ ليراني ، فطلبت منه اسباب هـــذا التفتيش ، فرد علي بان هناك مخابرة مفتوحة ضدى ، بتهمة قيادتي لحركة انفصاليـــة ، رفعها ضدى المجلس الحربي بتونس ، وانه قد فتش بيتي بموجب لجنة قضائية • وبعد ذلك ذهب ومعه كل ما رآه هاما • دون كتابة محضر حسب ما ينص عليه القانون •

سيدى الرئيس ان ما عرضته على سيادتكم يوجب علي تقديم توضيح لنشاطي هنـــا بباريس وهناك بتونس•

لقد كان التونسيون قبل الحرب بكثير ، متأثرين بالسياسة التي اتبعتها الادارة التونسية • تلك السياسة القائمة على الظلم والتعسف • وان كل ذلك يتفق بان نظاما كهذا لا يمكنه البقاء ، كما يتفق ايضا على ضرورة ايجاد اصلاحات جادة •

ولما جاءت الحرب ، هب الشعب التونسي كله الى المساهمة بكل قواه في الدفاع عن فرنسا ، فقد كسب بجديته واخلاصه احترام اعدائه الالداء • ولم تكن معاونته فرض عين • وانما كان واجبا مقدسا للاعتراف : 65 الف مقاتل ، وثلاثة آلاف عامل ، من شعب عدده الاجمالي 287 الف رجل سليم البنية وكانت خسائر الشعب التونسي 45 الفا بين قتيل وجريح • وكانت مساعدته الاقتصادية مماثلة لضحاياه الدامية •

وبعد نهاية الحرب ، لم يتوان السيد ألابتيت ، المقيم العام ، والذى كانت مهمته بتونس على وشك الانتهاء ، في التصريح رسميا باعتراف فرنسا ، التي لا تتأخر في القيام بواجبها الحضارى ، باعطاء التونسيين جميع الحريات المتماشية مع نظام الحماية •

واعلن السيد فلاندان ، الذى خلف السيد الابتيت ، عند وصوله ، عن عزمه علـى محو الظلم من تونس وايصال التونسيين الى مرحلة الحرية والعدالة •

وكنا نستطيع — من الاحسن لذلك — تصديق جدية السيد فلاندان الذى استقبل حسن قلاتـي على طاولة الاقامة العامـــة ، بصفتــه زعيـــمـــا للشـــبـــاب

التونسيين (1) ،وكان احد الشخصيتين الاكثر تأثيرا لدى الوزير (2) ،هو الرائـــد وارميرن (   ) ،قد وعدنا بتأييده من اجل تطبيق البرنامج الذى يمثـــل اليوم موضـوع مطـالبنـــا .

ومن بين الاوراق المحجوزة في بيتي ،توجد على الخصوص رسالة مبعوثة الى المسمى حسونة ،حاجب (شاوش) الاقامة العامة ،وتتعلق بالقيام بمساع لدى الرائد وارميرن فيما يخص زيادة رواتب الموظفين الاهليين ،وكذلك بعض الرسائل من شخصيات تونسيـة تمت فيها اعادة هذا الضابط الذى وضعنا فيه جميع امانينا . وقد تغيرت سياســـة المقيم العام نهائيا منذ هذا العهد : لم يصدق في اى وعد من وعوده ،وعوضا ان يهاجم العلة صراحة كما كان يقول ويعيد في خطبه ،فان عمله قد اقتصر على تبديل بعض الموظفين الساميـــن .

ان الشعب التونسي الذى ينتظر بفارغ الصبر تحقيق تعهدات والتزامات المقيم العام قد خاب امله وانزعج بعد ذلك لبعض المشاريع مثل المشروع المتعلق باملاك الاحباس الخاصة واراضي النفع الجماعية ،والذى اهان مشاعر المسلمين الدينية ،وكان يرمـــي بوضوح الى التضحية بمصالحهم الجديرة بالاحترام . ومنذ ذلك الحين والمقالات الصحفية تتظاهر الالهام ،وحاولت الشخصيات السياسية في تصريحاتها ان تفهم بان نوايا السيد المقيم العام لم تتغير ، ولكنها حوربت ورفضت من قبل أوامر وزارة الشؤون الخارجية .

---

(1) كان قلاتي زعيما لحركة الشباب التونسيين في نظر الفرنسيين فقط نظرا لاسلوبه المعتدل . وليس في نظر التونسيين ،ذلك انه كان احد اعضاء الحزب الدستورى الذى كانت رئاسته في يد الثعالبـي .

(2) لعل المقصود هنا هو وزيـر الحـربيـة الفرنسـي .

وقد فكر الشعب التونسي اذن في عرض الحالة صراحة على الشعب الفرنسي ويطلب منه أن يأتي الى مساعدته •

ولما كنت عازما على المجيء الى فرنسا للمداواة ، فانني كلفت بمهمة تنوير الرأى العام الفرنسي •

ولهذا ، فانني اتصلت بشخصيات فرنسية مختلفة ، وجمعيات متنوعة دون تمييز حزبي ، ويرتكز جوهر مهمتي في مخاطبة جميع الفرنسيين •

ولقد نلت في جميع مساعيّ تشجيع كل من عرضت عليهم حالة تونس ، وارتباطهما بفرنسا ، والعلل التي تشكو منها والعلاج الذى يجب ايجاده •

ولقد علمت من جهة اخرى ان وزارة الشؤون الخارجية لم تعارض اطلاقا الاصلاحات التي تراها ضرورية ، وان كل المصائب آتية من الادارة التونسية •

ولكي اعطي وزنا اكثر لمساعيّ ولكي ابرهن بأن عملي كان يقوده الشعب التونسي ، فان هذا الشعب قد قرر ارسال وفد الى باريس للتحدث باسمه رسميا •

وكمبعوث من طرف الشعب التونسي للدفاع عن مصالحه ، فقد كنت مجبرا على توثيق علاقتي به ، وهو مصدر عدد كبير من الرسائل والمراسلات الضخمة •

وكما يدل عليه التحقيق المفتوح ضدى ، فانني لم اتوقف عن الدعوة الى الهدوء والثقة في فرنسا الحرة العادلة ، حتى وجهت نقدا (الى التونسيين) في احدى رسائلي (3) ادنت فيه المظاهرة التي جرت بتونس ضد احتلال الانكليز لاسطنبول •

ولكوني عشت سنين طويلة في المشرق ، فقد استأنفت علاقاتي التي اهملتها اثناء الحرب ، وخاصة مع احد تجار سنغفورة الذى كنت اراسله باستمرار في مسائل تجارية •

---

(3) لقد ترك الاحتلال الانكليزى لعاصمة الخلافة الاسلامية اثرا كبيرا في نفوس التونسيين مما ادى الى خروج طلبة الزيتونة في مظاهرة احتجاج ضد هذا التعدى • ولم يكن الثعالبي من المعارضين لهذا الاحتجاج بل كان من انصاره • ويظهر ان ذكر تنديده بذلك في هذه الرسالة كان من باب المراوغة السياسية فقط •

وهناك مراسل آخر مقيم في الخارج ، وهو صديق تونسي قديم . محمد باش حامبة المقيم بجنيف ، الذي كان يقترح علي احيانا في مراسلاته القيام ببعض المساعي ، ويحاورني في الحالة السياسية العالمية ، ولكنه لم يقترح علي اطلاقا الاجتماع بالمجموعات المعادية لفرنسا ، كما يشاع عنه .

وبالاضافة الى ذلك ، فان محمد باش حامبة ، الذي يعاني من سوء حالته المادية بسويسرة مما دفعه الى العمل كموظف في احدى المصانع (بسويسرة) . وقد ترجاني في احدى رسائله الاخيرة بان لا اعود الى محادثته عن تونس لانه لم يعد يهتم بها نهائيا .

فمن اين جاءت اذن التهمة الموجهة ضدى وهي التآمر ضد امن الدولة ، والدسائس البلشفية والالمانية ، وحركة الجامعة الاسلامية ، التي تعمل الحكومة التونسية وبعض الصحف الفرنسية المهتمة بالامر على بثها ونشرها .

ان السجل الذى كتبته بيدى ، وهو موضوعيوما بيوم ، هو موجود ليبرهن على انه لم تكن لي ابدا أية علاقة لا بالبلشفيين ولا بغيرهم ، وانه لم يخطر لي على بال ابدا اثارة البلبلة ، وان كل عملي كان يجرى في وضح النهار وذلك نظرا لثقتي في صلاح القضية التي اعمل لها .

لقد بقيت طيلة الحرب في تونس لكي اتجنب سوء التفاهم ، ولم ابارح حتى مدينة تونس ، رغم ان مصالحي كانت خارجها وهذا لكي امنع ميلاد اية نميمة ووشاية .

والظاهر ان المخابرة التي فتحتها الحكومة التونسية ضدى لا تعرف هدفا آخر غير ارهاب الشعب وخنق صوته وخزيه امام الرأى العام الفرنسي .

إني مقتنع في هذه الاثناء بأنه يكفيني عرض الحالة (التونسية) بصراحة ووفاء كما هي في الواقع، لكي تتخذ حكومة الجمهورية ، التي وضعنا فيها كل ثقتنا ، الاجراءات الضرورية ذات الطابع الذي يريح شعبا لم يعد هناك شك في اخلاصه لفرنسا .

وتفضلوا سيادة الرئيس، بقبول يقين مشاعر الوقار والاخلاص .

عبد العزيز الثعالبي

Trianon Palace Hotel
1 bis Rue De Vaugirard , Paris.

- المصدر :
- *A.Q.O. /S.T. 1917-40, N° 318, Lettre d'Abd-El-Aziz Taâlbi à M. Président du Conseil, Ministre des Affaires Etrangères, Paris, Paris, le 26 juillet 1920, p. 34-37.*

الملحق الثاني

رسالة خطية من محيي الدين القليبي الى الشاذلي بن مصطفى خير الله

هذه رسالة خطية من محي الدين القليبي ،المدير السياسي لمكتب ديوان الحزب الحر الدستوري التونسي ، الى الشاذلي بن مصطفى خير الله ،ممثل الحزب بباريس، مؤرخة بتونس في 12 جانفي 1928.

وعلى رأس الرسالة شعار الحزب المتمثل في يدين مقبوضتين وراءهما شمس مشرقة ، ويحتضنهما غصنا زيتون ،وكتب في اسفل الشعار الآية الكريمة " واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا " وتحتها العلم التونسي .

ويظهر من خلال هذه الرسالة انقطاع الصلة بين الحزب وممثله بباريس،الامر الذي جعل القليبي يلوم خير الله على قطع صلته بالحزب، ويستغرب عليه تمثيل تونس في مؤتمر مكافحة الاستعمار ببروكسيل (1927) ،دون ان يكون الحزب على علم بذلك .ويتأسف على عدم تلقي الحزب دعوة الى حضور هذا المؤتمر .

ومع ان خير الله لم ير رأي اهتمام لاسئلة القليبي العديدة ، فإن هذا الاخير حاول الحفاظ على الصلة بين حزبه وبين ممثله بباريس.

\+ + +

الحمد لله وحده (شعار الحزب سنة 1927) والصلاة على من لا نبي بعده

الامة التونسية   الحزب الحر الدستوري

المركز الرئيسي بالعاصمة

نهج انقلتيرا عدد 25   عدد .....   تونس في 12 جانفي 1928

1346/7/20

حضرة الاخ الحر الفاضل السيد الشاذلي بن مصطفى دامت سعادته بعد التحية اللائقة بجنابكم والسؤال عن كافة احوالكم اجراها الله على وفق مرادكم ووفق خطاكم وانجح مسعاكم . اعلمكم انني كنت وجهت لكم رسالة بعنوان الاخ الشاذلي الخلادي

الذي قال عنه في رسالة منه الي انه مسكنكم جميعا ولكننا لسوء الحظ لم نحظ منكم بجواب عنها وفي جملة ما كتبنالك فيها تحريضا على مواصلتنا بكل ما لديك من الانباء وعدم قطع رسائلك عنا لذلك يزداد عجبنا في سلوكك خطة معاكسة لما اشرنا على اخوتك به في تثبيت الصلة بيننا وبينك خصوصا وان مهمتك توجب عليك ذلك والضروف (كذا) الحرجة التى نحن فيها الآن تقضي بان نكون على اتصال مستمر حتى نتعاون على ازاحة هذا الكابوس الذى ألمّ بالبلاد الامر الذى تعتمد فيه وطنيتكم الهادفة ونشاطكم النادر وحكمتكم في تسيير الامور.

— (؟) الاخ قرأنا اخيرا بمزيد الاستغراب في صحف الشرق ان وفدا تونسيا برئاسة الاستاذ الشاذلي بن مصطفى أم بروكسيل وحضر بالنيابة عن تونس مؤتمر مكافحة الاستعمار بها وقد سرنا هذا النبأ من جهة قيامكم بالواجب المفروض وسرنا ايضا انكم انتخبتم في لجنة هذا المؤتمر الدائمة لكن ساءنا من جهة اخرى ان تمثل تونس بدون ان يكون لها بهذا الامر علم ولا حتى حزبها السياسي ولا لجنته التنفيذيه وساءنا ان يذهب هذا الوفد غير مزود بالمعلومات اللازمة التي يجب ان تشرح في هذا المؤتمر حتى يتكلم الوفد التونسي عن حالة تونس بعلم واحصائيات وتشخيص مسائل لا ان يلقي خطابا مجملا ملؤه الحماس والعواطف النبيلة ان هذا غير كاف في الجهاد السياسي والحملات الانتقادية على اعمال الظلمة والمستبدين.

سرنا ذلك وساءنا هذا ايها الاخ خصوصا بعد رسالتنا اليك وساءنا ايضا ان اللجنة الدائمة للمؤتمر لم توجه في هذا العام دعوة الى الحزب رأسا ولا بواسطة نائبه بباريس خلافا للعام الماضي ولو جاءت دعوة الى الحزب لكان صديقكم الذى تعرفونه بجانبكم في المؤتمر (1) وقد ظهر لنا ان نحتج لدى تلك اللجنة على عدم توجيه الدعوة الينا ولكن رأينا ان نقوم بهذا بعد استشارتك انت حتى تظهر امام الهيئات السياسية اننا على اتصال وان اعمالنا باتفاق.

---

(1) يشير القليبي في هذه العبارة الى نفسه وموقفه في الدفاع عن قضية بلاده.

كنسا اشرنا عليك في رسالتنا السابقة ان توعز الى بعض النواب الغير (كذا)
الشيوعيين بان يلقي (كذا) اسئلة على الحكومة في حرية الصحافة والاجتماعات
وغيرها ولكننا لم نر أثرا لذلك ولا اعلمتنا بالنتيجة وطلبنا منك ان تبعث باسمك
وبصفتك نائبا عن الحزب الى رئيس البرلمان احتجاجا عن الحالة في تونس فلم تفعل
ونحن ازاء هذه الحالة نطلب من وطنيتكم ايضاحا مفصلا عن كامل الحالة هناك
وعما قمتم به من الاعمال وعن رأيكم في الخطة التي تريدون ان نسير عليها لمواصلتكم
في المستقبل لان هذا التقاطع يجب ان لا يبقى بيننا وبلادكم تتطلب منكم عملا صالحا
يرفع شأنكم بين ابنائها ويحفظ لكم في تاريخ حياتها ذكرا جميلا • علمنا اخيرا
ان جمعية تشكلت في فرانسا بين ابناء العرب هناك اخبرنا عن نظامها ومراميها
ولا تبخل علينا برسائلك في المستقبل كان الله لك واعانك على جهادك المشرف•
بلغ تحيتنا الى كافة الاخوان وبالاخص الشيخ عثمان صفر والطاهر صفر والشيخ
الخلادى والسلام عليكم من كافة اخوانكم الاحرار• المخلص لكم محمد
محيي الدين القليبي مدير الحزب•

المصدر: أ • و • ا • / م • ت • ق • / ح • و • تونس ، رقم 24—4 A

A-4-2

الحمد لله وحده والصلاة على من لا نبي بعده

الأمة التونسية — الحزب الحر الدستوري

واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا

المركز الرئيسي بالعاصمة
نهج انقلتيرا عدد ٢٥

عـــدد

تونس في ١٢ جانفي ١٩٢٨ — ١٣٤٦

١٥٨

الأخ الحر الفاضل السيد الشاذلي بن مصطفى دام سعادته بعد التحية اللائقة بجنابكم والسؤال عن كامل أحوالكم

على وفق مرادكم ووفق ظنكم وأنجح مساعيكم أعلمكم أنه كنت وجهت لكم رسالة بعنوان الأخ الشاذلي الخلادي [illegible]

[illegible]

الببليوغرافية

تقديم المصادر

ليس هناك بيبليوغرافية خاصة بمصادر الحزب الحر الدستوري التونسي 1919—1934 . واغلب هذه المصادر ما يزال خاما ينتظر النور بعد .والوثائق الفرنسية والتونسية والاسلامية عموما التي اطلعنا عليها هي عبارة على تقارير رسمية ومقالات صحفية وبرامج حزبية وآراء شخصية . وجميعها لا تخلو من النزعة نحو اليسار او نحو اليمين،في الحكم على الحزب الدستوري و ابراز مواقفه . فالمصادر الفرنسية تغلب عليها اما المبالغة في وصف اعمال الدستور لاثارة الحكومة الفرنسية ضده وعدم تلبية مطالبه . واما تشويه مواقف الحزب للتقليل من اهميتها ونتائجها في مهدها . اما المصادر الوطنية والعربية والاسلامية فتغلب عليها العاطفة الدينية والشعور الوطني .

أ — الارشيف :

1 — ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية — كي دورسي بباريس :

ان وثائق هذا الارشيف محفوظة في ملفات ورقية عادية ، كثيرة مرقمة ومبوبة حسب الموضوعات مثل موضوع :

— (المسائل السياسية 1917—1922، رقم 61—63)

— (الشؤون الاهلية 1929—1934، رقم 384)

— (المراسلات 1933—1934، رقم 398)

— (الملفات الخاصة 1930—1939، 414) ، وغيرها .

وقد اطلعنا في هذا الارشيف على الملفات التالية :

—(رقم 317 ، الشبان التونسيين — قضية الثعالبي 1919 الى جانفي 1920)

— (رقم 318 ، في نفس الموضوع خلال شهري جوان و جويلية 1920)

— (رقم 319 ، في نفس الموضوع ايضا من شهر ديسمبر 1921 الى 1924) .

وتجدر الملاحظة ان وزارة التعليم العالي والبحث العلمي التونسية قد اولت اهتمــــاما كبيرا بارشيف الحركة الوطنية التونسية المحفوظ بكي دورسي ، وخصصت له لجنة تونسية مقيمة بفرنسا سمتها (لجنة مصادر التاريخ التونســي في فرنسا) ، اعتنت بتصوير وثائق الحركة الوطنية التونسية . وتولى المركــــــز القومي الجامعي للتوثيق العلمي والتقني بتونس طبع اعمال هذه اللجنة فــي مجلة تحمل اسم (وثائق) تصدر مرتين في السنة . وقد صدر اول عدد لهــــا في بداية سنة 1984 .

2 - ارشيف وزارة الاعلام التونسية - مركز التوثيق القومي تونس، قسم الحركة الوطنية التونسية :

ووثائقه محفوظة في ملفات معلمة بحروف افرنجية تتبعها ارقام ، ومرتبــة حسب الموضوعات وملفات الشخصيات مثل :

- (مجموعة مؤتمرات الحزب الحر الدستوري 1920-1955 بقلم عمر بن قفصية رقم $2-54_{B}$) ،
- (الطائفة اليهودية بتونس رقم 6-4 B) ،
- (عموميات عن الحزب الشيوعي التونسي رقم 6-1 B) .

وتشتمل هذه الملفات على الرسائل الخطية وتقارير مختلف المصالح الفرنسية والتونسية كالشرطة والكتابة العامة، والمقالات الصحفية التونسية والاستعمارية والاسلامية . وتجدر الملاحظة هنا الى ان لغة جميع هذه الوثائق هي العربية والفرنسية . واهم ملف من حيث دسامة المادة في هذا الارشيف هو رقم 13-3 B المعروف تحت اسم الشيخ الثعالبي . وقد اجتمعت فيه وثائق كثيرة تتعلق بنشاط الشيخ الثعالبي وجمعت فيه رسائله الشخصية . واهم وثيقة في هذا الملف هي النسخة الاصلية لتقرير العقيد بارون، مقرر قضية الثعالبي سنة 1921 تليها وثيقة ترجمة الثعالبي الشخصية مترجمة الى الفرنسية دون ذكر اسم مترجمها

ولا تاريخ كتابتها . وهي تتناول حياة الثعالبي حتى بداية الحرب العالمية الاولى .

ويجب الملاحظة ان جريدة (الشورى) القاهرية كانت قد قامت بترجمة بعض فصول تقرير العقيد بارون الى العربية في اعدادها الصادرة في سنوات 1927 — 1928 ، وهي محفوظة في نفس الارشيف تحت رقم 32 — 3 B . ثم ترجم الاستاذ حمادي الساحلي هذا التقرير كاملا والحقه بكتاب (تونس الشهيدة) للثعالبي الذي اعاد الساحلي ترجمته ايضا من الفرنسية الى العربية سنة 1984 ونشرته دار الغرب الاسلامي في نفس السنة . وذلك بعد ان كان قد نشره بالفرنسية في (المجلة التاريخية المغربية) عدد 27 — 28 (تونس 1982) .

وهناك موضوعات اخرى لا تقل اهمية عن التي ذكرناها كالملف الخاص بمخطوط الشاذلي خير الله (الحركة الوطنية التونسية 1914 — 1938) المحفوظ تحت رقم 2 — 3 B

— وملفات الشهادات الشخصية لرجال الحزب حول احداث الحركة الوطنية التونسية كشهادة صالح بلعجوزة (رقم 77 — 2 B) ، وعمر بن قفصية (رقم 11 — 2 B) ، و (73 — 2 B) .

— والملفات الخاصة بنشاط ابرز شخصيات الحركة مثل علي باش حامبة (رقم 11 — 3 B) ، ومحمد باش حامبة (رقم 28 — 1 B) ، واحمد الصافي (رقم 4 — 4 B) ، ومحي الدين القليبي (رقم 24 — 4 A) ، وحسن قلاتي (رقم 21 — 5 A) ، واحمد توفيق المدني (رقم 46 — 2 B) ، والباي محمد الناصر (رقم 23 — 4 B) ، وغير ذلك كثيــــــر .

ويجب الاشارة هنا الى المساعدات التي يقدمها مركز التوثيق القومي وموظفوه للباحث وحسن استقبالهم له ، وتقديم جميع الملفات التي يطلبها وتصوير كل مـــا يحتاج اليه مقابل سعر رمزي شبه مجاني بخلاف ما هو معمول به في دور ارشيف فرنســـــا .

3 ـ ارشيف الوزارة الاولى التونسية قسم الحركة الوطنية التونسية .

لقد لاقينا صعوبة كبيرة في التنقيب بهذا القسم نظرا لعدم ترتيب ملفاته وتبويبها وترقيمها . فوثائقه محفوظة في صناديق بدون ارقام وقد اشرنا اليها داخل البحث بحرف (CARTON) يعني .

وبالاضافة الى ذلك فان الوثائق التي عثرنا عليها بمشقة كبيرة كنا مضطرين الى نسخها يدويا نظرا لعدم وجود آلة تصوير بمكتبة الارشيف . ومجمل الوثائق التي عثرنا عليها هي عبارة على تقارير المراقبين المدنيين بالولايات الى الاقامة العامة بتونس حول نشاط مختلف الاحزاب الوطنية والنشاطات الشعبية المختلفة . كما تحتوى ايضا على تقارير الشرطة الفرنسية حول نفس الموضوع وقد تناولت بالخصوص نشاط الطائفة اليهودية التونسية السياسي . وتعتبر مصدرنا الاساسي بالنسبة لهذه النقطة .

واهم تقرير عثرنا عليه في الصندوق الثاني من قسم الحركة الوطنية هو ذلك المتعلق بنشاط المهاجرين المغاربة كصالح الشريف ومحمد العنابي واسماعيل الصفائحي ومشاركتهم باسم تونس والجزائر والمغرب الاقصى في مؤتمر ستوكهولم سنة 1917 للمطالبة باستقلال بلدانهم الى جانب ممثلين عن بلدان عربية واسلامية اخرى كمصر وطرابلس الغرب وبنغازي والهند والقوقاز وتركستان . وقد جاء هذا التقرير تحت عنوان (المطالب الوطنية للمغرب الاقصى والجزائر وتونس) .

4 ـ ارشيف ما وراء البحار ـ آكس آن بروفانس :

لقد كنا مخطئين لما ظننا ان ارشيف آكس يضم وثائق عن الحركة الوطنية التونسية . ولكنا فوجئنا لما وجدنا ذلك غير صحيح . فوجهنا اهتمامنا نحو الصناديق الخاصة بالعالم الاسلامي واهتدينا فعلا الى بعض الوثائق افادتنا كثيرا وعرفنا من خلالها ان اهمها محفوظ في ارشيف وزارة الحربية بقصر فانسان

بباريس. ذلك ان اغلبها كان عبارة على تقارير قدمتها هيئة الاركان الحربيـــة وكتابة الاقامة العامة لهذه الوزارة مثل ما جاء في :

— (دورية الصحافة الاهلية الجزائرية التونيـــسية من شهر ديسمبر 1934 الى شهر اكتوبر 1936 ، رقم 1 H 26) .

— (دورية مصلحة الصحافة العربية والترجمة والمسائل الاسلامية 1934—1935 ، رقم (25) 2 H 26) .

— (دورية استعلامات المسائل الاسلامية التي اطلعنا على اعدادها الصادرة من 1920 الى 1936 وهي محفوظة تحت رقم ((0) 1 H 27 الـــــى (5) 6 H 27) .

— (مجلة الصحافة السورية لسنة 1926 رقم 36 H 29) .

وكان بعض هذه الوثائق يصدر شهريا وبعضها الاخر مرة في الثلاثة اشهر . وهذا بالاضافة الى التقارير الشهرية المتعلقة بالجنوب التونسي بين سنوات 1906 و 1942 المحفوظة تحت رقم ((13) 16 H 26 الى ((15) 18 H 26 .

والصناديق التي تحمل عنوان (فكرة الجامعة الاسلامية ومؤتمر جنيف وبغداد والخلافة الاسلامية وجامعة الدول العربية ونشاط الامير شكيب ارسلان والدعاية المضادة لفرنسا 1920—1944) وهي محفوظة تحت رقم (48 H 34) 35 H 29 .

ويجب ان ننبه هنا الى اهمية هذه الدراسات العسكرية والتحاليل التـــي قدمتها هذه الدوريات عن الصحافة التونسية العربية والفرنسية، والصحافة الاسلامية والفرنسية، وابراز مواقف الحزب الدستوري من سلطة الحماية وعلاقته بحكومة الباي وغير ذلك من الموضوعات . وتظهر اهمية هذه الدراسات على الخصوص في مقارنة آرائها مع آراء الاقامة العامة كسلطة مدنية ومع مختلف التحاليل الاخرى الحزبية والشعبية وغيرها .

ب - الأطروحات :

وبالاضافة الى الارشيف، هناك الاطروحات المتخصصة واهمها اطروحة مصطفى كريم (الحركة الوطنية والنقابية في تونس 1918-1929) الصادرة بتونس سنة 1976 . وقد اعتمد فيها صاحبها اساسا على ارشيف كي دورسي والصحافة التونسية . واهتم بمعالجة برنامج الحزب الدستوري ومواقفه من حكومة الباي وسلطة الحماية وجمعية عموم العملة التونسيين والحزب الشيوعي الفرنسي والحزبين الاصلاحي والمستقل .

ويؤخذ على الكاتب النقل الحرفي من مصادر الارشيف الفرنسي مثل ما فعل مع تقرير المقيد بارون، وتقارير الاقامة العامة مما جعله يتبع الفرنسيين في آرائهم واحكامهم على الحزب الدستوري بالخصوص وهي احكام مغرضة في مجملها تنطلب عليها صبغة تشويه سمعة الدستوريين في نظر الحكومة الفرنسية لاثارة سخطها ضدهم ووصفهم بالمهيجين للرأي العام التونسي ضد فرنسا . ومع ذلك فان كتاب كريم يبقى عملا جادا وعلميا من ابرز ما انجز في هذا الصدد الى حد الآن .

وهناك كتاب دانيال جولستاين (تحرر أو الحاق في مفترق طرق التاريخ التونسي 1914-1922)[1]. وهو كتاب هام تعرض فيه صاحبه الى المناخ السياسي الدولي الذى برزت فيه الحركة الوطنية التونسية خاصة الفكر الديمقراطي والشيوعي والاسلامي . وركز على احوال تونس السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية خلال الحرب الاولى . وحلل بعض مواقف الحزب الدستوري في بداية تأسيسه وابرز مواقفه المتمثلة في كتاب (تونس الشهيدة) للثعالبي .

وقد تنوعت مصادره بين الارشيف الفرنسي والتونسي واللقاءات الشخصية والاستجوابات مع رجال الحركة الوطنية التونسية . ورغم ذلك فان الكاتب لم

---

(1) -D. Goldstein, *Libération ou Annexion aux chemins croisés de l'histoire de la Tunisie 1914-1922*,

يخرج في دراسته عن احكام المؤلفين الفرنسيين العامة اذ طغت على كتابه روح كتابة تاريخ نظام الحماية في تونس اكثر ما هو تاريخ الحركة الوطنية التونسيـــة .

والى جانب هذا الكتاب هناك كتابان آخران اعدا خصيصا لنيل شهادة جامعية، الاول هو كتاب محمد صالح لجري (تطور الحركة الوطنية التونسية مــن بدايتها الى الحرب العالمية الثانية) وطبع بتونس سنة 1974 في جزئين وهي الطروحة نال بها صاحبها دكتورا الدرجة الثالثة بجامعة لوزان سنة 1973 . وقــد اعتمد على الارشيف الفرنسي والتونسي . ويظهر فيها تحيز صاحبها الواضح للحزب الدستوري الجديد وزعيمه الحبيب بورقيبة وقد جره هذا الموقف الى موافقة الآراء الفرنسية والتونسية البورقيبية بدون تحفظ ومهاجمة الدستور القديم احيانا وعدم تحري الحقيقة في الموضوع . ومع ذلك فان هذا الرأى لا ينقص من اهمية الكتاب واعتباره مصدرا هاما لموضوع الحركة الوطنية التونسية .

والكتاب الثاني هو كتاب علـي محجوبي (اصول الحركة الوطنية التونسيـــة من 1904 الى 1934) ،الذي طبع بتونس سنة 1982 وقد ضمت مصادره الارشيف الفرنسي والتونسي والصحافة التونسية والفرنسية بجميع اتجاهاتها . وقد اعــــاد الكاتب اصول الحركة الوطنية الى سنة 1904 مع انعقاد المؤتمر الاستعماري، ومؤتمر الجغرافية التجارية والمطالب التي قدمها البشير صفر امام المؤتمريـــــــن . ودرس الكاتب اصول هذه الحركة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فـي اطار ظهور الرأسمالية الفرنسية بتونس والنظام الاستعماري والسياسة الاستعماريـــة التي اتبعتها فرنسا بتونس ، واستخلص انها ادت الى احياء وبعث الوعي الوطني في تونس ، وتكوين روح شعبية بها . واهم ما جاء في هذا الكتاب عن الحزب الدستوري هو ابراز علاقته بالاحزاب التونسية الاخرى، وصراعه مع الحماية ، وتفاعله مع الاحداث العربية الاسلامية في العالم مثل ما وقع بالنسبة للثورة الريفية في المغرب الاقصـى .

ويعتبر هذا الكتاب من اهم الكتب الى جانب كتاب مصطفى كريم المذكور ، التي تناولت موضوع الحركة الوطنية التونسية بموضوعية وبروح علمية تكاد تكون مجـــــردة .

ج — الـدوريـات :

ونذكر هنا اهم الدوريات والمجلات التي اهتمت هي الاخرى بنشاط الحزب الدستوري التونسي في هذه الفترة . واهمها دورية (افريقيا الفرنسية) (2) ، ومجلة (الشرق الحديث) (3) الايطالية . وكلتاهما تناول نشاط الحركـــــة الوطنية التونسية من خلال وجهة نظر معينة . فالدورية الفرنسية تناولته مـــــن وجهة نظر استعمارية بحتة ، ومجلة (الشرق الحديث) تناولته من وجهة نظر عاطفية بحكم المصلحة الايطالية التي كانت تنافس الفرنسيين في شمال افريقيـــا خاصة تونس وليبيا .

وقد اهتمت (المجلة التاريخية المغربية) بمصادر الحركة الوطنية التونسية في جميع مراحلها . واهم ببليوغرافية اصدرتها المجلة في هذا الشأن هي تلك التي وضعها مصطفى الدلاجي ، والتي وزعها الى كتب عامة واخرى خاصـــــة رتبها حسب الفترات التي مرت بها الحركة من 1881 الى 1956 وهي منشورة في نفس المجلة بعددها 13—14 الصادر في (تونس 1979) .

وبالاضافة الى ذلك فقد اصدر المعهد الاعلى للتوثيق بتونس سماها (المجلة المغربية للتوثيق) خصصها لنشر وثائق تاريخ المغرب العربي وقد صدر اول عدد لها في شهر اكتوبر 1983 .

ويجب ان نشير في الاخير الى الدراسات الحديثة التى اهتمت بتاريخ المغرب العربي بصفة عامة . وبها دراسات هامة حول الحركة التونسية بمختلف

(2) - *Afrique française.*

(3) - *Oriente moderno.*

تياراتها السياسية . ونذكر هنا (مجلة الغرب الاسلامي) (4) التي يصدرهـــا المركز الوطني للبحث العلمي بآكس آن بروفانس (5) ، وذلك بالاضافة الى المؤتمرات التي تنعقد من حين لآخر في هذا الشأن خاصة تحت اشراف (مركز ابحاث ودراسات مجتمعات البحر الابيض المتوسط) (6) .

ولكن يجب التنمية الى ان المشرفين على هذه المؤتمرات هم في اغلبهم مـــن الماسونيين ومـــن بقايا المدرسة الاستعمارية ومن ذوي الاتجاهات المشبوهة .

---

(4) - Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée

(5) - Centre National de la Recherche Scientifique Aïx-En-Provence.

(6) - Centre de Recherches et d'Etudes sur les Sociétés Méditerranéannes.

الـوثـائـق غـيـر الـمـطـبـوعـة
(الارشـيـفـات)

ارشيف وزارة الاعلام، مركز التوثيق القومي، قسم الحركة الوطنية التونسية، تونس.

1–60 A [1] لنا عوادث معلية : ملحوظات الاتمالية والاكثرية، ميتر نعمسان والحزب الاصلاحي، الصغير بن ناصر، النهضة تدس وتوشـي)، جريدة لسان الشعب، التونسية، الصادرة في 2 جانفي 1929.

2 – (الحزب الحر الدستوري التونسي يحتج ضد مسر الذاتية التونسية في القضاء التونسي)، لسان الشعب، الصادرة في 15 جوان 1925.

2–3 A 3 – (المسألة التونسية واتجاه الدستوريين الجديد)، جريدة النهضة، الصادرة في افريل 1934 (كذا) وصوابها 1935.

4 – الطاهر صفر، (جواب عن رد)، جريدة الزهرة، الصادرة في 24 فيفرى 1934.

5 – (اعمال المنشقين) جريدة الارادة، الصادرة في 12 مارس 1934.

6 – الحبيب بورقيبة، (من الديوان السياسي لكافة الدستوريين)، جريدة الزهرة، الصادرة في 13 فيفرى 1935.

7 – (سخف وطيش) جريدة الارادة، الصادرة في 9 ماى 1934، (نقلت منشورا بقلم الحبيب بورقيبة بتاريخ 5 ماى 1934).

8 – (خطاب المجاهد في مؤتمر قصر هلال 2 مارس 1934).

9 – (مؤتمر قصر هلال 2 مارس 1934، صورة الاستدعاء لحضور المؤتمر الموجه لكافة الشعب بالمملكة).

(1) يجب تنبيه القارئ الكريم انه سيجد بعض ارقام نفس الصناديق تتكرر في كل من قسمي الوثائق العربية والوثائق الفرنسية، وذلك لان صناديق الارشيفات تتضمن وثائق باللغة العربية واخرى باللغة الاجنبية.

A 2-3   10 - (اجتماع دستوري في تونس) ، جريدة النهضة ، الصادرة في 31 جانفي و1-2 فيفري 1934 .

11 - (نسخة المنشور الذي بعثت به اللجنة التنفيذية للشعب) .

12 - (منشور الاخوان المنشقين عن اللجنة التنفيذية للشعب) .

A 4-24   13 - (رسالة خطية من محي الدين القليبي الى الشاذلي بن مصطفى) ، بتاريخ 2 ديسمبر 1927 .

14 - (رسالة خطية من محي الدين القليبي ، مدير مكتب الديوان السياسي للحزب الدستوري الى الشاذلي بن مصطفى ، نائب الحزب بباريس) ، بتاريخ 8 افريل 1927 .

15 - (رسالة خطية من محي الدين القليبي الى الشاذلي بن مصطفى) ، بتاريخ ، 12 جانفي 1928 .

16 - (القليبي رئيس الحزب الدستوري يتحدث عن المغرب العربي) ، جريدة النهضة ، الدمشقية ، الصادرة في 17 جويلية 1954

17 - محي الدين القليبي ، (كلمة صريحة الى جناب المقيم) ، جريدة الارادة ، الصادرة في 30 آوت 1934 .

A 5-14   18 - (ابن خلدون يتكلم) ، جريدة لسان الشعب ، التونسية ، الصادرة في 17 آوت 1924 . (خطابة الشيخ الثعالبي في نابلس بفلسطين) .

19 - (رسالة خطية من الثعالبي الى عمر بن حميدة بن قفصية ، مؤرخة بحيفا ، (فلسطين) ، في 6 جوان 1924) .

20 - (رسالة خطية من الثعالبي الى عمر بن حميدة بن قفصية ، مؤرخة ببغداد في 23 مارس 1929) .

21 - احمد ، (الاستاذ الثعالبي) ، جريدة لسان الشعب ، التونسية ، الصادرة في 25 مارس 1925 .

22 - (ما بالطبع لا يتخلف) ، جريدة الوزير ، عدد 128 ، الصادرة في 1 جانفي 1923 .

A 5-26   23 - (فرحات بن عياد) ، جريدة الاتحاد ، عدد 60 ، 7 فيفري 1923 .

24 - (كتاب السيد فرحات بن عياد الى امين مال الحزب المنحل) ، جريدة المنير ، الصادرة في 29 ديسمبر 1922 .

2_38 B 25 ـ (المعليات : الحزب الحر الدستوري المستقل) ، جريدة الوزير، عدد 121 ، الصادرة في 13 نوفمبر 1922 .

26 ـ (بلاغ من الحزب الدستوري المستقل الى الامة التونسية) ، جريدة المنير ، الصادرة في 15 فيفري 1923 ، وجريدة الوزير ، عدد 129 ، الصادرة في 8 جانفي 1923 .

27 ـ (المسألة التونسية في دور الاجراء بواسطة الحزب الدستوري المستقل الذي تابل المقيم وتلتى منه اهم التصريحات) ، جريدة الوزير ، عدد 124 ، الصادرة في 4 ديسمبر 1922 .

2_46 B 28 ـ محي الدين القليبي ، (احمد توفيق المدني) ، جريدة الوزير ، عدد 185 ، الصادرة في 30 جوان 1925 .

29 ـ (رسالة بين تونس وجلالة الخليفة الاعظم) ، جريدة العصر الحديد ، 8 ديسمبر 1923 .

2_54 B 30 ـ عمر بن قفصية ، (حملة المؤتمرات التي عقدها الحزب الحر الدستوري التونسي من سنة 1920 الى 1955) ، حررها في 8 جويلية 1970 .

2_77 B 31 ـ صالح بلعجوزة ، المحامي بسوسة (بعد 16 عاما ، صفحة من تاريخ الحركة الوطنية التونسية 1920 ـ 1936) ، جريدة مرشد الامة ، عدد 123 ، الاربعاء في 12 نوفمبر و 14 ديسمبر 1936 .

3_13 B 32 ـ رسالة خطية من الشيخ عبد العزيز الثعالبي الى اعضاء شعبة الحلفاوين الدستورية ، مؤرخة في القاهرة بتاريخ 30 افريل 1933 .

33- (الاستاذ الثعالبي يرد على المحكمة العسكرية تصحيح اكاذيب وتنفيد مفتريات)، جريدة الشورى القاهرية، عدد 161، 22 ديسمبر 1927 (رسالة الثعالبي الى ابي الحسن صاحب الشورى) .

34- عمر بن قفصية ، (خلاصة الابرار او ترجمة زعيم الاحرار ، نسبه الطاهر، مولده ونشأته) .

35- (صفحة من تاريخ الجهاد السياسي في تونس، كتاب تونس الشهيدة في نظر فرنسا) ، جريدة الشورى ، القاهرية، عدد 156، الصادرة في 17 نوفمبر 1927 .   32-3 ، 3

36- (صفحة من تاريخ الجهاد السياسي في تونس، رد المحكمة الفرنسوية على الاستاذ الثعالبي) ، جريدة الشورى، القاهرية ، عدد 157، الصادرة في 24 نوفمبر 1927 .

37- (صفحة من تاريخ الجهاد السياسي في تونس :المحكمة العسكرية الفرنسوية توالي رأيها في الحركة الوطنية التونسية) ، جريدة الشورى ، القاهرية ، عدد 159، الصادرة في 8 ديسمبر 1927 .

38- (صفحة من تاريخ الجهاد السياسي في تونس، المحكمة العسكرية الفرنسوية توالي سرد رأيها في الحركة الوطنية التونسية) ، جريدة الشورى ، القاهرية، عدد 160، الصادرة في 15 ديسمبر 1927 .

39- (صفحة من تاريخ الجهاد السياسي في تونس .المحكمة العسكرية الافرنسية توالي نشر رأيها في حركة تونس الوطنية) ، جريدة الشورى ، القاهرية ، عدد 163، الصادرة في 5 جانفي 1928 .

40 - (صفحة من تاريخ الجهاد السياسي في تونس : لا تزال المحكمة العسكرية الفرنساوية تتكلم) ، جريدة الشورى ، القاهرية، عدد 165، الصادرة في 19 جانفي 1928 .

41 - (الامير يؤيد الامة في مطالبها) ، جريدة العصر الجديد ، التونسية، الصادرة في 15 افريل 1922 . 8 4-23

42 - (بشرى بنجاح الامة في مساعيها) ، جريدة افريقيا ، التونسية، الصادرة يوم الخميس 20 افريل 1922 .

43 - الطيب بن عيسى ، (مات الملك ايحي الملك . . .) ، جريدة الوزير ، التونسية ، عدد 108، يوم الاثنين 17 جويلية 1922 .

44 - (حوادث 5 افريل 1922 راسبابها ونتائجها ، المسألة التونسية وتصريحات الامير) ، جريدة الصواب ، التونسية، عدد 390، الصادرة في 31 مارس 1922 .

45 - (اشاعة تنازل الملك عن عرشه) ، جريدة الامة ، التونسية، عدد 27، الصادرة في 9 افريل 1922 .

46 - (تضامن الامير مع الشعب ، رغبة سمو الباي في التنازل عن العرش) ، جريدة الصواب ، التونسية، عدد 391، الصادرة في 4 افريل 1922 .

A- 1-60 47- Paul Sylvère, (la france et le diffi ultés Tunisiennes), la Revue Universelle, (1929).

A- 5-14 48- (le Parti Jeune Tunisien); source: la Tunisie française, du 10 juin 1922

49- (le cheikh Taâlbi opéré en Palestine), source: Journal le Petit Matin, du 18 juin 1924;

B- 1-6 50- (Querelles de Menages), source: la Tunisie française, du 17 mai 1922.

B- 2-38 51- Comment s'est formé le Parti Déstourien Libre.

52- La question Tunisienne en cours d'exécution par l'intermédiaire du Patti Déstourien INdépendant qui rencontra le Résident et reçut de lui les plus importantes déclarations.

B- 2-45 53- La Politique Tunisienne, l'Union pour les Réformes: Manifeste du Parti Libéral Constitutionnel au Peuple , les Réformes Tunisiennes: Interview de Lucien Saint . Source: le Patit Matin , du 22 et 23 février 1925, et du 24 mars 1925

B- 2-63 54- (Tahar Ben Amar).

B- 3-13 55- (Autobiographie du Cheikh Thaâlbi, avant propos, mon origine, Monsieur Abdelaziz Thaâlbi, le début de ma vie politique, ses oeuvres, voyage à l'Extrême Orient).

3-13 56- Rapport du Colonel Baron , rapporteur du tribunal militaire dans l'affaire Thaâlbi: origine et circonstances des poursuites, ordre d'informer du 20 juin 1920 (publicité du Journal "El-Djamiah"), ordre d'informer des 27 juillet 1920 et 17 fevrier 1921 (publicité du livre " la Tunisie Martyre"), ordre d'informer du 28 octobre 1920 (complot, proposition de complot complicité), (Mouvement Tunisien de 1890-1914, Mouvement Panislamique antérieur à 1914), Intrigues étrangères d'avant-guere en Tunisie, Intrigues des Nations ennemies pendant la guerre 1914-1918, Résumé de la Situation de la Tunisie, Les Pétitions, Rapports ayant pu exister entre le Parti Tunisien et les manifestations , Conclusions, opinions du Journal colonial, (le Courrier, de 1921 à propos de l'affaire Thaâlbi).

57- (le cas de Si Téalbi), la <u>Dépêche Tunisienne</u>, du 2 juillet 1904.

58- (le cas de Si Téalbi), <u>La dépêche Tunisienne</u>, du 03 juillet 1904.

- (le procès de Si Téalbi), la <u>Dépêche Tunisienne</u>, du 24 juillet 1904.

6 - (Affaire Abdel Aziz Et-Téalbi), <u>La Tunisie française</u>, du 24 juillet 1904.

61- (Abus de pouvoir), Journal le Républicain, du 24 juillet 1904.

62- (Le cas de Si Téalbi), la Dépêche Tunisienne, du 6 juillet 1904.

63- (Une lettre de Si Téalbi), La dépêche Tunisienne, du 8 septembre 1904.

B-4-4 64- Hassan Guellaty, (la question Tunisienne), Tunis-Socialiste, du 25 septembre 1925.

ارشيف الوزارة الاولى التونسية – تونس
(قسم الحركة الوطنية)

Carton 1- 65- Note Confidenciel; Police spéciale des chemins de Fer et des Ports, Tunis, Surveillance indigène, datée à Tunis, le 2 juillet 1919.

66- Note: Gouvernement Tunisien, sureté publique (a/s Dirigeants du Destour et Etudian ts Grande Morsquée), datée à Tunis, le 10 juin 1922.

67- Lettre, le controleur civil de Bizèrte à M. Le Résident Général à Tunis, (a/s Nationalisme dans le Caïdat de Bizèrte), Tunis, le 16 juin1922

Carton 2 - 68- Copie (Correspondance), Ministère des Affaires Etrangères, Direction des Affaires Politiques et Commerciales. Stookholm, le 10 novembre 1917, Nieuwe Rotterdamsches, le 20 novembre 1917. (les griefs des musulmans tels qu'ils o nt été formulé devant le Comité Holando-Scandinave par une délégation de dix musulmans originaires du Caucase, de l'Egypte, des Indes, du Maroc, de Tripoli, de Benghazi, de la Tunisie, de l'Algérie et du Turkestan).

69- Rapport, Gouvernement Tunisien, Sureté publique, Tunis , le 26 juin 1922.
(Ahmed Ben Mustapha , oukil de S.M. le Bey, est venu, samedi 24 courant , aviser les déstouriens que le mémoire rédigé par les membres de la Cour beylicale, pour protester contre l'attitude de M. le Ministre Résident Généràl lors de sa visite au Souverain les premiers jours d'avril, était achevé et signé...).

70- Note, Police Spéciale, surveillance indigène Tunis, le 9 juillet 1920, (a/sComité des personnalités, à la tête duquel se trouvait M. Fabre, directeur du Journal " Cri du Soir").

Carton 2- 71--Note : Police spéciale, Tunis, le 9 octobre 1920, (membres musdmans et israélites, comité se serait formé pour faiee paraître le journal "la Tunisie nouvelle").

72- Note: Plice spáciale, Tunis, le 22 octobre 1920, (l' Union Judéo-Musulman).

73- Note: Police spéciale, Tunis, le 27 novembre 1920, (l'Union Judéo-Musulman, sx membres musulmans auraitnt daané leur démission).

74- Note: Police spéciale , Tunis, le 30 novembre 1920, (Albert Bessis, aurait cherché à interesser à la cause de l'Union Judéo-Musulmaan , l'Alliance universelle israélite à Paris,aurait rfusé san appui à ce groupement).

75 - Note: Police spéciale, Tunis, le 17 décembre 1920, (surveillance indigèar) (Rapport entre l'Union Judéo-Musulman et les Déstouriens).

76- Note: Police spéciale, Tunis, le 17 fevrier 1921, (a/s création d'une banque Judéo-Musulman).

أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية — كي دورسي — باريس
(مجموعة تونس 1917—1940)

N° 318- 77- Lettre-Télégramme Résident Général Tunis à Ministre Affaires Etrangères, Paris, datée le 7 janvier 1921, (a/s affaire Taâlbi)

78- Pétition Délegation Tunisienne à M. le Président du Conseil Ministre des Affaires Etrangères à Paris, datée le 13 juillet 1920. (Pétition adressée au Résident Général).

79- Lettre du Cheikh Abdel Aziz Thaâlbi au Président du Conseil, Ministre des Affaires Etrangères, Paris, datée à Paris, le 26 Juillet 1920.

80- Lettre du Délégué Résident Général de la République Française à Tunis à M. Millerand, Président du Conseil , Ministre des Affaires Etrangères -Paris, datée à Tunis, le 28 juillet 1920, (lettres adressées par Mohamed Bach-Hamba à Thaâlbi, du 15 septembre1919 à avril 1920, annexe 1,2 et 3).

81- Lettre du Président du Conseil, Ministre des AffairesEtrangères à M. De Castillon Saint-Victor, Délégué à la Résidence Générale de France à Tunis, datée à Paris, le 4 aout 1920,

a/s Dlégation Tunisienne, Annexe 1, (visite de la délégation), Annexe 2 (Pétition du Peuple Tunisien au Peuple Français), Annexe 3 ((la question Tunisienne).

82- Lettre du Ministre des Affaires Etrangères à Paris à M.Délégué Résidence Générale Tunis, datée à Paris, le 6 aout 1920 (a/s Délégation Jeune Tunisienne), annexe:(Note pour le Président du Conseil).

83- Lettre du Président du Conseil, Ministre des Affaires Etaangères à M.De Castillon Saint-Victor, Délégué à la Résidence Générale de France à Tunis, datée à Paris, le 6 aout 1920, (a/s de Thaâlbi).

84- Télégramme adressée par M.A.Berthon, secrétaire (député) groupe parlementaire Afrique du Nord au (Président du Conseil ?), datée le (7 aout 1920 ?), (a/s Libération Thaâlbi).

85- Lettre du Président du Conseil , Ministre des Affaires Etrangères à M. Le Ministre de la Guerre, datée à Paris, le 11 aout 1920, (Analyse: Jeunes Tunisiens a/s de Thaâlbi).

86- Lettre, le Délégué de la Résidence Générale de la République Française à Tunis à M.Millerand, Président du Conseil, Ministre des Affaires Etrangères, datée à Paris, le 11 aout 1920, (a/s Parti Jeune Tunisien), annexe 1, (a/s Parti Socialiste unifié de Tunis), annexe 2 (Note Sureté publique, Résidence Générale, Tunis, le 2 aout 1920)

87- Lettre, le Délégué de la Résidence de la République française à Tunis à M.Millérand, Président du Conseil, Ministre des Affaires Etrangères, datée à Tunis, le 11 aout 1920, (a/s Délégation Jeune Tunisienne, arrestation de Thaâlbi).

88- Lettre, le Délégué de la Résidence Générale de la République française,-Tunis à M.Millérand, Président du Conseil, Ministre des Affaires Etrangères -Paris, datée à Tunis, le 11 aout 1920,(a/s arrestation de Thaâlbi), annexe 1 (lettre du Général Robillot , Commandant de la Division d'Occupation de Tunisie, adressée à M.le Résident Général de France à Tunis, datée à Tunis, le 5 aout 1920).

89- Lettre , le Délégué de la Résidence Génerale de la République Française à Tunis à M.Georges Leygues, Président du Conseil, Ministre des Affaires Etrangères -Paris, datée à Tunis, le 15 novembre 1920, (A/S Comité occulte de propagande (en Algérie) en faveur de l'indépendance de l'Algérie et de la Tunisie), annexe1 (Renseignements adressés à cette Résidencepar M.le Gouverneur Général de l'Algérie), annexe2 (Lettre du Délégué de la Résidence Générale de la Républqüe française à Tunis, à M.Le Gouverneur Général de l'Algérie à Alger, datée à Tunis, le 15 novembre 1920).

90- Lettre du Délégué de la Résidence Générale République Francaise à Tunis à Monsieur Georges Leygues, Président du Conseil, Ministre des Affaires Etrangères à Paris, datée à Paris le 24 novembre 1920, (a/s Délégation Tunisienne en France).

91- Lettre du Délégué de la Résidence Générale de la République françasse à Tunis à M.Georges Leygues, Président du Conseil et Ministre des Affaires Etrangées- Paris, datée à Tunis, le 24 novembre 1920, (a/s AffaireThaâlbi, Parti Nationaliste).

92- Lettre du Ministae des Affaires Etrangères à M.Délégué Résidence Général Tunis datée à Paris, le 24 juillet 1920, (a/s affaire Thaâlbi).

93- Lettre du Ministre des Affaires Etrangères à M.Délégué de la Résidence Générale à Tunis, datée à Paris, le 1er juillet 1920, (a/s affaire Thaâlbi: " documents saisis ches Thaâlbi et ches Courtebi).

N° 319 94- Rapport, sureté générale Division d'Occupation Tunisie, datée à Tunis, le 12 janvier 1921, (Renseignements de Suisse a/s de l'existance d'un Comité Tunisien à Paris).

95- Note : Chef du Cabinet du Président du Conseil à Chef du Cabinet du Minist re des Affaires Etrangères, datée à Paris, le 30 mars 1920(sic) (1921), (a/s l'Affaire Thaâlbi).

96- Lettre, le Président du Conseil, Ministre des Affaires Etrangères à M. Lucien Saint Résident Général de la République Française à Tunis, datée à Paris, le 4 avril 1921 (a/s analyse affaire Thaâlbi).

97- Le Résident Général à Tunis à M.le Président du Conseil , Ministre des Affaires Etrangères Paris, datée à Tunis, le 20 avril 1921, (a/s Affaire Thaâlbi).

98- Lettre, Le Général Robillot, Commandant la Division d'Occupation de Tunisie à M. le Ministre de la Guerre, Direction du Contencieux et de la Justice Militaire, Cabinet du Directeur - Paris, datée à Tunis, le 27 novembre 1921, (a/s affaire Thaâlbi).

99- Lettre, Le Ministre de la Guerre, Cabinet du Contencieux à M.Ministre des Affaires Etrangères, Direction des Affaires Politiques et Commerciales - Afrique, datée à Paris, le 26 mai 1921, (a/s Affaire Thaâlbi).

100- Lettre, le Président du Conseil, Ministre des Affaires Etrangères à M.Lucien Saint , Résident Général de France à Tunis, datée à Paris , le 30 mai 1922, (analyse n° 748,a/s de Ferhat Ben Ayed).

101- Lettre, Le Délégué de la Résidence Générale de la République française à Tunis à M.Raymond Poincaré, Président du Conseil, Ministre des Affaires Etrangères Paris, datée à Tunis, le 17 juin 1922, (Déstouriens et Communistes a/s de Ferhat Ben Ayed).

102- Lettre, Le Ministre de l'intérieur, Direction de la sureté générale à M. Le Président,du Conseil Ministre des Affaires Etrangères, Direction des Affaires Politiques et Commerciales - Afrique, datée à Paris, le 4 juillet 1922, (a/s du né Si Amor Baccouche).

103- Lettre, le Résident Général de la République française à M. Raymond Poincaré, Président du Conseil, Ministre des Affaires Etrangères -Paris, datée à Tunis, le 18 décembre 1922 (a/s d'un appel de Thaâlbi à la Société Musulmane de Londres).

104- Lettre, le Président du Conseil, Ministre des Affaires Etrangères à M. De Saint-Auculaire, Ambassadeur de France à Londres, datée à Paris, le 28 décembre 1922, (a/s d'unappel du Cheikh Thaâlbi et des jeunes Tunisiens à la Société Musulmane de Londres).

105- Lettre, Ben Ayed Ferhat à Son ExcellenceM. le Président Raymond Poincaré, Président du Conseil-Paris, datée à Paris, le 21 janvier 1924. (a/s Farhat Ben Ayed dévoué à la France).

106- Lettre, Ferhat Ben Ayed à M. le Président Raymond Poincaré, Président du Conseil, datée Paris, le 29 janvier 1924.

107- Télégramme Haut Commissaire français Beyrouth au Ministre des Affaires Etrangères Paris , datée à Beyrouth, le 19 avril 1924 (a/s du Tunisien Abdelaziz Thaalbi).

108- Télégramme Ministre des Affaires Etrangères à Haut Commissaire Beyrouth, datée à Paris, le 22 avril 1924 (analyse a/s Thaâlbi).

109- Lettre, Président du Conseil , Ministre des Affaires Etrangères à Lucien Saint , Résident Général de France à Tunis, datée à Paris, le 25 avril 1924, (analyse a/s Thaâlbi).

أرشيف ما وراء البحار – آكس آن بروفانس

26 H 1- 110- Secrétariat Général du Gouvernement Tunisien, service de la presse musulmane et de l'interprétariat, Revue Trimestrielle, mois de mai 1935, (a/s Tunisée: El-Ouaziz du 23 mai 1935, Tayeb Ben Aïssa: un clain d'oeil historique sur la presse tunisienne).

26 H 2 111- Secrétariat Général du Gouvernement Tunisien, service de la Presse musulmane et de l'interprétariat, Revue Trimestrielle , mois de juillet Aout-Septembre 1934, (a/s El-Irada, du 3 juillet 1934, sous le titre: que se passe-t-il en Tunisie).

112- Secrétariat Général du Gouvernement Tunisien, Service de la presse musulmane et de l'interprétariat, Revue Trimestrielle, mois d'avril-Mai-Juin 1934.

26 H 3 113- Résidence Général de la République Française à Tunis, Analyse de la presse tunisienne, octobre 1936, (Activité du Parti Libéral Constitutionnel Tunisien (Vieux Destour))

26 H 16 114- Résidence Général de France à Tunis, Service des Affaires Indigènes, Rapport Mensuel de la Situation Politique et économique des Territoires du Sud Tunisien pendant les mois de Mai et juillet 1922, novembre et décembre 1923.

26 H 17 115- Résidence Général à Tunis, Service des Affaires Indigènes, Rapport Mensuel sur la situation politique et économique des Territoires du Sud Tunisien, mois de septembre 1932.

27 H 1 116- Ministere de la Guerre , Etat Major de l'Armée, Section d'Etudes Afrique-Orient, Colonies, Bulletin de Renseignements des questions musulmanes, Paris, le 21 avril 1922, (l'Etat des ésprits en Tunisie, les origines du Mouvement Jeune Tunisien, les groupes et les programmes du Parti, le groupe Nationaliste, le groupe Constitutionnaliste, le groupe Réformiste, l'Action du Parti dans les milieux parlementaires et coloniaux, en Tunisie. L'action par la presse, attitude du Gouvernement Beylical).

27 H 4 117- Ministère de la Guerre, Etat Major de l'Armée, section d'études Afrique-Orient, Colonies, Bulletin de Renseignements des questions musulmanes, Paris, le 7 aout 1931, (le mois musulman, les incidents de Tunis, la presse tunisienne musulmane, figure d'agitateur, les manifestations d'opinion en Tunisie, l'esprit de l'élite, manifestations de solidarité musulmane).

27 H 5 118- Ministere de la Guerre, Etat Major de l'Armée, section d'études Afrique-Orient-Colonies, Bulletin de Renseignements des questions musulmanes, Paris, le 13 juin 1933.

119- Ministere de la Guerre, Etat Major de l'Armée, section d'études Afrique-Orient-Colonies, Bulletin de Renseignements des questions musulmanes, Paris le 9 juin 1932.

27 H 6 120- Ministere de la Guerre, Gouvernement Général d'Algérie, Bulletin de Renseignemants mensuel, Paris, le 9 mai 1934.

121- Ministere de la Guerre, Gouvernement Général d'Algérie, Bulletin de Renseignements mensuel, Paris, le 11 juin 1934.

122- Ministere de la Guerre, Gouvernement Général d'Algérie, Bulletin de Renseignements mensuel, Paris, le 11 septembae 1934.

29 H 35 123- Rapport, Ministre de l'Intérieur à M.l e Gouverneur Général de l'Algérie, datée à Paris, le 24 novembre 1939.

124_ Rapport (policier), Renseignement à Gouvernement Général d'Algérie, daté à Alger, le 20 décembre 1929, (intitulé: action politique de Abdelaziz Thaâlbi).

125- Rapport, Ministre des Affaires Etrangères à M. Carde, Gouverneur Général de l'Algérie, ddté à Paris, le 3 décembre 1931, (a/s Rapport sur le Congrès Islamique de Jérusalem, décembre 1931).

126- Ministère de la Guerre, Etat Major de l'Armée, section Afrique et Orient , Bulletin de Renseignement des questions musulmanes, Paris, le 13 novembre 1933, (a/s association islmmiques).

127- Ministere de la Guerre, Etat Major de l'Armée, section Afrique-et Orient, Bulletin de renseignement des questions musulmanes, Paris, le 4 mai 1922.

الـوثـائـق الـمـطـبـوعـة

128 — تاريخ الحركة الوطنية، وثائق 64 الدستور الجديد والجبهة الشعبية بفرنسا، 2 — القطيعة 1936—1938، (تونس، دار العمل للنشر والتوزيع والصحافة، 1981).

129 — مكتب الاخبار التونسية ، ظاهرة مريبة في سياسة الاستعمار الفرنسي ، هل تمثل مأساة الاندلس من جديد في شمال افريقية — الحملة الصليبية التاسعة في المؤتمر الافخارستي ، (القاهرة، عنيت بنشره المطبعة السلفية ومكتبتها ، 1349 هـ) .

قدم لهذا الكتاب الدكتور عبد الجليل التميمي ، ونسبه — حسب رواية الحبيب شلبي — الى محيي الدين القليبي ، واعاد نشره في المجلة التاريخية المغربية، عدد 19— 20 ، (تونس، 1980) .

130 — المؤتمر العام للحزب الحر الدستوري التونسي ، المنعقد بمدينة قصر هلال يوم الجمعة 17 ذي القعدة عام 1352هـ، مطبعة الاتحاد نهج الباشا رقم 116، اعيد طبعه بكتابة الدولة للدفاع الوطني — المصلحة الجغرافية — تونس (بلا تاريخ) .

131- Ministere de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique, PNR, Histoire du Mouvement National , Commission des Sources d'Histoire Tunisienne France, Centre National Universitaire de Documentation Scientifique et Technique - WATH'IQ- , N° 3 , (Tunis, 1985).

(*Rapport du Résident Génaral de France à Tunis à M.Yvon Deblos, Ministre des Affaires Etrungères, Rapport sur la situation Politique indigène en Tunisie, Décembre 1937*).

المراجع والمصادر

أ – الكتب العربية :

1– البلهوان ، علي ، تونس الثائرة ، (لجنة تحرير المغرب العربي ، 1374هـ/ 1954)

2– بورقيبة ، الحبيب ، مدخل الى تاريخ الحركة القومية ، (خطاب 7 ديسمبر 1962)

3– الثعالبي ، عبد العزيز ، معجز محمد رسول الله ، ط1 ، (تونس ، مطبعة الارادة 1357هـ/ 1938م) ، الجزء 2 .

4– (ـــــــــــ) ، تونس الشهيدة ، ترجمة وتقديم سامي الجندي ، (بيروت ، دار القدس ، 1975) .

5– (ـــــــــــ) ، مسألة المنبوذين في الهند ، (بيروت ، دار الغرب الاسلامي ، 1984) .

6– (ـــــــــــ) ، روح التحرر في القرآن ، ترجمة حمادي الساحلي ، ومراجعة محمد المختار السلامي ، (بيروت ، دار الغرب الاسلامي ، 1985) ، (مع الطبعة الثانية المنشرة الفرنسية في جزء واحد) .

7– الجابري ، محمد الصالح ، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس ، 1900–1962 ، (الجزائر – تونس – طرابلس ، ش . و . ن . ت . – م . ق . – د . ع . ك . ، 1983) .

8ـ الجنحاني ، الحبيب ، محمد باش حامبة ، (تونس ، الدار التونسية للنشر ، 1968) .

9ـ الجندي ، انور ، عبد العزيز الثعالبي ، رائد الحرية والنهضة الاسلامية 1879ـ1944 ، (بيروت ، دار الغرب الاسلامي ، 1984) .

10ـ (ــــــــ) ، تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الاسلامي ، (القاهرة ، مكتبة الانجلو مصرية ، 1970) ، (عبد العزيز الثعالبي تلميذ الافغاني وخليفة الكواكبي) .

11ـ جوليان ، شارل اندرى ، المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي ، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة ، (تونس ، الشركة التونسية للتوزيع ، بلا تاريخ) .

12ـ (ــــــــــ) ، افريقيا الشمالية تسير ـ القوميات الاسلامية والسيادة الفرنسية ، ترجمة المنجي سليم (وآخرون) ، (تونس ـ الجزائر ، د .ت .ن .ـ ش .و .ن .ت . ، 1976) .

13ـ ابن الحاج عثمان الشريف ، البشير ، اضواء على تاريخ تونس الحديث 1881ـ1924 ، ط 1 ، (تونس ، دار ابو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، 1981) .

14ـ ابن الحاج يحيى ، الجيلاني والمرزوقي ، محمد ، معركة الزلاج ، ط1 ، (تونس ، مكتبة المنار ، 1961) .

15ـ خالد ، احمد ، أضواء من البيئة التونسية على الطاهر الحداد ونضال جيل ، ط2 ، (تونس ، الدار التونسية للنشر 1979) .

16ـ الدرعي ، احمد ، دفاع عن الحداد أو بكت كتب الكبت ، تقديم وتحقيق محمد انور بو سنينة ، (تونس ، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ، 1976) .

17ـ درمونة ، يونس ، تونس بين الاتجاهات ، (دار الكتاب العربي بمصر ، محمد حلبي الميناوي ، 1953) .

18ـ الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، (بيروت ، دار مكتبة الحياة ، بلا تاريخ) .

19— الزركلي ، خير الدين ، الأعلام ، ط2، (مطبعة كوستا توماس وشركاه ، 1954).

20— زيادة ، نقولا ، تونس في عهد الحماية من 1881—1934— محاضرات ، (معهد الدراسات العربية العالية ، 1963).

21— السنوسي ، محمد بن عثمان ، خلاصة النازلة التونسية ، تقديم وتحقيق محمد الصادق بسيس (تونس ، الدار التونسية للنشر ، 1976).

22— صفر ، البشير ، الجغرافيا عند العرب ، نشأتها وتطورها ، تقديم وتعريب حمادي الساحلي ، ط1 ، (بيروت ، دار الغرب الاسلامي ، 1984).

23— ابن عاشور ، محمد الفاضل ، الحركة الادبية والفكرية في تونس — محاضرات ، (تونس ، الدار التونسية للنشر ، 1972).

24— (———————) ، تراجم الأعلام ، (تونس ، الدار التونسية للنشر ، 1970).

25— ابن العنابي ، محمد بن محمود ، السعي المحمود في نظام الجنود ، تقديم وتحقيق د . محمد بن عبد الكريم الجزائري ، (الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1983).

26— الفاسي ، علال ، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ، (تطوان ، دار الطباعة المغربية ، شارع محمد الطريس 17 ، بلا تاريخ).

27— ابن قفصية ، عمر ، أضواء على تاريخ الصحافة التونسية 1860—1970 ، (تونس ، دار ابو سلامة للطباعة والنشر ، 1972).

28— كحالة ، عمر رضا ، معجم المؤلفين ، (دمشق ، مطبعة الترقي ، 1953).

29— محفوظ ، محمد ، تراجم المؤلفين التونسيين ، (بيروت ، دار الغرب الاسلامي ، بلا تاريخ) ، الجزء الاول .

30— (————) ، تراجم المؤلفين التونسيين ، (بيروت ، دار الغرب الاسلامي ، 1982) ، الجزء الثاني .

31— (————) ، تراجم المؤلفين التونسيين ، (بيروت ، دار الغرب الاسلامي ، 1984) ، الجزء الثالث .

32 ـ المدني ،احمد توفيق، حياة كفاح (مذكرات) في تونس 1905ـ 1925 ، (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، بلا تاريخ) ، الجزء الاول .

33ـ مواعدة ، محمد ، محمد الخضر حسين حياته وآثاره ، (تونس، الدار التونسية للنشر، 1974).

34ـ ابن نبي ، مالك، الطالب ـ مذكرات شاهد القرن ، ترجمة بقلم المؤلف ،(بيروت، دار الفكر ، بلا تاريخ).

35 ـ الهاشمي الخيارى ،علال ،الاسلام وايديولوجيات الفكر المعاصر، (تونس،الدار التونسية للنشر، 1981) .

36ـ يوسف نحلة ،محمد ،تطور الحركة الوطنية في تونس، 1881ـ1956،رسالة ماجستير مقدمة الى المعهد العالي للدراسات القومية والاشتراكية ،الجامعة المستنصرية ، العراق 1981) .

ب . المقالات العربية :

1ـ " بسكرة : فضائح(كذا) البوليس " ، جريدة المنتقد ، (الجزائرية) ، الصادرة في 17 سبتمبر 1925 .

2ـ " تونس وفكرة جمعية الشبان المسلمين " ، مجلة الفتح ، عدد 147، السنة الثالثة ،(القاهرة، يوم الخميس 29 ذى القعدة 1347هـ/ 9 مايو 1929).

3ـ الجابرى ، محمد صالح ، " تونس في نظر الشعراء الجزائريين " ، مجلة الفكر ، عدد 4، السنة 29، (تونس ، جانفي 1984).

4ـ " جمعية الشبان المسلمين في تونس" ، مجلة الفتح ، عدد 149، السنة الثالثة، (القاهرة ، الخميس 21 ذى الحجة 1347هـ/ 30 مايو 1929).

5ـ " الجمعيات في تونس ، مجلة الفتح ، عدد 119، السنة الثالثة،(11 جمادى الاولى 1347هـ/ 25 اكتوبر 1928).

6ـ الرويسي ، يوسف، " مذكرات يوسف الرويسي السياسية " ، مراجعة د . عبد الجليل التميمي ، المجلة التاريخية المغربية، عدد 35ـ36، (تونس ،ديسمبر 1934).

7ـ (ـــــــــ)، " قضية المغرب العربي " ،المجلة التاريخية المغربية، نفس العدد والسنة.

8- الساحلي، حمادي، " رسالة من المرحوم محي الدين القليبي حول الوضع بتونس غداة الحرب العالمية الثانية"، المجلة التاريخية المغربية، عدد 35-36، (تونس، ديسمبر 1984).

9- شذور من انباء العالم الاسلامي "، مجلة الفتح، عدد 61، السنة الثانية، (القاهرة، الخميس 12 ربيع الاول 1346هـ/ 8 سبتمبر 1927).

10- شلبي، محمد الحبيب، " لجنة التحقيق في حوادث الوطن القبلي في جانفي 1952، وحوادث قصر هلال والمكنين"، المجلة التاريخية المغربية، عدد 35-36، (تونس، ديسمبر 1984).

11- في تونس... جمعية الشبان المسلمين"، مجلة الفتح، عدد 122، (القاهرة، 9 جمادى الثانية 1347هـ/ 20 نوفمبر 1928).

12- أبو كنانة، (الاستاذ)، " اخبار العالم الاسلامي - العروبة في شمال افريقية "، مجلة التمدن الاسلامي، الجزء 7، السنة 11، (دمشق، رجب 1364هـ).

13- مناورات خطيرة يقوم بها المبشرون ودعاتهم"، مجلة الفتح، عدد 150، السنة الثالثة، (القاهرة، الخميس 28 ذي الحجة 1347هـ/ 6 يونية 1929).

14- نويهض، عجاج، " الثعالبي : انطباعاتي عنه في فلسطين"، مجلة الاديب، الجزء 9، السنة 33، (سبتمبر 1974).

15- الهلالي، عبد الرزاق، " الشيخ عبد العزيز الثعالبي "، مجلة المورد، المجلد 3، عدد 3، (تصدرها وزارة الثقافة والاعلام، دار الجاحظ، بغداد، 1399هـ/1979م).

16- (________)، " عبد العزيز الثعالبي في بغداد - بمناسبة الذكرى الثلاثين لوفاته "، مجلة الاديب، الجزء 10، السنة 33، (اكتوبر 1974).

ج- الكتب الاجنبية :

1 - Djait, Hichem, La personnalité et le devenir arabo-islamiques, (Paris, ed.seuil, 1974).

2 - Duran-Angliviel, André, Ce que la Tunisie demande à la France, préface de Marius Moutet et Ahmed Essafi, (Paris, 1921).

3 - Goldstein, Daniel, Libération ou Annexion, aux chemins croisés de l'histoire tunisienne 1914-1922, (Tunis, M.T.E., 1978).

4- Kairallah, Chedly, Le mouvement évolutioniste Tunisien, Notes et documents, Tome 3, (Tunis, Marc Garrot, 1938).

5- Kassab, Ahmed, Histoire de la Tunisie l'époque contemporaine. (Tunis, S.T.D., 1976).

6- Kraiem, Mustapha, Nationalisme et syndicalisme en Tunisie 1918-1929, (Tunis, union générale tunisienne du travail, 1976).

7- Lejri, Mohamed-Salah, Evolution du Mouvement National Tunisien des origines à la deuxième guerre mondiale, (Tunis, M.T.E., 1974), 2 tomes.

8- Mahjoubi, Ali, Les origines du Mouvement National en Tunisie 1904-1934, (Tunis, Publications de l'université de Tunis, faculté de lettres, 1982).

9- Rossi, Pierre, La Tunisie de Bourguiba, (Tunis, KAHIA, 1967).

10- Thaalbi, A., Bennattar, C., Sabai, A., L'Esprit Libéral du Coran, (Paris, 1905).

د ـ المقالات الاجنبية :

1- "Le congrès islamique du Caire pour le Khalifat", Afrique fra nçaise, N°3, 35 année, (mars 1925).

2- "Le congrès anti-colonial de Bruxelles et les revendications de l'Etoile Nord Africaine", Afrique française, N°6, 37 année, (Juin ,1927).

3- " Cronoca e documenti : la legge francese 20 dicembre 1923 sull'acquisto della nazionalità francese nella Regenza di Tunisi", Oriente Moderno, N°6, annoIV, (15 Giugno 1924).

4- "Decreti del 13 luglio 1922 relativi al nuovo Gran Consiglio della Tunisia", Oriente Moderno, N° 6, anno II, (15 novembre 1922).

5- Kraiem, Mustapha, " Le Vieux Destour: implantation géographique et assise socio-professionnelle", in Actes du premier congrès d'Histoire et de la civilisation du Maghreb, (Université de Tunis, Centre de Recherches économiques et sociales), Tome 2, série histoire N°1 (1979).

6- (---------), "Autobiographie et Relations avec la Résidence de Tahar Khereddine pacha, Ministre de la Justice de la Régence", Revue d'Histoire Maghrébine N° 2, (Tunis, 1974).

7- (---------) , " Aux origines du Parti Communiste Tunisien 1919-1929", Revue d'Histoire Maghrébine, N°2 , (Tunis, 1974).

8- "La Législation Tunisienne sur la presse et les délits politiques", Afrique française- Renseignements Coloniaux, N° 2Bis, 36 année, (1926).

9- Mahjoubi, Ali, " Le congrès eucharistique de Carthage et le Mouvement National Tunisien", Les Cahiers de Tunisie, Tome XXVI, N° 101-102, 1er et 2ème trimestre, (Tunis, F.L.S.H., 1978).

10- Mahjoubi, Ali, " Le Cartel des gauches en France et le Mouvement National Tunisien", les Cahiers de Tunisie, Tome XXIV, N° 95-96, 3ème et 4ème trimestre, (Tunis, F.L.S.H., 1976).

11- Martino-Mario, Morêno, " La situazione interna dell' Egitto dall'Uccisione del sirdar ad aggi", Oriente Moderno, N°5, anno V, (Maggio 1925).

12- " Notizie Varie: La legge per la cittadinanza francese in Tunisia e l'islamismo", Oriente Moderno, N°6, anno IV , (15 Giugno 1924).

13- "Notizie Varie:Cronoca Tunisia del secondo semestre 1930", Oriente Moderno, N° 1, anno XI, (Gennaio, 1931).

14- "Notizie Varie: III -Tunisia: Riasunto della cronaca tunisina dall'agosto 1923 all'agosto 1924",Oriente Moderno, N° 9, anno IV, (15 settembre 1924).

15- Notizie Varie: XIII- Tunisia : Il progretto per l'acquisto della nazionalita francese in Tunisia", Oriente Moderno, N° 4 , anno III, (15 settembre 1923).

16- "Notizie Varie: XIII- Tunisia: La Morte del Bey di Tunisi e l'investitura del suo successore", Oriente Moderno, N° 2, anno II ,(15 luglio 1922).

17- Rober-Raynaud, "Le Nationalisme Tunisien", Afrique française - Renseignements Coloniaux et Documentations, N° 6Bis, 35 année, (Juin 1925).

18- Rodd Balek , "La Tunisie après la guerre", Afrique française, N° 30, (Juillet-Aout 1920).

19- (---------), " La Tunisie après la guerre", Afrique française, N° 30, (Avril 1920).

20- Rossi, Ettore, " Notizie Varie: III- Tunisia ", Oriente Moderno, N° 6 ,anno VI, (Guigno 1926).

21- (-------),"Notize Varie: III- Tunisia", Oriente Moderno, N° 8, anno VIII, (Agosto 1927).

22- Rossi, Ettore, "Il Movimento Arabo in Tunisia Dopo la guerra", Oriente Moderno, N° 4, anno III, (15 settembre 1923).

23- Sammut , Carmel, "L'expression des symboles nationalistes par les premiers nationalistes Tunisiens dans le contexte colonial français", Revue d'Histoire Maghrébine, N° 7-8, (Tunis, Janvier 1977).

24- "La Situation de la Tunisie", Afrique française, N° 6 , 35 année, (Juin 1925) .

25- Tlili, Bachir, " Problématique des processus de formation des faits nationaux et des idéologies nationalistes dans le monde islamo-méditerranéen de l'entre deux guerre (1919-1930), l'exemple de la Tunisie", Les Cahiers de Tunisie, Tome XXI, N° 81-82, 1er et 2ème trimestre, (Tunis, F.L.S.H.,1973).

26 - (----------),"L a Grande guerre et les questions tunisiennes: le groupement de la "Revue du Maghreb", 1916-1918 ", Les Cahiers de Tunisie, Tome XXVI, N° 101-102, 1er et 2ème trimestre, (Tunis, F.L.S.H.1978).

27- (----------), " Des rapports entre le Parti Libéral Constitutionnaliste et la Confédération Générale Tunisienne du Travail 1924-1925", Les Cahiers de Tunisie, Tome XXVIII,N°113-114, 3ème et 4ème trimestre, (Tunis , F.L.S.H., 1980).

28- " Tunisie:...Un nouveau décret sur la presse...la dissolution du "Destour".Suspension de journaux destouriens de langue française", Afrique française, N° 6 , 43 année, (Juin 1933).

29- "Tunisie: un nouveau journal déstourien de langue française", Afrique française, N° 3,43 année, (Mars1933).

30- Tunisie: Autour du voyage en France du Bey de Tunis", Afrique française, N° 8, 40 anné, (Aout 1930).
31- "Tunisie...Le Destour et la Conférence communiste de Bruxelles", Afrique française, N° 3, 37 année, (mars 1927).
32- " Tunisie ", Afrique française , N°7, 44 année, (Juillet 1934).
33- " Tunisie: La propagande Communiste...La Communiste Chadli Khairallah", Afrique française, N° 4, 38 année, (Avril 1928).
34- "Tunisie:... La propagande communiste en Tunisie", Afrique française, N° 3, 38 année, (mars 1928)
35- "Tunisie : Autour du Congrès eucharistique de Carthage", Afrique française, N° 6, 40 année, (Juin 1930).
36- " Tunisie: Le départ de Taâlbi", Afrique française, N° 8 , 33 année, (Aout 1923).
37- " Tunisie : Le Bey en France", Afrique française, N°7 , 33 année, (Juillet 1923).
38- "Le Voyage du Président de la République en Tunisie", Afrique française, N° 4, 41 année, (avril 1931).
39- Zangar, Selwa, "les socialistes et les questions arabes au lendemain de la première guerre mondiale", Les Cahiers de Tunisie, Tome XXVIII, N° 113-114, 3ème et 4ème trimestre, (Tunis, F.L.S.H., 1980).

فهرس الإعلام والأماكن

الاعـــلام

- د -

- ر -

— ل —

— ن —

الامـــاكـــن

- أ -

- ب -

٣٨٤٢٠٧

فهـــرس الصـــور

المحتوى

الموضوع : | الصفحة

الفصل الرابع : سياسة الحزب الداخلية : الاحزاب والجمعيات

الفصل الخامس : نشاط الحزب الخارجي

الفصل السادس : ايديولوجية الحزب